

عبدالمحميد هورده السحر



في قافلة
الزمان

مطبعة خان بكته مهر

في قافلة الزمان

تأليف

عبد الحميد جوده الشمار

الناشر، مكتبة هجر
٣ شارع كامل صدقي "النهالة"

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

قاهرة المعز هادئة هاجعة ، ومآذنها المثة فره شائعة ، لفها والمدينة ظلام داس ، فما انبعث من نافذة بصيص نور ، وما مد مصباح شعاعة الباهت ليبدد بعض ذلك الظلام الذى تكاثفت طبقاته ؛ فما كان ينير الدور إلا ذبالات خافتة متذبذبة ، ينبعث ضوءها من فتيلة نحيلة تمتص زيتها من وعاء صفيح ضئيل ، فكان نورها يرتعش ويضطرب كأنفاس محتضر فى النزاع الأخير ، لا يكاد يهتك ستر من أستار الظلام ، أو يفضح ركنا من أركان المكان ، أو يهدى قائما فى الليل ، ما لم يتناول الذبالة فى يده ، لتنير له ما تحت قدميه ، وتزيح له فى جهده ومشقة طبقة من طبقات الظلام المتراكمة أمامه ، لا تتعدى أفتارا أو أشبارا .

وما كانت مسالك المدينة العتيقة تنار بالليل ، فما كان ثم مصابيح ، وما كان الناس بحاجة إلى ما ينير لهم السبيل فقد كانوا يعودون إلى دورهم إذا ما أذنت الشمس بالمغيب ، ويدعون المدينة للظلام والهدوء والسكون ، فى حراسة مآذنها القائمة أبدا . الساهرة أبدا ، والمتطاولة إلى السماء حتى تكاد تطعن بأطرافها المدببة كبدها ، وكانت تطل على الأحياء القانعة المتواضعة فى حذب ورفق وحنان .

* * *

وسرى فى سكون الليل صوت خفيض آت من بعيد ، ثم أخذ الصوت يقترب ويتضح : كان صوتا مألوفا اعتاد الناس سماعه كل يوم قبل أن تجلجل

أصوات المؤذنين في الفجر ، صوت ذلك الرجل الذي يجوب الطرقات إذا ما لاح الفجر الكاذب ، وفي يده مصباحه ، مرتلا في صوت جهورى أخاذ يهز المشاعر : « الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، الصلاة خير من النوم » .

وانتبه الحاج أسعد من نومه على صوت الرجل يداعب أذنيه ، فاعتدل في فراشه وكان من حشيتين مفروشتين على الأرض الواحدة فوق الأخرى ، ثم أزاح الكلبة المسدلة المثبتة في الجدار فوق الفراش ، وكانت تخفى النوم ، فبدت إلى جواره الحاجة تغط في النوم ، فلم يحاول إيقافها ، فهو يعلم أنها تنوم ، لا تستيقظ إلا ضحى ، فترك الفراش ونهض ، وانطلق إلى حيث كانت الذبالة فحملها في يده وذهب ليتوضأ .

وألقي جاريته التي اشتراها من الحجاز قد أعدت له الماء ، فجعل يغمرهم ببعض الأدعية ، ومد يديه فجعلت الجارية تصب عليهما الماء من إبريق نحاسي أصفر ، فأسبغ وضوءه .

وارتفعت أصوات المؤذنين من مآذن المدينة تهتك السكون ، وتفتح القلوب فينزل بها أمن وخشوع ، فتطلع الحاج أسعد من خلل النافذة القريبة منه ، ومد بصره إلى السماء ، ورفع أكف الضراعة وراح يبتهل إلى الله في حرارة أن يستره وذريته في الدنيا والآخرة ، ولما فرغ من ابتهاله مسح وجهه بكفيه ، وأخذ يمررهما على لحيته البيضاء الكثنة ، ثم استقبل القبلة وبدأ صلاته ..

* * *

ولاح في الأفق الشرق خيط أبيض أخذ ينداح شيئا فشيئا حتى ملأ رقعة السماء ، ثم بدت أسلاك صفر راحت تنتشر وتنتشر ، ويتبدل لونها ويتضح ، فمن أصفر إلى برتقالي إلى أحمر بلون العقيق . وظهرت الشمس فكانت كقرص متوهج من النحاس الأحمر ، وأخذت ترتفع قليلا قليلا ، وتبعث بأشعتها إلى



الصلاة يا مؤمنين الصلاة .. الصلاة خير من النوم

الأرض فتبدد ظلامها ، وانسلت الأشعة البيضاء من النافذة الشرقية ، واستقرت على الأرض والجدران ، فغشى النور المكان ، فمد الحاج أسعد يده إلى رف قريب منه قد صفت فوقه مجموعة من الكتب ، وتناول كتابا مخطوطا ، وفتحه وراح يقرأ فيه .

ومرت ساعات على مولد النهار ، فدبت الحياة في البيت جميعه ، واستيقظ كل من فيه إلا الحاجة فقد ظلت في نومها الهنيء ، وأقبلت زكية تلتمس من جدها أن يشتري لها حليا فقد اقترب موعد زفافها ، فلما ألفت جدتها في فراشها راحت تسير على أطراف أصابعها في حذر خشية إيقاظها ، ثم اتجهت إلى حيث كان جدها .

كانت زكية في الرابعة عشرة ، ممتلئة الجسم ، قصيرة القامة ، جعدة الشعر ، وما كانت جميلة أو جذابة ، ولكنها كانت حبيبة إلى جدها ، فقد كانت ابنة أحب أبنائه إليه . فتحت باب الغرفة التي كان جدها فيها ، ثم دلفت وهي تبتسم ، ونظرت إلى جدها فبدت الدهشة في وجهها ، وفغرت فاهها برهة ، ولم تجد لسانها ، فقد رأته مطأطئا بصره ، مسبلا جفنيه ، والدمع يسح من عينيه فينحدر على خديه ويبل لحيته .

واقتربت منه في خفة وهمست :

— أتبكى يا جدى ؟

فرفع الحاج أسعد رأسه ، ونظر إليها من خلال دموعه ، ولم ينبس بكلمة ، فعادت تسأله :

— وما يبكيك ؟

فأشار إلى الكتاب المفتوح في حجره ، فقالت :

— وما به ؟

فقال في صوت خفيض أسيف :
— سيأتى أوان تخرج فيه النساء عرايا ، سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور .

فأطرقت زكية قليلا ، وقد تضرع وجهها بحمرة الخجل ، وسرح خيالها ولكنها عجزت عن أن تتصور نساء سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور ، يخطرون بين الرجال مرفوعات الرغوس ؛ إن ما يقصه جدها يبدو لها عجبا . إنه مجرد أوهام وخيالات ، فمن ذى التى تقبل هذا العار ! وأى رجال هؤلاء الذين يسمحون لبناتهم وأخواتهم وزوجاتهم أن يخرجن حاسرات سافرات ، فهمست :

— هذا لا يصدق .

فقال الحاج أسعد فى يقين :

— وسيتكلم الحديد .

فغمغمت زكية فى دهشة :

— الحديد !

فهز رأسه أسفا .

فنظرت زكية إلى قضبان الشباك الحديدية ، وقصر خيالها عن تصور هذه القضبان تتحدث ، فقالت فى إنكار :

— هذا محال .

فهمس فى حسرة :

— إن ذلك من علامات الساعة ، وسيقع كل ذلك .

وصمت الحاج أسعد ، وأطرقت زكية تفكر فيما قال جدها .

واستيقظت الحاجة أخيراً ، فنادت الجارية قدم خير ، فأقبلت تحمل طستاً ولبريقاً به ماء ، فلما غسلت وجهها أمرتها أن تجهز الفطور ، فاخفتت الجارية وعادت تحمل في يد كرسياً قصيراً مستديراً وفي الأخرى صينية نحاسية هندية ، فوضعت الكرمى بالقرب من الفراش ووضعت فوقه الصينية ، ثم ذهبت وعادت تحمل طاجناً به لحم ، وإناء به بيض مشوى في الفرن ، فوضعت فوق الصينية ، واستمرت مقبلة مدبرة حتى تم إعداد السفرة ، فذهبت تدعو الحاج أسعد لتناول فطوره .

جلست الحاجة على حافة الفراش ، وأقبل الحاج فتناول وسادة وضعها بالقرب من السفرة ، وجلس عليها وتربع ، وأخذ يلثم ما أمامه وهو يحدث الحاجة ، ويداعبها أحياناً .

كان الحاج أسعد في السبعين من عمره أو أزيد قليلاً ، ولكنه كان ضخماً قوياً ، وكان شيخاً فيه خفة ودعابة : كان يداعب النساء والصبايا من زرائنه دعابات خفيفة لطيفة يسغتها ، ويشتين أن يسمعنها منه دواماً .

وكانت الحاجة في الستين ، وكانت تقاطعها حلوة تتم عن جمال غارب ، وكانت ربعة ، ممتلئة الجسم ، دقيقة الخصر ، ناعمة البشرة ، ولا ريب أنها كانت رائعة الحسن في شبابها .

ودخل محمد بقامته الطويلة ، وجلبابه الأدكن الفضفاض ، وعمامته الصغيرة ، لف حولها شالاً أبيض في أناقة ، وكان يمتاز بشامة على خده الأيسر ،

فحيا والديه ، فرد الحاج أسعد تحيته في رفق وحنان ، فهو شريكه في تجارته ، وأحب أبنائه إليه ، وجلس محمد بجوار أمه على الفراش ينتظر أباه ليخرجا معا إلى الدكان .

وأتى الحاج أسعد فطوره ، فانتصب واقفا ، ونهض محمد فإذا الحاج أسعد أطول منه قامه ، وأضحى جسمه ، وانطلقا إلى عملهما تعلوما مهابة ووقار . وجاءت إلى غرفة الحاجة زوجات أبنائها الثلاث ، وأزواج حفدتها . فقد كن جميعا يقطن دارا واحدة ، وراحت زوجة محمد تعرض عليها خدماتها في إخلاص ، فقد كانت تحبها وتتمنى رضاها .

وتحركت الحاجة للهبوط إلى صحن الدار ، فسار النسوة جميعا خلفها ، وكان من عادتهن أن يقطن كل يوم إلى الغناء ، فما كان في البيت إلا صنبور واحد ركب فيه ، وكان القرن قريبا منه ، فكان يعجن ويخزن ويطبخن في الغناء ، ثم تحمل كل منهن ما طهت ، وتعود إلى مسكنها تنتظر أوية زوجها وأبنائها . وأقبل خادم الحاج أسعد يسير في شارع الحسينية ، وهو الشارع الرئيسي للمدينة العتيقة ، وكان يحمل على عاتقه القفة الكبيرة التي اعتاد أن يحملها كل يوم ، وقد تكدست فيها أوراق اللحم الملفوف وأنواع الخضر المتباينة ، وسار حتى إذا ما بلغ الحارة التي يقطن فيها سيده دلف إليها ، وما انطلق أمتارا حتى انعطفت الحارة يمينا ، ثم يسارا ، ثم يمينا ، فبدت كثعبان كثرت التواءاته ، وظهر جليا أن الذين بنوا الدور المتواضعة التي تطل على الحارة قد تفتنوا في تعريجها حتى لم يعد في طاقة بشر أن يفعل أكثر مما فعلوا للإكثار من منعطفاتها .

وبلغ المسقط القريب من الدار ، فألقى المعلمة جالسة على كرسي من خشب خشن لم يشذب ، تشد أنفاسا طويلة من نار جيلة أمامها ، وكانت ترقب رعوس الضأن والأكراش والأكرع التي كانت تنقل إلى المسقط وتعددها عدا ،

فألقي عليها السلام فردت تحيته في صوت أجش ، وعرج إلى اليمن فرأى أم عباس الندابة جالسة أمام قاعتها وقد حملت خدها على كفها ، وسرح خيالها كما سرحت كناكبتها الصفر في الرقعة الصغيرة القرية من الباب تنبش عن غذائها ، فانتقل من جوارها في خفة ، وأسرع الخطا قبل أن تلحظه ، فقد كان يتظير من رؤية وجهها في الصباح ، وكان يعتقد أن من يفتح عينيه على وجهها الجفاف الحشن الملامح الذي ينم عن قسوة وجبروت ، لا يلقي طوال يومه إلا عنتا وشؤما .

وانطلق قدما ، وسار بضع خطوات حتى عرج إلى اليسار ، فإذا الدار أمامه ، فطرق الباب ، فأقبلت خادمة وفتحت له ، وأخذت القفة منه وحملت إلى حيث كانت الحاجة وأزواج أبنائها وأزواج حفدتها .

ووضعت القفة على الأرض أمام الحاجة ، والتفت النسوة حولها ، ومدت يدها وأخرجت ورقة من أوراق اللحم الملفوفة ، ودفعت بها إلى نفيسة زوجة محمد ، فأخذتها في رضا وصمت ولم تنبس بكلمة ، وراحت الحاجة تناول كلا من النسوة ورقة ملفوفة فأخذت كل منهن تفتح الورقة تجس ما بها ثم تظهر امتعاضها وعدم رضاها بما أخذت ، هذه تصيح منددة باللحم وتلك تغمغم بكلمات سخط غير واضحة ، وثالثة تقول في حق وثورة وحقد أن الحاجة دائما تحاى نفيسة ، فكانت نفيسة تنكمش وتحس رهبة وخوفا ، فقد كانت تخشى الشجار والنزاع ، وما كانت تحب إغضاب الناس ، ولو كان الأمر بيدها لتركت اللحم لمن ، ولرضيت بأى شيء ، وبغير شيء .

واستمر الضجيج والعجيج ، والصياح والصراخ ، وطوحت إحداهن اللحم في غضب ، فالتفت النسوة إلى حيث سقط ، وإذا حداة تنقض عليه وتحمله في رجلها وترتفع في الجو ، وتعلق نظرن جميعا باللحم المخطوف ، وعقدت

الدهشة ألتستن ، ومات الضجيج ، وساد السكون . ثم حملت كل واحدة لحمها في حرص وصمت ، وسارت إلى شقتها . أما التي طوحت بلحمها فقد اندفعت إلى شقتها كالعاصفة يترقرق دمع الحق من مآقيها .

وجلست نفيسة تجهز لحمها ، فوضعتها في طبق وأخذت تقطعها ، وجاءت قطعة ومدت أنفها في الطبق ، وابتدأت تشمم اللحم ، فطردها في رفق ، فعادت تمد أنفها في الطبق فنهرتها ، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى الطبق في إصرار ، فتناولت نفيسة قبقابها وقذفت به القطعة فأصاب يافوخها ، فأخذت تموء في ألم ، فأحست نفيسة قلبها يغوص ، ويدها ترتجى إلى جوارها ، فتركت اللحم وقامت تهزل خلف القطعة ، وتغمغم :

— سامحيني ! سامحيني يا اختي !

واستمرت القطعة في عدوها ، فما كانت تدرى بغريزتها إلا أنها تطاردها لتوقع بها الأذى ، وما كانت تعلم أن قلب نفيسة كان يدمى من الألم . تركت القطعة البيت جميعه ، فعادت نفيسة وقد غامت عيناها بالدموع ، ورفعت رأسها في رهبة ، ونظرت إلى السماء ، وقالت في ذلة وخشوع :

— سامحني يا رب !

٣

كانت ليلة من ليالي الربيع المنعشة ، والنسيم يهب عليلا لطيفا ، والقمر في ليلة اكتماله ، يبعث بضوئه الفضي الأخاذ ، فينير الكون ، ويهز المشاعر ، ويحرك الأحاسيس النائمة .

وتقلبت الحاجة في فراشها ، ومدت يدها إلى جوارها تتحسس في رفق

ومحمول ، ولكنها لم تلمس جسم الحاج وكان ممددا بجوارها ، فراحت تزحف في الفراش في تكاسل ، وتمديدها وهي مغمضة ، فقد كانت تخشى أن تفتح عينها فيفر منها النوم ، ولكنها لم تلمس إلا الفراش ، قففتحت عينها في قلق واعتدلت جالسة وتحسست الفراش حيث ينام الحاج ، فألقته باردا ، فأحست ضيقا ، وخطر لها خاطر أقلقها وقبض صدرها ، فهبت في ثورة ، وجعلت تزفر في غضب ، وكان صوت زفيرها يبلغ أذنيها فيزيد من حنقها ، إنها تخشى أن يشعر بها الحاج فيعود إلى فراشه قبل أن تتحقق مما تهجس به نفسها ، وإنها تخشى أن تنطلق في ثورتها فتقع عينها على ما تكره ، فيحطم اليقين هناءة السنين ؛ ولكنها لا تطيق الصبر على أفكارها التي راحت تهاجمها وتزدحم في رأسها : إن الشك مر أليم ، وما هي إلا خطوات حتى يتكشف لها كل شيء .

ونخطت في رفق ، وكلفها ذلك جهدا ، فإن قلبها راح يدوى في صدرها ، وسرت رعدة في بدنها فهزت كيائها ، وحل جفاف مجلقها فذهب بريقها ، وصعد الدم حارا إلى وجهها فألهب خديها ، وقطعت الممر الذي يفصل بين غرفتها والغرفة المقابلة في لحظة حسبتها دهرا ، ومدت يدا مضطربة مرتجفة إلى مقبض الباب ، وأدارته في حذر ، ثم دفعت الباب في رفق ، فأحست غشاوة على عينها ، ودوارا يكاد يعصف بها ، ولكنها تماكنت نفسها ، وتقدمت في هدوء من الفراش وكان فيه الحاج مع جاريته ، ولكن ذلك كان فوق طاقتها ، فندت منها صرخة ، فانبهت الحاج مذعورا ، وقام في فزع وقد عقدت الدهشة لسانه ، وتفصده منه عرق الخجل ، ولم يطق أن ينظر إلى الحاجة فطأ بأبصره ، وثارث نائرة الحاجة ، ونهشت الغيرة قلبها ، فلم تستطع أن تكظم غيظها فهجمت على الجارية تضربها وتمزق شعرها ، ثم مالت عليها تعضها ، فأنت الجارية وكتمت آلامها ، واقترب الحاج في وجل ، وحاول أن يحول بين زوجه

وبينها ، فزاد ذلك من حقنها ، فتناولت قبقابا وضربت به الجارية فشجت رأسها ، وسال الدم على وجهها ، فصوتت ، وارتفع صواتها ، ودوى في هجعة الليل فأيقظ كل من في الدار ، وفتحت الأبواب في فزع ، ودبت الأرجل في الدرج صاعدة ، وسمعت همهمة وغمغمة في السلم . فقد كان الرجال والنساء والصبيان يتساءلون في لهفة عما حدث ؛ وتجمعوا على باب الحاج وراحوا يطرقونه في لهفة ، وفتح الباب ، فاندفعوا إلى الداخل جميعا كقطيع جافل ، يستفسرون عما وقع ، ولم ينبس الحاج بكلمة ، ولم تحرك الحاجة شفيتها ، وأغلقت الجارية فاهها ، ولكن وجوههم كانت تشي بما وقع ، وكان ذلك الدم الذي ينبثق من رأس الجارية ينطق بكل شيء . أحس محمد ضيقا وامتلاء حنقا ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن استيائه ، فانسحب في صمت تتبعه زوجته نفيسة وابنته زكية ، وسار الآخرون في أثره وعادوا من حيث أتوا ، وأغلقت الأبواب وسيطر الهدوء ثانية ؛ وكان هدوءا ظاهريا فإن أهل البيت لم يذهبوا ليستأنفوا نومهم ، بل راح كل منهم يعلق على ما فعله الحاج أسعد .

وانقضت على الحاج أسعد ليلة كأسوأ ما تكون الليالي . فإن الحاجة راحت تندب حظها وتبكي ، فإذا حاول ترضيتها صدمته ؛ كانت إذا كل لسانها أسعفتها عيناها بالدموع ؛ وإذا كلت عيناها استأنف لسانها الدوران في فمها . وسرى الصوت في سكون الليل مرددا : « الصلاة يا مؤمنين الصلاة ، الصلاة خير من النوم » فانسل الحاج أسعد من جوار الحاجة ليتطهر ، وكانت الحاجة تلاحقه بنشيجها ، وتسلفه بلسانها .

ولاح الصباح فخرج الحاج أسعد وابنه محمد إلى الدكان . فسارا صامتين ، وانقضى الطريق ولم يتبادلا كلمة ، فخرج محمد إلى الدكان ، وذهب الحاج أسعد ليشتري حاجات البيت .

وشاء الحاج أن يترضى الحاجة فاشترى دجاجا كثيرا ، بعث به إليها في قفصين كبيرين ، ووصل القفصان إلى الدار ، ووضع الدجاج أمام الحاجة فراحت تعطى كل زوجة من زوجات أبنائها وحفدتها دجاجة ، وبقي دجاج كثير ، فاستدعت خادما وأعطتها خمس دجاجات سميكة ، وأمرتها أن تنطلق بها إلى بيت أختها ، ثم أمرت بحمل باقى الدجاج إلى السطح .

وظهر الاستياء في وجوه النسوة اللاتي كن يرين أنهن أحق بتلك الدجاجات من أختها ، فإن أزواجهن يشقون طوال النهار ويكدون ليحصلوا على قوتهم وقوت عيالهم ، فلا يكون نصيبهم إلا دجاجة واحدة ، بينما أختها وزوجها وأبناءها لا يتعبون ولا يكدهون ، وينعمون بخيرات هذا البيت ، بل ويحصلون على كثير مما يعز على كثير من أهله .

واجتمعت زوجات أبنائها الثلاث يتشاورن ويتآمرن ، فلم تر نفيسة فيما فعلته الحاجة حرجا ، بل رأت فيه عظفا وحنانا ، ولم تشأ أن تشارك سلفتها فيما قررتا وبيتتا العزم عليه ، فإنها ترى أن ما عقدنا عليه النية حرام ، وهى تخشى الله وترتجف من فكرة عصيانه وإغضابه ، ولم يثن إحجام نفيسة المرأتين الأخريين عما قررتا ، ولم تخشيا أن تفضح أمرهما أو تكشف سرهما ، فإنهما تعرفان أن نفيسة لن تحرك ساكنا ، فهى تخاف القيل والقال ، وأخشى ما تخشاه الشجار .

وفي البكور انسلت إحدى المرأتين وأخفت في ثيابها سكيناً ، وصعدت إلى السطح ، وأخذت أسمن دجاجتين وذبحتهما ، ثم غسلت الدم عنهما ، وحملتما كل دجاجة في يد ، وأخفت رقبتهما المذبوحة بين جناحيها ، وكانت تمسكهما بأطراف أصابعها ؛ وهبطت إلى حيث كانت الحاجة تغط في النوم ، فاقتربت من الفراش وقالت :

— مت الحاجة .. ست الحاجة .

فتقلبت الحاجة في فراشها وهممت ، فقالت المرأة في صوت عال :
— ست الحاجة ! ماتت دجاجتان ، وها هما .
فقالت الحاجة في نعاس :
— ألق بهما خارجا .
فهبطت المرأة في سرور ، ودفعت إلى سلفتها التي تأمرت معها دجاجة ،
على أن تقوم بنصيبيها في العمل في اليوم الثاني .

٤

أغلقت أم عباس الندابة باب قاعتها في حذر ثم أحكمت رتاجه ، واتجهت
إلى الكوة الوحيدة التي كانت أشعة الشمس تتسلل منها في صعوبة وعسر
وأغلقتها ، فساد القاعة ظلام دامس ، فأثارت الذبالة وتناولتها في يدها واتجهت
إلى ركن القاعة البعيد ، ووضعت الذبالة على ظهر ماجور مقلوب ، ثم أزاحت
حجرا فلاححت تحته قطعة من حصير قدر ، فطوت الحصير في عناية ، فبان
تحتة صفيحة صدئة طويلة ، فأزاحتها فإذا بمحجر واسع عميق ، فمدت يدها
وأخرجت صرة كبيرة من قماش أبيض قدر ، نشرتها على الأرض فانداحت
الدراهم ، وراحت أم عباس تقبض القطع الفضية المختلفة الأحجام فتفصل
ذوات الخمسة القروش عن ذوات العشرة عن ذوات العشرين ، ثم تسوى كل
نوع بعضه فوق بعض ، فبدت الدراهم أمامها كأعمدة قصيرة من فضة متباينة
الأقطار والارتفاعات . ولما انتهت من تسوية الدراهم جميعا ابتدأت تعد كل جنبيه
على حدة ، وتضع جنبيها بجوار آخر في صفوف مستقيمة ، حتى إذا ما انتهت
من عد كل ما ادخرت كانت مساحة كبيرة من القاعة قد غطيت بالجنهيات

الفضية المتراصة في انتظام ، وراحت تعد الصفوف الكثيرة في حرص ، وقد كتمت أنفاسها ، وكانت كلما اقتربت من الصفوف الأخيرة ازداد وجيب قلبها ؛ وراحت تعد الصف الأخير وقد استولى عليها حلق وضيق ، فما انتهت منه حتى عقدت ما بين حاجبيها ، وتغضن جبينها ، وتقلصت عضلات وجهها ، فازدادت كآبة على كآبتها ، فإن ما ادخرته لم يبلغ ما طلبه الحاج أسعد ثمنا لقاءتها ؛ إنها تود أن تشتريها ، وقد حسبت أنها تستطيع الآن أن تنقده ثمنها ، ولكن كان عليها أن تنتظر مدة أخرى ، فإنها ما تزال تحتاج إلى خمسين جنينها ليتم المبلغ ، ولتصبح القاعة لها .

وأخذت الصرة وفتحتها ، وجعلت تجمع الدراهم في تهرم واستياء ، ثم أعادتها سيرتها الأولى ، وفتحت باب قاعتها ، وفرشت قطعة حصير حلقة جلست عليها ، وأطرت تفكر وتحلم . إن ما ينقصها لتصبح مالكة للقاعة خمسين جنينها ، وهى تستطيع أن تجمعها في شهرين لو أن عزرائيل أكرمها ، وما عليه لو أنه قبض كل يوم شابا أو شابة من الأسر الكثيرة الغنية التى تعرفها ، فتندبه أو تندبها ، وتعود بجنينها تضمها إلى ثروتها .

واستراحت إلى أفكارها ، فأطلقت خيالها العنان ، فراح يحوس خلال البيوت الغنية ينقب فيها عن الشباب الغض الذى يطلب له الموت لتندبه أم عباس ، فتقبص من النقود بقدر ما تلذف العيون الثاكلة من الدموع .

ورأت بعين خيالها عزرائيل رهن إشارتها ، يقبض هذا وذاك ، وهذه وتلك ، فانبسطت صفحة وجهها الجاف القبيح ، وانفراج فمها الكريه عن ابتسامة صفراء تقطر سما ، وراحت مآثم تتلوها مآثم تنصب في مخيلتها فتتهلل أسارىها . وداعب أذنيها أصوات خفيض ، رفعت رأسها في انتباه ، وأصاحت السمع فبلغ الصوت أذنيها في وضوح ، فنزلت الطمأنينة على قلبها ، فقد لى عزرائيل

نداءها ، وحقق رجاءها ، ولم تنتظر حتى تقدم الناعية الكريمة ، بل نظرت إلى قاعاتها ونادت في لهفة .

— عباس ... عباس :

فأقبل صبي يهرول ويقول :

— نعم يا أم ..

— اذهب حالا للندابات ..

فانطلق الصبي مسرورا ، فقد فتح الله عليهم في يومهم ذلك ، وأقبلت الناعية تصبك الخدود ، فما أن رأتها أم عباس حتى أريد لونها ، وانقلبت سحتها وأحست دوارا ، ولكنها تمايسكت وأقبلت على الناعية تستفسر في قلق :

— ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟

— ماتت .

— من .

— بنت أختك .

فامتلاّت أم عباس غيظا ، وأطرقت حزنا ، وكان حزنها مضاعفا ؛ حزنت لموت ابنة أختها الشابة ، كما حزنت لانهايار آمالها وتقوض أحلامها ، ثم أحست بحركة فرفعت رأسها ، فرأت عربة تحمل عرائس كثيرة من عرائس المولد تنطلق الهوينى ، ورائها رجل يحمل لوحا خشبيا مستطيلا عليه حلالة حمصية ومسمية ، ووراءه ثان يحمل لوحا آخر صفت عليه أنواع الحلوى الشهية ، وكان يسير بجوار الركب شاب في ثياب بلدية نظيفة ، كور فوق رأسه عمامة صغيرة جميلة . فلما رآته أم عباس عرفته ، فإنه خطيب زكية جاء بنفقة المولد ، فأحست في صدرها لسا ، وانقبض قلبها حقدا ، وتطلعت إلى السماء في ثورة ، وانفجرت معاتبة :

(في قافلة الزمان)

— لم يارب فعلت بنا هذا ؟ لم أحزنتنا يوم المولد ، والناس جميعا فى سرور ؟ لم يارب ١٩ .

وسارت بأسرة الوجه ، يلوح عليها الضيق والحزن ، لقد كانت المرة الأولى التى تذهب فيها إلى مأتم كسيرة القلب .

ووقفت العربة التى تحمل العرائس أمام دار الحاج أسعد ، فتقدم الخطيب ودق الباب فى رفق ، وانقضت برهة قبل أن تفتح الجارية قدم خير الباب . وما أن فتحت ورأت العرائس والحلوى حتى أطلقت زغرودة طويلة عالية ، وفتحت نوافذ الجيران ، وراح النسوة يتطلعن من وراء خصاص النوافذ ؛ وفتحت الشبايك التى تطل على فناء الدار ، وأطلقت زوجات أبناء الحاج أسعد وأولادهن ، وفتحت الأبواب ، وأخذ أطفال الدار يهرولون فى الدرج فرحين ؛ وارتفعت أصواتهم فغطت على الزغاريد التى كانت تطلقها قدم خير والخدمات اللاتى نزلن يساعدها فى حمل « النفقة » .

وحملت الهدية وصعد الخدمات بها ، والأطفال من خلفهن يهللون ويموجون موجا ، وهمت الخدمات بإدخال العرائس والحلوى عند زكية ، ولكن أمها نفيسة راحت تهتف بهن فى توسل :

— اذهبن بها إلى الحاجة .. اذهبن بها إلى الحاجة .

فقد كانت تخشى ما يثول عن توزيعها من استياء وغضب ، وقيل وقال . وصعد الخطيب إلى غرفة قريبة من الباب ، كانت معدة لاستقبال الزوار الأغراب ، وجلس وحيدا ينتظر القهوة ، فما كان فى الدار رجال فى تلك اللحظة ليشاركوه فى جلسته .

ووزعت الحلوى على من فى الدار فاخفت فى لحة عين . وتذكرت زكية أن أمينة ، بنت خالتها وزوجة أخيها حسن ورفيقة صباها ، وصديقتها الحبيبة فى

البيت ، في فراشها لم تبرحه فلم تأخذ نصيبها من الحلوى ، فحملت عروسا من العرائس التى حجزتها الحاجة لأبناء أختها ، وذهبت بها إلى أمينة وقدمتها إليها فى سرور ، فقبلتها أمينة شاكرة ، ودعت لها بالتوفيق فى زواجها ، وجلست زكية على حافة الفراش ، وجعلت تذكر فى زهو ما جاءها به خطيبها . وتذكرت فجأة أنه فى حجرة الضيوف الأغراب ينتظر القهوة ، فقامت مهرولة تجهزها له ، وتبعث بها إليه مع خادم من الخادومات .



كانت أمينة ممددة فى فراشها تحس آلام الوضع ولكنها كانت تتجلد وتتحمل آلامها فى صمت ، وكانت على الرغم من أنها صبية لم تتجاوز الخامسة عشرة قوية القلب ، معتدة بنفسها ، معتزة بقوتها ، لا تحب أن تظهر أمام سلاقتها بمظهر يشى بالضعف . كانت تحس فى قرارة نفسها أنها تمتاز عنهن فى كثير ، وكانت تعتقد أنها أكثر منهن رزانة ، وأكبر عقلا ، ولكنها ما كانت تتعالى عليهن ، بل كانت تحافظ على شعورهن حتى لا يسبقنها بالسستن ، فهى تخشى أن يجرح شعورها إنسان . وكانت فى الواقع ذكية ذكاء فطريا ، ولكنها من بيعة لها عاداتها العتيقة المتوارثة ، فلم يستطع ذكاؤها أن يحطم قيود تلك العادات الثقيلة البغيضة ، ولكنه كان يمددها دائما بما يبرر تلك العادات ، ويزيدها فى نفسها رسوخا .

وأقبل الليل ، وازداد وجع أمينة ، فأخذت تعض فراشها ، ولم تبعث فى طلب أحد ممن يشغلون الدار الكبيرة ، وانتظرت أوبة زوجها فى هفوة ليجلس بجوارها يشد من أزرها ، ويؤنسها فى كرتها .

وفتح الباب ودخل حسن ، وكان شابا في الثانية والعشرين ، أبيض البشرة ،
حلو التقاطيع ، أميل إلى الامتلاء والقصر ، أصفر الشعر والشارب ، في وجهه
بشر وهدوء ، وكان وديعا ساكنا ، مهلل الأسارير دائما ، تحب أن تطلع إلى
وجهه وتتأمل فيه . اتجه إلى فراش زوجه ، ومال عليها في حنان ، ونظر إلى وجهها
الأسمر الدقيق في رقة ، فألقى أمارات الألم في وجهها ، فهمس في قلق :
— ما بك ؟

فقال وقد قبضت يدها على يده ، وأخذت تضغط عليها في شدة :
— أحس ألما شديدا ، إني أضع .

فخفق قلبه وأحس ارتبعا ، فقد ورث عن أمه رقة قلبها وحنانها وشفقتها ،
ومد يده يسوى من شعرها الأسود السبط الذى تهدل على وجهها ، ثم مال وطبع
على وجنتها قبلة هادئة ، وتركها ليستدعى كل من في الدار .

وأقبلت نفيسة تهزل وخلفها زكية وأختها الصغرى سكينه ، وهى على
عكس أختها ، طفلة مرحة تحب الضحك ، ولا ترى من الدنيا إلا ناحيتها
البهيجة ، فينمى زكية بطبعها إلى التشاؤم ، ولا تعرف من الدنيا إلا ناحيتها
الجادة ، إذا بسكينه طروب ، تحب الفرح ، وتسعى إليه أبدا .

سارت زكية إلى فراش أمينة ، وقد ارتسم الجذ في وجهها ، فاقتربت منها
وراحت تعيد ترتيب فراشها ، وكانت تحاول أن تظهر متأثرة لها ، قلقة عليها ،
فعلا وجهها جد صارم ؛ وأخذت سنكينه تقفز في مرح وتحاكى أمينة في
حركاتها ، فإذا ما جرت على أسنانها جزت على أسنانها مثلها ، وإذا ما تأوهت
تأوهت ، فما كان يسع أمينة إلا أن تبتسم على الرغم من آلامها ، ولكن ذلك لم
يرض زكية ، فنهزت أختها ، وذهبت لتوقد فحم المجرمة لتحرق البخور .

وهبط حسن في الدرج مسرعا ، وانطلق في الظلام يتحسس الطريق إلى بيت

خالته لينبئها بأن أمينة تضع ، وكان يحس قلقا ممتزجا بنشوة وفرح ، إنه قلق على زوجها ، ومغبط لأنه سيصبح عما قليل أبا لطفل ، فابتسم ، واقترب من دار خالته ، فأغذ السير ، وازداد وجيب قلبه ، فلما بلغ باب الدار ألقاه موصدا ، فدق الكف الحديدى المثبت فى الباب ، وما صك الصوت آذان من فى الدار حتى فتح الباب ، فقد كانت سقاطته متصلة بحبل متدل من إحدى النوافذ ، فإذا جذب الحبل ارتفعت السقاطة وانفتح الباب .

ودلف حسن إلى صحن الدار ، فسمع صوتا يستفسر :
— من ؟ ..

— أنا حسن .

فسألت خالته فى لهفة ، فقد كانت هى التى فتحت له :
— خير ؟

فقال فى هدوء :

— خير اطمئنى .

وتناولت خالته المصباح وأسرعت تنير له الدرج ، فأخذ يصعد فيه قفزا ، وقبل أن يبلغ نهايته سألته فى قلق :

— ما جاء بك الساعة ؟

— أمينة تضع .

فأسرعت لترتدى ملابسها على عجل ، ولتذهب إلى ابنتها الوحيدة التى جاءت بها بعد أن يئست من أن تنجب بنتا : أسرعت لتكون بجوارها فى أول ولادة لها .

ورجع حسن وخالته ، فلما وجد المكان يغص بنساء الدار انسحب وذهب إلى حيث كان أبوه وجده ورجال البيت وجلس ، كان معهم بجسمه أما ذهنه

فقد شرد إلى الحجرة التي تمددت فيها زوجته ، وأرهف السمع ، فما كان يسمع همسة حتى يتلفت في قلق . ومرت مدة قصيرة حسبها دهرًا ، ولم يستطع صبرًا فنهض وسار إلى مسكنه في وجل واضطراب ، وسأل أول من قابل ، فقيل له إنها لن تضع قبل الصباح .

وانقضى من الليل ثلثه ، فأخذ النسوة يتسللن واحدة وراء الأخرى ويذهبن إلى فرشهن ، ولم يبق مع أمينة إلا أمها ونفيسة وزكية . وجاء حسن وجلس معهن ، وانتصف الليل ، فداعب الناس الجفون ، وجعل حسن يهيم في جلسته ، فالتفت منه خالته أن يذهب لينام في حجرة أخرى ، فقام في تناقل ، وما اختفى عن عيونهن حتى استلقين على الأرض ورحن في النوم .

واشتد الألم بأمانة فتأهت ، وندت منها صرخة ، فهبت أمها من نومها ، واقتربت منها تضمها إلى صدرها ، واستيقظ حسن وجاء يهرول ، فقامت أمه وأخته واتجهتا إلى أمينة تحوطانها برعايتهما وعطفهما .

وجعلت أمينة تن وتوجع ، فيحس حسن كأنما ينهر قلبه ، وكأنما أُناتها وخزات تخز نفسه ، فكان يطاطىء رأسه ويفر بعيدا حتى لا تبلغ أُناتها أذنيه . ومرت ساعات وأمينة في آلامها تقاسى كربتها ، ووهنت وبان عليها الإعياء ، فابتدأت أمها تحس خوفا فاضطربت ، وأخذ قلبها يدق دقا .

ودلف حسن إلى الحجرة وتطلع إلى زوجته ، فألفاها تلتقط أنفاسها في جهد ، فقامت عيناه بالدموع . وطلعت الشمس وأمينة في ضيقها وألمها ، فبدأ في وجه أمها الأسي ، وانتابها قلق وهم . وخطر لها خاطر فأسرعت إلى ثيابها وارتدتها ، وتركت الدار وقد وسعت من خطاها ، وسارت قدما فقد كانت تعرف غايتها .

وما انقضت دقائق حتى عادت أكثر هدوءًا وأمانًا ، ودخلت على أمينة وقد .

انيسطت أساريرها ، وأخرجت مفتاحا كبيرا من طيات ثيابها ووضعت تحت رأس بنتها ، ورنّت إليها في حنان وقالت لها في ثقة واطمئنان :

— اهدئي واطمئني فقد جئتلك بمفتاح الفرج .

لقد جاءتها بمفتاح المسجد القريب من الدار !

وصرخت أمينة وارتفع صراخها ، ولكنه لم يعد يفرع أمها ، فإنها مطمئنة بمفتاح الفرج ، مؤمنة به ويقدرته ، فراحت تشجع ابنتها في رزانة وهدوء ؛ وانقضى الضيق وجاء الفرج ، وارتفعت وأواة الوليد ، فأنعشت القلوب ، وردت إلى النفوس الهدوء ، وما دغدغ صوت المولود أذنى حسن حتى امتلأ نشوة ، وأحس غبطة وخفة ، فأسرع إلى حيث كانت زوجته ، فقابلته أمه على الباب متلهلة الأسارير وقالت في سرور :

— مبروك ، يترنى في عزك .

٦

هدوء شامل ، وظلام يلف كل شيء ، ودنيا نائمة ، ولم يكن في الطريق إلا الخفير يغدو ويروح ، وكان إذا ما كملت قدماه جلس على حجر أمام الأرض الفضاء التي اشتراها الحاج أسعد ، والتي ابتدأ العمال يحفرون فيها . وراح الخفير يضرب إلى غير غاية ، يسير حتى نهاية الطريق ثم يقفل راجعا ، واقترب من الأرض الفضاء فسمع حركة تعكر سكون الليل فأحس اضطرابا ؛ ولكنه لم أطراف شجاعته وتقدم فانتضح له الصوت ، كان صوت آلة حادة تضرب الأرض ، فسرت في جسم الخفير رعدة خوف ، ولكنه تمالك نفسه وقبض على هراوته في قوة ، وهتف بصوت عال شق غلاله الصمت :

— من هناك ؟

وأرهف السمع ، فلم يبلغ أذنيه إلا همس النسيم السارى فى الليل ، فتقدم فى حذر ، ثم هتف ثانية ليعيد إلى نفسه الوجلة بعض هدوئها :

— من هناك ؟

فسمع صوتا مرتجفا مضطربا يرد عليه :

— أنا .

فتمالك الخفير روعه ، فإن صوت الرجل يدل على خوفه وارتباكـه ، فتقدم ثابت الخطو فلمح فى الظلام رجلا فى ثوب أدكن ، فصرخ فيه :

— تقدم .

فأقبل الرجل ترتعد فرائصه ، وقد انتابه ذعر ، وجف ريقه ، كأنما إسفنجة جافة وضعت فى حلقة . وأيقن الخفير أن الرجل يرتجف فرقا ، فاستأسد وصاح به :

— ما تفعل هنا ؟

— بعثنى الحاج أسعد لأحضرك له هذه القدر .

— فى هذه الساعة من الليل ؟

— نعم .

— ولم لم يأخذها معه بالتهار ؟

— لا أدرى .

— وما بها ؟

— لا أدرى .

— أنت تكذب .

فصمت الرجل برهة ، فصاح به الخفير :

— جئت لتسرق .

فتلعثم الرجل وقال في اضطراب :

— لا والله ، تعال معى للحاج أسعد .

— تعال .

وسارا معا ، الخفير يدق الأرض بهراوته ، والرجل يحمل القدر بين يديه ويفكر فيما سيفعله الحاج أسعد ، إنه يطمع في كريم خصاله ، ويأمل أن يقول إنه بعثه لإحضار القدر ، وأوغلا في السير ، وترك الخفير منطقة حراسته ، ولكن ما يهيمه ذلك إذا كان قد وضع يده على سارق ، ويلغا دار الحاج أسعد ، فجعل الخفير يدق الباب بهراوته ، فاستيقظ من في الدار مذعورين ، وهبط أحدهم ليفتح الباب ، فلما رأى الخفير ارتجف ، وسأله بصوت مبجوح :

— ماذا جرى ؟

— أريد الحاج أسعد .

فلم يجرؤ على أن يسأله فيم يريده ، ولكنه انسحب إلى فناء الدار وهو يتساءل في نفسه عما فعله الحاج أسعد حتى تطلبه الحكومة في مثل هذه الساعة .. وفتحت جميع الشبايك التي تطل على صحن الدار ، وجعل كل يتساءل عما هناك ، فصاح من فتح الباب :

— خفير يطلب الحاج أسعد .

خفير ! لا بد أن هناك أمرا .. وأحست النفوس رهبة وقلبا ، وهبط الحاج وقد ارتدى ثيابه وخلقه أبناءه الثلاثة . وكانوا جميعا مضطربين ، فما دقت الحكومة بابهم قبل اليوم أبدا ، وأقبلوا على الخفير وحيوه في احترام ، فلما رأى الحاج أسعد قال له :

— أتعرف هذا الرجل ؟

— نعم .. إنه ممن يحفرون جدار بيتي الجديد .

— هل أرسلته الآن ليحضر لك شيئا ؟

— لا ..

— أما بعثته ليحضر لك هذه القدر ؟

— لا ..

ومد الحاج أسعد يده وتناول القدر فألفاها ثقيلة ، فراح يفحص ما بها فأشرق وجهه وغمغم في فرح :

— ذهب !

ومس أبنأؤه في غبطة :

— ذهب كثير !

وسرى الهمس وانتشر في سرعة الريح ، فإذا بمن في الدار جميعا يرددون في سرور : « قد عثروا في أرض الحاج أسعد على كنز » .

وذهب الحاج سعد وأبنأؤه والخفير والرجل إلى الخفر ليبتوا في أمر هذه اللقمة ، وجعل النسوة يتحدثن من النوافذ ، فهذه تقول لسلفتها القريية من نافذتها : « عثروا على عشر قدور مملوءة ذهبا » فتلتفت الثانية إلى جارتها ، وتقول : « عثروا على عشرين قدرا من الذهب » . وراحت القدور تتضاعف عددا ، وتكبر حجما حتى إذا أصبح الصباح كان الحى جميعه يقص نأ الكنز العظيم الذى عثر عليه الحاج أسعد .

وجلست أم عباس الندابة على باب قاعتها ، فاقتربت منها امرأة وهمست :

— أما بلغك ؟

— ماذا ؟

— عثر الحاج أسعد على كنز .

فأحست أم عباس ضيقا وغما ، وكأن كارثة نزلت بها ، وغمغمت في غضب :

— كنز ! ..

— أربعون قدرا وعشرون رقية جعلت ملكت كلها ذهبا .

فأحست أم عباس أنجرة الحسد تملأ صدرها وتضيق من نفسها ، وأحست كرها للحاج أسعد كأنما سلبها أشياءها فغمغمت في ضيق وحنق :

— المسعد مسعد من يومه .

٧

أقبلت ليلة الأسبوع ، فراحت أم أمينة وأختها نفيسة وزكية ، يطبخن ويجهزن طعاما كثيرا ليطعمن أهل الدار جميعا في اليوم التالي ، فلما انتهين من الطبخ صفت الأواني النحاسية في المطبخ فازدحم بها ، وجيء برعاء كبير وضع به سمن كثير ، ثم وضع الرعاء على النار ، وأخذت أم أمينة تحمر المغات وتدق البندق لتقدم فنجانا من المغات اللذيذ لكل من يقدم للتهنئة بالمولود ، بينما جلست نفيسة وابنتها والجارية يفركن الكسكسي في همة ونشاط .

ولما تم تجهيز كل شيء ، ذهبن ليعدن غرفة أمينة ، فأحضرت نفيسة دورقا ملء ماء ، وطلبت أم أمينة من سكرينة أن تحضر قطعتين من الخشب لتصنع منهما عروسا تضعهما في الدورق ، فأسرعت سكرينة ، وأخذت تقفز في الدرج صاعدة حتى بلغت سطح الدار ، واتجهت إلى قفص من الجريد وسلت منه جريدتين ، ثم عادت إلى خالتها ودفعت بهما إليها ، فربطت الجريدتين على شكل صليب ، ثم كستهما بقماش ، فضحكت سكرينة وقالت :

— لبس البوصة تبقى عروسة .

فنظرت إليها زكية نظرة تأنيب ، فالتزمت الهدوء على مضض ، ووضعت العروس في فم الدورق ، فأسرعت سكينه وأحضرت عود ثقاب احترق بعض خشبة ، وجلست ترسم للعروس عيني وحاجبي ، ولحتها زكية فصاحت :

— بنت !

فقالت خالتها :

— دعها يا زكية .

— إنها لا تعرف غير الضحك واللعب .

— أحسن .

وجيء بطبق فيه ملح ، ووضع به أرز وعدس ولوبيا وفاصوليا وبن وفول ، ووضع الطبق بجوار الدورق ، وجيء بفاكهة وبندي ولوز ووضعت تحت سرير المولود ، وراحت زكية وسكينه ونفيسة يجمعن حلى الذهب من البيت ويعدن بها إلى غرفة أمينة ثم يضعن الأساور في ذراعي العروس ، والقلائد في جيدها فبدت كأنما كسيت بالذهب ، واطمأنت نفس أمينة ، فإنها تعتقد أن الذهب الكثير الذى تتحلى به العروس ليلة الأسبوع يجلب السعد للمولود .

ونظرت سكينه إلى العروس طويلا ثم قالت :

— إنى أتمنى أن أكون هذه العروس الليلة !

وسكنت قليلا ثم قالت :

— ما رأيكن لو تحليت بكل هذه الحلى ، ووقفت هنا طوال الليل بدل هذه

العروس التى لا تحس شيئا ، والله كنت أكون سعيدة .

وكأنما أعجبها الفكرة فقامت إلى العروس تتناول الحلى وتزين بها ،

فضحكت أمها وخالتها وابتسمت أمينة ، أما زكية فصاحت فيها :

— بنت ! ما هذا العيث .
فأعادت سكينه إلى العروس حليها في هدوء .
وجيء بشمعة كبيرة وضعت فوق رأس المولود لتنير له طول الليل ، فإن
نورها هو الذى سيهديه السبيل ويبدد له ظلمات حياته .
وأقبل حسن منشرح الصدر ، فلما رأى العروس بما تحمل ابتسم وقال :
— ما أسعد اللص الذى يحملها الليلة !
فقال سكينه فى همس :
— خفض من صوتك وإلا جاءت صواحب الحلى وأخذنها خشية
ضياعها .
فضحك حسن وكأنما لم يكتف بالسعادة التى ستجلبها الحلى للمولود فوضع
فوق رأسه كيس نقوده ، حتى يشب غنيا .
وأدبر الليل ، وبقيت الملائكة — فى زعمهم — تحوط المولود ، تنتظر بدر
الملح لتتصرف وتدع الطفل فى أمان ، وجاءت نفيسة وجردت العروس من
حليها ، وهمت سكينه بالشرب من الدورق ، فصاحت زكية بها :
— لا تشربى ودعى الدورق وإلا جاء الطفل طائشا مثلك .
فتركت سكينه الدورق ، واتجهت زكية إليه ورفعته ، فصاحت بها سكينه :
— لا تشربى ودعى الدورق وإلا جاء الطفل عابس الوجه مثلك .
وفرت من أمامها حتى لا يراها ما يراها كلما سنخرت منها ، وقدمت زكية
الدورق إلى خالتها وقالت فى جد :
— اشربى يا خالتى حتى يشب مثلك طويل البال .
وجاءت المولدة ، فهتفت نفيسة بها فى صوت يدل على أنها تشفق على
الملائكة الذين باتوا طوال الليل يحرسون المولود :

— أسرعى لنيدر الملح حتى ينصرف الملائكة الكرام .

فراحت المولدة تبذل للطفل ثيابه ، وقدمت لنفيسة الجزء الذى جف من سرته ، فأخذته وأخذت من الملح والبقول سبع فولات ، ثم أخرجت من جيبها قرشا وصرت الجميع فى صرة صغيرة علقتها بجمعة فى صدر المولود .

وغص المكان بالنساء والصبيان ، وحملت المولدة المولود ، وأخذت الطبق الذى وضع فيه الملح والبقول ، فأطلقت الزغاريد ، وارتفع تهليل الأطفال ، وخرجت المولدة بالطفل من الغرفة لأول مرة ، والأولاد خلفها يحملون الشموع ، وراحت تبذر البقول ، وترش الملح وتقول :

— أول بدرة للملوك ، وثانى بدرة للمولود ، وعاشق النبى يصلى عليه .

فيصيح الأولاد خلفها :

— يا رب يا ربنا ، يكبر ويبقى قدنا .

وهبطت المولدة بالطفل فى الدرج ، والأولاد خلفها يهللون ، والنساء على رأس الدرج يزغردن ، فشاع فى البيت السرور . ثم عاد الموكب إلى غرفة أمينة ، فوضع الطفل فى غريبال ، وأخذت المولدة تغربله حتى يذهب عنه الخوف ، ثم وضعت الغريبال على الأرض ، وقامت أمينة تخطى المولود سبع مرات حتى لا يسقط شعره . ولما تمت المرات السبع ، حمل المولود ، وأخذت المولدة الغريبال واستعدت لتدحرجه ، فنظرت أمينة إلى الغريبال فى وجل وقلق ، فإذا تدحرج الغريبال طويلا كان ذلك دليلا على طول عمر المولود ، أما إذا سقط كان ذلك فألا سيئا ونذيرا بقصر عمره . وانطلقت الغريبال فأحست أمينة بقلها يخفق ، واتسعت حدقتها فى تطلع ورهبة وهى تنظر إلى مصير ابنها ، ومال الغريبال فى دورانه قليلا ، فأحست خوفا ، وأخذت ترقب الغريبال فى دورانه قلقة النفس ، وترنح ولكنه لم يسقط واستمر فى سيره حتى ارتطم فى آخر حائط الردهة ،

فهدأت نفس أمينة ، وشاع في وجهها السرور ، فإن ابنها سيعيش طويلا !
وأقبل النسوة على أمينة يهنئنها ، فأخذت كل واحدة منهن تقول لها :
— عقيبى للعودة يا أم ممدوح .

وانتهى الحفل في غرفة أم ممدوح ليبدأ في غرفة السفرة ، وهو أهم ما في اليوم
جميعه ، فإن النساء والأولاد انتقلوا لتناول الطعام الشهى اللذيذ خفافا فرحين ،
ولم تنس نفيسة في هذه الزحمة طبعها ، فتذكرت جيرانها فبعثت لكل منهم
بصينية عليها أطباق الخضر واللحم والبندق والكسكسى ، وبعثت إلى أم عباس
بصينية كبيرة عليها خير كثير ، فما رأتها حتى ابتسمت ، ولكن ما لبثت
ابتسامتها أن غاضت وحل مكانها عبوس ، فإن نفسها كالبحر القلب لا يهدأ
قليلا إلا ليزيجر ويشور ، ونظرت إلى الطعام الذى تعددت ألوانه وقالت في
حسد :

— يأبى الذهب إلا أن يطل برأسه ، كأنما كان ينقصهم أن يعثروا على
كنز ، حكمتك يا رب .

٨

زفرات تنطلق من صدر مكروب ، ودموع تنهمر من عيون لم تألف انهمار
الدموع ؛ كانت زكية بجوار سرير أختها سكينة وكانت تهذى من الحمى ،
فيقطع هذيانها نياط قلب أختها الربوم فراحت تذرف الدمع السخين .
وتقلبت سكينة في فراشها وهمست في صوت خفيض :
— أشرب :

فقامت زكية تهوول وأحضرت كوبا به ماء ، ورفعت رأس أختها في حنان ،

ووضعت الكوب على شفتيها المرتجفتين من الحمى والضعف ، ورفعتها في رفق ، فشربت سكيكة قطرات ، ثم زمت فمها ، فأعادت زكية رأسها على الوسادة ، ومررت كفها على جبين أختها ، فشعرت بحرارة الحمى الشديدة ، وأحست لسع النار في قلبها ، فعبس وجهها ، وأقبلت أمها وقالت لها :

— قومي يا زكية كلي .

— لا شهية للأكل عندي .

— مر يومان ولم ينزل جوفك شيء .

— لا أحس جوعا .

— قومي وكلي ، إنها بخير .

فطفرت دموعها من عينها ، فهي تحس أن أختها ليست بخير ، وقد رأت في الغفوة التي غفها في الليل الطويل أنها كانت ترتدى السواد يوم زفافها ، فقامت من غفوتها مفزوعة مرعوبة ، تضم أختها إليها وتتساقط دموعها على وجه سكيكة الذي كاد ينصهر من الحمى .

وأقبل محمد ليرى ابنته ، فوضع يده على رأسها وغمغم :

— حرارة بسيطة وغدا تنقشع .

فلم تطمئن نفس زكية ولم تهدأ ، بل اضطرب قلبها وانقبض ، ولم تصدق ما سمعت ، فإن البومة قد نعتت في سكوت الليل نعييا بغیضا مزق قلبها ، وما كانت البومة تتعب إلا الحراب .

والتفت محمد إلى زكية وقال لها :

— هيا لتأكل معنا .

— عافت نفسي الطعام .

— قومي يا زكية .

وقبل أن تهم بالقيام أقبل الحاج أسعد واتجه إلى فراش سكينه وجسها وقال
لنفسه :

— عليك بالليمون ، فالليمون حكيم مخفى لا تقولى لعدوك عنه ، اقطعى
ليمونة فوق يافوخها ، وضعى على جبينها خرقة مبللة بالخل .

— حاضر .

— افعل ذلك وسينقطع دابر هذه الحمى اللينة .

— حاضر .

— هاتوا ليمونة حالا .

وأسرعت نفيسة وأحضرت طبقا به ليمون ، فأخذ الحاج أسعد ليمونة وقطعها
ودعك بها رأس سكينه وجبهتها ، ثم وضعها فى وسط رأسها وعصبتها بعصابة ،
وقال لنفسه :

— ذوى قليلا من الملح فى كوب ماء وهاتيه .

وعادت نفيسة بالكوب فتناوله الحاج أسعد ، وصب قليلا منه فى أذن
سكينه ، ثم سحب عليها الغطاء والتفت إلى الموجودين وقال :

— دعوها الآن تستريح ، وستقل الحرارة عنها بعد قليل .

وانسحب من الغرفة ، وقال محمد لزكية .

— هيا زكية نأكل .

فقامت ، وجلسوا حول السفرة ؛ ومدت نفيسة يدها وتناولت لقمة ،
ولكنها لم تستطع ازديادها ، وشرقت بدموعها ، ولخت زكية الدموع تترقق فى
مآق أمها فلم تستطع أن تحبس دموعها ، وهبت نفيسة وهى تغمغم :

— كيف أسيغ الطعام وسكينه لم تذقه من أيام ١٩

وقامت زكية خلف أمها تكفكف عبراتها ، ونظر محمد إلى الطعام

(فى قافلة الزمان)

الموضوع أمامه فلم يستطع أن يمد إليه يدا ، فقام حزينا ، وانسل من الدار باسر الوجه كسير القواد .

قبع زكية بجوار سرير أختها ترقبها وتحرسها وترعاها ، وتذرف الدمع من أجلها ، وقامت تجسها فألفت حرارتها قد انخفضت فاطمأنت بعض الشيء ، وصك أذنيها أصوات غريبة في الحجرة المجاورة فقامت لترى من هناك ، وما أطلت برأسها من باب الغرفة حتى أحست ضيقا وغضبا ، وعادت حائقة ، ولحنتها أمها فجاءت خلفها وهمست :

— لماذا لم تسلمى عليها ؟ أهكذا نقابل الضيوف ؟

— ما جاء بأمر عباس الندابة هنا ؟

— جاءت تستفسر عن أختك .

— لا نود استفسارها .

— عيب يا زكية .

— ولا أحب أن ترى أختي .

— أنظردها !

— لا تدخل عليها .

— وما تقول عنا ؟

— لتقل ما يحلو لها .

— لا أستطيع أن أمنعها من رؤيتها يا زكية وقد كلفت خاطرها لزيارتها .

— لن تراها وهي مريضة أبدا .

— وله ؟

— إني أحس كأنما ستخطفها منا .

— اهدئي .

وخرجت أمها ، وبقيت زكية تنظر إلى أختها وتفكر في زيارة أم عباس الندابة لها ، فلم ترتح لهذه الزيارة ، فعزمت على أن تفر بأختها منها . فلفتها بغطائها جيدا وحملتها في رفق . وانسلت بها ، وراحت تصعد بها في الدرج على مهل حتى إذا بلغت شقة جدتها دلفت من الباب ، واتجهت إلى الفراش ، ووضعت أختها فيه ، وجلست بجوارها تلتقط أنفاسها .

ومرت ساعة أو بعض ساعة تيقنت بعدها أن أم عباس قد انصرفت ، فحملت أختها وهبطت بها ونومتها في سريرها ، ومرت بيدها على جبين أختها فوجدت حرارتها قد ارتفعت فراحت تسب أم عباس واليوم الذي جاءت فيه ؛ وفكرت في أن تداويها بليمونة ، ولكن خطر لها خاطر ، فارتدت ثيابها ، ونادت الخادمة وأمرتها أن تحضر إبريقا كبيرا وأن تتأهب للخروج معها .

وخرجت زكية والخادم ، وانطلقتا إلى المسجد القريب من البيت وملأتا الإبريق من ماء بخره ، ثم قفلتا عائدتين إلى الدار ، وحملت زكية أختها ودخلت بها الحمام لتغسل لها جسمها بماء البعر المبارك .

ومرت أيام ، وانقشعت الحمى وبرت سكينه ، فانشرح صدر زكية وهبطت السكينه عليها ونزلت قلبها ؛ ولكن صفوها لم يدم فإنها تذكرت حلمها أنها في ثياب سود ليلة زفافها ، ونعيب البومه تلك الليلة ، فاضطربت نفسها ، وانقبض صدرها ، فعادت إلى تشاؤمها .

حركة دائبة في المسمط ، وغوغاء الزبائن ترتفع وتشتد ، والمعلمة صباح
تقلب رعوس الضأن والأكرع بمغرفة ضخمة في فيزان كبير . فتوسوس أساور
الذهب في معصمها وسوسة خفيفة ، لا تكاد تسمع بين جلبة الأكليين في
المسمط ، والمتنظرين أمام شتا زوج ابنتها الذي كان يأخذ الرأس في يد ، ويعمل
فيه شاطوره في مهارة جراح ماهر ، فيقطع الأشدق ثم يخرج اللسان سليما ، ثم
يفصل لحم الرأس عن العظام ، ثم يكسر الرأس ويخرج المخ ، ويعطى كلا ما
يطلبه ، ثم يتناول رأسا آخر ، وما كان الرأس يستغرق في يده إلا هنيهة فقد كان
يعمل في كفاية ويسر .

وصفت أواني الفتيت على لوح من الخشب أمام المعلمة ، فأخذت تملؤها
بالمرق ، فكانت ترفع أواني لتحل مكانها أواني أخرى متباعدة في الشكل والسعة ،
وإن كانت كلها تتفق في القدم والقذارة .

وخرج من الحارة صف طويل من باعة لحم الرأس الجوالين يحمل كل منهم
على رأسه قرصا مستديرا من الخشب صفت فوقه الرعوس وغطيت بخرقه من
قمماش أبيض ، وعلق كل منهم في كتفه نضدا أسطوانيا من الجريد ليضع فوقه
قرص الخشب ، وانتشروا في شوارع المدينة العتيقة يهتف كل منهم يا جابر .
وكان هتافهم كافيا للدلالة على بضاعتهم ، فما كان ينافسهم فيه غيرهم من
الباعة الجوالين .

وانصرف زبائن المسمط يحمل كل منهم في يد إناء الفتيت . وفي الأخرى ورقة
لف فيها لحم الرأس ، وهدأت الرجل ، وابتدأ عمال المسمط ينظفون ،

وجلست المعلمة على كرسي حجير تشد أنفاسا من نارجيلة أمامها في لذة وشغف .

واقترب شتا من المعلمة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم مال على أذنها قليلا وقال :

— إني في حاجة إلى نقود .

فدست المعلمة يدها في جيبها وأخرجت من صدرها كيسا من قماش أزرق حلت وكاءه ، وأخرجت منه قروشا عدتها ومدت بها يدها إليه وقالت في تبرم :

— خذ .

فنظر إلى القروش في يدها وقال في استهجان :

— ما هذا ؟

— ريال .

— ريال ! ولم كل هذا التبذير ؟ أما كان يكفي خمسة قروش ؟

— مالك يا شتا ؟

— آخذ ريالاً في ثلاثة أيام !

— ألا يكفيك أني أتكفل بك وبزوجتك ؟

— لا يا ست ، أعطينا حقنا ودعينا نعيش كما يحلو لنا .

— شتا أقصر الشر وخذ .

— لا ، أعيدى قروشك إلى كيسك حتى لا تبرد .

— وما تريد الآن ؟

— أريد أن تجعلي لى راتبا آخذه في نهاية كل أسبوع ، وأن آخذ زوجتي

وأسكنها حيث أحب .

— لا ، بلوغك النجوم أقرب لك من هذا .

— سادع لك المسمط من اليوم وسأخذ زوجتى وتدع لك الدار .

— اذهب أنت ، أما هى فلن تستمع إليك .

— سنرى .

— والله لو ذهبت معك لا هى ابنتى ولا أنا أعرفها .

فانصرف شتا غاضبا يصرف أنيابه ، وأغلقت المعلمة المسمط ، وصعدت

إلى شقتها .

وخيم الليل فمد رداءه الأسود يحجب كل شيء ، وشمل الحارة هدوء ، وجاء شتا يترنح من السكر ويخبط فى الظلام حتى بلغ المسمط ، فاتجه إلى باب الدار ودلف منه ، وراح يصعد فى السلم الضيق يرتطم بالحائط مرة وبالدرازين الخشبي أخرى ، وبلغت جلبته سمع المعلمة فاعتدلت فى فراشها وهتفت فى رعب :

— من ؟

فأجابها فى صوت الخمور :

— أنا شتا .

فاطمأنت وتمددت فى فراشها ثانية ، فقد عاد إليها ندمان ، وجاء يطلب صفحها كما اعتاد أن يفعل كلما غضبت عليه . وفتح الباب ودخل ، فرأى على النور الضعيف الذى ينبعث من مصباح بعيد المعلمة ممددة ، فاقترب منها وانحنى عليها وقال :

— أين النقود ؟

فدفعتها فى صدره فانبطح على الأرض ، ووسوست الأساور فى يدها ، فاعتدل وقد امتلأ حثقا ، وقبض على يدها وراح يعبث فى الأساور ويقول فى غضب :

— تزني والبسى واكنزى وثمت نحن جوعا .
وبرقت عيناه ، فأحست المعلمة فزعا ، وقالت فى صوت مرتجف :
— شتا أنت سكران .

وجذبت يدها من يده . وهمت لتفر من أمامه ، ولكنه ركز ركبته على صدرها ، ولف شعرها على يده ، وفى مثل لمح البصر مد يده الأخرى إلى السكين المثبتة فى ساقه ، وراح يقطع شدى المعلمة ، ويفصل فكها ، ثم يهبط بالسكين إلى رقبته ؛ لقد كان رأس المعلمة فى يده كرأس ضأن يجهزه لزيائنه . وتدفق الدم الحار على يده ، فأفاق من سكره . ورأى بشاعة فعلته ، فتركها وأسرع يفر من جريمته .

وفى هجمة الليل ارتفع صوت ابنة المعلمة :

— قتلوك يا اماه .. قتلوك يا حبيبتي ..

وهب كل من فى الحارة فرعين ، وهبطوا الدرج مسرعين يحملون فى أيديهم المصابيح ليروا تلك الجريمة التى ارتكبت بليل . واستيقظ الحاج أسعد وأهله مرعوبين ، وجعلوا يتساءلون عما جرى ، فعلموا أن المعلمة صباح ذبحت ذبح الشاة فارتجفوا فرقا ، وارتجت الحارة ، ودوى الناس دويا ، ولم يجرؤ أحد من دار الحاج أسعد على الخروج ، بل لم يجرؤ أحد منهم على أن يطل من النوافذ التى تشرف على دار المعلمة . واستمرت الجلبة والضوضاء ، ثم أخذت تتلاشى شيئا فشيئا حتى ساد الحارة السكون ثانية ، وسيطر عليها هدوء كهدهوء الرموس ، وأحست زكية عطشا ، فلم تقم لتشرب ، فإن القل كانت على شباك قريب من دار القتيل ، وانكمشت فى فراشها ، وغطت وجهها بلحافها ، فإنها كانت تخشى أن يظهر لها عفريت المعلمة صباح ، كانت المعلمة تملأ الحارة أنسا ، فباتت تملؤها فى الليل رعبا .

عاد الحاج أسعد مبكرا ، فصلى العصر وراح يقرأ فى كتبه التى كان يحبها ، ودخلت سكينه وجلست فى حجره ، وأخذت تعبث بلحيته ، فوضع الكتاب الذى كان فى يده ، وأقبل عليها يش لها ، وقال وهو يتسم :

— أتحبين أن يكون لك لحية كهذه ؟

فبهزت رأسها موافقة فى سرور ، ولكنها أردفت :

— ولكنى لا أحب أن تكون بيضاء كلحيثك ، إني أريدها سوداء كشعرى .

فابتسم الحاج وضمها إليه وقال :

— ومن من أبناء عمك ستزوجين ؟

فقال فى براعة :

— من مختار .

— ولكنه ثقيل السمع .

— لا بأس فإن صوتى عال .

— أرى كيف تنادينه .

فوضعت سبابتيها فى أذنيها ، وهتفت بصوت رفيع راح يرن كالجرس :

— مختار ... مختار .

فضحك الحاج ، وراح يقص عليها قصة خلق آدم وحواء ، فقد كان غارقا فى قصص الأنبياء يقرأها فى شغف ، ويقصها فى شغف ، ويستمتع إليها فى شغف .

ومالت الشمس للمغرب ، فبدأ أهل البيت يقدون ، إنهم اعتادوا أن يرجعوا مبكرين ، ولكنهم ما كانوا يرجعون قبل غروب الشمس أبدا . أصبحوا اليوم يخشون البقاء خارج الدار لا يهجم عليهم الليل فيضطرون إلى الرجوع فى

الظلام ، فيطلع لهم عفريت المعلمة ، لقد أحسوا جميعا رهبة وخوفا لما اقتربوا من المسقط وما كانت أنوار النهار اختفت ، فما بالهم لو أنهم عادوا في عماية الليل ؟!

وتناولوا عشاءهم كل في شقته ، ثم ذهبوا إلى غرفة الحاج أسعد يقطعون جزءا من الليل في السمر ، وراح كل منهم ينظر إلى الآخر دون أن يسأله لم عاد مبكرا اليوم ، فقد كانوا جميعا يعلمون سبب ذلك ، وجعلوا يتجاذبون أطراف أحاديث متشعبة إلى أن قالت واحدة :

— أسمعتم ذلك الصوت الخفيض الذى كان يعكر سكون الليل البارحة ؟
إنى سمعته وميزته ، كان صوت صباح .
فأمنت أخرى على قولها وقالت :

— وسمعتها تولول وتقول : « لم ذبحتنى يا شتا ؟ وما أخذت يا شتا ؟ قبضوا عليك وسجنوك » . فقممت إلى النافذة أنظر ، فرأيت شبح امرأة محمولة الشعر تجرى في الحارة ، وتقف عند باب المسقط ، ثم تعود تجرى وتولول .

فرت إليها زكية في ذهول وقالت في خوف :

— يا قلبك ! نظرت من النافذة ولم تخافى .

فاعتدل الحاج أسعد وقال :

— أتحافين العفاريت يا زكية ؟

— إن جسمى يرتجف للذكرها .

فابتسم وقال في زهو :

— إنى لا أخشاها أبدا ، وقد وقعت لى معها حوادث كثيرة ولم تصبنى بسوء . فى ليلة حالكة الظلام كنت عائدا إلى البيت ، فرأيت طفلا صغيرا ييكى ويتحب ، فاقتربت منه وريت على كتفه وسألته لم ييكى ، فأخبرنى أنه

خرج من بيتهم في العصر فذهب. الليل ولم يعد يعرف كيف يعود . فطبيت خاطره ، وقلت له إني سأصعبه إلى منزله ، وأخذت يده في يدي وسرنا ، ولم أشعر إلا والطفل ينمو في يدي ثم أخذ يعلو ويعلو حتى أصبح طول المئذنة ، فعلمت أني التقيت بهارد .

فقال زكية :

— أو لم تخف يا جدي ؟

فقال في ثقة وثبات :

— والله لم تختلج فيّ شعره .

وساد السكون لحظة ، ثم قالت نقيسة تروى ما تعرفه عن العفاريث :

— كان أبى يبنى داره وكان يشغل فعلة من الفتيات ، فيبنا كن يحفرن جدار البيت انهار عليهن جرف ، فماتت سبع فتيات ، وتم بناء البيت ، وحملنا حوائجنا إليه ، فكنا إذا وضعنا شيئاً في غرفة وجدناه بعد قليل في غرفة ثانية . فلما رأيت أمي ذلك أقسمت ألا تسكن في ذلك البيت المشئوم ، فاضطر أبى إلى كراء رجل يحرسه . وفي ليلة من الليالي نام الحارس في السطح فجاءت العفاريث ولفته في الحصار النائم عليه ، وأخذت تدخرجه في الدرج ، وهو يصرخ ويستغيث ، حتى بلغ باب الدار فهب مفزوعاً ، وأطلق ساقيه للريح . وسرت رهبة ، وأحس الموجودون خوفاً فصمتوا قليلاً ، ثم قال أحدهم :

— اضطررت في ليلة مظلمة أن أخترق حارة مسكونة بالعفاريث ، ما قطعت منها أمثارا حتى شعرت بحركة خلفي ، فالتفت ، فرأيت رجلاً له رجلان كأرجل المعيز ، فاضطربت ووسعت من خطاي ، وبلغ أذني وقع حوافر معيز كثيرة تضرب الأرض خلفي ، فالتفت مذعوراً ، فرأيت أشباحاً كثيرة تطاردني ، فعدوت وعدت الأشباح ورائي ، وأمدني الرعب بقوة فكنت كأنما

أطير ، وبدأت أصوات حوافر المعيز على الأرض تحفت وتتلشى ، فرحت ألتقط أنفاسي وأغالب تعبى ، حتى إذا بلغت رأس الحارة لحت شيخا جالسا متدثرا في ثيابه ، فارتقيت بجواره ، ورحت أقص عليه قصتى وأنا مقطوع النفس ، قلت له :

— عدت خلقتى عفارت لها أرجل كأرجل المعيز .

فمد الشيخ يده فى هدوء ورفع ثيابه عن رجله ، وقال

— مثل هذه ؟

فنظرت فإذا له رجلا ماعز غزيرتا الشعر ، فقمت من جواره مرعوبا ...

فقالت زكية فى صوت مرتجف :

— بالله أنحفوا هذه السيرة .

فضحك الحاج أسعد وقال :

— ستظهر لك صباح الليلة ، وستجرك من رجلك .

فقالت زكية فى تبرم :

— أوه يا جدى ! والله لن أنام وحدى .

فضحكوا ، وابتدأ كل ينصرف إلى شقته ، وقامت الحاجة لقضاء حاجة

وبقى الحاج أسعد فى الغرفة وحده ، وسرى النسيم من نافذة قريبة من رأس الحاج

أسعد فداعب نور الذبالة ، فأحس الحاج وحشة ورهبة ولفه الخوف ، فقام فى

اضطراب يقفل النوافذ التى تطل على المسمط .

وجاء أوان الحج ، فطلبت واجهات دور الحجاج ورسمت عليها مناظر الحج ، فهنا خطوط سوداء كثيفة لولا الدخان المنبعث من أعلاها والدوائر الساذجة التي في أسفلها لما فطن أحد إلى أن الرسام يريد أن يرسم قطارا ، وهنا خطوط صفراء توحى بأنه يريد أن يرسم جملا وجمالا ، وعلى هذا الجدار نقش عمل بألوان فاقعة تنم عن انحطاط في الذوق وجهل فاضح بأبسط قواعد الرسم . وعلى ذلك الجدار رسم هودج أو سفينة تحملها سمكة كبيرة . كانت الرسوم بدائية ساذجة ، ولو أن الزمن تأخر براسمها قليلا ، لأمكنهم أن يدافخوا عن جهلهم بأنهم من أنصار مذهب « السوراليزم » ، ولساعت مجلات ذلك المذهب إلى إظهار بدائعهم وعبقرياتهم الفذة !

ووقف أولاد الحارة يتطلعون إلى الرسوم في عجب وإعجاب ، فقد بهرتهم ؛ وكانوا في قرارة نفوسهم يتمنون أن يروا سفينة أو قطارا ، وما كان يجروا أحدهم على أن يتمنى أن يركب القطار يوما ، فأين ذلك القطار ؟ وإلى أين يركبونه ؟ ، إنهم يحسبون أنه لا يستعمل إلا في السفر إلى الحجاز ، وإن غاية آمالهم أن يمتطوا يوما حمارا ، وأن يضربوا به في شوارع المدينة بدل أن يسبوا على أقدامهم تلك المسافات الطويلة التي يقطعونها عادة قبل أن يبلغوا غاياتهم .

وما كان أحدهم يرى في حمل السمكة للسفينة أمرا عجيبا يدعو إلى التساؤل أو الدهشة ، وما وجه العجب في ذلك وهم الذين يسمعون ليل نهار أن الأرض محمولة على قرن ثور ، فإذا تعب الثور نقلها من قرن إلى قرن وعندنا تقع الزلازل التي يحسها أهل الأرض !

وأقبلت عربات تكرر في الحارة ووقفت على باب دار بجوار الحاج أسعد ، جاءت تحمل متاع حاج يسافر اليوم . وأطل محمد من نافذته وجعل يرقب العربات ، فقد عزم على أن ينطلق إلى المحطة مع الحاج المسافر ليودعه ، فإن الرجل صاحبهم إلى المحطة يوم سافر الحاج أسعد إلى الحجاز . ووضعت الأمتعة على عربة ، وركب المودعون عربتين أخريين ، واندس محمد بين المودعين ، وأخيرا نزل الحاج بين البكاء والعويل ، فقد كان المسافر إلى الحجاز في تلك الأيام كالمسافر إلى ميدان القتال ؛ الذاهب مفقود ، والعائد مولود .

وانطلقت العربات في شوارع المدينة الضيقة تحب خبا ، وراح المارة يفسحون لها الطريق ، وعندما يرون الحاج بين أصحابه تنفرج أساريرهم ويغمغمون :

— يا رب أوعدنا .

ولمح رجل جالس أمام دكانه الحاج في طريقه إلى المحطة ، فترك مقعده وراح يعدو وراء العربات ، حتى إذا لحق بها مد يده إليه مصافحا وأخذ يصيح في نبرات كلها توسل ورجاء :

— الفاتحة أمانة يا حاج ... الفاتحة أمانة يا حاج .

وبلغت العربات المحطة ، فتركها الحاج ومودعوه ، وساروا يخترقون الجموع الحاشدة ، ورافقهم محمد في سيرهم ؛ كانوا يتقدمون في جهد ، فقد غطيت الأرض بركائب الحجيج وقدورهم وأمتعتهم ، وغصت الساحة الضيقة بالآلاف المودعين ، فراح محمد يلتقط أنفاسه في ضيق ، ويتمنى أن يتحرك القطار بمن فيه سريعا حتى ينفلت من ذلك الزحام البغيض .

وحانت ساعة الرحيل ، فراح كل يودع أهله وأصحابه ، فتلاصقت الصدور وطفرت الدموع ، وتقدم محمد يعانق جاره ويودعه ، وأطلق القطار

صغير الرحيل فهبط منه المودعون وانطلق بمن فيه حتى اختفى عن الأنظار .
وتحركت جموع المودعين ، وتحرك محمد معهم ، فلما خرج من المحطة راح
ينظر إلى مداخل الطرقات المتعددة أمامه في حيرة ، فإنه لا يدري في أيها يسير ،
ووقف يتذكر من أيها أتى فأغياه التفكير ، إن مداخل الطرقات متشابهة ، وإنه
ليخشى أن ينطلق في أحدها فلا يكون الطريق الموصل إلى الدار أو الدكان ، إنه
يعلم أن بينه وبين الدار مسيرة دقائق قليلة ولكن في أى طريق يسير .

ووقف ينظر إلى العربات السائرة بجواره لعله يجد من يعرفه ، ولكنه لم يجد
أحدا ، فانتابه ضيق ، ولح على البعد موقف حمير . فسار إليه ووقف بالقرب
منه وهو يفكر فيما يفعل ، ثم اقترب من حمار وقال :

— أتعرف دكان الحاج أسعد القريب من الحسينية ؟

— بالطبع أعرفه .

فامتطى الحمار وقد هدأت نفسه ، والتفت إلى الحمار وقال :

— إلى دكان الحاج أسعد .

واجتمعت الأسرة في الليل عند الحاج أسعد كما اعتادت أن تجتمع كل ليلة ،
وأخذ محمد يقص ما وقع له في نهاره ، وكيف أنه لم يعرف أن يعود من المحطة
وحيدا ، فراحوا يضحكون ، ثم أخذ الحاج أسعد يقص عليهم ذكريات الحجاز
ونتفا من شجاعته ، قال :

— كنا ننام أنا والحاجة في خيمتنا ذات ليلة ، وكانت الحاجة تلبس
أساورها ، وشعرت بحركة غريبة بالقرب منا ، ففتحت عيني ونظرت . فرأيت
عربيا يزحف على بطنه وفي فمه شفرة حادة ، فانتصبت واقفا ، وفي لمح البصر
قبضت على عنقه ، وحملة بين يدي وخرجت به من الخيمة ، وجلدت به
الأرض ، ورأى الأعراب فأخذوا يتهايمسون « انظروا هذا الرجل الشجاع ! » .

ومرضت الحاجة فانتاب البيت قلق وراحته زكية تمرضها وقد نزل بها هم ثقيل . إنها كلما تطلعت إلى وجهها تذكرت حلمها يوم مرضت سكينه ، تذكرت نفسها في ثياب سود يوم زفافها ، وتذكرت نعيب البومة في صباح ذلك اليوم البغيض . لقد نعت فوق دارهم فلا بد أن يخرج أحد ساكنيها محمولا إلى المقابر . إنها ظنت يوم مرضت أختها أن نعيب البومة نعيها ، فإذا بها تراه اليوم نذيرا بموت الحاجة .

ورنت إلى الحاجة فألفت هزالا وشحوبا وضعفا ، كانت الحاجة تحبو وعما قليل تنطفئ . غامت عينا زكية بالدموع فهي تحبها ، وتذكرت أن في موت الحاجة تأخيرا لزفافها فطفرت الدموع من عينيها . وخشيت أن يؤلم بكاءها الحاجة فهرعت إلى حجرة أخرى لتنفرد بأحزانها .

وبقيت الحاجة ممددة في فراشها ، وانشغل أهل البيت في أعمالهم ، وأخذت قدم خير تعمل معهم لتعد للحاج طعامه ، وكانت بين لحظة وأخرى تطلق ضحكة خليعة ترن في البيت جميعه ، وتصبك أذى الحاجة فتبز جسمها المحموم ، وتضيق من أنفاسها ، وتحرك غيرتها . إنها تمقتها أشد المقت ، وتتمنى أن تموت قبلها ولو بساعة واحدة لتموت في طمأنينة وهدوء .

ووفد الليل ، وعاد الرجال إلى الدار ، وكان كل منهم يذهب إلى الحاجة ليراها قبل أن يدخل شقته ، وجلس محمد بجوار أمه ينظر إليها في عطف وكانت مسيلة عينيها وقد بان الفناء في وجهها ، فحركت رأسها في وهن . وفتحت عينيها ، فرأت محمد إلى جوارها ، فأشرق وجهها الذي شحب وتلون بصفرة

الموت ، ومدت يدها إليه ، فتناولها بين يديه ، وجعل يضغط عليها في رفق
وحنان ، وتحركت شفتاها بالكلام ، فأنصت محمد :
— وصيتى إليك ألا تدع أباك يتزوج بعد موتى .
فأطرق الحاج أسعد ولم يحرك ساكنا ، واستمرت الحاجة في وصيتها :
— إن أباك كبر يا محمد ، فإذا تزوج جعلكم أضحوكة الناس ، وصار
العوية النسوان .

فأربد وجه الحاج أسعد ، وأحس بما يحس به المطعون في كرامته ، وهم أن
يزدود عن نفسه وأن يرد عن الحاجة فريتها . ولكنه وجد أن المجال ليس مجال
مقارعة وجدال ، فسكت على مضض ، وازدرد الإهانة على كره .

ومرت أيام فزادت حالة الحاجة سوءا ، وأصبح صدرها كمنفاخ كبير . ثم
ضاق تنفسها حتى كأنها تنفس من ثقب أبرة . وتعلقت بها العيون ، ثم
لفظت نفسا لم تستنشق غيره ، فانهمرت الدموع من العيون غزيرة ، وأخذ
النسوة يجهزن فراشها في وسط الغرفة ، ثم غيرن ملبسها وحملنها ووضعنها في
الفراش النظيف ، ثم أسرع كل منهما لتبديل ثيابها الملونة بثياب سود ، ولما تم
تجهيز كل شيء ، وأصبحت الدار معدة لاستقبال المعزين ، انطلق الصوات من
حناجر سليمة ، فطوف بالحى موحشا يقبض القلوب ويذهب بالألباب .

وهرع النسوة من كل صوب وحذب كأنما كن والصوات على ميعاد ،
واندفعن إلى الدار التى لم تستقبل من قبل أحدا ، فإن أهلها منطوون على
أنفسهم لا يزورون ولا يزارون ، وجاءت أم عباس الندابة تهرول في خفة ،
وتستفسر متفتحة النفس منبسطة الوجه عما جرى . فلما علمت أن الحاجة
قضت ترحمت عليها ، وأظهرت حزنها ؛ كانت حزينة نوعا ، فإن الموت لم
يقبض أيفع من فى الدار فتدوى دفوفها ليالى المأتم الثلاث ، ويملجلج الصوت

بالندب ، وتطرب أذناها بالعويل ، ثم تقبض بعد ذلك الجنيهاً ! .
وذرفت النساء الدموع الغزيرة وبكى الرجال أحر البكاء ، وخيم على الدار
الوجوم ، فقد كان هذا أول رزء ينزل بهم ، فما عرف الموت بينهم قبل الآن ، وإن
كان سيعرفه بعد الآن ، وسيزورهم بين آن وآن ، ولو أنهم عرفوا ما يخبئه لهم
الزمن في طياته ، لوفروا دموعهم ليوم تلمس فيه الدموع فلا تجود بها المآق .
وانقضت أيام المأتم الثلاثة ، وشاء الحاج أن يذهب إلى شقته لينام ، ولكن
محمدًا شاء ألا يدع أباه وحيداً بعد موت الحاجة ، فأمر أن ينقل فراشه عنده ، ولم
ير أن يتركه وحده في غرفة بجوار غرفته ، بل رأى زيادة في إكرامه أن ينام الحاج
معه في حجرة واحدة ، فوضع فراشه في غرفة نومه ، واندس محمد ونفيسة في
فراشهما ، ونام الحاج في فراشه الذى وضع قبالتها .

وخيم الحزن على الدار ، وتنافست النسوة في إظهار حزنهن ، فجعلت كل
منهن تحرص على ألا تطهو من الطعام الألوان التى تثير القيل والقال ، والتى تدل
على الفرح وهندء البال ، فما كانت تجرؤ إحداهن على قلى السمك أو صنع
المهلبية أو المشمشية أو أى صنف من أصناف الحلوى التى لا يتناولها الحزانى ،
فللحزانى طعامهم وللفرحين طعامهم ، كأنما كان على القم أن يشارك القلب في
الإحساس بلوعة المصاب ! .

وهبط النسوة ذات يوم إلى صحن الدار لتجهيز الطعام ، واحتجن إلى
طواجن كثيرة يوضع فيها اللحم ، فهرعت إحداهن إلى طواجن الحاجة
وأحضرتها ، فلما رأت زكية ذلك أحست حسرة ، وهاجت شجوتها ، وساءها
أن يرث جدتها زوجات أبنائها ، وخطر لها أنه لو كان للحاجة بنت لنعتهن من
استعمال حاجات أمها ؛ ولما كانت هى بنت ابنها ، فعليها أن تفعل ما كانت
تفعله بنتها ، فجذبت يد الهاون فى ثورة ، وجعلت تدق بها طواجن الحاجة دقا ،
(فى قافلة الزمان)

قرنا إليها النسوة في ذهول ، ولم تنبس إحداهن بكلمة . ولما أتت زكية على تركة جدتها ، انخرطت في البكاء ، فأحست براحة في بكائها .

١٢

فتح باب الغرفة التي تكدس بها جهاز زكية ، ودخلت أمينة تحمل منفضة من الريش الطويل وزكية تحمل مكنسة ، وراحتا تنظفان الأثاث وتزيلان عنه الغبار ، وفتحت زكية صوان الملابس ، وجعلت تنظر إلى الثياب العديدة الجديدة في لوحة وحسرة ، ولحت ثوب عرسها ، فتذكرت حلمها وأنها كانت تخطر في ثياب سود ليلة زفافها ، فغامت عينها بالدموع ، لقد كانت تحب أن تكون الحاجة حاضرة يوم فرحها ، فإذا بها تمضي وتخلف الأحران ، وتوجل زفافها إلى عام ، فلن يتم الزواج قبل أن تنصرم سنة الحداد !

وراحت نفيسة تلم ثياب الحاجة وتصرفها ، فما كان لأحد أن يرتدى تلك الثياب غيرها ، وفكرت في إعدامها فما ينبغي للثياب أن تبقى بعدها ، لقد كانت تتمنى أن تبلى الحاجة الثياب ، فإذا بالحاجة تبلى ، وإذا بالثياب باقية لا تبلى ، وهمت بتمزيقها ولكن نفسها الحرة أبت عليها ذلك ، وأوحت لها أن تفعل ما كانت تفعله الحاجة لو أنها خيرت ، كانت الحاجة تحب أبناء أختها ، وما كانت تبخل عليهم بشيء ، فلو أنها سئلت قبل موتها عمن تحب أن يرث ثيابها لما أشارت بغيرهم ، فعزمت نفيسة على أن تبعث بالثياب إليهم ، ولكنها لا تستطيع أن تتصرف في الثياب قبل انقضاء عام ، فانتظرت تنصرم سنة الحداد ! ودخلت أمينة حجرة نومها ، فألفت ابنها نائما على السرير وقد لف رأسه بذراعه ، ووضع رجلا فوق أخرى ، فابتسمت وخرجت من الغرفة تدعو

زوجها ، فلما دخل حسن ، ورأى الصغير في نومته ضحك ، فما كان حسن
ينام إلا كذلك ، فرت أمينة إلى زوجها وقالت :

— هذا ما ورثه منك .

فابتسم ، وأشار إلى شعر الطفل الأسود ، وسمرة وجهه وقال :

— وهذا ما ورثه منك .

وصممتا هنيهة ثم قالت في حسرة :

— سيؤخر موت الحاجة ختانه عاما .

فقال حسن مطيئا خاطرها :

— لا بأس فما أسرع ما تنقضى الأيام .

— كنت أحب أن أفرح به هذه الأيام .

— وما الذى يمنعنا أن نفرح به ؟ أهو الختان !

فضحكا وقالت أمينة :

— كنت أحب أن أراه فى حلته المخلاة بالقصب ، وقد تزين كنفاه

بالتيجان .

— ألبسياه حلته ، وانظرى إليه حتى تشبعى من النظر .

— إني أود أن يراه الناس جميعا فى العربة المكشوفة فى ثيابه الجميلة .

— لا تتعجل فما أسرع مرور الأيام . سينقضى العام ويتم الختان ، ثم تمر

الأيام وتنقضى الأعوام ويشب ممدوح ويتزوج ، وتفرحين بزواجه ؛ ثم تمر الأيام

وإذا بأبناء ممدوح فى أحضانك ، وإذا ...

فضحكت أمينة وقالت :

— كفى بالله لقد شبيبتى قبل الأوان .

فابتسم حسن وقال :

— فاصبرى إذن ولا تتعجلى حتى تشييك الأيام .

— لن أشيب أبدا ما دمت بجاني .

فالتفت حسن إلى ممدوح وقال :

— سيشيننا هذا وإخوته .

فمدت أمينة بصرها ساهمة ، كأنما تحاول أن تقرأ ما سطره الغيب لها ، ثم

غمغمت :

— إني أتمنى أن أنجب بنات .

— لم ؟

— إني وحيدة لا أخت لي ، فإذا أنجبت بنتا كانت لي أختا ، وإذا ماتت

وقفت يوم موتى تجهز خرجتى وتلقى العزاء في .

فابتسم حسن وقال :

— وما قيمة هذا إذا ما مات الإنسان !

فقالت أمينة في حرارة كأنما تدافع عن رأى خطير :

— ما قيمة هذا ! إن معرفة المرأة أنها خلفت بنتا تحضر وفاتها تجعلها تموت

مطمئنة ، والله إني بكيت يوم ماتت الحاجة على أنها لم تخلف بنتا أكثر ما بكيت

على موتها . مسكينة الحاجة ماتت غير مطمئنة .

واغرورت عينا أمينة بالدموع ، فلما لمح حسن دموعها لم يشأ أن يستمر في

حوارها حتى لا يعكر صفو الليلة التي ابتدأت مرحلة لطيفة ، فقال في لهجة

دعابة :

— بالله لا تبكى ، وأنجبنى ما يحلو لك من البنات .

واندس الحاج أسعد في فراشه وحاول أن ينام ولكن النوم جافاه ، وجعله

يتقلب فى الفراش ، وأحس ضيقا فقام من نومه وجلس ، وراح يمرر يده على لحيته الغزيرة الكتنة ، ثم نظر إلى جانبته فرأى الفراش الذى نام فيه محمد وزوجته هادئا وقد أسدلت عليهما الكتلة ، وبلغ أذنيه صوت تنفسهما فاضطرب وانقبض صدره ، أكتب عليه أن يمضى بقية أيامه فى غرفة ابنه وزوجته كأنما قد عاد طفلا صغيرا ! إنه قد ترك ذلك الطور من ثمانين سنة يوم كان ينام مع أمه وأبيه فى غرفة واحدة ، إنه يحس هوانا ، وإنه ليود أن ينام فى غرفة مستقلة ، ولا بأس من أن تكون بجواره امرأة تؤنس وحدته . إنه سيتزوج ما فى ذلك عار ، فقد تزوج الأنبياء والخلفاء أكثر من واحدة ، ولكنه سيتزوج مضطرا ، فقد ماتت زوجته وهو فى حاجة إلى من تخدمه ، فكيف يعيش رجل مثله عزبا ؟ أيود ابنه أن يدفعه إلى المعصية !

وعزم على أن يتزوج ، وعزم على أن يفتح ابنه فى رغبته ، ولكنه تذكر أنه لم ينقض على موت الحاجة سنة ، وأن ابنه قد يتعلل بذلك ، فقرر أن ينتظر الأشهر الباقية على مضض ، ثم يفتح ابنه فى أمر زواجه .

ولكن ما أصبح الصباح ، ونخرج محمد والحاج أسعد من الدار ليذهبا إلى الدكان حتى ألقى الحاج أسعد رغبة الإفضاء بحاجته إلى الزواج تراوده ، فحاول كتبها ولكنه لم يستطع ، فقال لابنه دون أن يلتفت إليه :

— أصبحت فى حاجة إلى من تخدمنى يا محمد .

فقال محمد متغاييا :

— إن كل من فى البيت يتمنون خدمتك يا أبى .

فصمت الحاج قليلا ، وراح يجمع أطراف شجاعته فقد عزم على ألا ينهزم

سريعا ، قال :

— إنى أعلم أن كل من فى البيت يتمنون خدمتى ، ولكن هناك حاجات لا

يستطيعون قضاءها لى .

— إنهم يقضون لك كل حاجاتك .

— مضت سبعة شهور منذ ماتت الحاجة ، ولم أجد من يدلك لى ظهري ،
إنى أحس كأنما الأوساخ تقرصنى .

وأخذ يحرك كتفيه كأنما يحاول أن يفر من قرص الأوساخ ، فقال محمد فى
نبرات حادة ليدخل الروح فى نفس أبيه :

— وما تريد الآن ؟

فقال الحاج فى صوته ضعيف :

— أتزوج .

فقال محمد فى إنكار :

— تتزوج ! هذا محال .

— أتزوج امرأة تخدمنى .

— محال .

وعاد إلى الحاج هدوءه فقد اجتاز أدق مرحلة فى الأمر : مرحلة الإفضاء
برغبته ، فراح يتكلم دون أن يضطرب بينا أخذ محمد يرتجف ، قال الحاج :
— إن الله لا يستحى من الحق يا محمد ، إنى لا أستطيع أن أعيش بغير
امرأة .

فأخذ محمد ، ونحسنى أن ينهزم ، فرأى أن يهاجم الحاج ، فقال له فى
سخرية :

— كيف تتزوج وقد بلغت الخامسة والثمانين !

فقال الحاج فى يقين :

— وما فى ذلك ؟ وقد عاش أبى إلى التاسعة بعد المائة وأنجب وهو فى السابعة
والثسعين .

وأفحم محمد فلم يدر ما يقول ، ولكنه رأى أن يستدر عطفه وشفقته فقال
في صوت متهدج حزين :

— تتزوج ولم يحف دم أمى في قبرها بعد ؟

فأطرق الحاج ، وصمت قليلا ثم غمغم :

— يا ليتها ما ماتت يا محمد ، والله ما خسرنا أحد غيرى .

وبلغا الدكان فاندجبا في عملهما وشغلا عن حديث الصباح ، حتى إذا
أمسى المساء عادا إلى الدار ، وعادت إلى الحاج فكرة الزواج . فما أن جلس في
غرفته وأقبل زوجات حفدته وزوجات أبنائه يجلسن معه ، حتى قال لهن وهو
يتلفت خشية أن يقبل محمد فيقطع عليه حديثه الذى أصبح يهواه :
— سأتزوج .

فتعلقت العيون الداهلة بوجهه ، فأدار عينيه في الوجوه المدهوشة ، فأحس
تلك النشوة التى يحسها شاب مقبل على مغامرة لذيذة ، واستمر في حديثه :
— سأتزوج من صبية ، أصغر منك يا أمانة ، وأحلى منكن جميعا .

فضحكت سكينه ، وابتسم الأخرىات ، أما زكية فلم تضحك ولم تبتسم
فقد حز قول جدها في نفسها . وغازل الحاج ضحك سكينه وابتسام الأخرىات
فقال في انفعال :

— والله لن أتزوجها إلا تركية .

وجاء محمد فسكت الحاج على مضض ، وسكتت النسوة ولكن سكينه لم
تسكت ، بل قالت لأبيها وهى تضحك وتغرق في الضحك :

— سيتزوج جدى من صبية تركية .

فأرشد وجه محمد ، فما كان يحسب أن أباه سيتحدث في هذا الأمر جهارا ،
واكفهر وجه زكية فما كانت تحب أن يسمع أبوها ذلك الحديث الذى يؤله ،

وأطرق النسوة متظاهرات بعدم الاهتمام وإن كن في قرارة نفوسهن يطمنين أن يستمر الحديث ليعرفن نهاية هذا الأمر . ولم تحس سكينه أثر قولها ، فراحت تقول وهي تضحك :

— وستزوجها أصغر من أمينة .

فقال محمد :

— من قال لك ذلك ؟

— جدى .

فشاء محمد. أن ينهى الحديث فى هذا الموضوع فقال لها :

— إنه يريد إضحاككن .

فلم يعجب ذلك الحاج أسعد فقال فى إصرار :

— بل أقول حقا . سأتزوج ، وسأتزوج من صبية تركية .

— لن تتزوج ما دمت أنا حيا ، أتود أن تجعلنا أضحوة ، إنك رجل كبيرت

فاحفظ وقارك .

— أحفظ وقارى ! إن الزواج هو الذى يحفظ وقارى .

— ما يقول الناس عنا ؟

— يقولون حرموا أباهم نصف دينه .

— بل يقولون تركوا أباهم العوبة فى يد امرأة ، ستكون أضحوة الحى .

— إنكم لا تخشون أن أكون أضحوة ، إنكم تخافون أن اتاكم بوريت

جديد .

— بالله كفى .

— لن أسكن حتى أتزوج .

— خفض من صوتك لئلا يسمع الجيران فضيحتنا .

— أفى زواجى فضيحة ، والله لأصرخن بأعلى صوتى ، سأتزوج ..
سأتزوج .

فأحس محمد نارا تشوى وجهه ، وكأنما يد قوية تكتم أنفاسه ، فغمغم فى
جهد :

— إنك ستذهب بعقلى ، ستدخلنى بیمارستان .

فقال الحاج أسعد فى عناد :

— أريد أن أتزوج ، فما فى ذلك ١٩

ففند صبر محمد وملاه الغضب ، ولم يجد منفسا لغضبه إلا قميصه ، فقبض
على جيبيه بكلتا يديه وشقه ، فبان لحمه الأبيض ، فأسرع النسوة إليه يسترنه ،
ونفض الحاج أسعد وخرج من الغرفة فى خطوات وثيدة كأنما لم يفعل شيئا .

١٣

داعب آذان النوم صوت المنادى قبل الفجر : « الصلاة يا مؤمنين
الصلاة ، الصلاة خير من النوم » ، فهب أهل البيت من رقادهم ، وقام النسوة
بجهز أنباءهم المرضى لزيارة ضرائح الأولياء فى الفجر يلتمسون البرء من
أسقامهم ، وفتح باب الدار فى عماية الصبح وخرج ثلاث خادعات يحملن
ثلاثة أطفال ، وما بلغن الشارع الرئيسى حتى افترقن ، فما كن ذاهبات إلى
ضريح واحد ، فإن الأطفال لا يشكون من مرض واحد ، فلكل طفل مرضه ،
وإن المشايخ لا يشفون أى مرض كان فلكل شيخ مرض يشفيه ، لقد عرفوا
التخصص قبل أن يعرفه الطب الحديث !

فسيدى البيدق يشفى من الصداع ، ويزوره المرضى بعد صلاة العصر ،

فسره الباتع يتجلى بين العصر والمغرب ، وأولاد عنان يشفون المرضى المهازيل ، وسيدى الشعراوى يشفى مرضى النفس والحسد ، ولابد من زيارة ضريحه مرتين فى اليوم فى الفجر وعند الغروب ، إنه كبعض الأطباء الذين يحتمون على مرضاهم عيادتهم فى اليوم مرتين وإن لم يكن هناك ضرورة ! أما السيدة نفيسة فيزورها مرضى العيون ، ولما كانت كريمة لا ترد سائلا ، فلم يحدد لزيارتها وقت ما ، بل يقدم ماء بحر الضريح طول النهار لتغسل به العيون الذابلة المريضة .

ولم تبتع أمينة بابنها المريض مع الخارجين ، فإنها تعلم سبب مرضه وهزاله ، إنها قد حملت فغار ممدوح ومرض ، وإنها تعلم أن المتخصص فى أمراض الغيرة هو سيدى الجلشائى ، ولكن سيدى الجلشائى كأولئك الأطباء الذين يحترمون المواعيد ، فلا بد أن يزور المرضى ضريحه وقت أذان العصر بالضبط ، فإن بركاته تفيض فى أثناء الأذان فتذهب بالغيرة النازلة بصدور مرضاه الواقفين ببابه .

وأشرقت الشمس ، ودبت الحياة فى الكون ، وذهب عباس إلى بيت الحاج أسعد وطلب مقابله ، وكان عباس طفلا ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد أدخل الطريق الموصل إلى غرفة الحاج أسعد من النسوة والبنات قبل أن يؤذن له بالدخول .

ودخل عباس على الحاج أسعد وقال له :

— أمى تود مقابلةك .

— لم ؟

— تريد أن تشتري منك القاعة .

فلم يأذن لها الحاج أسعد بمقابله فى داره ، فإنه يحب ألا يدخل أحد بيته ،

وقال لعباس :

— سأمر عليها عند خروجى إلى الدكان .

لقد ادخرت أم عباس الندابة ثمن القاعة ، وعما قليل تصبح من الملاك .
وجلست أم عباس على باب قاعتها ترقب خروج الحاج أسعد ، وقد أعدت
كانونا بجوارها لتجهز عليه القهوة إذا أقبل الحاج وابنه . ولحّت الحاج مقبلا وحده
فقامت تستقبله ، وتهلل وجهها القبيح فبدت أسنانها الصفراء الكريهة ،
وشاءت أن تدخله القاعة ولكنه اعتذر وفضل الجلوس على بابها ، فما كان يود
أن تقتله رطوبة القاعة أو تخنقه رائحتها .

كانت أول مرة ترى فيها الحاج وحده ، إنها منذ نزلت القاعة لم تره إلا في رفقة
محمد ، وعلى الرغم من أن للحاج ابنين آخرين ، فما كان يرافقهما أبدا ،
وشاءت أم عباس أن تبدأ الحديث ، فسألت :

— وأين اسم النبي حارسه سي محمد ؟

— غضبان .

— غضبان ؟ ممن ؟

— منى .

— وهل يغضب منك أحد ؟

فصمت الحاج قليلا ، ورأى الفرصة سانحة ليخوض في الحديث الذى

صار يشتهى أن يردده ، فقال :

— أبديت رغبتى فى الزواج فغضب .

وشاءت أن تكسب الحاج فقالت :

— لا ، إنه محقوق ، ليس له أن يغضب ، إن عليه أن يرى راحتك .

— إنه يرى أننى أصبحت لا أصلح للزواج .

فقالت فى تملق :

— أبدا والله ، إن من يرك يحسبك أصيبى منه .

فتملك الحاج أسعد زهو ، فقال فى ثقة :

— سأتزوج وأثبت لهم أنى ما زلت فنيا .

— تزوج . ومن له أن يمنعك من الزواج ؟

ودار الحديث بين الحاج وأم عباس الندابة هنية ما انقضت حتى أصبحت القاعة ملك أم عباس ، وحتى تجدد عزم الحاج على استئناف القتال فى سبيل الزواج ، إنهم يريدون أن يحرموه نصف دينه فحق عليه الجهاد !

ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، ثم مالت إلى الغرب قليلا فما يبقى على أذان العصر إلا ساعة ، فألبست أمينة ابنها ثيابا نظيفة ، ثم دفعت به إلى خادم لتذهب به إلى سيدى الجلشائى قبل أن يؤذن المؤذن ، ولتسقيه من الماء الذى يوزعه مغاربة أوقفوا حياتهم على خدمة الجلشائى ، إن ذلك الماء يغسل الغيرة من الصدور ، ويجعلها راضية مطمئنة .

وخرجت الفتاة تحمل ممدوحا ، وكانت فتاة تحب الخروج ، فأخذت تتلفت هنا وهناك وتنظر إلى هذا وذاك ، وسارت فى شوارع المدينة المتعرجة حتى بلغت بوابة المتولى ، فرأت خرقا كثيرة معلقة بها : هى قطع من عصابات النساء اللائى كن يشكين الصداع ، فالشفاء من الصداع مؤكد ما دامت الخرقه معلقة يرفرف بها الهواء ، فما حاجتهن بعد ذلك إلى أسيرين أو أسبرو أو أسبيرون . وأوجت الفتاة إلى نفسها أنها مصابة بوجع الرأس ، فأحست كأنما تحس ألما ، فأزاحت ملاءتها عن رأسها ، وفكت عصابة فتهدل شعرها ، وكان شاب يراقبها فرأى الطفل يعوق حركتها ، فاقرب منها وحمل الطفل عنها ، فابتسمت ولم يبد عليها استياء ، ومزقت طرف منديلها وأخذت تثبت فى بوابة المتولى ، وهى ترنو إلى الشاب وتضحك .

وارتفعت أصوات المؤذنين من المآذن العديدة القريبة ، فهرع الناس إلى

المساجد يصلون العصر ، وبلغ الأذان سمع الفتاة ، ولكنها لم تتحرك ولم تهرع إلى سيدى الجلشاني الذي كان على قيد خطوات منها لتسقى الطفل « ماء إزالة الغيرة » فإنها كانت نشوانة، وما كانت تحب أن تحرم تلك النشوة .

واقتربت الشمس من المغيب ، فعادت الفتاة منشرحة تحمل كعكة مرصعة بالسحسم وورقة بها ترمس ، وهذا أصدق دليل على أنها أمضت وقتها عند سيدى الجلشاني رضى الله عنه وأرضاه !

وأغلق الحاج أسعد دكانه . وسار ومحمد صامتين ، ثم قال الحاج أسعد في انكسار طمعا في أن يكسب قلب ابنه :

— لم تعمل على تنغيصى يا محمد ؟

— أنا أعمل على تنغيصك ! إني لا أعمل إلا على راحتك .

— لو كنت تعمل على راحتى ما عارضت فى زواجى .

— لو أننى أعلم أنك ستستريح فى الزواج لزوجتك بنفسى .

— وما أدراك أنى لن أستريح فى الزواج ؟

— لكل شىء أوان ، وقد مضى أوانك .

فأحس الحاج أسعد ضيقا وقال فى ثورة :

— والله إني أصبى منك ، وسأتزوج .

فقال محمد فى قسوة :

— تزوج ... تزوج امرأة تأتيننا بغلام تلحقه بنا ونحن لا ندرى من أبوه .

فوجم الحاج ، وأحس كأنما انهار جدار على رأسه ، فما كان يحسب أن ابنه يصفعه تلك الصفعة القاسية ، لقد عاش شريفا نظيفا ، فما كان له أن يلوث شال عمامته بعد هذه السن .

وبلغا الدار والحاج صامت ، وإن كانت فى نفسه ثورة وفى فكره أشباح

ونخيلات .

واجتمع أهل الدار في الليل كما اعتادوا أن يجتمعوا كل ليلة ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وارتفعت أصواتهم والحاج في صمته وسكونه . كان في عالم آخر ، يفكر فيما قاله له ابنه فيغتم وينقبض صدره ، ويحس كأنما نار تلسع قلبه ، وكأنما يد قوية تكتم أنفاسه ، وضاق بألم نفسه فلم يستطع أن يكتمه ، فرفع بصره إلى السماء وقال من قلب مكروب :

— الله ينكد عليك يا بنى يا محمد .

١٤

الحى فى حركة غير مألوفة ، والفلاحون يفدون زرافات ، والفلاحات فى ثيابهن الداكنة فرحات مستبشرات ، فالיום مولد سيدى البيومى ، والتج الضريح بالوافدين ، وغصت الطرقات الضيقة المؤدية إلى الضريح بالرجال والنساء والمجاذيب ، وعربات الترمس والقلل القناوى ، وعربات اليد جهزت لتكون مقهى متنقلا ، وعربات صفت فوقها أساور الزجاج بألوانها الزاهية البراقة ، تجذب أبصار الفلاحات الساذجات فتبهن عليهن من النقود ، ويدفعن ما يطلب منهن راضيات مغتبطات .

وأقبل أصحاب النذور يوزعون على الشحاذين والفقراء أرغفة الفول النبات ، ويضعون أمامهم أناجر الفتيت ، ويفرقون عليهم النقود ؛ وكان الحملية يخترقون الجموع يحملون قدورا شدت إلى صدورهم ، وبأيديهم كئوس يملئونها بالماء ليطفئوا غلة الظامئين ، وينقلوا جراثيم الأمراض فى يسر ، وهم يهتفون :

« عطشان سبيل » .

ووفد أتباع البيومي في موكب عظيم ، فجعلت أصوات الدفوف ، وجاوزت الحى فهرع الصبيان من أزقة الحسينية وحاراتها يشاهدون الحدث العظيم ، وأخذ من في الموكب يرددون في أصوات عالية منغمة : « مدد مدد يا بيومي ... مدد مدد يا بيومي » . وبلغ الضجيج آذان النسوة في دار الحاج أسعد ، فأسرعن إلى السطح لعلهن يلمحن شيئا من بعيد ، وداعت أصوات الدفوف أذنى سكيئة ، فأحست كأنما سحرت ، وكأنما تلك الدفوف تدعوها ، فانسلت من بين أهلها . ونزلت في الدرج مسرعة ، وراحت تعدو في الحارة حتى بلغت الجموع ، فوقفت تنظر في غبطة وسرور غلمانا أقوياء قدرين يحملون رايات سوداء . ورجالا حفاة يتعممون بعمائم حمراء ويتأيلون بأجسامهم ينشدون : « مدد مدد يا بيومي » ، إنها تحس دقات الدفوف تدغدغ قلبها ، وأصوات الهاتفين تشيع في روحها خدرا لذيذا .

وانتهى مرور الموكب ، فلم تعد سكيئة إلى الدار ، بل ألقت قدمها تدفعها للسير مع الجموع ، فانطلقت حتى بلغت الضريح ، ووجدت نفسها تجرف في تيار الناس المتدفق ، فلم تعد تدري إل أين تسير ، وحاولت أن تفر من ذلك الزحام البغيض لتعود إلى الدار فلم تقدر ، وأحست أنفاسها تضيق ، وخنقتها عبراتها ، ولكنها لم تقدر حتى على البكاء ، وتصبب العرق منها ، وراح يسيل على وجهها ويدخل عينيها فيؤلمها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفع يدها لتجففه أو تبعده عن عينيها ، وراحت تقاوم وتجاهد حتى خرجت من الزحام ، مبهورة النفس تكاد تسقط من الإعياء .

ووقفت على ناصية الطريق تلتقط أنفاسها ، وتسترد روعها ، ورفعت عينيها فتملكها رعب شديد ، فقد رأت أخاها أحمد مقبلا في أصحابه ، وقد رآها أحمد ولاشك ، فقد التقت عيناه بعينيها ، وقد اكفهر وجهه وبان

الغضب فيه . ارتجفت سكينه وأحست فرقا ، فراحت تعدو إلى الدار في فرع ؛ حتى إذا ما بلغت المسط المهجور زاد فرعها ورعها ، فقد خيل إليها أن عفريت صباح يجد في أثرها ، وشاءت أن تصرخ ولكن حبس صوتها . وبلغت الدار وأغلقت الباب خلفها ، ولكن لم يسكن روعها ، فراحت تسرع في الدرج حتى دخلت على أمها مدعورة فلما رأتها نفيسة مقطوعة النفس مرعوبة مضطربة ، قامت إليها وقالت :

— ما بك يا سكينه ؟

فقالت في صوت متقطع كان يخرج مع أنفاسها المضطربة :

— رآني أحمد في المولد .

فقالت نفيسة في انكار :

— في المولد ! يا نهارنا الأبيض !

وأحست نفيسة حزنا ما لبث أن امتزج برهبة ، حزنا على أن سكينه خرجت إلى المولد منسلة ، ورهبة مما سيحدث عما قريب ، إنها تعلم أن أحمد قاس لن يغفر تلك الزلة ، وكيف يغفر خروج أخته التي بلغت الثامنة لتندس بين الرجال في ذلك الزحام الفظيع ! . وقالت نفيسة في عتاب مرير :

— ولم خرجت يا سكينه ؟ وما نفعل الآن ؟

فأطرقت سكينه في خوف وألم ولم تحرك شفتيها ، فتمحرت شفقة نفيسة

فقالت لابنتها :

— ادخلي إلى فراشك ونامي ، ولا تنهضي في الصباح حتى يخرج أحمد .

فانطلقت سكينه ذليلة ، وان্দست في فراشها ، ولكن لم تغمض لها عين ، فهي تخشى أن يقبل أحمد ويضربها على ما اقترفت من ذنب ، ولم تهدأ نفس نفيسة ، واستمرت قلقة على ابنتها تخشى المجهول ، إنها تخشى أن يأتي أحمد

بشره فيضربها في قسوة فيترك بها عاهة أو يقتلها ! إنها ما كانت تظن أن هناك ضربا لا يؤذى الجسد أو يفضي إلى الموت ، وإنها لتبغض الضرب أشد البغض لا تطيق أن ترى أحدا يضرب ، فما بالك لو كان المهدد بالضرب هي ابنتها ؟ واجتمع أهل الدار في الليل يتسامرون ، وبقيت نفيسة في قلق شاردة اللب مبللة المخاطر على وجهها وجوم . ودخل أحمد وقد احمر وجهه يتطاير الغضب من عينيه . فلما رآته أمه غاص قلبها واضطرب ، وتعلقت عيناها به ، وراحت ترقبه في وجل . وصاح أحمد في غضب :

— أين سكينته ؟

فقالت نفيسة في صوت متهدج مرتعش :

— نامت .

فقال أحمد في ثورة :

— والله لأوقظنها ولأضربنها حتى تقطع النفس .

فقالت نفيسة في توسل :

— أحمد لا ترهب البنت .

وقال الحاج أسعد :

— ماذا جرى ؟

فقال أحمد في صوت ناثر عال :

— رأيتها اليوم في المولد مندسة بين الرجال .

فسكت الجميع .. كان ذلك ذنباً حقاً .. فتاة في الثامنة من عمرها بين الرجال !

وتحرك أحمد ليقتمحم غرفة سكينته ، ولكن أمه اعترضت سبيله ، وقالت في توسل :

(في قافلة الزمان)

— دعها يا أحمد وكفاها ما هي فيه من رعب .
وحاول أحمد أن ينحى أمه عن طريقه فسالت عبراتها ، فلما رأى حسن
دموع أمه تحركت شجونه ، فقال لأخيه الأكبر :
— دعها يا أحمد الليلة ، وفي الصباح نفهمها أنها أخطأت .
فقال أحمد في انفعال :
— إنها ليست صغيرة .
فقال حسن ليهدئ من حدة أخيه :
— إنها لن تعود لذلك مرة أخرى .
فقال أحمد في ضيق :
— إنكم ت تلفونها بليكنكم ، والله لأترككن لكم البيت .
ثم خرج ثائرا كالعاصفة ، ونهض من في الغرفة ينسلون واحدا في إثر
واحد .

١٥

صلى الحاج أسعد العشاء ، وقام إلى الغرفة التي اجتمع فيها أهل البيت ،
وهم أن يأخذ مكانه بينهم ، وإذا الباب يطرق ، فهرعت قدم خير لترى
الطارق ، ثم عادت تقول :
— فريد أفندى تحت في المنظرة .

فنهض الرجال الموجودون لاستقباله ، فقد كان نسيبا لهم ، ونزلوا إلى
المنظرة يؤانسونه ، وراح فريد أفندى يتحدث عن نفسه ، ويقص تنفا بما
صادفه من مفارقات ، فيتسمون طورا ، ويضحكون طورا ، وأرضى فريد

أفندى إقبالهم عليه ، فاستمر في قصصه حتى مضى من الليل ثلثه أو أكثر قليلا ، فاستأذن وانصرف ، وقام الرجال إلى شققهم متأخرين ، فما اعتادوا أن يسهروا كذلك ، ولكن لا بأس فإنها ليلة ولن تعود .

ولكن ما صلى الناس صلاة العشاء في اليوم التالي حتى سمع طرق على الباب ، لقد جاء فريد أفندى ليحضر سهرته عندهم ، فلم يهبط لاستقباله إلا رجلا ، وراح فريد أفندى يتحدث والرجلان يتسلمان غصبا ، وبان عليهما الضيق والضجر واستمر فريد أفندى في حديثه ، فتشاءب أحدهما كأنما يومئ إليه بالاستئذان والانصراف ، ولكن فريد أفندى لم يفتن لشيء من ذلك بل استمر في ثرثرته التافهة ، والرجلان يتمللمان في حلق ، ولولا بقية من حياء ، لطلبا منه أن يتفضل بالانصراف .

واستمرت زيارة فريد أفندى لهم كل ليلة ، واستمر إعراضهم عنه وإظهار سأمهم منه ؛ ولكن فريد أفندى لم يلتفت إلى إعراضهم ، ولم يهتم بسأمهم . فحسبه أن يتكلم وأن يجد من يستمع إلى كلامه .

وفي يوم جاء أحمد إلى الدار وفي يده صندوق عجيب ، وهرع إلى شقته متلهل الأَسَارِير ، ثم عاد إلى حيث اجتمع أهله ، ووضع الصندوق بينهم وفتح غطاءه ، فنظروا إليه جميعا مستغربين وسألوه :

— ما هذا ؟

فقال لهم وهو يضحك :

— انتظروا وسترون العجب العجائب .

ووضع إبرة على أسطوانة كهيئة الكوب تدور ، فانبعث صوت يتكلم . فارتجف الحاج أسعد وحوقل وبسمل ، ولاح الذهول في وجه الجميع ، واقتربوا من الصندوق ينظرون ، ورفع أحمد الإبرة خشية أن يتلف الجهاز ،

وصاح فيهم :

— عودوا إلى أماكنكم حتى تستطيعوا أن تسمعوا .

وحدث في الغرفة هرج ومرج ، وضجيج وعجيج ، وراحوا جميعا

يتساءلون :

— ما هذا يا أحمد ؟ ما هذا يا أحمد ؟

فيقول لهم في صوت عال :

— فونو غراف .. فونو غراف .

ولم يكن في قوله ما يشفى غليلهم ، فما يدرون ما يقصد « فونو

غراف » ، وعلام تدل هذه اللفظة ، وما وراءها ، فعادوا إلى أماكنهم

وجلسوا صامتين يتطلعون في تشوف إلى الصندوق العجيب .

ووضع أحمد الإبرة على الكوب الدائر ، فانبعث صوته يقلد قدم خير حينما

والحاج أسعد حينما ، ويقلد نفيسة والنسوة الأخريات حينما آخر . راح

الصوت يجلجل في الغرفة : « من الذى طرق الباب . فريد أفندى . وما يريد

سى فريد ، جاء أثقل خلق الله ، قم يا محمد لاستقباله ، لا إني تعب اليوم

فليقبله أحد غيرى ، قم يا إبراهيم . والله ما أقوم ، إنه رجل ثرثار ينام النهار

ليقلق راحتنا في الليل ، إننا أناس وراءنا أشغال . عيب يا أولاد فلينزّل أحد

ليجلس معه ... دعوه وحده ليلة فلا يعود أبدا ، ما أفضع الضيف الثقيل ...

قم يا أحمد وقابل الرجل ... » .

وارتفعت ضحكات السامعين ، وهاجوا وماجوا فلم يسمعوا الطرق على

الباب الخارجى ، ودخلت قدم خير وقالت وهى تضحك :

— فريد أفندى في المنظرة تحت .

. فأصرع أحمد إلى الأسطوانة في اضطراب ، وراح يمسحها على عجل

ليزيل ما سجله حتى لا يبلغ فريد أفندى فيغضب . وكان الغضب قد ملأ صدر الحاج أسعد ، فصاح فيه :

— قم من هنا بآلتك التي صنعها الشيطان .

— لن أبرح هذا المكان .

— والله إن لم تقم لأحطمها تحطيمًا .

فقام أحمد غاضبا وقال :

— والله لأترك لكم البيت .

وحمل الصندوق وترك الدار ، وارتسم الأسى في وجه الحاج أسعد ،

ونزل به هم ثقيل ، فراح يغمغم :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، اقتربت الساعة وتكلم الحديد .

ونهض متاثقا منكسر القلب ، منقبض الصدر ، واستقبل القبلة ، وراح

يصلى في خشوع ، ثم رفع كفيه والدموع تسع من عينيه فتبلل لحيته الكثة ،

وقال :

— اقتربت الساعة وتكلم الحديد . ولا تقوم الساعة إلا على الكفر

والضلال ، اللهم ثبت إيماني ، وأمتني على ملة الإسلام .

ودخلت زكية لتنام وهي تفكر في « الفونوغراف » ، فتذكرت يوم

دخلت على جدها فرأته ييكي ، فلما سألتها : « سيأتي أوان تخرج فيه

النساء عرايا سافرات الوجوه كاشفات الصدور ، ويتكلم فيه الحديد » ،

هو الحديد قد تكلم ، ولم يبق إلا أن تخرج النساء سافرات . وما فكرت في

هذا حتى أحست خجلا ، فسحبت اللحاف على وجهها ، واستسلمت

للنوم .

انقضى عام على موت الحاجة ، فرأى الحاج أسعد أن من حقه أن يتزوج ، فقد صبر طويلا ، وذاق مرارة الحرمان ، فلم لا يدعونه يحيا الحياة التي يريدونها ؟ .

إن محمدا يعارض في زواجه لأنه يود أن ينفذ وصيته للحاجة ، وما كان للحاجة أن تحجر عليه بعد موتها ، وما دفعها إلى التماس هذا الطلب الأناني إلا غيرتها ، فإنها لا تود أن تتمتع غيرها برجلها ، ولو شاءت الحاجة أن تنصفه لقاتل ابنها بعد موتها : « وصيتي إليك يا بني أن تزوج أباك بعد موتي ، فإن أباك لا يطيق أن يعيش بلا زواج » ، ولكن أين المرأة المنصفة التي تتنازل عن بعض حقوقها ولو بعد المبات ! .

إن الحاجة ظلمته ، وإن محمدا ينفذ الحكم الجائر في قسوة وصرامة ، ولكنه لن يخضع لظلمهم وتعتهم بعد اليوم .. سيخطب بنفسه وسيتزوج دون أن يعلمهم ، فيضعهم أ.. الأمر الواقع . ولكن أيفعل ما يفعل الشباب الطائش ؟ أكون قدوة البيت ويحطم تقاليد البيت ؟ أحر به أن يفتح ابنه ويناقشه ويجادله ، ويرغمه على النزول عن رغبته .

قال الحاج لابنه :

— انقضى عام على موت الحاجة .

فقال محمد معقبا :

— ما أسرع مرور الأيام .

ما أسرع مرور الأيام ، أجل ما أسرع مرورها . إنه لا يحس الليل الطويل

فهو ينام وزوجه ملء جفنيه بينا يمضى هو أغلب الليل مسهدا وحيدا . إنه ما عرف الأرق وما أحس السأم والملل إلا بعد الحاجة ، فلو أنه تزوج لمرت الأيام سهلة هينة ولقال ما يقوله ابنه الآن : ما أسرع مرور الأيام . ولم الحاج أطراف شجاعته وقال :

— إني لا أدرى متى أموت ، فقد تطول لى الأيام . فلماذا أعيش ما بقى من أيامى وحيدا ؟

فقال محمد فى عجب :

— من قال لك إنك وحيد ؟ إنك تعيش معى وتنام فى حجرى .

فقال الحاج فى انفعال :

— وما أفعل بك ؟

فابتسم محمد وقال :

— وما تريد ؟

— أتزوج .

وشاء محمد أن يرضى الحاج وألا يعارضه ، فقد علم أنه كلما عارضه

ازداد تشبثا وإصرارا ، فقال له :

— سأزوجك بعد أن أنتهى من زواج الأولاد .

— أى أولاد ؟

— زكية وسكينة .

— أنتظر حتى يتم زواج زكية ، فهى تتزوج بعد أيام ، أما سكينة فلا .

— ولن يتأخر زواج سكينة طويلا فإن مختار قد كبر .

فقال الحاج فى ضيق :

— والله ما أدرى ما علاقة زواجى بزواج زكية وسكينة .

— اصبر .

— سأصبر ، وستزوج زكية وستزوج سكينه ، وستطلب منى من بعدها أن أنتظر حتى يتزوج ابنك الذى لم يمش بعد .
فابتسم محمد ولاذ بالصمت ، واستمر الحاج يتحدث ليثبت حقه فى الزواج .

ودخل حسن على زوجته يسألها هل عزمت على ختان ممدوح يوم زفاف زكية ، فقالت أمينة :

— إني أود أن أفرح به .

— وما يمنعنا أن نفرح به ؟

— لأنهم لن يفعلوا شيئا ، إنهم حزاني على الحاجة .

— وما نفعل ؟

— ننتظر حتى يأتينا الفرج .

واجتمعت الأسرة وراحوا يتحدثون عما يفعل ليلة الحناء ، فاتفقوا على ألا يفعلوا شيئا ، فإن موت الحاجة يحز فى نفوسهم جميعا .

ودخل أحمد وعلم بما اتفقوا عليه ، وقال :

— إن هذا لن يكون .

فقال أبوه :

— ولم يا أحمد ؟ لم ينقض على موت الحاجة إلا سنة ، فما يقول الناس

عنا ؟

— كلنا سنموت .

فقالت نفيسة :

— عيب يا بنى ، إن دموعنا لم تجف عليها لحظة ، ثم نحضر الطباخ ونطعم

الناس ونقيم الأفراح ونغن حزاني ، إن هذا لا يكون أبدا .
— إنكم تحبون الحزن وتفرون من الفرح ، فليعطكم الله مما تحبون .
فقالت سلفة نفيسة :
— ما كانت الحاجة تستحق منكم هذا .
فغضب أحمد ، وثار وهب منتصبا وهو يقول :
— والله لأترك لكم البيت .

وخرج أحمد ، وما كان خروجه يخيف أحدا ، فهم جميعا يعلمون أنه
يتصيد الفرص ليغضب حتى يخرج ويمضى سهرته مع أصحابه .
وجاءت ليلة الحناء ، فعجنت قطعة صغيرة لا تكفى إلا العروس ،
وراحت زكية تضعها في يديها ، وأقبلت سكينه وطلبت أن تتحنى فزجرها
أمها فأخذت تصرخ ، وشاء بنات الدار أن يخضبن أيديهن فنهرن فأخذن
يكيبن ، وتذكرت زكية الحاجة فبكت وبكى الحاضرات .

١٧

وساد شقة أمينة هدوء وسكون بعد الحركة التي استمرت أكثر من
ساعة ، وانتشرت أبخرة الماء المغلي ، وامتزجت بدخان البخور ، وجاء الحاج
أسعد بقامته الطويلة المديدة ودلف إلى الحجرة التي كانت تنام فيها أمينة ،
ورأى حسنا جالسا على مقعد بالقرب من زوجه ، فابتسم وقال لأمينة :
— حمدا لله على سلامتك .
— الله يسلمك .
— يترنى في عزكم .

— يدوم عرك .

وقدم حسن لجده مقعدا ، فجلس وقال :

— وما نويتم أن تسموه ؟

فقالت أمينة وحسن معا :

— أسعد .

فبان الرضا في وجهه ، وشاء أن يجاملهم كما جاملوه ، فقال :

— لو أنجبتم ممن سأزوج طفلة لأسميها أمينة .

فابتسم حسن ، وأشرق وجه أمينة سرورا ، وصمت الحاج أسعد قليلا

فتذكر أنه لم ينبج من الحاجة بنتا فقال :

— ولكنى لا أنجب بنات ، إني رجل قوى لا أخلف إلا رجالا ، فلو

خلفت ممن سأزوج طفلا لأسميته حسنا .

وشاعت غبطة في الحجر ، ولو استأذن الحاج ونهض في تلك اللحظة

لكان اليوم من أيام أمينة السعيدة ، ولكنه شاء أن يداعب حسنا فقال :

— وإني أرى أن حسنا قوى كجده ، فلن يخلف إلا ذكورا .

ثم نهض وانصرف ، وبقيت أمينة ساهمة ، فرنا إليها حسن وسألها :

— ما بك ؟

— لا شيء .

— ولكنك غير راضية !

فقالت وهى تحاول أن تخفى تأثرها :

— أما سمعت ما قال الحاج ؟

— وما قال ؟

— قال إنك مثله لن تخلف إلا ذكورا .



.. وایی آری آن حسنا قوی کجده فلن یخلف إلا ذکورا

فضحك حسن وأقبل عليها :

— ما هذا العبط ! أدخل الحاج في علم الغيب ؟ غدا تخلفين بنات حتى
تقرفي منهن .
— لن أقرف منهن أبدا .

ومرت أيام وشهور ، وخيم على الدار قلق ووجوم ؛ فإن إبراهيم ابن الحاج
أسعد سقط مريضا ، واشتد عليه المرض وبدا يريق عينية يخجو وعلت وجهه
صفرة الذبول ، وجلس الحاج أسعد إلى جوار ابنه الشاب المسجى في فراشه
ينقل عينية بينه وبين أبنائه الصغار الذين تعلقت عيونهم بوجه أبيهم ، فيحس
كأنما يطعن قلبه خنجر . إن الحاج يشعر بحزن ما شعر بمثله قبل اليوم ، فلو
مات ابنه فلن يترك هؤلاء الصغار ؟ إنه لن يعيش طويلا حتى يتم تنشئتهم
ويعد عنهم ذل اليتيم ، وإن مختارا أكبر أبناء إبراهيم ما يزال صبيبا طرى العود لا
يستطيع أن يقوم وحده بالعبء الثقيل .

وأصبح الحاج حليف القلق والأسى ، لا ينام حتى يهب من نومه
مفزوعا ، ولا يرى في نومه إلا رؤى مروعة ، ولا يحتلى بنفسه حتى تنهمر
دموعه ، لقد أصاب إبراهيم البوار ، وما هي إلا أيام حتى يقطع الطريق التي
قطعها الحاجة من قبل .

وذاع في الحى خبر مرض إبراهيم ، فكان الناس يتمنون شفاؤه إلا أم عباس
إذ كانت تنتظر موته بشعور التاجر الذى ينتظر زبونه . لقد اشترت القاعة ،
وهي في حاجة إلى مال كثير لتشييد دارا كالدور العالية التي تطل في ازدياء على
قاعتها الحقيمة المتواضعة .

وانقضت أيام إبراهيم على الأرض ، فذهب إلى حيث قدر له أن يذهب ،
وتجددت الأحزان في الدار ، ونزل بالحاج هم ثقيل ، فما شعر عمره بلوعة

كتلك ، وما عرف ألم الشكل قبل اليوم ، لقد عرف الموت يوم فقد أباه ، ويوم فقد أمه ، ويوم ماتت الحاجة ، ولكنه لم يحس إذ ذاك بتلك النار التي تحرق جوفه .

ونظر الحاج إلى أبناء إبراهيم الصغار ، فزاد حزنه ، وتحركت شففته ، فاستدعى ابنه محمد وقال له في صوت والده حزين :

— مات إبراهيم وترك أبناء صغارا ليس لهم ما يعيشون عليه .

فقال محمد في حزن :

— البركة فيك .

— لن أعيش لهم حتى يكبروا .

— وما تود أن نفعل ؟

— أرى أن أكتب لهم نصيب أبيهم لو كنت مت قبله .

فقال محمد موافقا :

— افعل ما ترى .

فقال الحاج في صوت أقرب إلى النحيب :

— وما رأى أخيك ؟

— لم أفاتحه وما لأخى رأى ، المال مالك والأولاد أولادنا وأولادك .

— سأكتب لهم البيت القريب من الدكان والمسمط والأرض الفضاء

المجاورة للمسمط .

— الرأى لك .

انقضى الحديث بين الحاج وابنه ، وما خطر الزواج على قلبه ، فقد شغله

الحزن فلم يعد يلتبس الزواج أو يلح في طلبه .

ونزل مختار إلى دكان أبيه ، وكان فتى نحىلا ليس فى جسمه أوقية من شحم ، إنه فى حاجة إلى من يرعاه ويسهر عليه ، فإذا بالزمن يعلق فى عنقه أمه وأختيه وأخويه ليرعاهم ويسهر عليهم . إن الحمل ثقیل علیه ، ولكن الحاج لم يدعه وحيدا ، فقد راح يعاونه ويشد من أزره ، ويطمئنه إلى أن هناك من يحنو عليه ويحاول أن يعوضه حنان أبيه .

وراح النسوة ينتظرن أيام الخميس ليصنعن الفطير ويأخذنه والفاكهة إلى المقابر فيفرقنه على روح إبراهيم . ولكن أهل الدار كانوا يأكلون معظم الفطير وأغلب الفاكهة ، ولا يفرق على الفقراء إلا القليل ، ولكن لا بأس فإن كل ما يؤكل رحمة ونور على روح الفقيد !

أخذت نفيسة تفعل ما كانت تفعله الحاجة لو كانت حية ، وكانت تصر كل خميس صرة كبيرة من الفطير والفاكهة وتبعث بها إلى أبناء أخت الحاجة ، ولا شك أن نفيسة كانت تحس أن روح الحاجة راضية عنها فى سمائها ، فهى الوحيدة من زوجات أبنائها الثلاث التى بقيت على وفائها .

ومرت سنة ولا هم للنسوة إلا البكاء والعديد ، فإذا انصرفت إحداهن إلى عمل أخذت تعدد فى غناء حزين ، وإذا جلست جماعة يصنعن الفطير رحن يندبن ويذفرن الدموع ، وأصبح الندب والعديد سمة البيت حتى إن الواحدة منهن كانت تعدد إذا اختلت بنفسها فى الحمام .

واشترى أحمد قطعة أرض خارج بوابة الحسينية ، وأخذ يشيد عليها دارا ، وفى يوم دخل على أهل البيت متلهل الوجه وقال :

- تم بناء الدار ، وسأسكنها عما قريب .
فقال الحاج أسعد في إنكار :
— أترك العمار لتسكن تلك الجهة المقطوعة ؟
— غدا تعمر فإنها لا تبعد عن البوابة إلا أمتارا .
— لن تعمر أبدا فليس هناك مجانين مثلك يبنون في الخراب .
— إن لهذا الخراب مستقبلا .
— لن يكون له مستقبل أبدا ، لقد عرض على متر الأرض في العباسية بـ ١٠٠
فلم أقبل أن اشتري مترا واحدا ، أأرمي مالى فى الهواء ! إن من يشتري هناك
كمن يشتري مترا فى الهواء .
— اشتريت وبنيت وانتهى الأمر .
فقالت سكيئة :
— أتسكن وحدك فى البيت ولا تخاف العفارىت ؟
فقال أحمد ليطمئن نفسه :
— إن العفارىت يخافوننا .
فقالت نفيسة :
— والله ما يسكن مع العفارىت غيرنا ، إن صباح باتت تصرخ طول
الليل .
وانتقل الحديث من العباسية وأرض العباسية إلى صباح والعفارىت .

وتأهب أحمد لحفلة « التزعيف » ، وهى حفلة فرح تقام فى الشقة
الجديدة أو الدار الجديدة قبل الانتقال إليها لتحل بها السعادة وتكون أيامها
كلها فرحا وهناءة . وأخذ الفراش ينقل إلى الدار الجديدة السجاجيد

العجمية والمقاعذ الذهبية ، وما جاء الليل حتى أضيئت الأنوار ، ووقف أحمد يستقبل المدعويين في غبطة وانشراح وكان يحس نشوة لا للحفلة نفسها ولكن لأنها ستتيح له أن ينظر إلى الراقصات ، ويمزح مع العالمة ، وينظر إلى هذه وتلك من المدعوات فهو يحب أن يتطلع إلى النساء ، وما من امرأة أو فتاة تسير في الطريق إلا ويتبعها بنظرة فاحصة ، وما من امرأة أو فتاة تقبل عليه في الدكان إلا ويحادثها ويمازحها ، وقد يخرج في المزاح معها ، وغالبا ما كان يفعل ، فلا يزدن إلا احتفاء به ، وإقبالا عليه .

وأطعم المدعوون ، وقامت العالمة تغنى وترقص ، فأخذ يتبعها بنظره ويبدى إعجابه بها ، حتى إذا تلاقت عيناه بعينيها غمز لها ، فبتسم له وتزيد من تخلعها وتثنيها .

وقامت فتاة ترقص على دق الطبول ، فجعلت تهز أردافها هزا لا فن فيه ، ولكن أحمد كان يتطلع إليها في اشتها ، وكان على استعداد ليرى في أية امرأة جمالا ، فأخذ يبدى إعجابه في اطمئنان ، إذ كانت زوجته مشغولة بتوزيع الطعام والحلوى على معارفها والخدم .

وقرب موعد انتهاء الحفلة ، فتأهبت العالمة لتجوس خلال غرفات الدار جميعها ، تملأها فرحا وجورا ، فتوقفت في الوسط ، وعن يمينها ويسارها فتيات يحملن الدفوف ، وارتفع صوتها بالغناء بين دقات الدفوف العالية . وسار الموكب وحوله المدعوات يزغردن ، وسار أحمد في الركب يضحك ويغمز ويتسم .

وانتهت حفلة التزغيف ، فانصرف المدعوون وهم يتمنون أن يكون البيت الجديد قدم خير على ساكنيه ، وبعث أحمد بزوجته مع أهله لتستعد لنقل الأثاث في الصباح . وهبطت العالمة ، وهبط أحمد معها ليوصلها إلى

دارها ، وليحيى أول ليلة من ليالى الدار السعيدة .

١٩

وما انقضت سنة ونصف على مولد أسعد حتى تأهبت أمينة لتضع مولودها الجديد ، فبعثت فى استدعاء أمها وتمددت فى فراشها تنتظر الفرج ، ومرت الساعات ووضعت أمينة غلاما ذكرا ، وأخذت أمها تغدو وتروح وهى حاملة أسعد على يدها . فقد كان طفلا سمينا لا يقدر على القيام أو السير بعد . ومرت أيام وأسعد لا يفارق جدته ، ففكرت فيما تفعل ابتها بهؤلاء الأطفال الصغار الذين يحتاجون إلى عناية ورعاية إذا انقضت الأيام السبعة وعادت إلى بيتها وتركها وحدها ، فرأت أن ابتها لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء فقالت لها :

— سأخذ أسعد معى ليعيش عندى حتى تتفرغى للمولود الجديد .
فحسبت أمينة أن أمها تمزح فقالت :
— خذيه .

وما انقضت الأيام السبعة حتى حملت الجدة أسعد وانصرفت به إلى دارها ، وخشيت أمينة أن تطلب منها أن تتركه حتى لا تجرح شعورها . وجاء حسن فى الليل ، وكانت عادته أن يدخل إلى فراش الأولاد يغطيم ويتطلع إلى وجوههم ، فقد كان يحبهم ويحس غبطة ونشوة إذا داعبهم أو يتحدث إليهم ، فلما دخل إلى حيث كان ينام أسعد وجد فراشه خاليا ، فالتفت إلى أمينة وسألها :

— أين أسعد ؟

(فى قافلة الزمان)

فرنت إلى المولود الجديد ، وقالت وهى تبتسم :

— طرده سليم .

— أين ذهب ؟

— أخذته جدته .

ولاحظت أن وجهه تغير ، فما كان يجب أن يغيب عنه أحد أبنائه ، فقالت

له معتبرة :

— لم أستطع أن أطلب منها أن تدعه .

فقال فى صوت متغير :

— لا بأس .

ونامت أمينة ونام حسن ، ولكنه قام فى منتصف الليل كعادته فغطى أمينة وغطى ممدوحا ، ثم اتجه إلى فراش أسعد ، ولكنه تذكر أنه ليس فيه ، فأحس انقباضا خفيفا ما لبث أن انقشع ، فابتسم وعاد إلى فراشه لينام ، ولكنه تذكر أنه لم يغط المولود الجديد ، فاتجه إليه وسحب عليه الغطاء فى رفق وقد أشرق وجهه وتهلل .

ولاح الصباح ، ونهض حسن يصلى الصبح ، وما انتهى من صلاته حتى جلس على أريكة مرتفعة ، وأخذ يقرأ فى مصحف كبير ، ويرقب زوجته النائمة . فلما استيقظت أغلق المصحف وقال لها :

— والله إن لأسعد وحشة .

فابتسمت وقالت :

— أوحشك سرىعا !

— لكأنى لم أره من سنين .

وصمت قليلا ثم عاد يقول :

— سأذهب لإحضاره .

ولم ينتظر رد أمينة ، بل نهض ولبس قفطانه الجديد في عجل ، ثم تناول حذاءه ودس رجله فيه ، ولبس معطفه وطربوشه وخرج يغذ في السير كأنما ينطلق لأمر خطير !

ودخل على خالته فسلم عليها ، ورأى أسعد محمولا على يدها ، فراح يبتسم له ويناغيه ، والتفت إلى خالته وقال لها :
— أظن أنه قد أفلت راحتك ولم يدعك تغمضين .

وانتظر ردها لعله يلمح أثرا للتبرم فيتعلل به ويطلب ابنه ، ولكن الجدة قالت في هدوء :

— أبدا ، إنه نام هادئا ولم يتقلب طوال الليل .

— إنه سيتعبك ويقلل من راحتك .

فابتسمت وقالت :

— إن عبئه يسير .

فلم يدر حسن ما يقول ، فقد غلبه خجله وحيأؤه فلم يقدر أن يصرح برغبته في استعادة ابنه ، فقام وسلم وانصرف .

ومرت ستتان على موت إبراهيم ، فمست يد الزمن الساحر جرح قلب الشيخ فاندمل ، وأخذ يفكر في زواج مختار وسكينة ، وقد عقد العزم على أن يقيم فرحا عظيما يفرح مختارا اليتيم .

وعلقت الزينات ، وتأهبت الدار لفرح عظيم ، وراح الناس يتهامون عما دهم الشيخ وما أصابه في عقله ، أقيم الأفراح بعد موت ابنه الشاب الذى ولى وهو متعلق بالدنيا ولم يشيع منها ! وقال الناس في تعليل ذلك إن المال والحزن لا يجتمعان ، وإن الكثر العظيم الذى عثر عليه الحاج أسعد أنساه حزنه

على ولده ، وشغله عن التفكير فيه .

وجعلت أمينة تتأهب لختان ممدوح ، فإن الفرح قد جاءهم وإنه لفرح عظيم ، وأقبلت الموسيقى تعزف ألحانها العالية الصاخبة ، فاجتذبت أولاد الحارة والحارات المجاورة ليشاركوا أهل الفرح في فرحهم ؛ وأخذ كل يرقص على الأنغام بطريقته . هذا يقبض على عصا يطوحها في الهواء في خيلاء ، وذاك يقفز على رجل واحدة كالغراب ثم يعود فيقفز على الأخرى في حركات أشبه بحركات القروء ، وهذه تحزمت بمنديل رأسها وأخذت تهز جسمها هزات مثيرة ، تشف عن الأنثى الحبيسة في الجسم الضاوي الهزيل ، وتلك تحرك جسمها حركات موزونة على تصفيق الأولاد الموزون ، لقد شاعت الغبطة والسرور في الحارة كلها .

وأقبلت عربية مغلقة مذهبة فاخرة تجرها خيول مطهمة ، وأمامها سائسان حافيان في ثياب بيضاء مزركشة بالقصب ، وعلى رأسهما طاقيتان من الجوخ الأحمر تدلى منهما زران طويلان جدا يتأرجعان في ثورة إذا عدا الرجلان أمام عربية العروس ، وأقبلت عربات أخرى مغلقة كانت أقل زينة من العربية الأولى ، وعربة مكشوفة فاخرة شد إليها جوادان أشهبان قويان ، ووقفت العربات أمام دار الحاج أسعد ، ورنت الزغاريد عالية متتابعة مدوية ، فكان ذلك إيذاناً بنزول العروس ، واقتربت العربية الفخمة ما أمكن من باب الدار ، وراح رجال الدار يعددون الناس والأطفال عن العربية حتى لا يروا العروس ، وأخذ أحمد يدفع هذا وذاك في ثورة ، وهبطت سكينه في ثياب زفافها ، وجعلت تهول لتركب العربية الفاخرة في غبطة الأطفال ، وهل كانت إلا طفلة؛ في الثانية عشرة على الأكثر .

وأغلقت عربية « زينب هاتم » على العروس ومن معها ، وتقدمت

العربات الأخرى ليركبها المدعوات ، فوقف أحمد ليفتح هن الباب ويتطلع إليهن ويتفرس فيهن وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ترسم عليه دائما كلما رأى امرأة أو تحدث إليها .

وتقدمت العربة المكشوفة فركبها مملوح يرتدى حلة ضابط زينت بالقصب ورصع كتفاها بالتيجان والنجوم ، وزوق رأسه بمخطوط حمراء كتلك التي يزوق بها خروف العيد قبل ذبحه . وجلس رجل وحمل ممدوحا على حجره ثم ركب معه رجلا ليملا فراغ العربة !

وبصدحت الموسيقى وتحرك الركب ، وسار الرجال حول العربات المقفلة المسدلة الستائر يحرسونها ويمنعون الأغراب من الاقتراب منها أو محاولة التطلع إلى داخلها ، وسارت الزفة في شارع الحسينية في طريقها إلى الحسين ، فإن ضريح الحسين هو قبلة هذه الأسرة في أفراحها وأحزانها ، ما من عروس تدخل دار زوجها قبل مرور موكبها على ضريح الحسين وقراءة الفاتحة له ، وما من ميت يموت لهم إلا ويصلى عليه في الحسين ، مهما بعدت الشقة ومهما أصاب المشيعين من نصب .

وفتحت الشبايلك على طول الطريق وأطلقت الزغاريد منها ، فإن ساكنات الدور المطلة على الحسينية من زبائن الحاج أسعد ومحببه ، ولو أن أحد السائرين في الزفة عاد بذهنه القهقري سنتين يوم سار مشهد إبراهيم من نفس الطريق ، لرأى أن ما يحدث اليوم هو نفس ما حدث ذلك اليوم . مع فارق بسيط هو أن النسوة كن يطلقن الصوات بدل الزغاريد .

وبلغت الزفة شارع النحاسين الضيق فتمهلت في سيرها ، وعلم أصحاب محال الحلوى على جانبي الطريق أن العروس حفيدة الحاج أسعد وبنت محمد وأخت التجار المعروفين الذين يتعاملون معهم ، فراحوا

يتنافسون في بدر الملبس فيتخاطفه الناس ، ومهما بدروا فهم الراجحون ، فهم يعلمون أنهم في الغد سيبيعون حلواهم للحاج أسعد وحقدته بالسعر الذي يروقهم .

ورأى أحد التجار ممدوحا ابن صديقه حسن ، فود أن يعبر عن سروره ، فقبض قبضة من النقود الموضوعة أمامه وبدرها على الناس ، فأخذ الناس يتقاتلون ويتناحرون في سبيلها ، وهو يتطلع إليهم في غبطة ونشوة . وبلغت الزفة ضريح الحسين ، فتوقفت قليلا ليقرأ كل من فيها الفاتحة للإمام العظيم ، ثم استأنفت الزفة سيرها لتعود من حيث أتت ، فإن سكينته ستزف في نفس الدار التي خرجت منها .

٢٠

الليل ساكن والمدينة هاجعة ، والناس يغطون في نومهم مطمئنين ، ولكن الحاج أسعد طار النوم من عينيه وجعل يتقلب في فراشه ويغمض عينيه لعل النوم يطوف به ، ولكن هيهات ، فجلس في فراشه فرأى ابنه وزوجه وقد أسلما جنبيهما للفراش وراحا في سبات عميق . وهب النسيم من النافذة المفتوحة فأخذ يداعب الكلة المسندلة عليهما ، وراحت الخيالات تداعب الحاج أسعد . فتذكر أيام كان ينام بجوار الحاجة هادئا هائنا ، وتذكر وعد ابنه إياه أن يزوجه بعد أن يفرغ من زواج زكية وسكينة ، ها هي ذى زكية قد تزوجت من سنين ، وها هي ذى سكينة قد تزوجت من شهور . فلم لا يفى ابنه بوعده؟ إنه لا يطيق أن يعيش عزبا أكثر مما عاش ، فقد انقضت سنون خمس على موت الحاجة كأسوا ما تكون السنون ، وقد نسي الحاج أنه كان

متزوجا في يوم من الأيام !

وتذكر ابنه إبراهيم فانقبض صدره ، وأحس غصة في حلقه ، وأخذ يؤنب نفسه على تفكيره في الزواج بعد إبراهيم ، ولكن حزنه ما لبث أن انقبش ، ونفسه ما لبثت أن أمدته بما يرر ذلك التفكير ، إن الموت أمر لا مفر منه ، والزواج أمر لا مفر منه ، فما دخل الموت في الزواج ؟ إن الزواج ضرورة كالطعام ، فهل امتنع عن الأكل لما مات إبراهيم ، فلماذا يمتنع عن الزواج ؟ إن الزواج نصف الدين ، وهو لا يجب أن يموت نصف دينه . فبيت النية على أن يفتح ابنه في رغبته في الزواج إذا ما أصبح الصباح . وجلس الحاج وابنه محمد يتناول الفطور . ورأى الحاج الفرصة سانحة ليحدث ابنه ، فقال :

— أصبحت عبئا عليكم ، كنت أتمنى أن أتناول طعامي في شقتي وأن أنام فيها وأن أعيش كما يعيش الناس .

ولم يظن محمد إلى ما يود الحاج أن يتطرق إليه ، فهو لم يفتحه في أمر زواجه من سنتين ، وأنه يظن أن تلك النزوة قد انتهت أمرها ، وأن الحاج قد وضح له أن زواجه أمر يدعو إلى الهزء والسخرية ، فقال في حماس :

— لا تقل هذا ، إننا نضعك في أعيننا ، وإننا كلنا منك .

فقال الحاج في عتاب :

— لو أنك تركتني أتزوج بعد أن ماتت الحاجة لأمضيت في هدوء السنوات الخمس التي مضت في نكد وعذاب .

فأحس محمد كأنما لسعته نار ، ونظر إلى أبيه في التياح ، فما كان ينتظر بعد كل ما فعله له في السنوات الخمس أن يصف تلك السنين بأنها سنو نكد وعذاب ، وما كان يتوقع أن يعود لحديث الزواج بعد موت إبراهيم ، فقال في

تأثر :

— ما كنت أنتظر أن ترى في حيننا لك نكدًا وعذابا ، فنحن كلنا نحبك
ونعمل على راحتك .

فقال الحاج في سخرية :

— قالوا للجحا : « تحب مين في العيلة ؟ » قال : « التي تنام في حضني
كل ليلة » .

فثار دم محمد ، وتدفق إلى رأسه ، فما يدرى أكان الحاج يتحدث عن
نفسه أم يسخر منه ويعرض به ، وشاء أن يرد عليه ولكن الحق تملكه ، ولم
يسعفه ذهنه بما يقول ، فهب في غضب وصاح :

— والله لن ترجع حتى تقتلني .

فلم يلتفت الحاج إلى ثورة ابنه وقال في هدوء :

— والله لا أدري ما الذي يضريك من زواجي .

فلم يجد محمد جوابا أشفى من أن يخلع عمامته . ويلقى بها على الأرض ،
ويغادر الغرفة كعاصفة نائرة .

وجلس الحاج ذات ليلة هائتا يتحدث ، وأقبلت سكينه وقد نمت قليلا
وانتفخ بطنها وإن ظلت طفلة في حركاتها ولفتها ، وأرادت أن تجلس
فجلست في عنف كما كانت تفعل قبلا ولم تأبه بما في بطنها ، ففزع الحاج
وصاح بها :

— الله ينكد عليك ، وعلى من زوجك ، وعلى من تزوجك .

فبان التأثير على وجه سكينه ، وغامت عينها بالدموع ، ورأت نفيسة
حزن بنتها ، فشعرت بيد تهصر قلبها ، وبدموعها تترقرق في مآقها ،
وخشيت أن تخونها عينها فيغضب الحاج ، فتجلدت ولكنها لم تستطع أن

تكبت حزنها فقالت للحاج في عتاب :

— حزنت البنت يا سيدى .

وقالت لإحدى زوجات حفدته :

— صالحها يا سيدى .

فقال الحاج :

— لا تغضبى يا سكينه ، لقد خفت عليك ، فلم أتمالك نفسى .

فقالت زوج حفيده :

— هذا لا يكفى .

فقال الحاج فى استغراب :

— أتودون أن أقوم فأقبل رأسها !

فقالت :

— لأنها تود ريشة من ماس ، فإذا شئت أن تصالحها فأعطيها ثمنها .

فصمت الحاج قليلا ، وهرع طفل من أطفال الدار إلى السطح ، ثم عاد

وهو يغالب الضحك وقد خبأ وراء ظهره شيئا ، فاقترب من سكينه ورشق

فى شعرها ريشة دجاجة ، وقال :

— هذه هدية جدى إليك .

فضج الحاضرون بالضحك ، وعبس الحاج أسعد وقال فى غضب :

— أتمسخر منى يا ولد !

ثم مد يده فى جيب قميصه ، وأخرج كيسا أخذ منه عشرين جنيا ذهبيا

وقال :

— خذى يا سكينه واشترى ما يعجبك .

فقامت سكينه متهلة الوجه ، وأسرعت إلى جدها تأخذ الجنهات

الحر ، وجعلت تقفز دون أن تلتفت إلى ما فى بطنها ، ونظرت نفيسة إلى ابتها ، فلما رأتها راضية مغتبطة أشرق وجهها بابتسامة تنم عن الطيبة والفرح وصفاء النفس .

٢١

عادت زكية إلى دارها عقب الوليمة التى صنعت لمرور أسبوع على ولادة سكينه بنتا ، فتمددت فى سريرها تنتظر أوبة زوجها ، وأخذت تفكر فيما وقع ذلك اليوم : رأت أمينة تعرض على سكينه مازحة أن تتبادلا فتعطيا سليما وتأخذ بنتها . إذ كان مختار يشبى أن ينبج غلاما فابتسمت ابتسامة خفيفة ؛ ثم رن فى أذنيها أصوات النسوة وهن يقلن لها :

— عقبى لعوضك .

فتلاشت الابتسامة على شفتيها ، إنها تزوجت من سنين ولم تنجب ، بينما أن سكينه أنجبت بعد زواجها بسنة واحدة .

وفكرت كيف تقضى أيامها إذا لم تخلف أولادا يملكون فراغ حياتها . إنها تشبى أن يكون لها ولد تفيض عليه من حبا وحنانها وعواطفها المذخورة . إن زوجها يخرج فى الصباح الباكر ، ولا يعود إلا بعد أن يتقضى من الليل ثلثه ، فلو أنها أنجبت ولدا لما أحست ذلك السأم الذى تحسه الآن ، ولما شعرت بالملل الذى تحسه خلال ساعات النهار الطويلة . فهى تحس أنها وحيدة فى الدنيا وإن كان أفراد أسرتها يعدون بالمئات ! وإنها تتمنى أن تكون أصلا لأسرة ، تتفرع وتزدهر أمام عينيها فتمتلئ نفسها بهجة .

إن من يولى ربيعها دون أن تعقب ، تقضى بقية حياتها فى خريف مظلم بارد .

أحست ذلك بغريزتها فأخذت تفكر فيما يقعداها عن أن تعرض نفسها على طبيب ، فلعلة يصف لها ما يزيل عقمها ، ولكنها تخجل أشد الخجل أن يفحصها رجل .

وتذكرت أن قرب دارهم مولدة معروفة ، فرأت أن تعرض نفسها عليها ، لعلها تعيد إلى نفسها طمأنيتها .

وذهبت زكية إلى المولدة وجلة مضطربة ، تخشى أن يقطع اليأس الرجاء ، إنها تعيش الآن على أمل تتعلق به وإن كان سرايا ، فهي تنتظر كل شهر في رجاء وخوف ، فإذا انقضى الشهر وثبت أنها لم تحمل ، تنقبض قليلا ، ثم تعود تنتظر الشهر التالى ، فما يكون حالها لو قالت لها المولدة إنها لن تحمل ؟ ودخلت على المولدة يخفق قلبها ، وتحس كأنما سحبت منها روحها ، وسألتها السيدة عما بها ، فقصت عليها قصتها في نبرات مضطربة ، وفحصتها ، ثم قالت في هدوء :

— كل شيء طبيعى ، وليس بك إلا بعض الشحم الزائد . سبرى كل يوم ساعة فيذوب الشحم ، وأنا أضمن لك أن تحملى بعد شهور .

وخرجت زكية من عندها راضية ، منشرحة الصدر ، فما أيسر العلاج ! ورأت أن تبدأ العلاج من فورها ، فأخذت تضرب في الفضاء القريب من دارها ، حتى إذا أحست بالتعب عادت يتفصد العرق منها ، فيلبل برقها ، ويجرى على وجهها ، ويتقط من ذقتها .

وهن الحاج أسعد ، وانخلت قواه ، ولكنه راح يغالب وهنه ، ويشد من أزر نفسه ؛ إن جسمه أمسى ضعيفا ، ولكنه لا يحب أن يعترف بضعفه ، فأخذ يجاهد ، ويخرج كل يوم إلى الدكان . وإن كان يلاقى في سبيل ذلك تعباً ونصباً .

وسار الحاج وابنه ، وأخذ الحاج ينقل رجله في بطء وجهه . ولمح ابنه ذلك فقال له :

— لم لا تستريح في البيت حتى تسترد صحتك ؟

فقال الحاج مكابراً :

— ما بى من شىء .

— إنك مجهد .

— تعب خفيف .

— ابق في البيت حتى تستريح .

— لا أطيق .

— إن الجسم يحتاج إلى راحة .

— لم أعود جسمى الراحة ، إني لو استرحت مرضت .

فصمت محمد ، وصار يتمهل في سيره ويتفرق حتى لا يجهد أباه .

واضطرب الحاج أخيراً أن يلزم الدار ، ونالت الشيخوخة منه ، وأصبح خروجه عسيراً ، فراح يجمع الأطفال حولهم ويفقههم في أمر دينهم ! جلس أسعد في حجره وكان قد عاد من المدرسة الأولية التي التحق بها ،

فسأله :

— ما تعلمت في المدرسة اليوم ؟

— خروج سيدنا آدم من الجنة .

فقال الحاج في ابتهاج :

— ما شاء الله . ولم خرج ؟

فأعاد أسعد ما سمعه في المدرسة كبيغاء لا تفقه ما تردد :

— لأنه أكل من شجرة الخنطة .

وراح أسعد يروى قصة الخروج في صوت رفيع متلثم ، والحاج يصغى إلى القصة التي ردها آلاف المرات لأبنائه وحفدته وحفدة أبنائه في شغف ؛ إنه يحس الآن نفس النشوة التي كان يحسها يوم كان يروى القصة لابنه محمد إذ كان طفلا من نيف وأربعين سنة .

واشتد بالحاج المرض ، فلم يعد يريح فراشه ، وأصبح لا يكاد يستطيع أن يجلس ليتناول طعامه ، وراح أقاربه يعودونه ، فرأى أهل البيت أن ينقلوه إلى غرفة أخرى غير غرفة نوم ابنه ، ففرشوا له حشيتين في غرفة أخرى وجاءوا ليحملوه إلى فراشه الجديد ، ولكنه أبقى أن يحمله أحد . إنه لا يحب أن يحمل وفيه نفس يتردد . وأسقط في أيديهم فما يفعلون لينقلوه ؟ إنه لا يستطيع أن يقوم أبدا ، وبانت الخيرة عليهم ، فصاح فيهم :

— هاتوا قطعتين من الحصير .

فجاءوه بمحصيرتين ، فقال لهم :

— ضعوا حصيرة هنا بجوار الفراش ، وضعوا الأخرى بعدها .

ففعلوا ما أمرهم ، وجعل الحاج يزحف في الفراش حتى هبط إلى الحصيرة الأولى ، وأخذ يزحف عليها حتى وصل إلى آخرها ، ثم أخذ يزحف على

الخصيرة الثانية حتى إذا اقترب من آخرها ، نقلوا الخصيرة الأولى ووضعوها أمامه ، واستمر يجاهد في زحفه ، وبأن عليه الجهد الشديد ، فاغرورت أعين الواقفين بالدموع . وأخيرا بلغ فراشه الجديد ، فجعل يتسلقه في جهد ، وارتمى عليه مبهور النفس ، يظهر عليه الإعياء الشديد . إنه يصارع الحياة ولا يود التسليم .

واشتد ضعف الحاج ، فعافت نفسه الطعام ، وأصبح لا يتناول إلا السوائل بين آن وآن ، وأصبح يروح في غيبوبة طويلة تستغرق معظم النهار . وفتح عينيه فرأى نفيسة عند رأسه ، ورأته يتطلع إليها فقالت في حنان :

— كيف حالك يا سيدى ؟

— سأموت يا نفيسة ، وأحب أن أرى الأولاد .

— بعد الشر عنك .

— إني أعلم أنى سأموت ، فإنكم تنقطون الماء في فمى .

فاغرورت عينا نفيسة ، وقال الحاج :

— لم البكاء والموت نهاية كل حى ؟ أين محمد ؟

— سيأتى حالا ، ذهب يصلى .

وجاء محمد ، فلما رأى أباه يحدث زوجه أقبل عليه وقال :

— كيف أنت ؟

— دنا الفراق .

واغرورت عيناه بالدموع ، فلم يتالك محمد نفسه ، فسالت عبراته على

خديه .. وقال الحاج :

— أوصيك يا محمد بأولاد إبراهيم .

— اطمن .

— إنهم أمانة في عنقك .
فطأطأ محمد رأسه ، وقال الحاج :
— إذا مت أنزلنى على ولدى ، ووسده ذراعى .
وتذكر الحاجة ، فشخص ببصره إلى سقب الغرفة وقال :
— إن الحاجة تنتظرنى ، إنها تدعونى .
ثم عاد إلى غيبوبته ، وما انقضى الليل حتى قضى ، وصعد إلى السماء
ليتزوج أربعين من الحور العين !

٢٣

وضعت سكرينة فتاة ثانية ، فتمنت أمانة أن تضع فتاة مثلها هذه المرة . وما
انقضت أيام حتى وضعت زوجة أخيها فتاة أيضا ، فاغتبطت وإن لم يغتبط
أخوها ، فإنها ترى في هذين الحادثين بشرا لها ، وقالت في نفسها : إن هذه
السنة سنة البنات . وراحت تنتظر الأيام الباقية على الوضع في صبر نافذ ،
وخرجت تبارك لامرأة أخيها مغتبطة ، وكان أخوها يسكن وأمه في دار
واحدة ، فدخلت على أمها أولا ، فرأتها تطعم أسعد ، فابتسمت وأقتربت
منه وقالت :

— ستعود معى يا أسعد .
فقال وهو يملأ فمه بالطعام :
— لا سأبقى .
— والمدرسة ؟
فقالت الجدة :

— إني أرسله كل يوم .

فقالت أمينة وهي تضحك :

— ولم يأت عندنا وعروسه هنا ؟

ودخلت على زوج أخيها وسلمت عليها وجلست ، وحملت الوالدة الطفلة ودفعت بها إلى أمينة ، فأخذتها في رفق وقبل أن تنظر إليها قالت :
— إنها ليست حلوة .

وما كانت تقصد ما تقول ، ولكنها العادة المتبعة حتى لا يقال إنها حسدت الطفلة ، فأسرعت الأم تنفى التهمة عن بنتها ، وقالت :
— إنها كالقمر .

فقالت أمينة وهي تبتسم :

— لا تخافى عليها ، فلن تبور ، العريس موجود .
ومدت أمينة يدها إلى حافظتها فأخرجت خميسة صغيرة من الذهب شبكتها بصدر المولودة ، فقالت الوالدة :
— ولم هذا التعب ؟ سلمت يدك .
فقالت أمينة في انشراح :

— إنها شبكة أسعد ، إنه يحبكم ولا يود فراقكم ، وسيزداد حبه لكم بعد أن جئتم له بعروس .

وجاء الأخ وسلم على أخته في اشتياق وترحيب ، وجلس بجوارها يحادثها ، فقالت له زوجته في فرح .

— انظر . لقد شبك أسعد النونو .

فنظر إلى الخميسة وضحك وقال :

— مبروك عليه .

وقالت أمينة :

— وما سميت العروس ؟

فقال الأخ :

— سنسميها أمينة .

وانقضت الأيام ووضعت أمينة مولودها ، وراحت تنظر إلى أمها في استفسار كأنما تسألها عما وضعت ، ولكن أمها تشاغلته عنها وتركت الغرفة لتحضر لها الحلبة الساخنة ، فنظرت إلى المولدة فألفتها متهلة الوجه فانقبضت ، فهي تعلم أن أساريها لا تنفرج إلا إذا كان المولود ذكرا ، وأرادت أن تستريح من قلقها ، فقالت للمولدة :

— هاتي البنت هنا .

فقال المولدة في إنكار :

— بنت ! إنه ولد .. يترى في عزك وعز أبيه .

فأحسست أمينة ضيقا وحزنا ، لقد كانت تمنى أن يكون بنتا .

ودخلت أمها تحمل سلطانية الحلبة ، ورأت وجوم ابنتها فقطنت إلى سبيه . لقد كابدت هي نفس ما تكابده ابنتها اليوم . وشاءت أن تخفف عنها فقالت لها :

— لا تعكرى دمك وأنت طرية ، ولنحمد الله على سلامتك .

ولكن أمينة ظلت في وجومها ، فقالت أمها في حنان :

— كفى يا أمينة ، إن من تخلف الولد تخلف البنت ، إلى آت بك إلا بعد أن خلقت ستة أولاد ، بكرة ربنا يرزق بنات .

وساد السكون ، وغفت أمينة غفوة استراحت فيها من عناء الوضع ، ثم انتيقظت فألفت أمها قد جهزت لها دجاجة سمينة في الحساء وقالت لها :

(في قافلة الزمان)

— كنت سأوقظك لتأكل .

— لا شهية عندي .

— لا شهية عندك ؟ إن بطنك خاو الآن ، ضعى الدجاجة مكان المولود . واعتدلت أمينة في فراشها ، وأخذت تحتسى الحساء الساخن ثم أكلت جزءا من الدجاجة ورفعت يدها عن الطعام ، فقالت لها أمها :
— كلى بقية الدجاجة ، أنت الآن هفتانة .

— لا أستطيع .

— إني لما كنت مثلك كنت أتناول دجاجتين .
ورفع الطعام ، وتمددت أمينة ، وارتفعت وأواة المولود ، فلم تلتفت إليه ، فقالت لها أمها :

— جاع الولد ، أرضعيه .

فاستدارت أمينة وأولته ظهرها .

واستمر الطفل في صراخه ، فقالت الجدة :

— حرام يا أمينة ، وما ذنبه ؟

ولكن أمينة ظلت في وضعها لا تتحرك ، فقامت الجدة وحملت الطفل ووضعت في حضن أمه .

فأخرجت أمينة ثديها في تأفف ، وألقمته فم مصطفى وهو يصرخ ،
وقالت في غيظ :

— خذ انكتم .

انفرط عقد الأسرة بعد موت الحاج أسعد ، فاشترى محمد الدار المجاورة لقاعة أم عباس الندابة ، وانتقل إليها هو وابنه حسن والجارية قدم خير ، إذ آلت إليه بعد موت أبيه . وشيد مختار دارا على الأرض الفضاء المجاورة للمسمط وانتقل إليها هو وأمه وإخوته ، وانتقل آخرون إلى دار اشتروها ؛ ولم يبق بالدار الكبيرة إلا شراذم من الأسرة الضخمة .

وراحت قدم خير تحاول أن تلفت نظر محمد إليها بعد موت الحاج ، فكانت إذا رأيته تضحك في خلعة لسبب ولغير سبب ، إذ كانت تريد فتنه لتصير محظيته ، ولكن محمدا ما كان يهتم بها ، وكان يعرض عنها في ازدياء ، فساء ذلك الجارية ، وعزمت على أن تنتقم ممن في البيت جميعه .

وفي يوم تركت لها نفيسة الطبيخ لتقلبه ، فرفعت غطاء الحلة وأسرعت إلى وعاء الملح وأفرغته في الطبيخ ، وفي الليل جلس من في الدار يأكلون ؛ وما تناول كل منهم لقمة حتى لفظها في امتعاض ، فقد كان الطعام ملحا أجاجا . وارتبكت نفيسة ولم تدرك ماذا حدث ، فالتفتت إلى أمينة وقالت لها :

— هل وضعت ملحاً في الطعام بعدى ؟

فقالت أمينة في إنكار :

— لم أر الطبيخ اليوم فقد كنت مشغولة بالغسيل .

— فمن وضع كل هذا الملح إذن ؟

فقالت أمينة :

— لا بد أنها بنت الحرام قدم خير .

فساء ذلك نفيسة ، فما كانت تحب أن يهاجم أحد أحدا ، فقالت في شفقة :

— حرام عليك ، لعله أحد الأولاد .

ورفع الطعام دون أن يمسه أحد ، وبعثوا في شراء طعام من السوق ، وقدم خير في حجرتها القريبة من باب الدار تضحك في غبطة وشماتة .

وفي يوم بينا كانت تدعك النحاس ، وتغسل الأطباق ، تملكها الشر فانتفت طبقا صينيا كبيرا وحطمته ، وسمعت أمينة ونفيسة الصوت فأسرعنا إليها ، ورأت أمينة الطبق المحطم فاغتازت ، وقالت :

— ما هذا يا قدم خير ؟

— انفلت من يدي .

— والله لقد كسرت متعمدة .

— لم ، هل جنت !

— لا أعرف ، ولكني أعرف أنك كسرت الطبق قاصدة ، لقد أصبحت متعبة ، ولا تنجني منك إلا الخسارة .

ورأت نفيسة أن أمينة تغيرت ، وأن قدم خير اعتدلت كأنما تنأهب لرد الاعتداء ، وخشيت أن ينشب بينهما العراك ، فقالت وهي ترتجف :

— كفى يا أمينة ، حصل خير ، سقط منها غصبا ، أخذ الشر وراح .

وراحت نفيسة تدفع أمينة أمامها ، فقالت أمينة في ثورة وغضب :

— والله ما أفسدها إلا طيبتك .

وخرجت أمينة تغلي من الغيظ ، بينا برقت أسنان قدم خير البيضاء في رقعة وجهها الأسود .



— فمن وضع الملح إذن ؟
— لا بد. أنها بنت الحرام قديم خير !

وارتفع صوات قدم خير في سكون الليل ، فهرع محمد وحسن وأمانة ونفيسة إلى فناء الدار مرعوبين ليروا ما حدث ، وتقدم محمد والمصباح في يده وحسن وأمه وزوجه في أثره ، ودلفوا إلى منظر قدم خير ، فألفوها جالسة في فراشها ، فقال لها محمد :

— ماذا حدث ؟

— تسلى نص الحائط ، وقبض على قضبان الشباك ، ونظر إلى بعينه الواسعتين ؛ ولعب لى حواجبه ، فصرخت ، فلما سمع صواتى فر .
فأطرق محمد في غيظ ، ووقفت نفيسة تنظر إليها مشفقة ، فقد كانت تصدق كل ما يقال ؛ أما أمانة فكانت تحس نحوها مقتا ، فلم تستطع أن تقبل ذلك القول الواهى ، وقالت في انفعال :

— والله العظيم كذابة ، كيف رأيت في الظلام عينيه الواسعتين وحواجبه التى يلعبها ؟

فقالت قدم خير في خذلان :

— كانت عيناه براقتين ، وكان حاجباه مضيقين ، لعله كان عفريتا .
فأحست نفيسة خوفا ، فاقتربت من محمد حتى لمس جسمها جسمه ، وقال حسن في هدوء :

— عفريت في عينك .

وقال محمد وهم ينصرفون :

— الله ينكد عليك وعلى اليوم الذى رأيناك فيه .

وقالت أمانة :

— امرأة ملعب .

وعادوا من حيث أتوا ، وتعددت قدم خير لتنام ، وقد زاد كرهها لأمانة

وأخذت تفكر في إغاضتها .

وفي يوم شغلت أمينة بتجهيز الطعام ، وكان عليها أن تحمي الأولاد والنهار أوفى على نهايته ، فطلبت من قدم خير أن تحمي سليما ، فدخلت قدم خير الحمام مع الطفل وكان الماء يغلي على النار ، فخطر لها خاطر شرير لم تحاول أن تثني نفسها عنه ، بل راحت تنفذه وقد ضيقت عينها وجزت على أسنانها ، ملأت الشيطانة الكوز بالماء المغلي وصبته على جسم الطفل الصغير ؛ فقفز صارخا . وصك صراخه أذنى أمينة فتركت كل ما في يدها وهرعت إلى الحمام مفزوعة لترى ما دهاه .

فتحت باب الحمام على عجل ، فرأت الولد يقفز ويصرخ وقد سلخ ظهره ، ففطنت إلى كل شيء ، فهجمت في غير وعى على قدم خير وجذبتها من شعرها خارج الحمام ، وأخذت تضربها في عصبية ، وهي لا تدري ما تفعل .

ورأت قدم خير ألا قدرة لها على دفعها فصوتت ، فجاءت نفيسة ترتجف فرقا ، فلما رأت قدم خير مطروحة على الأرض ، وأمينة تعجنها بيديها ورجليها ازداد فزعها ، وصرخت في أمينة :

— دعيا يا أمينة وإلا ماتت في يدك .

— أحسن .

— وهل تتركك الحكومة ! .

— سأقتلها كما قتلت ولدى .

فقالت نفيسة في رعب ، وقد حسبت أنها قتلتها فعلا :

— قتلتها يا نهار أسود .

ودقت صدرها بيدها ، وتقدمت إلى الحمام وهي تكاد تسقط من

الإعياء ، ورأت الغلام يصرخ وقد سلخ جلده ، فأحست قلبها يغوص ،
وتقدمت منه ولفته في ثوب وحملته ، وخرجت إلى حيث كانت أمينة
وقالت :

— كفى يا أمينة ، وتعالى نعالج الولد .

وكلت أمينة من الضرب ، فتركت قدم خير ثمن وتتوجع وحملت
سليما . والتفتت نفيسة إلى الجارية وقالت في عتاب :
— حرام عليك .

فقالته قدم خير وهي تبيكى :

— لم أقصد ، أردت أن أملأ الكوز بالماء البارد فاختلط على الأمر .
فقالته أمينة في ثورة :

— كذابة . والله لا أدرى ما الذى يقيقك هنا بعد أن عتقت ، اغرى عن
وجهنا .

فقالته نفيسة :

— كفى يا أمينة قدر ولطف .

وجاءت أمينة بوعاء وبضع بيضات ، وجعلت تكسر البيض وتأخذ
الزلال تدهن به جلد الولد المسلوخ ، ونفيسة تنظر وقد بان عليهما التأثير
الشديد .

٢٥

المدينة فى حزن ووجوم ، فقد أعلنت الحماية البريطانية على مصر ، وما
طلبت مصر الحماية وما فعلت ما يغضب المحتلين ، إن كل جناية مصر أن
تركيا انضمت إلى ألمانيا فى حربها ضد الإنجليز ، فانتهزت إنجلترا فرصة زوال
السيادة العثمانية ، لتهب البلاد المهيمضة الجناح سيادة بريطانية ! .

وسخط الناس على ما ارتكبه المفتصبون ، وما كان لهم أن يظهرُوا
سخطهم واستياءهم إلا همسا وهم يلتفتون ، فإن الجنود البريطانيين يملكون
البلاد ، وإن أى بادرة عصيان لقمينة بهدر دم السكان العزل من كل سلاح ،
فقبلوا الذل وهم كارهون .

وما أفاق الناس من هول النبأ حتى فاجأتهم بريطانيا نبأ آخر مروع ، إذ
خلعت الخديو عباس الثانى ، وكان فى تركيا ، وولت عرش البلاد الأمير
حسين كامل . وساد الناس استياء مكبوت ، وما جرؤ أحد أن يرفع صوته
لينفس عن الحق الحبيس فى صدره ، وفتشت منازل الوطنيين ، واعتقل ناس
كثيرون .

وعاد حسن إلى الدار وهو حزين ، ثم دخل غرفة الاستقبال وأخذ ينظر
إلى الصور المعلقة بها ، كان بينها صورة الخديو ، وصورة محمد رشاد سلطان
تركيا وأمير المؤمنين ، وصورة بطل المسلمين صلاح الدين ، فرفع الصور فى
استياء ، ولفها فى عناية ، ووضعها فى مكان حرير . إنه يخشى أن تفتش
داره ، فهو صديق رئيس جريدة من جرائد الوطنيين ، فتأخذ الصور قرينة
على أنه من أنصار الأعداء ، ويزج به فى السجون .

كان حسن يميل إلى تركيا ، وكان يتمنى أن تهزم الإنجليز ، فقد كان يربطه
بها رباط الدين ، وكان يرى فى انتصارها انتصارا للمسلمين . إنه يريد النصر
لأمير المؤمنين وإن كان لا يستطيع أن يمد له يد العون ، فالاضطهاد والشدة
والعسف كانت سمات السلطة العرفية التى وضعت يدها على البلاد .

* * *

وأصبحت قدم خير فى حزن ووجوم ، وأحست أنها مبعوضة فى الدار لا
يعطف عليها أحد ، فسيدها لا يلتفت إليها ولا يحس بوجودها ، بينما كان

الحاج أسعد يعطف عليها ويغمرها بمحنانه .. إن إعراض سيدها عنها هو ما يضايقها ويحرك حقيظتها ، فلو كان يرعاها ويفكر في الطواف بها بين وقت وآخر ، لأمكنها أن تتحمل إساءات من في الدار ، أما ومحمد لا يلتفت إليها فهي لا تطيق أحدا ، بل ولا تطيق نفسها .

وأحست ضيقا ، وخطر لها أن تترك هؤلاء الناس الذين لا يحبونها ، ولكن إلى أين تذهب ؟ إنها تنام في سرير عال ، وتملأ بطنها بألوان شهية من الطعام والشراب ، ولا تكاد تعمل شيئا .

ولكن ما قيمة السرير العالى إذا كان لا يؤنسها فيه أحد ، وما قيمة الطعام والشراب إذا كانت نفسها جائعة ظمأى .

إنها لا تطيق أن تصبر أكثر مما صبرت ، وهي تحس في نفسها فورة لا تقوى عليها ، فإما أن ينتبه محمد لوجودها ، أو تترك ذلك البيت لتبحث خارجه عما عز عليها داخله .

وعزمت قدم خير على أن تبرز فتنتها وأن تستغل مواهبها لتجذب محمدا ، فجعلت تسرح شعرها المفلفل ، وتدعك وجهها بحجر خاص وترطبه بالماء ، فبدا كزيتونة سوداء وضعت في الزيت ، ثم ارتدت ثوبا نظيفا ، ونظرت إلى نفسها في المرآة ، فاطمأنت إلى تسليحها .

وارتفع صوت أمينة :

— قدم خير ... قدم خير .

فسارت تلبى النداء في خيلاء ، فلما رأتها أمينة في زيتتها ابتسمت وقالت في سخرية :

— ما هذا الجمال !

فضحكت قدم خير في نشوة ، وبدت أسنانها كهلال أبيض في رقعة

سوداء ، فإن جمالها اليوم ملحوظ ظاهر للعيان .

وقالت لها أمينة :

— خذى مصطفى لأتفرغ لإعداد سفرة العشاء ، فقد اقترب موعد

عودة الرجال .

فتناولت قدم خير الصبى ، وخفق قلبها ، فهى الأخرى تنتظر عودة الرجال ؛ ثم عادت بالصبى إلى غرفتها ، وجعلت ترقب الباب فى خوف ورجاء .

وسرح خيالها ، فلم تفتن إلى أن النهار ولى ، وأن الليل هجم ، وأن الظلام ساد المكان . وظلت غائبة عن نفسها حتى صكت أذنيها أصوات باعة اللبن الزبادى ينادون على بضاعتهم ، فتنبهت ، فقامت وأنارت مصباحها ووضعته فى الفناء قرب الباب لتكشف الداخل .

ونظرت إلى الطفل فتحركت غرائزها ، فضمته إلى صدرها بقوة وقبلته . وبلغ سمعها صرير الباب فالتفت ثم هبت واقفة ، إنها تحس بخدر لذيد يدغدغ حواسها ، فلو أعارها الداخل التفاتة !

لحقت عمدا يدلف من الباب ، فأولته ظهرها وأخذت تلاعب الطفل وتناغيه فى صوت متهافت منغم .

وتظاهرت بأنها لم تر الداخل ، فراحت ترسل ضحكاتها ناعمة لينة متكسرة ، وسار محمد فى طريقه ، فلفت بجسمها وهى تداعب الطفل فاصطدم بجسمه ، فرفعت عينها إليه وابتسمت ، إنها الآن فى صدره ، وما عليه إلا أن يرفع يديه ويلفهما حولها .

ولكن محمدا انفلت من جوارها ، ووسخ من خطوه ، وراح يصعد فى الدرج مهرولا كأنما يجد فى أثره عفريت .

وضاق صدرها بالأحاسيس المتباينة ، وعصفت بها رغبتها المكبوتة ، فتقلصت أطرافها وضغطت على الغلام بقسوة فصرخ ، فأفاقت إلى نفسها ، وجمعت فلولها وصعدت في الدرج ودفعت بالطفل إلى أمه .

وأخيرا قررت قدم خير ترك الدار ، فإنها بعد أن حررتها الحكومة بقيت فيها برغبتها لإكراما للحاج أسعد ، أما وقد قضى الحاج ، ولم يعرف أنهاؤه قدرها ، فهي ستترك الدار غير آسفة .

وجاءت إلى نفيسة وقالت لها :

— إلى راحلة !

ولما كانت نفيسة تمنى رحيلها ، ولا تعرف أن تخبئ شيئا في نفسها ،

فقد قالت في سذاجة :

— أحسن يا بنتي .

كان ردا قاطعا ، فهبطت قدم خير إلى حجرتها تجمع حاجاتها ، وفتحت صندوقها الكبير وأخذت تضع فيه فرشها وثيابها ، وجعلت تلم أشياءها من هنا وهناك وأسعد وسليم يرقبانها ، ورأى أسعد أنها تعتدى على حاجات البيت ، فأسرع إلى نفيسة وقال :

— جدة .

— نعم يا أسعد .

— وضعت قدم خير الدقيق والبصل والخزير في صندوقها .

فقالت نفيسة وهي تشير بيديها في تسليم :

— لتأخذ يا بنى ما يحلو لها ، ولترحل .

وجاءت عربة وقفت أمام البيت ، ووضع عليها الصندوق ، وركبتها قدم

خير وانطلقت بها إلى حيث لا يدري أحد .

وكانت نفيسة وأمنية ينظران من وراء خصاص النافذة في ارتياح ، فلما ابتعدت العربية تناولت أمنية قلة وكسرتها وراءها ، حتى لا تعود أبدا .

٢٦

عرضت زكية نفسها على هذه وتلك من المولدات ، وانتظرت الشهور بين يأس ورجاء ، ولما غلب اليأس الرجاء طرحت خجلها وعرضت نفسها على هذا وذاك من الأطباء ، ومرت الشهور في أثر الشهور ولم يظهر للعلاج أثر .

وفي يوم جاءت تزورها امرأة من جاراتها وكانت تعلم تلهفها على الخلقة ، فقالت لها تطمئئني إنها بقيت سبع سنين دون أن تلد ، فوصفوا لها زيارة المنصورة فلما زارتها حملت في نفس الشهر .

فلما سمعت زكية ذلك أحست برد الراحة وعزمت على أن تزور المنصورة . ثم بعثت إلى أمينة لترافقها في زيارتها ، وفي الصباح الباكر استقلتا عربة انطلقت بهما في طرقات القاهرة ميممة شطر الجيزة . وبلغت العربية دير النحاس فتوقفت ، وهبطت منها أمينة وزكية ودلفتا من باب خشبي حقير ، فوجدتا نفسيهما في أرض فضاء كسيت بالنجيل الأخضر ، وفي وسطها حجرة صغيرة بنيت من الخشب حول شجرة كبيرة ، فيممتا شطر تلك الحجرة فوجدتا رايات صغيرة ممزقة يداعبها النسيم ، لقد علقتها بعض النسوة اللاقي حملن بعد زيارة المنصورة اعترافا لها بالجميل .

وهب النسيم العليل من ناحية النيل فأنعش روح زكية ، فعزت تلك إلى بركة المكان ، والتفتت إلى أمينة وقالت :

— هذا المكان يرد الروح .

فقالت أمينة موافقة :

— لا ريب ، فهو مكان طاهر .

وتطلعتا إلى الحجرة الخشبية برهة ثم قالت أمينة :

— وما تفعلين للمندورة إذا حملت ؟

فقالت زكية في حماس :

— أبذل كل هذه الرايات القديمة ، وأطعم كل من يخدمون المندورة
وأكسوهم كل عام مرة .

وردد المكان زغاريد نسوة ، فالتفتت زكية فإذا قرويات يقبلن فرحات
مهلات ، يقدمن الشكر للمندورة ، فقد حملت واحدة منهن بعد زيارتها وما
كانت تحمل قبل ذلك ، فالتفتت أمينة إلى زكية وهمست في دعاء :
— عفى لك .

ومس ذلك أوتار قلب زكية ، فرفعت بصرها إلى السماء .
ودخلت زكية إلى باب الحجرة الضيق وتبعها أمينة ، فوجدتا شجرة
ضخمة قصيرة انحنت كقوس ، كأنما لتحنو على هؤلاء النسوة اللاتي جئن من
كل صوب وحذب يمررن من تحتها ليلتمسن بركتها ؛ كانت تلك الشجرة هي
المندورة !

ورأت زكية امرأة قروية ترشد النسوة إلى ما يفعلن ، ففطنت إلى أنها
الموكلة بالمندورة ، فاقتربت منها ودست في يدها خمسين قرشا ، فانبسطت
أسارير المرأة وأقبلت على زكية ترشدها إلى ما تفعله في حماسة . وطاتت زكية
بالمندورة سبعا ، وهمت بالخروج ، فقالت لها القروية ناصحة :
— لا بد من عبور النيل في قارب حتى تنمحي العكوسات .

وخرجت زكية منشرة الصدر ، يداعبها الأمل ، وقالت لها أمينة :
— هيا نعبير النيل .

فقالت زكية في خوف :

— ولكنى لم أركب البحر عمري .

— تعالى ولا تخافى .

وسارتا حتى بلغت الشاطئ ، فوجدتا قارباً كبيراً امتلأً بالنسوة اللاتي جئن
يعبرن البحر لفلك العكوسات ، فقالت أمينة :

— اهبطى .

— لا يا أمينة إني أخاف .

— هل نحن أحسن من كل هؤلاء الناس !

ولما كان ما ترغب فيه زكية يستحق المغامرة ، فقد لمت أطراف شجاعتها
وهبطت إلى المركب واجفة القلب ، مضطربة النفس ، وجلست في وسط
المركب ، وأخذت تقرأ الفاتحة في سرها .

وسار المركب ، ثم مال حتى أصبحت حافته قريبة من سطح الماء ،
فاضطربت زكية وتعلقت بأمانة ورَدَدَت في فزع :
— أعجبك .. أعجبك ؟ انتبهنا وقضى الأمر .

فأخذت أمانة تهديء من روعها وتطمئنها ، وإن كانت في قرارة نفسها لا
تقل عنها خوفاً ، ولكنها كانت لا تحب أن تتم عن خوفها أو ضعفها .
وعبر المركب النيل ثم كر راجعاً ، وزكية متشبثة بكلتا يديها بأمانة ،
وأخيراً رسا على الشاطئ ، فهبطت منه زكية ، تلتقط أنفاسها ، وتبلفت
حولها في فرح ، كأنما خلقت من جديد .

عادت زكية من المندورة منشرة الصدر ، راضية النفس ..

وراحت تعد الأيام في رجاء وخوف ، فلو تحقق أملها لكانت أسعد الناس ، ولحجت إلى المنصورة تقدم لها شكرها وتوفى بنذرها .

٢٧

تدفقت الجيوش البريطانية على مصر ، وقاسمت الناس أرزاقهم ، فاجتاحت مصر موجة من الغلاء كانت وطأتها شديدة على الناس ، وراحت السلطة العسكرية تمشد العمال وتجمع المئون والدواب قسرا ، فاستاء الناس ، وما كانوا يقدر أن يجأروا بشكواهم ، أو يعلنوا سخطهم ؛ وكان الرجال يحشرون في سيارات ويرسلون إلى مختلف الميادين ، فكانوا ينفسون عن صدورهم بالابتهاال إلى الله أن يزيح عنهم ذلك الكابوس ، كانوا يرددون دعاء : « يا عزيز .. يا عزيز ، بمبة تأخذ الإنجليز » وكان الفلاحات يعددن وهن يطفن شوارع القاهرة على عربات كارو : « بلدي يا بلدي والسلطة أخذت ولدي » .

وراح الجنود يتحرشون بالناس ، يضربون هذا ، ويسبون ذاك ، ويغازلون النساء ويرفعن البراقع عن وجوههن ، فنزل بالمصريين كرب شديد ، وذاع أن الجنود يهجمون في بعض الأحيان على الدور الآمنة يفضحون نساءها ، فرأى حسن أن يحصن داره وأن يتسلح ، فصنع لباب الدار الخارجى مزلاجاً من حديد ، وأرسل إلى البيت سكينا كبيرة وبعض هراوات !

وحاول الترك اجتياز القناة ، فنشبت بينهم وبين الإنجليز معارك ، وأخذ أنصار الخديوى عباس يوسعون الأرض إذاعة أنه قادم في أثر تلك الجيوش ،

وكانوا ينشرون أنباء انتصارات الترك العظيمة ، فعدايب الناس آمال حلوة ، يحسبون أن احتلال البريطانيين قد آن له أن يزول .

وراح الأولاد يعلنون في سذاجة عن أمانى الشعب فكانوا يرددون وهم يلعبون « الله حى .. عباس حى » ، ولكن الجيش التركى انهزم هزيمة نكراء وارتد عن القناة ، فحزن الناس ، إذ ثبت الاحتلال أقدامه وباتوا تحت رحمة البريطانيين .

وكان التجار يفتحون جزءا من أبواب محالهم ، وكانوا على أهبة أن يغلقوا ذلك الجزء إذا همس هامس أن الجنود أقبلوا فى الشارع ، فمعنى إقبالهم بدء النهب . وفى يوم بينما كان أحمد فى مكانه القريب من منزله ، إذ جاءه إنجليزيان وجعلا ينتظران إلى الرفوف ، فتوجس منهم خيفة ، وقام عن كرسيه ، وانتظر ما يفعلان ، فأشارا إلى علب السردين المرصوفة على الرف فأحضر لهما علبتين ، فالتفت كل منهما إلى الآخر وضجا بالضحك ، وأشارا إليه أن يحضر كل ما على الرف ، فأحس حزنا وغيظا ، إنهما يسلبانه أشياءه ولا يستطيع أن يحرك ساكنا ؛ لقد أصبح كهؤلاء التجار الذين كان يسخر منهم كلما سمع ما فعله الإنجليز بهم . ووضع علب السردين أمامهما فلم يكتفيا بها بل أشارا إلى أصناف أخرى ، فأحضرها لهما وكاد مرجل غضبه ينفجر ولكنه تعلم كارها وصبر ، وما كان من طبعه الحلم أو الصبر .

ومد أحد الجنديين يده لياخذ النقود من الدرج ، فطار صواب أحمد ودفع الرجل فى صدره دون أن يحس خطره ما يفعل ، فزجر الرجلان وكشرا عن أنيابهما ، فأيقن أحمد أن المسألة تخرجت وأصبحت مسألة حياة أو موت ، ورأى أن يعاجل الرجلين بالهجوم ليشق لنفسه طريقا يفر منه فقد كانا يسدان المنفذ الوحيد للدكان ، وفى مثل لمح البصر رفع كرسيه وهوى به على رأس

(فى قافلة الزمان)

أحد الرجلين ، ثم رفعه وهوى به على رأس الثانى قبل أن يفيق من هول المباغتة ، وترنخ الجنديان ؛ وهَمَّ أحمد بالفرار فجرى نحوهما ليخرج من الدكان ، فحسباً أنه يهجم عليهما ليفتك بهما فارتبكا ، ودفعهما فى هروبه فسقطا على شريط الترام .

وأسرع أحمد مرعوباً إلى مقهى قريب ، فلما رأى صاحب المقهى فزعه ، وكان صاحبه ، سألَه عما به ، فأخبره بما جرى . فرأى الرجل أن يسارع لعون صديقه ، فحمل كرسيًا وخرج ليرى المعتدين . ورأى صبيان المقهى خروج المعلم فخرجوا خلفه يشدون أزره ، ورأى الجنديان إقبال الرجال وفى أيديهم الكراسى ، فأطلقا سيقانهما للريح . وهرع أحمد إلى الدكان وأغلقه على عجل ، وأسرع إلى بيته يفكر فى أمره .

وجد أحمد أن من صالحه ألا يذهب إلى الدكان ، فإنه لا يأمن أن يعودا ليثأراً لنفسيهما فيحطما الدكان ويحطما رأسه ؛ ورأى زيادة فى الحيلة أن يتنكر ، فلم يسعفه خياله إلا بخلع عمامته ولبس الطربوش ، وقبع فى داره يحسب للجنديين ألف حساب .

وبلغ نفيسة أن أحمد تشاجر مع الإنجليز ، فانتابها فزع شديد ، وأخذت ترتدى ثيابها وتولول ، فهى تحسبهم قتلوه ، وما كانت تصدق أن ابنها ضربههم وفر ، وما كانت تعتقد أن هناك من يستطيع أن يضرب الإنجليز ، والسعيد فى رأيها من ينجو من شرهم وأذاهم .

راحت تقطع الطريق واجفة مضطربة ، يزداد اضطرابها كلما وقعت عيناها على جندى بريطانى ، فهى تخشى مجرد النظر إليهم ، ودخلت على ابنها وصدرها يعلو وينخفض ، وقلبيها يخفق خفقانا شديدا ، ولما رأت ابنها سليما لا أثر فيه لجروح أو رضوض ، طفرت دموعها من عينيها وأقبلت عليه .

تعبته وتصغى إلى قصته فى انتباه ، وجعل يروى لها كيف ضربهم ويبالغ فى روايته فترتجف فرقا ، وتحمد الله على أنه نجاه من أيديهم .

وانتشر فى الأسرة أن أحمد ضرب جندين إنجليزين ، فجاء محمد ليرى ابنه ، وأقبل حسن يطمئن على أخيه ، وجاء الأقارب مظهرين اهتمامهم ، وجلسوا يتحدثون ، فقال محمد لابنه :

— وما نويت أن تفعل ؟

فشاء أحمد أن يظهر عدم مبالاته ، فقال :

— لا شيء . سأنزل إلى الدكان غدا .

فقال محمد :

— هذا ليس من العقل .

فقال أحمد فى ثورة مفتعلة :

— أتود أن أغلق دكاني ؟

فقال حسن فى هدوء :

— أرى أن يبقى أحمد فى البيت لا يبرحه ، ويفتح ابنه الدكان حتى يمر هذا

الحادث بسلام .

فأمن محمد على قول حسن ، وأحس أحمد راحة فى نفسه ، ولكنه ودأن

يظهر عدم اكترائه فقال :

— سأفتح دكاني بنفسى ، وليكن ما يكون .

فقال محمد :

— لا يا أحمد ، الرأى ما قال حسن .

وجلس أحمد فى الدار راضيا مطمئنا . وفتح ابنه الدكان ، وما انقضت

ساعات من النهار حتى أقبل الجنديان يبحثان عن أحمد ؛ فلما لم يجدها سألأ عنه

ابنه ، فقال لهما إنه عامل عنده وقد طرده أمس لما علم بما حدث منه ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث . فعدت أوامر الصداقة بينهم ، وسألاه عن بيته فوصفه لهما .

وفي صبيحة اليوم التالى أقبل الجنديان يدعوان صديقهما المصرى ، ولحهما أحمد فاضطرب وأسرع يختفى ، وخطر له أن يختبئ تحت السرير ولكنه رأى فى ذلك هدرا لكرامته . فقبع فى ركن مسحيق يكاد يغمى عليه من الخوف .

وهبط ابنه للقاء صديقيه الجديدين ، وصافحهما وانصرفوا يضحكون ، وعلم أحمد أن ابنه خرج معهما فازداد حنقه ، فإن معنى هذه الصداقة أن يبقى شبح التهديد قائما ، وأن يظل هو فى سجنه لا يرحه .

وعاد ابنه إلى البيت بعد ساعات ، فاستقبله فى ثورة وغضب وصاح به :
— لم أحضرتهما إلى البيت ؟

فقال ابنه معتذرا :

— لم أحضرهما ، سألانى عن بيتى فوصفته لهما ، وما كنت أظن أنهما سيحضران إليه .

— إياك وإحضرهما إلى هنا مرة أخرى .

ومرت أيام وأحمد فى البيت لا يرحه ، فأحس مللا ، وأراد أن يخرج فى ظلمة الليل ليجتمع بأصحابه ، ولكن ما يقول لزوجته ؟ رأى أن خير طريقة للخروج أن يجر زوجها إلى المجادلة ، ثم يظهر غضبه ويتركها الدار .

وجلس بجوارها وأخذ يجرها إلى المجادلة ، حتى إذا جادته هب حائقا وصاح :

— والله لأترك لكم البيت .

ووضع طربوشه على رأسه ، وفتح الباب وأغلقه وراءه فى ثورة وعنف .

امتطى ممدوح حمارا وذهب يزور جدته ويحضر أسعد الذى أمضى عندها أسبوعين ، وخرج سليم إلى الحارة يلعب مع الأولاد ، ووقف مصطفى على عتبة الباب يتلفت لا يدرى إلى أين يذهب ، ورأى أم عباس الندابة تجلس على باب بيتها ، فسار نحوها ووقف بالقرب منها ينظر فى فرح الأطفال إلى الكتاكيت الصغيرة التى كانت تجرى حولها ، وتشجع فتقدم يلعب بالكتاكيت ، فخشيت أم عباس أن يخنق كتكوتا ، فمدت يدها وجذبتة وهى تقول :

— تعال ، اجلس هنا أحسن .

وجلس مصطفى فى حجرها ، وراحت تحتسى القهوة ، فلما انتهت من شربها قدمت إليه الفنجان وليس فيه إلا الثمالة ، فلوث فمه ولم ينزل فى جوفه شئ ، وشاءت أن ترى أهله أنها تفضلت على ابنهم بالقهوة فلم تغسل فمه بل راحت تزيد فى تلويثه بيديها . ثم حملته وصعدت الدرج حتى إذا بلغت شقة نفيسة صفقت ، فخرجت نفيسة لترى القادم ، فرأت أم عباس تحمل حفيدها وقد تلوث فمه وذقنه وجزء من خده بالقهوة ؛ وابتسمت أم عباس ابتسامة بغیضة ، فبدت أسنانها الصفراء المقوسة ، ولما أيقنت أن الجدة رأت آثار البن فى فم حفيدها ، قالت فى دعاية متكلفة :

— اسم النبی حارسه شرب القهوة كلها .

وفطنت نفيسة إلى ما ترمى إليه ، فمدت يدها وحملت مصطفى ، والتفتت إلى أم عباس وقالت :

— انتظري يا أم عباس .

وغابت قليلا ثم عادت تحمل ورقة ملفوفة وقالت :

— خذى هذا البن .

فقال أم عباس وهي تتناول القرطاس :

— لا والله . ولم هذه الكلفة ؟

وأخذت من هذا الوقت ترقب هبوط مصطفى إلى الحارة ، فقد أصبح مورد رزق لها ، فالبن غال ، والسكر غال ، فلو أن مصطفى نزل عندها لأمكنها أن تستفيد من جيرانها التجار الذين لا يحسون وطأة الغلاء ولا قيود التهمين !

وهبط مصطفى واتخذ سمته إلى أم عباس ، فقد وجد مكانا يقصده إذا ترك الدار ، فلما لمحتة فتحت له ذراعها وصاحت بصوت عال لعله يصل إلى آذان أهله :

— أهلا بزوجي ... أهلا بزوجي .

وضمته إلى صدرها وأخذت تقبله ، ثم أجلسته إلى جوارها ، وأحضرت طبق بامياء أخذت تأكل منه ، وما كان في الطبق شيء كثير ، فلما انتهت لوثت فم الصبي ، ومسحت يدها في صدره ، فتركت آثارا تدل على أنه لوث نفسه وهو يتناول الطعام فيهم ، ثم حملت الصبي وصعدت به إلى أمه ، وهي حريصة على أن تدل القرائن على أن الولد شرب الطيبخ شربا ، ولما اقتربت من شقة نفيسة انسلت في خفة فما كانت تحب أن تراها هذه المرة ، فالبن الذي أخذته لم ينقض عليه يومان ، وإنها تود أن تأخذ هذه المرة من أمينة ، مرة من هنا ومرة من هناك فلا يحس أحد مللا أو ضيقا .

ونفرت الباب في رفق فأقبلت أمينة ، فلما رأت ابنها وقد تلوث فمه

وملابسه ، قالت فى إنكار :

— ما هذا الوسخ ؟

فلم تعجب هذه المقابلة أم عباس ، فقالت فى سخرية خفيفة :

— وسخ ! هذا طبيخ . اسم النبى حارسه شرب البامياء .

فأخذت الطفل منها وقالت :

— انتظرى قليلا .

وعادت تحمل طبق طبيخ يتصاعد منه البخار وقدمته إلى أم عباس ، فأخذت تنظر إليه وقد سال منها اللعاب ، لقد كان طبيخا طازجا ترصعه ثلاث قطع من اللحم الضأن الذى ندر فى تلك الأيام ، وما كان بائنا خلوا من اللحم كطبق البامياء الذى تناولته ولوثت ببقاياها فم الغلام .

وأصبح مصطفى يجلس عند أم عباس طول النهار ، فإذا غابت عن الدار فى مأتم جلس مع عباس وأخذ يرقبه وهو ينظر فى مرآة صغيرة فى يده ، ويجذب الشعيرات الصغيرة التى فى ذقنه بملقط ، فما كان عباس يحب أن تنبت له لحية أو شارب ، وما كان يحب أن يخلق رجلا ، فما يشارك الرجال أفعالهم ، بل كان يذهب للم نندابات ومحاسبتهم ، وكان يشبههم فى حديثه ، فكان يمت الألفاظ فى نعومة مثلهم ، وكان إلى عهد قريب يتزين بقرط وأساور من ذهب :

ودخل مصطفى حجرة أم عباس كعادته فألقاها وضعت نقودا فضية فى غربال وأخذت تعدها ، فلما رأته أسدلت عليها طرحتها وصاحت فى غضب :

— عباس ، خذ الولد .

فوضع عباس المرأة والملقط على عتبة الباب ، ودخل وحمل مصطفى

وجعل يغنى له أغنية مشهورة في صوت أجش ، لا هو صوت رجل ولا هو صوت أنثى ! وحن موعد الغداء ، فتغدى عباس وأم عباس ، وتلوث فم مصطفى وملابسه كالعتاد ، ولم يعد هناك حاجة لأن تحمل أم عباس الطفل وتصعد به ، فقد علم الجميع أنه يشاركها طعامها ، وأنه أصبح زوجها ، وكان يكفى أن تقف في وسط الحارة وتهتف بصوتها البغيض :

— مصطفى ... مصطفى ، لتبهط خادمة تحمل الطفل وتعود بطبق الطبيب ، وأصبح ذلك الطبق ضريبة لا بد من دفعها .
وفي يوم كسرت أم عباس زجاجة المصباح ، وكانت الزجاجات غالية نادرة ، فحزنت لكسرها ، ولحت حسنا خارجا في الصباح ، فتقدمت منه وقالت في صفاقة :

— النبي حارسه كسر الزجاجاة .
كأنما كان مصطفى نائما عندها ، ونهض في الليل وكسرها ، فمد حسن يده في جيبه وأخرج مبلغا دفعه إليها في سكون .
وهبط مصطفى على رغم تحذير أمه ، وذهب إلى أم عباس ، فوجد عندها كلبا صغيرا ففرح به وأراد أن يأخذه ، فقالت له في خبث :
— دعه يا مصطفى ، إنه لم يأكل .
— سأأخذه وأطعمه .
— إنه لا يأكل إلا سكرا .

فأطرق الصغير قليلا : ولم تدعه أم عباس يقدرح فكره ليحل هذه المعضلة فقالت له :

— عندكم سكر كثير ، اصعد وأحضر بغضا منه .
وصعد مصطفى ، وذهب إلى أمه وجعل يتمسح بها فالتفتت إليه

وقالت :

— ما تريد يا مصطفى ؟

— سكر .

— لم ؟

— لأم عباس .

فتحت صوانا وأخرجت منه علبة كبيرة ، وأعطت مصطفى بعض السكر ، فهبط إلى أم عباس في سرور ، ودفع إليها بما أحضر ، فتهللت أساريرها ، ولكن جشعها لم يقنع ، فالتفت إليه وقالت :

— هذا للكلب فأين نصيبى ؟

فوقف مصطفى لا يدري ما يفعل ، فهمست له :

— اذهب وأحضر لى بعض السكر دون أن تراك أمك .

وأرادت أن تزيد في إغرائه فقالت له :

— خذ الكلب .

فحمل الغلام الكلب في فرح ، وأخذ يصعد في الدرج مغتبطا حتى إذا بلغ السطح ترك الكلب في الشمس ، ونزل إلى شقتهم ليحضر السكر لأم عباس دون أن تراه أمه ، وسار على أطراف أصابعه حتى إذا بلغ الصوان فتحه في رفق وأزاح غطاء العلبة وأخذ يملأ جيوبة ، وفاجأته أمه فارتبك وبان عليه الفرع ، فلما رأت اضطرابه قالت له :

— ماذا تفعل ؟

فلم يحرك ساكنا ، بل ظل في وجومه ، فاقتربت منه ومدت يدها في جيبه وأخرجت السكر وقالت في غضب :

— لمن هذا ؟

فقال في خوف :

— لأم عباس .

فصفعته على وجهه وقالت في ثورة :

— ستعلمك أم عباس السرقة !

فأطرق في خزي ، وتذكر أنه أخذ الكلب مقابل السكر ، ولما كانت أمه قد أخذت السكر منه ، فإن ذلك الكلب لم يعد له ، فصعد إلى السطح في حزن ، وحمل الكلب وهبط به حتى إذا ما بلغ بيت أم عباس لم يجرؤ على الدخول ، فترك الكلب على عتبة ، وعاد حزينا يحس جرم ما فعل .

٢٩

التحق بمدوح بمدرسة ابتدائية ، وذهب أسعد وسليم إلى مدرسة أولية كانت في نهاية الحارة ، وبقي مصطفى يلعب في البيت ، وجاءت زائرات ففتحت هن أمينة غرفة الاستقبال ، فخلعن أحذيتن حتى لا ينجسن البساط ، فقد كان الناس في ذلك الوقت يصلون على تلك الأشرطة .

وأقبل مصطفى ليجلس مع الزائرات ، فلمحته أمينة فأسرعت إليه وأخذته بعيدا ونهرته ، فقد كانت ترى أن مشاركة الأطفال الزوار في جلساتهم قلة أدب وسوء تربية ، فشب أبنائها جميعا يهابون الناس ويفرون منهم كأرانب مذعورة ، ويتعثرون في مشيهم إذا سدد إليهم أحد نظره طويلا ، وكانوا يذوبون خجلا إذا ما دخلوا على أحد أو اضطرروا إلى التسليم على أحد .

وشاءت أن تغريه بالخروج فأعطته مليمين ، فنزل ووقف على باب البيت

يفكر أين يذهب ، فخطر له أن يذهب إلى المدرسة ليرى أسعد وسليما ! وما عليه إلا أن يقطع الحارة المتعرجة كثنعبان حتى يجد المدرسة أمامه .

وسار مصطفى ، كان كلما وجد أطفالا يلعبون وقف ينظر إليهم ، ولا يجروا على أن يشاركهم لعبهم ، حتى إذا رأى باب المدرسة هرولا ودلف منه ، ثم راح يجوس خال الفصول وهو يصيح في فرح :

— معى نيكله .. معى نيكله .

فضحك المدرس وضحك الأولاد لضحك مدرسههم ، وأحس أسعد وسليم خجلا ، واحمر وجهاهما ، فإن أخاهما يقول هذا يجلب الغضب ، ولمح مصطفى أخويه جالسين على مقعد واحد ، فأسرع إليهما في سرور وجلس بجوارهما ، فازداد ارتباك الولدين ، واستمر مصطفى في جلبته وضوضائه فقال المدرس لسليم .

— أرجع الولد إلى البيت وعد :

فقام سليم وقد صهدت أذناه ، وأخذ يد مصطفى وسار في ارتباك حتى ترك الفصل ، حتى إذا خرج من باب المدرسة راح يعنفه مصطفى لا يفهم لغضبه سببا .

وفي العصر جاء أسعد وسليم فانضم مصطفى إليهما ، وأخذ يلعب معهما في الحارة ، ومالت الشمس للمغيب ، فراح الناس يعودون إلى دورهم ، وأقبلت عربة كارو تكرر في الحارة ، ثم وقفت أمام المسمط المهجور ، وتخلف الخوذي قليلا ليصلح من شأنه ، ورأى مصطفى العربة فتقدم منها ومد يده الصغيرة وسحب الحمار ، ولمح الخوذي العربة تسير ، فصاح بالحمار أن يقف ، ولكنه استمر في سيره ، فقد كان هناك من يسحبه . وأسرع الرجل خلف العربة ، فرأى من خلل عجلتها شيئا صغيرا يسحب

الحمار في الظلام ، ففزع وفر وهو يصيح :

— العفريتة أخذت الحمار ، العفريتة أخذت الحمار ..

صور له خياله أن عفريت صباح ظهر له واستولى على حماره ، وأقبل معه رجلان ، وتقدموا من العربة في احتراس وقد ملأ الخوف جوانحهم ، حتى إذا ما رأوا العربة تسير وحدها اطمئنوا بعض الشيء ، ومد الرجل يده فتناول زمام حمازه وأخذ يستحثه على العدو ، ويتلفت خلفه في خوف .

* * *

غابت الشمس ، ولم يظهر القمر ساطعا كالليلة السابقة ، بل بدا مغبشا محجوبا . كانت ليلة من الليالي النادرة التي يخسف القمر فيها ، فسرى في الحارة أن القمر مخنوق ، فشخصت الأبصار إلى السماء في خوف . واستمر القمر في احتجابه فأحس الناس رهبة ، وراح الأولاد يجمعون قطع الصفيح يضربون بعضها ببعض ، أو يضربونها بعصى فتتهك أصواتها سكون الليل ، وترتفع الضوضاء والجلبة ، فتنزّل بالقلوب رهبة ، ورأى أسعد وسليم ومصطفى أن يفعلوا كما يفعل الأطفال وينشدون : فأخذوا صفيحة الغسيل وجعلوا يدقون عليها في شدة وفرح :

« يا بنات الحور سيبوا القمر ينور

دا القمر شاب وغندور »

واستمر الخسوف ، كأنما جعجعة الصفيح الصاخبة لم تصل إلى بنات الحور ، وكأنما ابتهال الناس إليهن لم يحرك قلوبهن فيتركن القمر الغندور ، وزاد فزع الناس فصعدت النسوة إلى الأسطح يضربن الطساس النحاس ، وصعدت نفيسة إلى السطح وتطلعت إلى القمر المخنوق فسكنت الرهبة قلبها ، فجعلت تهتف في خشوع :

— يا لطيف الطف بنا ، نحن عبيدك كلنا .. يا لطيف الطف بنا ، نحن عبيدك كلنا » وارتفعت أصوات الابتهاال من كل جانب ، وأخذ الناس يروج بعضهم في بعض كأنما كان هذا نذير الساعة ، وكأنما القيامة قائمة عما قليل . ولم تغمض عين تلك الليلة ، وكيف تغمض والقمر مخنوق ، وكيف تغمض وجلبة الصفيح والطساس تصم الآذان ، وتطرد النوم إذا فكر أن يطوف بمجهد أو نثوم !

وابتدا الخسوف ينقشع ، فخفت الضوضاء ، ونزل بالقلوب أمن ، وساد الكون هنية صمت رهيب ، فقد أطل القمر من السماء بصفحة وجهه على الناس ، فأحسوا كأنما يشكرهم على مشاركتهم إياه في محنته ، فارتفعت الأصوات وجلجلت زغاريد النسوة .

* * *

وسكن الشقة المتواضعة التي بنتها أم عباس فوق منظرتيها مدرس من مدرسي المدرسة الأولية التي تشرف بمواجهة الحارة ، ويتشرف أسعد وسليم بالانتساب إليها ، وحسب المدرس أن من حقه بصفته المرنى الجليل أن يسخر الأولاد في قضاء حاجاته ، ففي يوم رأى سليما فخطر له أن يبعثه لشراء سمن ومخلل ، فالتفت إليه وقال :

— تعال يا سليم معي .

فارتبك سليم ، وسار خلف مدرسه صامتا ، ورأى مصطفى ، وكان يقف على عتبة الباب ينتظر بائع الحلوى ليشتري منه أى شيء بالمليمين اللذين كان يقبض عليهما في حرص ، رأى أخاه يسير خلف المدرس ، فناداه وهول نحوه ، ولكن سليما ظل على صمته وتأدبه ، فكيف يتكلم وهو في حضرة المرنى المفضل .

ودلف المدرس من الباب ، ودلف خلفه سليم وتبعهما مصطفى ،
وساروا في الدهليز المعتم يتحاشون الاصطدام بالمواجير التي انكفأت هنا
وهناك ، أو بأقفاص الجريد التي بعثرت في غير نظام ، وصعدوا في الدرج
وكان بلا درازين ، فكان مصطفى يلتصق بالحائط خشية السقوط في بحر
السلم ، حتى إذا بلغوا باب الشقة دخل المدرس ووقف سليم ومصطفى
ينتظران .

وعاد المدرس يحمل كوبا وسلطانية دفعهما إلى سليم . وأعطاه قرشا وقال
له :

— هات في الكوب سمنا بستة مليمات ، وفي السلطانية مخللا بأربعة .
فهبط سليم ومصطفى ، وانطلقا إلى تاجر في الشارع الرئيسي ، وطلب
سليم سمنا بستة مليمات ، فلما دفع التاجر الكوب إلى سليم نظر إلى الكمية
الضئيلة في خوف ، وخشى أن يظن المدرس أنه لم يشتري بالنقود كلها ،
فاضطرب وأحس الدم يصعد إلى وجهه ، وخطر له خاطر ، إن معه نصف
قرش ، فلم لا يشتري به سمنا يضيفه إلى ذلك السمن فيوفر على نفسه غضب
المدرس ، وأعجبته الفكرة ، فمد يده في جيبه وأخرج مصروف اليوم ودفع
به إلى التاجر .

وأخذ سليم السمن ، وسار ومصطفى إلى بائع المخلل ، واشترى منه
بأربعة مليمات ، ولكن ما اشتراه لم يعجبه ، فما يفعل وقد نفذ ما معه من
نقود ؟ إن مع مصطفى مليمين ، وهو لا ييخل بهما عليه ، فالتفت إليه
وقال :

— هات يا مصطفى المليمين نشتري بهما مخللا للمدرس .
فدفع مصطفى بالمليمين إليه ، وطلب أن يحمل السمن ، فأعطاه سليم

الكوب وعادا إلى المرنى المحظوظ سعيدين راضيين .
ونظر المدرس إلى ما أحضر سليم وقال متعجبا :
— أهذا كله بقرش ؟
فأوماً سليم برأسه ؛ فقال المدرس في تأكيد :
— لن أبعث أحدا لشراء حاجاتي سواك .
ودخل المدرس مغتبطا ، بينما هبط سليم متقبضا ، فلن يتمتع بمصروفه بعد
اليوم .

٣٠

وانتقل الأولاد إلى مدرسة ثانية أوسع من الأولى ، فيها بنون وبنات .
ومدرسون ومدرسات ، وناظر وناظرة ، ولكن كان بين كل جنس وجنس
سد منيع ، لا يجتازه إلا الناظر الهمام .
وذهب مصطفى إلى المدرسة أول يوم في سرور ، فقد كان يحسبها دار
لعب وتسلية ، وما خطر على قلبه أنها دار تعذيب . فلما انقضى اليوم الأول
علم أنه دخل سجننا بغيبضا ، فقرر ألا يذهب في اليوم التالي . فلما أصبح
الصباح لم يغادر فراشه ، وتناوم لعل أمه لا توقظه ، ولكن أمه جاءت إليه
وهزته ثم حملته ، وأخذت تلبسه ملابس المدرسة وهو يتوسل إليها أن تدعه
يقيم ذلك اليوم فقط ، ولما لم تلتفت إلى توسلاته علم أنها قررت أن يذهب إلى
المدرسة فيكي ، ونام على الأرض ، وأخذ يضرب يديه وبرجليه . وتقدم
أسعد وسليم ليأخذهما فارتفع عويله ، فأمرت أمينة أسعد أن ينادى
عباسا ، فلما جاء حملته مصطفى ، وطلبت منه أن يذهب إلى المدرسة ،

فجعل مصطفى يضربه في صدره ، ويحاول أن يتملص من يده ، ولكن عباسا هبط به وأسعد وسليم في أثرهما . فلما رأى مصطفى ألا فائدة من البكاء ، صمت على مضض .

ودخل الأولاد قصولهم ، ودخل مصطفى مع أخويه وجلس معهما ، وجاء مدرس ذو عمامة صغيرة ، وقفطان مخطط ، وجبة زاهية ، وكان كأولئك المقرئين الذين يرتدون ثيابهم الفاخرة يوم الجمعة ، ويقفون عند المدافن ، ويتقدمون من السيدات ، ويرددون في إلحاح : « سورة يا ست ؟ . سورة على روح المرحوم ؟ » وتقدم من السبورة وكتب عليها : « إملأ » ، ففتح الأولاد كراساتهم ، وتطلعوا إلى مدرسهم في انتباه ، وراح المدرس يقطع ممرات الفصل صاعدا هابطا في خيلاء وقد وضع يديه خلف ظهره تحت الجبة ، وهتف : « اكتب » فأصاخ الأولاد السمع ، وتعلقت عيونهم بغمه ، وابتدأ في الإملاء ، وراح يحط الحروف ، ويتشقق بالألفاظ ، كأنما ينطق بالدر المكنون ، وجلجل الصوت ، وجعل يملئ في ثقة واطمئنان : « أكل السمك على اللبن ليلة الأربعاء يورث الجنان » . وانتهت الإملاء ، فصاح في الأولاد : « ضعوا الأقلام » فوضع الأولاد الأقلام في شدة متعمدة ، وهرعوا إلى التوافذ المهذمة وإلى أركان الحجرة يحضرون بعض التراب الناعم ينثرونه على الجبر ليحلف ، وراح المدرس العلامة يمر على تلاميذه يصحح لهم أخطاءهم !

كان الأولاد يلعبون في الفسح في فناء المدرسة الضيق ، وكان يحلو لمصطفى أن يقف بجوار الباب المحرم الذي يقود إلى مدرسة البنات ، إنه يود أن يدلف منه ليرى ما وراءه ، فإن كل ممنوع مرغوب ، وراح يمد بصره لعله يرى شيئا ، فلمح الناظر مقبلا من الباب ، وتقدم إلى الباب الآخر الذي يقود

إلى فصول البنات ، ومصطفى يغبطه على ما هو فيه من نعيم ، فإنه يستطيع أن يذهب حيثما يحلو له ، بينما لا يستطيع هو أن يتجاوز عتبة ذلك الباب .
وخطر له أن يدخل ، ولم يستطع مقاومة إغراء الفكرة ، وتقدم حتى إذا أصبح في منتصف الطريق بين الباب الخارجى والباب الذى يقود إلى فصول البنات سمع فراشا يصيح :
— ولد .

ففر واندس بين الأولاد يرتجف خشية أن يقبض عليه ويسلمه إلى الناظر .
وفى يوم تأخر الأولاد فى الصباح ، فراحوا يجرون فى الطريق الطويل الموصل إلى المدرسة ليبلغوها قبل دق الجرس ، فانبهرت أنفاسهم ، وتصيب العرق منهم ، وخفف مصطفى من عدوهم ، فبلغوا المدرسة وقد اصطف الأولاد صفوفا ، فأسرعوا يدخلون الصفوف ، فلمحهم الناظر ، فأشار إليهم فتقدموا منه يرتجفون ، فطلب منهم أن يقفوا فى ناحية ، فوقفوا ينتظرون القضاء ، وجاء أولاد آخرون متأخرين فانضموا إليهم ، وسارت الصفوف إلى الفصول ، وخلت فناء المدرسة إلا من المتأخرين وحضرة الناظرة وفراش ومدرس ، فصاح الناظر فى الفراش :
— الفلقة حالا .

فهزول الفراش وأحضر قطعة حصير فرشها على الأرض ، وقدم الفلقة لحضرة الناظر ، وكانت عبارة عن قضيب من الخشب شد إلى طرفه حبل ، توضع فيه قدما المذنب ، ويلف القضيب فيمسكهما بطريقة جهنمية ، ويهوى حضرة الناظر عليهما بعصاه الخيزران كما يحلو له ، دون أن يهز قلبه عويل الطفل وتوسله بالأولياء والنبين ، وصراخه وقسمه أنه قد تاب من الذنب العظيم .

وبكى الأطفال لما رأوا آلة التعذيب ، وجعلوا يتضرعون إلى حضرة الناظر أن يعفو عنهم ، ولكن حضرة الناظر لم يلتفت إلى دموعهم ، ولم يرحم فزعهم ، فقد اعتاد أن يرى تلك المناظر يوميا ، وقد اعتاد أن يضرب الأولاد في لذة ، كما اعتاد أن يأكل طبق الفول المدمس كل صباح في شهوة .

ولمح الناظر مصطفى بين المذنبين فأخرجه من بينهم ، لا شفقة عليه ؛ ولكن خشية أن يموت في يده ، وأشار إلى أسعد أن يتقدم ، فتقدم يرتجف ودموعه تسح من عينيه ، وقبض الفراش عليه كما يقبض الجزار على خروف العيد ، وطرحه أرضا في قسوة ، وخلع نعليه ، ووضع قدميه في الفلقة ورفعهما إلى أعلى ، وأهوى الناظر عليهما بعصاه ، ورأى مصطفى ذلك ، فأخذ ييكى ، كأنما كانت الضربات التى تنال على رجله أسعد تنال على رجله هو .

وترك الفراش أسعد ، يحاول أن يدس قدميه في الخدء : وجذب سليما ، فارتجف في يديه ، وصرخ في رعب ، فأحس مصطفى كأن شوكة تنغرز في قلبه ، وألقى الفراش الصبى على الأرض في قسوة ، ورفع رجله في الفلقة . ثم ترك سليما وجذب ضحية أخرى . كأنما انقلب فناء المدرسة ساحة سجن ، وكأنما انقلب الناظر جلادا لا قلب له ، وكأنما انقلب التلاميذ الأبرياء مجرمين خطرين ، وما كان ينقص هؤلاء العناية إلا طبيب يكشف على التلاميذ قبل ضربهم ، ويشترط مواضع الضرب بسلاحه حتى يصبح حرم المدرسة ساحة جلد قانونية .

ودس سليم رجله في حذائه ، وسار في أثر سعد يتأيل من الألم ، وخلفهما مصطفى يمسح بكمه الدموع التى تنهمر من عينيه .

ووضعت أمينة مولودها الخامس ، وجاء ذكرها أيضا فبكت أو كادت لميل
بحتها ، فهي لن تنجب بنتا أبدا ، وهي تذكر قول الحاج أسعد إذ يداعب
زوجها : أنت رجل مثلى لا تنجب بنات . وهي تعتقد في ذلك القول الآن ،
وتنظر إليه على أنه نبوءة لن تنزل الأرض . لقد رفعت الحجب عن عيني الحاج
أسعد في تلك اللحظة ، فقرأ في سجل الزمن ما يجتبه لها القدر .

وجاءت زكية وهنأت زوجة أخيها بمولودها الجديد ، ثم عادت إلى دارها
تفكر في نفسها ، لقد سخر الزمن منها مدة طويلة ، وأمعن في سخريته إذ
استصعبت أمينة في زيارة المندورة ، فإذا بها لا تحمل ، وإذا أمينة هي التي
تحمل .

ولم ينفع الأطباء ، ولم تجد الوصفات ، وما ظهر للمندورة أثر .. وقيل لها
أن تزور دار الآثار فرؤية المومياء — ويقولون عنها المساحيط — تنفعها ،
فذهبت إلى دار الآثار ، وطافت بها ، ورأت المساحيط جميعا ، ومع ذلك لم
تحمل .

فنزل بما هم ثقيل ، وانتابها حالات عصبية . فصارت ترمى على الأرض
فاقدة النطق ، فتهرع خادمتها إلى الجيران تدق بابهم ، فيسرع إليها النسوة
يرششن على وجهها ماء الورد ، ويضربنها على صدغها في رفق حتى تفيق إلى
نفسها ، وتعود إلى وعيها .

وفي يوم ارتمت على الأرض ، وتخشب جسمها ، وشخص بصرها إلى
السقف ، وثبت لا يتحرك ، وجاء النسوة إليها وحاولن إفاقتها ، ولكن دون

جدوى . فطلب النسوة من الخادمة أن تستدعى الست الكبيرة ، فخرجت
تجرى حتى بلغت الدار ، وأخذت تفضى إلى نفيسة بالنبا مهورة النفس ،
فأحست نفيسة بالقلق ، وأخذت ترتدى ثيابها على عجل ، وذهبت تهرول
وهي لا تدري كيف تسير ، حتى إذا دخلت على ابنتها ، ورأتها ممددة
والنسوة حوها ، انحطت على الأرض ، وأقبلت عليها تناديا :
— زكية .. زكية .. أنا أمك .. ردى على يا حبيبتى .

وجعلت تضربها على صدرها برفق دون جدوى ، وظلت زكية في
تشنجهما وتصلب أطرافها ، وسرى في المكان همس أن جسدها لم يعد خالصا
لها ، وقيل إنها نامت حزينة فشاركها في جسمها العفاريث ، ولما بلغ ذلك
الهمس مسامع نفيسة ، اطمأنت نفسها بعض الشيء ، فلو أن الذى بها من
العفاريث لأمكن ترضيتهم ، وكأنا اقتنعت نفيسة بما قال النسوة ، فجعلت
تستعطف العفاريث الذين يؤذون ابنتها .

— دعوها يا أولاد الحلال ، دعوها وأنا أفعل كل ما يرضيكم .
وأخذت تتوسل إليهم في صوت مختنق ، ولكن زكية ظلت في غيوبتها .
وكسرت امرأة بصلة وقربتها من أنف زكية ، فتحركت وامتنعت وجهها
وزاد تصلبها ، فقالت نفيسة راجية .

— ارفعى هذا البصل فرائحته تؤذيهم .

ورفع البصل فقالت :

— شوية بخور .

فأحضرت امرأة ورقة صغيرة ملفوفة في عناية ، وذهبت إلى المطبخ
وأشعلت موقد « السبرتو » ووضعت فوقه قطعة صفيح صغيرة ، فلما نسخن
الصفيح وضع فوقه البخور فتصاعد الدخان . ووضع تحت أنف زكية

وبخرت به فلم تفق وظلت في تمددها ، فقالت إحدى الحاضرات :

— أحضروا مؤذنا يكبر في أذنيها .

فقالت نفيسة في وجل :

— أخشى أن يؤذوها !

فقالت أخرى :

— هذا آخر حل .

ووجدت نفيسة نفسها مضطرة إلى معادة « الأسياد » الذين لبسوا بنتها ، إذ بدأت تقلق عليها ، فاستدعت الخادمة وقالت لها :

— اذهبي إلى سيدك محمد في الدكان ، وقولي له أن يأتي ويحضر معه من يكبر في أذن ست زكية ، فإنها « ملموسة » .

فخرجت الخادمة ، وازدادت حالة زكية سوءا فحسبت نفيسة أن هذا القرار لا يعجب « الأسياد » ، فأخذت تتوسل إليهم :

— لم هذه الأذية يا أولاد الحلال ! دعوها يا أولاد الحلال وأنا أفعل كل ما تطلبون .

وجاء محمد يتبعه مؤذن الجامع القريب من دكانه ، فهرع النسوة إلى حجرة قرية وأغلقتن بابها عليهن ، ولكنهن تركن فرجة ينظرن منها ما يجري في حجرة زكية ، ودخل محمد واجما فرأى زوجه بجوار ابنته الممددة كلوح من الخشب ، فسألها في اضطراب :

— ما لها ؟

فقالت نفيسة والدموع تظفر من عينيها :

— لم يعد جسمها خالصا ، لمسها إخواننا ، ومن ساعتين وهي على هذه

الحال .

فقال محمد وقد أطرق في حزن :

— وما العمل ؟

— دع المؤذن يكبر في أذنيها ففتر العفاريت إذا سمعت الأذان .
ونظر محمد إلى نفيسة كأنما يقول لها : وأنت هل تظهرين هكذا أمام
الرجل ، وفهمت نظرته ، فانسحبت إلى الغرفة الأخرى ، وأدار محمد عينيه
في المكان ، حتى إذا وقعنا على ملاءة كبيرة على أحد المقاعد ، تناولها ومستر بها
جسد ابنته ، ثم أذن للرجل بالدخول .

ودخل الرجل وركع بجوار زكية ، ورفع رأسها بين يديه وعاونه محمد في
رفع جلعها ، وراح الرجل يكبر في أذنيها بقوة ، ليرهب العفريت الذي
تسرب إلى جسمها ، وليرغمه على الفرار .

وانتهى الأذان وزكية على حالها ، وانسحب المؤذن ، فخرجت نفيسة
وجلست بجوار ابنتها تناديه وتفرك يديها في قلق وخوف .

وبعد مدة تحركت زكية ، وفتحت عينيها وراحت تجيلهما في الحاضرين
في ذهول ، فأشرق وجه نفيسة وأحس محمد أمنا .

* * *

وأخذت زكية تروح في غيبوبة بين وقت وآخر ، وأخذت نفيسة تهرع
إليها في كل مرة لتكون بجوارها في محنتها ، ولما رأت نفيسة ما تقاسيه ابنتها
عزمت على أن تضع لعذابها حدا ، فقررت أن تعرضها على شيخة الزار .
وذهبت زكية ونفيسة إلى ربيع عتيق في حى عتيق ، ودخلتا على الشيخة
وسلمتا في توقير واحترام ، وجلستا أمامها صامتتين ، حتى إذا سألتها عما
دعاهما لتشریفها ، أخذت نفيسة تقص عليها ما يحدث لابنتها ، ولما انتهت من
قصتها ، تطلعت إليها في انتباه ، فأطرقت الشيخة إطراقة طويلة كأنما تفكر في

أمر خطير ، وجعلت تنكت الأرض بعود في يدها ، ونظرت إلى العود نظرة طويلة كأنما تستلهمه الرأى ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— لابد أن يبيت عندى « أثرها » الليلة قبل أن أبت برأى .

فدفعت زكية إلى الشيخة بمنديلها ، فطوته ودسته في صدرها وقالت :

— مرا على غدا عند غروب الشمس أخبر كما بالنتيجة .

وانصرفت زكية ونفيسة ، وفي اليوم التالى عادتا إلى الشيخة ليسمعا حكمها ، فلما جلستا إليها قالت في ثقة كأنما تقرأ في كتاب مفتوح :

— نامت ست زكية في حجرتها وحدها ، وبكت قبل أن تنام ، فأذى بكاؤها لإخواننا الذين يشاركونها في حجرتها ، فالأرض كما تعلمان ليست لنا وحدنا ، فلمسوها ليؤذوها كما آذتهم .

فأحست نفيسة رهبة ، وقالت في همس :

— ما يودون الآن ؟ .

— ترضية .

فقالت نفيسة في سداجة :

— نحن على استعداد لنقدم الترضية التى يطلبونها .

ورأت الشيخة أن الصيد سهل ، وأنه فضلا عن ذلك غنى ، فرأت أن تعمل على ابتزازه ، فأطرقت قليلا ثم قالت في نبرات أخاذاة ، هزت قلبى زكية ونفيسة :

— اتصلت بهم وعرضت عليهم أن نذبح على السكت ما يطلبون ، وأن نكتفى « برضوة » ، فقبلوا وكدت أنجح في مسعاى لولا السجنان فإنه أصر على دق الدفوف ، فأنحاز إليه الباقون جميعا .

ولم تفتن نفيسة تماما إلى ما تريد أن تفضى به الشيخة فسألت :

- وفيهم يرغبون الآن ؟ .
- في إقامة زار بالطبول والدغوف .
- فتنفست الصعداء وقالت :
- لهم ما يريدون .
- واطمأنت الشيخة إلى إقامة الزار ، فالتفتت إلى زكية وسألتها :
- أما رأيت في منامك طيوراً وحيوانات ؟ .
- فقالت زكية بعد قليل :
- لا أذكر .
- ألا تذكرين أنك رأيت دجاجة سوداء أو حمراء ، أو عجلاً أو خروفاً له علامة خاصة أو أى شيء من هذا القبيل ؟
- فقالت زكية في ارتباك :
- والله لا أذكر يا ست الشيخة .
- تذكرى كل ما ترينه وقصيه علىّ .
- حاضر .
- وانصرفت نفيسة وزكية ، وعادت زكية إلى بيتها ورقدت في فراشها ، فجعلت تستعرض ما مر عليها ذلك اليوم ، ثم راحت تفكر في الطيور والحيوانات قبل أن يطوف بها المنام .
- وفي عصر اليوم التالى أقبلت الشيخة ودخلت على زكية ، فراحت هذه تكرمها وتتودد إليها ثم قالت لها :
- رأيت بالأمس ...
- فأسرعت الشيخة وقالت :
- خيراً ؟ .

وأعارتها سمعها فأخذت زكية تروى لها ما رأت :
إنها لم تر إلا حيوانات لها سمات خاصة ، فهذا خروف أسود (غطيس)
في جبهته هلال أبيض ، وهذا ديك رومى أبيض به نقط حمراء ، وهذا عجل
أحمر قرب ذيله شامة بيضاء .

وأخذت زكية تقص رؤياها ، والشيخة متلهلة الوجه منبسطة الأسارير ،
فإن ما رآته زكية كفيل بإقامة زار عظيم يستمر ثلاثة أيام بلياليها .
وانتهت زكية من روايتها ، فاعتدلت الشيخة وقالت :
— اشترى كل هذه الأشياء ، فإن الأسياد أوحوا بها إليك فى المنام .
فقالت زكية ممثلة :
— حاضر .

وأخذت الشيخة تسرد لها ما تشتريه من أحذية ، وخواتم ، وملابس ،
وزكية تعى كل ما تقول خشية أن تشرد منها شاردة تغضب أحد الأسياد ،
فيضيع كل ما عملته هباء .

واكثرت زكية خياطة لتحيك لها ملابس الأسياد ، راحت تخطط ملابس
مختلفة الأشكال والألوان : من حمراء وخضراء وصفراء وسوداء ، وملابس
بحار ، وملابس كناس ، وملابس قسيس ، وملابس سجان ، فكان من
يراها يحسب أن فرقة مسرحية تستعد لإخراج رواية استعراضية تعتمد على
روعة الملابس وشذوذ أشكالها .

وجاءت الأحذية والأقراط والخواتم فإذا بها تزن أرطلا من الذهب
والفضة والياقوت والفيروز . ومن بينها مكنسة صغيرة من أسلاك الفضة
لفت بأسلاك الذهب ، ومكتل من الفضة ، هما لحضرة الكناس المحترم ، فهو
ليس ككناسينا المتواضعين الذين يكتسبون بمكانس من القش ويجمعون ما

يكنسون في مكاتل من الخوص ، إنما هو كناس راق ، في مملكة الجن الغنية ،
لا يكتس إلا بالفضة ، ولا يجمع الزبالة إلا في الفضة .
واقترب اليوم الموعد ، فأرسلت الحيوانات والطيور والملابس إلى بيت
سكينة ، فإن به رجة واسعة تصلح للزار الكبير .

ورأت سكينة الملابس الغريبة فاستهوتها ، وأحسست رغبة في ارتدائها لم
تستطع مقاومتها ، فقامت وارتدت ملابس القسيس ، ووقفت أمام المرأة
تطول وتقصر وتتفرس في نفسها وتضحك ، وخطر لها أن تذهب إلى أمها في
البيت المقابل الذي لا يبعد عن بيتها إلا خطوات ، فأعجبها الفكرة ، فهبطت
في الدرج وأبناؤها خلفها يضحجون بالضحك ، حتى إذا بلغت الباب
الخارجي وقفت خلفه ومدت رأسها تكشف الحارة ، فلما اطمأنت إلى أن
الحارة ساكنة ليس فيها أحد ، هرعت إلى البيت المقابل . ثم سوت من
هندامها ، وأخذت تصعد في الدرج مهرولة حتى بلغت باب شقة نفيسة
فدقته في رفق ، فأقبلت أمها تفتح الباب ، فزأت أمامها شبحا غريبا ففرعت
وفرت إلى الداخل ، فضحكت سكينة وهلل الأولاد ودخلوا على جدتهم
يتصايحون . فلما اطمأنت نفيسة إلى أنها ابتنتها الماجنة في ثياب الزار ، قالت
وهي تبتسم :

— والله لن تعقلى أبدا .

وتذكرت نفيسة أن سكينة تسخر من ملابس الأسياذ فخافت عليها ،
ونخشيت أن يغضب الأسياذ لما يلحق بهم من إهانة ، فقالت لابنتها في
توسل :

— بالله اخلعي هذه الملابس ، ولا تعودى إلى مثل هذا الهذر ، فقد
يغضبون عليك .



واطمانت الشيخة إلى إقامة الزار ، فسالت
ما رأيت في منامك طيوراً وحيوانات ؟

فقالَت سَكينة وهى تضحك فى سخرية :

— دستور يا أسيادى .

وأقبلت أيام الزار ، فذهبت زكية إلى بيت أختها ، وذهبت أمها وأمينة لتجهيز « الكرسي » . والكرسى نضد مرتفع يوضع فى وسط المكان ، ويوضع فوقه صينية كبيرة يكس فوقها سكر وبن وبندق ولوز وسلطانية لبن زيادى وفطير وجبن رومى وزيتون وبوظة ، وتصف حول الكرسي شموع كبيرة تنار طول الليل .

وفى أول يوم قامت الشبخة وألبست زكية ثيابا بيضا ، فهى تعتبر عروس ذلك اليوم ، ثم اتجهت إلى الكرسي وأخذت السكر والبن وكثيرا مما فوق الصينية وحجزته لنفسها ، ووزعت مما بقى على الواقفات ، وخصت فتياتها اللاتي سيدقن الدفوف معها بالنصيب الأوفى .

وشاء أسعد وسليم ومصطفى أن يبقوا فى البيت ليتفرجوا على الزار ، ولكن أمينة نهرتهم ، فانسلوا إلى المدرسة محزونين وهم يتمنون أن ينقضى النهار سريعا ليعودوا إلى الدار ليشاهدوا الحدث الجديد !

وحجىء بالحيوانات والطيور ، فاختارت الشبخة لنفسها ما يحلو لها ، وبعثت به إلى دارها ، ثم بخرت ما تبقى ، وذبحته وحفظت الدم فى وعاء كبير ، ولطخت منه وجه زكية وذراعها وثيابها ، ثم أخذت مصاغها وغمسته فيه ، فبدت زكية كأنما خرجت من معركة قاسية استعملت فيها السكاكين وسالت الدماء فيها .

وارتفعت دقات الدفوف ، وجلجلت أصوات فتيات الشبخة بأناشيد العفارىت ، فأخذت زكية تدور حول الكرسي وقد وضعت يديها خلف ظهرها ، واتسعت حلقا عينيها ، وقام النسوة يتأيلن بحسومهن على دقات

الدفوف ، وارتفعت الدقات واشتدت ، حتى استولت على المشاعر فاهتز كل شيء ، حتى الحيطان بدت كأنما تهتز .

وخلعت زكية ثيابا وارتدت ثيابا ، وكانت تنزل إلى حلبة « التفكير » كلما دقت الشيخة دقة جديدة ، وتمايل بجسمها الضخم ، وتضرب برجلها الأرض فهتز السقف تحتها ، ويترزجاج الأبواب والشبابيك أزيزا . ومالت على الصينية وقبضت قبضة مما عليها ونثرتها على الجالسات بجوار الحيطان ينظرن ، فرحن يجمعن ما نثرت في سرور ، فإن العفريت راض عنهن .

وجاء العصر أخيرا ، وما إن دق جرس المدرسة مؤذنا بانصراف التلاميذ حتى خرج أسعد وسليم يعدوان في الطريق لا يفكران إلا في الزار الذي حرماه طوال النهار ، وبلغت سمعهما دقات الدفوف فأحسا نشوة ، وأخذوا في عدوها حتى وصلا إلى الدار فدلغا ينظران إلى ما يجري أمامهما في غبطة وسرور .

ومالت الشمس للمغيب ، ودقات الطبول تدوى في الحارة دويا ، وانسلت أمينة لترى هل تناول أولادها طعامهم ، فرأت أسعد وسليم فسألتهما عن مصطفى فظهرت في وجهها الحيرة ، لقد عادا إلى البيت دون أن يقطنا إلى أنهما تركاه في المدرسة ، وهما لم يشاهداه منذ جاءا إلى البيت . فذهبا يبحثان عنه هنا وهناك فلم يقفأ له على أثر . فأحسا انقباضا ، وخطر لهما أن يعودا إلى المدرسة يبحثان عنه ، فانطلقا والخوف يتملكهما ، فما يفعلان إذا لم يجدها ؟ وبلغا المدرسة فوجدا بابها موصدا ، ولكنهما قررا أن يطرقا الباب وألا يعودا حتى يبحثا عنه في الفصل ، ودقا الباب في شدة ففتح القرائش الباب ، فلما رآهما سألهما عما يبغيان فقال سليم :

— لم يعد مصطفى إلى البيت ، ونود أن نراه في الفصل .

فظهر العجب في وجه الرجل ونظر إلى الولدين في إشفاق وقال :
— كنست كل الفصول فلم أجد بها أحدا .

فقال أسعد :

— لعله نام في مقعده .

ولم ير الرجل بدا من أن يدخل الفصل مع الولدين ويرى بهما ، فتناول مصباحا وسار الولدان في أثره ، حتى إذا دخلوا الفصل ، وبدد نور المصباح الظلام رأوا مصطفى يغط في النوم وقد وضع رأسه بين ذراعيه .
أسرع أسعد وسليم إلى مصطفى وأيقظاه ، وكاد يغلبه النعاس ثانية ولكنهما همسا في أذنه يغريانه :
— هلم نشاهد الزار .

فقام وخرج معهما يجد في سيره ، حتى إذا ما بلغ مكان الزار وقف ينظر إلى ما يجري مبهوتا .

إنه يرى عمته الوقور ترتدى ثيابا غريبة ، وفي يدها سوط تضرب به في الهواء ، وتندور حول نضد مرتفع ووراءها خروف زين بالورود والأزهار ، وارتسم في وجهها عبوس صارم . هو العبوس الذي يعلو وجه السجان ! واستمر الغلام في عجبه وذهوله ، فما كان يتصور أن عمته زكية تفعل ذلك . فلو أن التي ترتدى تلك الثياب المضحكة ، وتتمايل ذلك التمايل ، وتقفز ذلك القفز الذي يدعو إلى الابتسام عمته سكينه لما بان في وجه الصبي عجب أو ذهول ، فلطالما رآها تقفز وتضحك وتسخر ، أما أن يصدر ذلك عن عمته الجادة ، ففي ذلك العجب العجيب !

ومرت أيام الزار الثلاثة ، وأهريق دم كثير حتى كادت زكية تستحم في الدماء ، وجهاز الحمام ودخلت زكية تستحم وتبدل ثيابها الملوثة بالدم ، ثم

خرجت منه وجلست تستريح قبل أن تعود إلى دارها ، وقد أحست راحة
تشيع في نفسها ، فإنها لترجو بعد أن أقامت الزار أن تكون جميع
« العكوسات » قد فكت ، وإنها لتأمل كل الأمل بعد ذلك الزار ، أن تحمل
وأن تنسل نسلا تقر به عينا .

٣٢

اشترى محمد بيتا جديدا ، وانتظر حتى يخلو من ساكنيه لينتقل إليه ،
ورأى أسعد البيت فأخذ يصفه لسليم ويسهب في الوصف ، ولكن ذلك لم
يشف غليل سليم ، فهو يود أن يراه بعينه ، فطلب من أخيه أن يصحبه إليه ،
فسارا في الحارة المتعرجة حتى إذا خرجا منها عرجا إلى اليسار وانطلقا في
شارع ضيق ، ثم مالبا أن عرجا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، ثم إلى اليمين فوجدا
نفسيهما يتترقان أرضا منزرعة ، فلما خرجا منها وجدا أمامهما فضاء واسعا
في نهايته بيوت قائمة ، فأشار أسعد بأصبعه وقال في انفعال :

— انظر ، ها هو ذا .

فمد سليم بصره وقال :

— أين ؟ ..

— إنه ذلك البيت المخطط بالأصفر والأحمر .

فقال سليم بارتياح :

— آه ..

واقتربا من البيت ، وراحا يتطلعا إلى غبطة ؛ كان بيتا له شرفات
وأبراج ذات زجاج أخضر وأصفر وأحمر وأزرق ، فامتألت نفس الولدين

فرحا ، فإنهما عما قريب يتقلان إلى هذا البيت الفخم ، ويقفان في شرفاته ويلعبان في الفضاء الواسع أمامه . وأخذا يحيلان عيونهما في المكان وقد بان في وجهيهما الفرح ، ثم عادا إلى حارتهما وهما يترجمان عن أمانيهما الساذجة الحلوة في راحة ونشوة وسرور .

ووضعت الحرب أوزارها ، واستمرت الأحكام العرفية وتقرير المصير ، وترامت الأنباء أن الشعوب الصغيرة أخذت تتأهب لإرسال وفودها إلى المؤتمر لتحقيق الآمال القومية تطبيقا لمبادئ الرئيس ويلسن ، فأخذ سعد زغلول يعمل على تأليف جماعة لرفع صوت مصر والمطالبة بحقوقها . وفي يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩١٨ انطلق سعد وزميلاه عبد العزيز فهمي وشعراوي إلى دار الحماية وطلبوا برفع الحماية واستقلال البلاد .

و شاء الوفد أن يثبت لهيئته صفة التحدث عن الأمة . فوضع صيغة توكيل طبع وت أذيعت بين الناس ، فأقبلوا يوقعون عليها راضين مستبشرين . وطلب سعد من قيادة الجيش الإنجليزي جواز له ولأعضاء الوفد بالسفر إلى إنجلترا ، ولكن السلطة العسكرية أجابت بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من إجابته إلى طلبه في الوقت الحاضر ، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر بإعطائه وصحبه الجوازات التي يطلبونها .

ورفض طلب السفر ، فأرسل الوفد نداء إلى معتمدى الدول الأجنبية بتأليف الوفد المصرى ومقاصده وخطواته الأولى ، وبموقف السلطة البريطانية إزاءه .

وانتقل محمد وابنه حسن إلى الدار الجديدة ، والتحق أسعد وسليم بمدرسة ابتدائية قريبة من الأزهر ، أما ممدوح فكان في مدرسة قريبة من الدكان ، فكان يقضى كل وقته في الدكان ، لا يشارك الأولاد لعبهم ، ولا يعرف إلا

كتبه ودروسه . والتحق مصطفى بمدرسة أولية قريبة من الدار .
ذهب أسعد وسليم إلى المدرسة ، وكانا منظويين على نفسيهما ، وكان
سليم أكثر انكماشا من أسعد ، فلم يختلط بالأولاد سريعا ، وجلس بعيدا على
مقعد منعزل ، يرقب الأولاد وهم يلعبون في فناء المدرسة ، وتعرف أسعد
بتلميذين فراح يلعب معهما ، ورأى أخاه وحيدا فذهب إليه وطلب منه أن
يشاركهم في لعبهم فأبى ، فعجبه ليقوم معه فأحجل ذلك سليما ، فلم يستطع
حبس عبراته فسالت على خديه ، وما كان أسرع بكاء سليم !

ودق الجرس ، فأسرع الأولاد إلى الفصول ، وجلس سليم في مقعده
القريب من الشباك ، ودخل مدرس اللغة العربية ، وكان أستاذا يميل إلى
القصر يرتدى عمامة وجبة وقفطانا ، تدل ملامحه على القسوة وغلظ القلب ،
وإن كان يرسل لحيته ويتظاهر بالتقوى والصلاح .

ومر بقرب الشباك رجل ، فالتفت إليه سليم بحركة غير إرادية ، ولحه
الأستاذ فأشار له بأصبعه أن تعال ، فقام وذهب إلى الأستاذ خالى الذهن عن
سبب استدعائه ، فسأله :

— من رأيت في الخارج ؟

فقال في بساطة :

— عم عويس الفراش .

فصفحه الأستاذ على وجهه صفعة شديدة وقال :

— وتعترف !.

فأجهش سليم في البكاء ، وما كان يبكي من ألم الصفع بقدر ما كان يبكي
من ألم الظلم ، وارتفع بكأؤه فصاح به الأستاذ :
— اكتم .. أقول لك اكتم .

ولكنه استمر يكيى ، فصفعه صفعة أقسى من الأولى ، فعلا صوت الصبى بالبكاء ، وأراد الأستاذ أن يركله ، فسقطت عمامته على الأرض ، فثارت ثائرتة وإنهال عليه بيديه ورجليه وهو يصيح :

— اكتم .. اكتم .. ورب عيسى ورب موسى ورب الكعبة إن لم تكف لأضربنك حتى قيام الساعة .

ورأى سليم أن من الخير أن يكتم ، فزم فمه ، وغالب دموعه التى كانت تنهمر على خديه .

وجاءت فسحة الظهر وخرج التلاميذ يتناولون غداءهم ، فراحوا يتنافعون فى الدرج مسرعين إلى محل الطعمية أمام المدرسة ، يشتري كل منهم رغيفا وثلاث طعميات أو أربع وسلطة فى طاجن صغير ، ثم يعود بما يحمل إلى حجرة الطعام ، فما كان بالمدرسة غداء .

وهبط أسعد وسليم فوجدا بواب البيت ينتظرهما وفى يده عمود وفى الأخرى سلة ، فأخذ سليم السلة وحمل أسعد العمود وانطلقا إلى غرفة الطعام . ثم جلسا بين التلاميذ ، وفتحا السلة وتناول كل منهما فوطة بيضاء وضعها أمامه ، وأخذ شوكتة وملعقته وسكيتته وبدأ فى الأكل ، وما أن ازدرد كل منهما لقمة حتى كانت أنظار الأولاد تتطلع إليهما ، ثم راحوا يضحكون ويتغامزون ، فقد كانوا يرون فى تناول الطعام بالشوكة والسكين والملعقة تعاليا ، فهم جميعا من أسر فقيرة تقطن العطوف والجمالية والضعبية والحسين .

ومد تلميذ يده إلى كوب الزجاج وأخذ يقلبه ويمط شفثيه ، ثم همس فى أذن جاره وضحكا ، فأحسن سليم خجلا ، وصعد الدم الحار إلى وجهه ، فنترك الطعام وقام ، ولحقه أسعد بعد قليل ، فأسرع الفراش إلى الطعام ينقله

إلى أطباقه .

وانتهى اليوم وعادا إلى البيت ، فأخذ سليم يتوسل إلى أمه ألا ترسل لهما شيئا ، وأن تعطى كلا منهما قرشا يشتريان به غداءهما كما يفعل الأولاد ؛ فرفضت أمينة ذلك ، ولكنهما أصرا ، وترقرق الدمع في عيني سليم فقالت أمه :

— حسبك يا سليم ، غدا أعطيكما ما تريدان .

وفي اليوم التالى أخذ كل من سليم وأسعد قرشا لغدائه ، فلما كان موعد الغداء ذهبا إلى محل الطعمية ، وعاد كل منهما يحمل طاجنا به سلطة وورقة بها طعمية وتحت إبطه رغيف ، ثم راحا يتناولان طعامهما وينظران إلى الأولاد في سرور ، كأنما يقولان لهم :
— انظروا ، نحن منكم .

٣٣

حالت السلطات البريطانية بين الوفد ومؤتمر السلام ، وقررت قطع الطريق عليه إلى المؤتمر ، فاستقالت وزارة رشدى باشا التى كانت تشد من أزر الوفد ، ورفض رجالات مصر أن يؤلفوا وزارة فى ظل الحماية ، وبعث الوفد إلى معتمدى الدول احتجاجا قويا كشف فيه سياسة بريطانيا الاستعمارية ، فلبد الجو وأنذر بقرب هبوب عاصفة قوية جاعحة .
ورأت السلطة البريطانية فى أعمال الوفد العدائية تحديا لها وتشهيرا بها وكشفا لسوء نيتها لدى الدول الأوربية ، فقررت أخذ الأمور بالشدة قبل أن يستفحل الأمر ويفلت زمام الموقف من يدها .

وفي يوم من أيام مارس سنة ١٩١٩ استدعى قائد القوات البريطانية في مصر بالنيابة سعد زغلول وأعضاء الوفد لمقابلته في الساعة الثالثة بعد الظهر ، وما وافى الموعد المضروب حتى كان سعد وصحبه بفندق سافواى أمام القائد البريطانى يلقي عليهم إنذاره في عجرفة واعتداد ، وما درى أنه ينفخ في النار ، وأن هؤلاء الواذعين سيهزون عما قريب دولته المتعالية ، وسيقضون مضاجع رؤسائه الأقوياء .

لم يفت إنذار القائد وتهديده في عضد الوفد ، ولم يدخل الرعب في قلوبهم ، فقد كانوا يؤمنون بعدالة قضيتهم . وأرسل سعد برقية إلى رئيس الوزارة البريطانية يطالب فيها باستقلال مصر ويعلن أنه وصحبه يضطلعون بواجب وطنى لا يتأخرون عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفهم ذلك ، فلما رأت السلطة البريطانية إصرار الوفد على موقفه ، ضاقت بها السيل ، ولم تدر ما تفعل لردع هؤلاء العزل الذين هبوا في وجهها يصيحون بما يقلقها ، فعزمت على أن تنفذ وعيدها لتقتل الثورة في مهدها ، فألقت القبض على سعد وثلاثة من صحبه ، وما علمت أنها بذلك قد أطلقت المارد الحبيس من سجنه .

علم الناس أن السلطة البريطانية ألقت القبض على سعد وصحبه ، فامتلاأت الصدور غيظا وغضبا .. واندفع الناس في مظاهرات يعلنون سخطهم واحتجاجهم على ما بدا من عسف وظلم وجشع استعمارى . وأضرب الأزهر وخرج طلابه في مظاهرة كبيرة ، وأخذوا يطوفون على مدارس الحى فينضم تلاميذها إليهم ، وترتفع حناجرهم بالهتاف بحياة مصر وسقوط الحماية .

وخرج أسعد وسليم مع الخارجين ، وانتقلت حماسة الجموع إليهما ،

فأخذوا يهتفان في ثورة ؛ إنهما يحسان كما كان يحس الجميع أن لهما عدوا ،
ويعتنيان أن ينزل بذلك العدو الدمار .

كانت الجموع حائرة نائرة ، وانضم إلى المظاهرة كثير من الدهماء ،
وراحوا يتدفقون معها كالسيل ، ولم يستطع الدهماء أن يكبحوا جماح غضبهم
وثورتهم فراحوا يقتلعون الأشجار ، ويحطمون واجهات المحال وزجاج
المصاييح ، ويعتدون على الترام ، كانوا كالثائر الذي لم يجد متنفسا لثورته ،
فأخذ يمزق شعره .

واستمرت المظاهرات في القاهرة واندلع لهيبها ، فأضرب العمال
وتعطلت وسائل النقل ، وراح الجنود البريطانيون يعتدون على المتظاهرين
ويطلقون الرصاص على العزل الثائرين لكرامتهم ، فيسقطون صرعى الظلم
والطغيان .

وخرج المصلون من مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة ، وأقبلت سيارتان
إنجليزيتان مدرعتان ، ورأى الجنود البريطانيون جموع المصلين فحسبوهم من
المتظاهرين ، فلم يحذروهم أو يندروهم ، ولم التحذير أو الإنذار وآلات
حصد الأرواح في أيديهم ؟ فما عليهم إلا أن يضغظوا زنادها ، فيتكلم
الرصاص وتسكت الألسن .

وانطلق الرصاص فدب الذعر في الناس ، وسقط الشهداء مجذلين أمام
مسجد الحسين أئى الشهداء ، وسالت الدماء ظلما وعدوانا كما سالت في
كربلاء الدماء . ولكن دولة الظلم ساعة ، ودولة الحق لا تدول .

وساء الناس ذلك الاعتداء المنكر ، فانطلقت المظاهرات تجوب شوارع
القاهرة منددة بالإنجليز ، هاتفة بحياة ذكرى الشهداء . واعترض الجنود
البريطانيون المظاهرات وراحوا يشتونها بمدافعهم الرشاشة ، يحسبون أن

رصاصهم عمت تلك الجذوة التي تأججت في الصدور ، ولكن هيهات فقد صمم هذا الشعب على أن يعيش .

واستفحلت الثورة ، وأخذت السيارات البريطانية تطوف بالشوارع تحصد الأرواح البريئة حصدا ، فأخذ الناس يقيمون في الطرقات سدودا من الحجارة ، ويحفرون الخنادق ، وينصبون للسيارات الجهنمية الفخاخ .

وفي يوم ذهب سليم ومصطفى لزيارة عمتهما سكيته ، وخرجا إلى الحارة يلعبان ، ثم انطلقا إلى شارع الحسينية فوجدا الناس قد جاعوا بمدخنة وابور طحين ووضعوها في منتصف الطريق ، وأخذوا يجمعون الورق والخرق ويضعونها فيها ، وأخذ سليم ومصطفى يجمعان الخرق والورق من خربة قريية ، ويدسانها في المدخنة ، ثم اشتعلت النار فبان لها وهج شديد .

وأقبلت سيارة بريطانية ورأت النار فأسرعت لتكشف أمرها ، فلما اقتربت من مكان المدخنة قذف المتظاهرون في النار ملحا وفروا ، وفر سليم ومصطفى ، وانبعثت فرقعات شديدة متتابعة ، فحسب البريطانيون أن المصريين نصبوا لهم مدفعا ، فغيرت السيارة من اتجاهها ، وعاذت تفر من وجه المدفع المنصبوب .

وعاد الناس إلى المدخنة يضحكون ، وعاد سليم ومصطفى مسرورين ، وكان مصطفى يحسب أن الناس يلهون ، وما كان يحسب أن الموت كان منهم جد قريب .

واستمرت السيارة البريطانية في انطلاقها حتى إذا بلغت باب الفتوح سقطت في فخ ، هو حفرة كبيرة حفرها الناس وغطوها بحصير أخفوه بالتراب . وما إن سقطت السيارة في الفخ حتى خرج الناس من الأزقة والطرقات يحملون الحجارة ، وراحوا يرمون السيارة ليثأروا لإخوانهم

الذين سالت دماؤهم في شوارع القاهرة .

وعاد سليم ومصطفى إلى حيهم الجديد ، ليقصا على أصحابهما الجدد نبأ ما رأيا في غبطة وسرور .

وذاغت أنباء اجتماعات الناس في الأزهر ، فخرج أسعد وسليم ليشاهدا ما يجري هنالك ، حتى إذا اقتربا من الأزهر وجدا بعض الأزهرين يرشدون الناس إلى مسالك غير معروفة تقود إلى الجامع العتيق الذى أصبح معقلا للثورة .

وسارا مع السائرين في دروب ضيقة ملتوية بعيدا عن أعين الإنجليز المتربصين أمام أبواب الجامع ؛ وقبل أن يصلا إلى وجهتهما دمدم الرصاص ، فقد أراد المجتمعون أن يخرجوا في مظاهرة فمنعهم الإنجليز وأطلقوا عليهم الرصاص . فرد عليهم الأزهريون بالحجارة ، واستمرت المعركة دائرة ، وتسمر أسعد وسليم مكانهما وراء الأزهر ، وطفقت أنباء القتال الدائرة تنتقل بين الناس في سرعة البرق ، روى الناس في حماسة وإعجاب أن أزهريا هجم على الإنجليز وانتزع منهم مدفعا رشاشا ، وحمله وأخذ يعدو به حتى بلغ باب الأزهر وأخذ يدهقه ، ولكن البريطانيين مزقوه برصاصهم .

واستمر أسعد وسليم يستمعان إلى الأنباء في نشوة ، وإن كان ينتابهما بعض القلق ، وما كانا يقدران خطر الرصاص الذى كان يصب على الناس دون تفرقة أو تمييز ، ولكنهما كانا يخشيان أن يستمر حصارهما مدة طويلة ، فتبحث عنهما أمينة ، فلا تجدهما فتضربهما عند أوبتهما على ذلك الغياب .. !

الأعلام ترفرف فوق الدور ، والقلوب ترفرف في الصدور ، فقد اضطرت السلطة البريطانية إلى الإفراج عن سعد وصحبه ، فكان ذلك اعترافا بخذلان سياسة العنف والقوة ، وأحس الناس أن ذلك نصر لهم ، فشاع في نفوسهم الغبطة والسرور .

وذهب أسعد وسليم إلى الدكان يحضران علمين برفعانهما في شرفة الدار ، إعلانا لسرورهما ، ومشاركة للأمة في فرحها العظيم . وأعطاهما حسن علمين كبيرين ، فأخذاهما وعادا إلى الدار ممثليين فخرا ، فعما قليل يرفعان في شرفة شقتهما علمين يزهران على أعلام الحى جميعا .

وثبتا العلمين في درابزين الشرفة ، وجعلا ينظران إليهما والنسيم يداعبهما ، فیداعب الفرح قلبيهما ، وخطر لهما أن يهبطا إلى الطريق لينظرا إلى العلمين من بعيد ، فأسرعا في الدرج مهرولين ، حتى إذا بلغا الفضاء المواجه للدار أوغلا فيه ، ثم وقفا يتطلعا إلى العلمين في بهجة ، وينظران إلى المارة ليريا هل جذب العلمان الأنظار إليهما ، كأنما خلت القاهرة إلا من علميهما ! وطاقات المظاهرات بأحياء القاهرة تهتف بحياة سعد ، وكانت نفيسة تجلس على حشية تقشر بصلا للطعام ، فلما صكت أذنيها أصوات المتظاهرين ارتجفت واضطربت ، فهي تعلم أن المظاهرات تتبعها دائما دمدمة الرصاص . وما كانت تعرف أن ثم مظاهرات فرح وابتهاج ، فهبت من جلستها مفروعة ، وجرت إلى مرافق البيت تختبئ بها ، لتكون بعيدا عن الرصاص الطائش ، ورأى الأولاد فرار جدتهم واختباءها فضحكوا ،

وأسرعوا خلفها يدقون عليها الباب الذى أغلقته فى إحكام ، ويهتفون بها أن
تخرج فلا بأس عليها اليوم ، ولكنها أبت وظلت حبيسة حتى تلاشت أصوات
المتظاهرين .

وذاع أن مظاهرة ابتهاج كبرى ستسير فى الثالثة بعد الظهر من ميدان محطة
العاصمة إلى عابدين أمام السراى السلطانية ، فما وافت الساعة الثانية حتى
انسل أسعد وسليم ورفاقهما إلى ميدان المحطة .

ورأى مصطفى نفسه وحيدا ، ولم يجد من يلعب معه ، ففكر فى زيارة
عمته ، وكانت المسافة بين دارهم ودار عمته قصيرة ، كانت محطتى ترام
فقط . فلما بلغ الطريق الذى يمر فيه الترام خطر له أن يركب ، ولم يسير وهو
يعلم أن من حقه ركوب الترام مجانا ؟ إنه قد ركب مع أبيه كثيرا دون أن يدفع
أبوه شيئا ، وقد ركب مع أمه ولم تدفع عنه شيئا أيضا ، إن شركة الترام تقرر
أن من كان فى مثل سنه لا يدفع ثمن التذكرة .

وانتظر حتى أقبل الترام فصعد فى تودة ، وركب مطمئنا لا يفزع اقتراب
التذكرة ، ولم يفزع ؟ صحيح إنه لا يمتلك ثمن التذكرة ، ولكن من قال إن
الرجل سيطلبه بثمنها !

وجاء الرجل يقطع التذاكر للناس ، فلم يلتفت إليه مصطفى وظل فى
هدوئه ، ولكن هدوءه لم يدم طويلا إذ التف الرجل إليه وقال :
— تذكرة .

فالتفت مصطفى إليه فى عجب ، فما كان يظن أن ثم رجلا واحدا يجهل
بديهيات الركوب فى الترام ، وقال :
— أقل من ست سنين .

قالها فى ثقة الذين يقولون « اشتراك » ، وهم مطمئنون إلى الاشتراك

القابع في جيوبهم . وما أن سمع الركابون رد مصطفى حتى ضججوا بالضحك ، ولم يعجب ذلك الرد البارع الرجل ، فقال للغلام في غلظة : — تذكرة .

فاضطرب مصطفى وغادره هدوؤه ، ولاحظ رجل ارتباك الغلام واحمرار وجهه فقال : — دعه إنه معي .
فقال قاطع التذاكر في جفاء : — لا .

فمد الرجل يده في جيبه ودفع عنه ثمن التذكرة ، فأحس مصطفى خجلا شديدا ، وتمنى أن ينشق الترام ويتلعه ، فما كان يظن أن الأمر يتطور إلى هذا . وبلغ الترام محطة الحسينية فهبط مغیظا مخنقا على ذلك الجاهل الذي اضطهده دون مبرر ، ولو فطن الأطفال إلى منطق مصطفى لامتلأ الترام بالأطفال دون السادسة !

* * *

وفتحت المدارس وعاد الأولاد إلى قصولهم ، وعاد مصطفى إلى فصله ؛ واستأنف مدرس الدين تحفيظهم السور الطوال ، وكان يسمع لهم اليوم ما أعطاه إياهم أمس ، وراح الأولاد يرددون الآيات بعد معلمهم في صوت عال ، ومصطفى يردد ما معهم وقد أرهفت منه الحواس ، إنه يريد أن يحفظ ما يقولون ، فما كان يعرف طريقة أخرى للمحفظ . وانتهت الحصة وقد علقت بذهنه الصغير بعض الآيات ، حتى إذا كان اليوم التالي نسي كل ما حفظ ، فلما بدأ المعلم في التسميع على الترتيب ، أرهف أذنيه وحصر ذهنه ليلتقط الآيات من أفواه الغلمان ، حتى إذا جاء دوره طفق يعيد ما التقطه في

جهد ، وكان يتوقف بين كل آية وآية ، وما كان يستطيع أن يتم السورة كلها ، فكان المعلم يوقفه إلى جانب الحائط حتى ينتهى من الفصل جميعه ثم يتفرغ له فيصفغه ويضربه فى قسوة وغيظ .

وفى يوم ضاق به المعلم ذرعا ، فقال له بعد أن أشبعه ضربا :

— أين مصحفك !

فقال مصطفى وهو يبكى :

— لا مصحف عندى .

— وفيم تحفظ ؟

— أحفظ فى الفصل .

فضحك الغلمان ، وصاح به المعلم :

— غبى .

وصمت قليلا ، وكأئنا فطن إلى أن الغلام قد لا يفهم ما يجب عليه فعله

فقال :

— اشتر مصحفا اليوم واحفظ فيه .

وحسب مصطفى أن مأساته انتهت ، وأنه إذا اشترى مصحفا قضى الأمر ، وأصبح حفظ السور الطوال شيئا هينا ، ولكنه ما اشترى المصحف ، وما قلب صفحاته حتى أحس رهبة ووجوما ، إنه لا يستطيع أن يقرأ فيه آية ، وكيف يقرأ غلام فى السنة الثانية الأولية فى مصحف !

وجاءت حصّة الديانة ومصطفى يرتجف فرقا ، فهو يخشى أن يبدأ التسميع ، وهو يعلم كيف تنتهى هذه الحصّة . ولكن ما إن قال المعلم إن درس اليوم عن النبى ﷺ ، حتى اطمأن ، فهو يحب أن ينصت إلى ما يروى عن نشأة الدين ، فالقصص تستهويه ، وأخذ المعلم يقص على الغلمان قصة

النبي العربي الكريم ، ومصطفى يتبعه في شغف ، ولو أن المعلم طلب منه أن يعيد ما قال لرواه كلمة كلمة ، ولكن طبع المعلم غلبه ، فراح يحفظ التلاميذ عن ظهر قلب نسب النبي من جهة أبيه .
وأخذ كل من الغلمان يردد ما حفظه حتى إذا ما جاء دور مصطفى قال في ثقة :

— نسب النبي من جهة أبيه : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن (عدمان) .

وكاد الأمر يمر ، ولكن المعلم شك في الكلمة الأخيرة فسأل في استفسار :

— ابن من ؟

فقال الغلام في بساطة :

— ابن (عدمان) .

فضحك الأولاد ، وثار المعلم وهجم على الغلام يضربه في ثورة وهو يصيح :

— انت ابن عدمان وابن .. وابن ..

وذكر أسماء الحيوانات الأليفة الوديدة التي ما كانت تؤذى أحدا ، والتي لو استشيرت لأنفت أن يكون ذلك المعلم من نسلها .

ولما انتهى من ضرب الغلام ضربا مبرحا ، قال مصححا :

— ابن عدنان يا غبي .

ومرض ممدوح قبل امتحان الشهادة الابتدائية ، فهجر كتبه ، ولم يذكر شيئا ، فلما أبل من مرضه أحس أنه تخلف عن رفاقه ، وما كان يحب أن يتخلف عنهم أبدا ، فعزم على أن يترك المدرسة وأن يبقى مع أبيه في الدكان . وكان حسن يود أن يتمم ممدوح علومه ، ولا بأس بعد ذلك أن يبقى معه في الدكان ، فهو في حاجة إليه ، ولكن ممدوحا رفض أن يعود إلى المدرسة . وأن يتخلف عن أقرانه ، فقد كان تربيته الأول طول سنى الدراسة . فهجر المدرسة ، وأخذ يعمل في الدكان ، وعلم الناظر ما عزم عليه فساء ذلك ، ورأى أن يذهب إليه بنفسه ويقنعه بخطأ رأيه ، ففى ذات يوم بعد انصراف التلاميذ ذهب الناظر إلى الدكان ، فأحسن حسن استقباله ، وأقضى الناظر بما اضطره إلى الجئى بنفسه ، فهو يرى أن ممدوحا ممتاز في علومه ، ويستطيع أن يجتاز الامتحان بتفوق ، وأن المدة التى مرضها لن تؤثر فيه ، وهو يعتقد أنه لو استمر في دروسه لكان أمامه مستقبل مشرق ملحوظ .

واستدعى حسن ابنه ، وأخذ الناظر يحاول أن يقنعه ويشبهه عن عزمه ، ولكنه باء بالفشل ، فإن ممدوحا لا يخضع إلا لوحى عقله ، وإن كان واضح الخطأ لكل إنسان .

وحبس ممدوح في الدكان صغيرا ، فراح يلتقط معارفه من السوق ، يتشقف بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، فيقيس علاقته بالناس بمقدار ما تدره عليه تلك العلاقة من ربح أو خسران .

نشأ في سوق المال ، فكانت عقليته حاسبة ، لا يتأثر بالعواطف كثيرا ،

ولا يجب أن يدخل حساب الظروف في تقديره ، فإذا أراد أن يقدم على شيء يفكر فيه ، وأمعن التفكير ، وحسب كل شيء بالأرقام ، ثم يقدم أو يحجم دون أن يحسب أن ثم عوامل أخرى غير العوامل المادية تتحكم في المصائر ، وتسير الناس إلى غايات غير التي يهدفون إليها .

وتعرفت زكية بسيدة عجوز ، ضئيلة الجسم جدا ، فتوطدت بينهما أواصر صداقة متينة ، وأصبحت تلك السيدة تمضي أغلب أوقاتها عند زكية وتنام في غرفة منفصلة ، حتى إذا خرج زوج زكية ، قامت أم أحمد زنوبة إليها .

وفي يوم بعثت زكية بأم أحمد زنوبة إلى صديقتها وزوجة أخيها أمينة ، فإذا أواصر صداقة متينة تعقد بينهما ، وإذا بأم أحمد زنوبة تقسم وقتها بين زكية وأمينة ، كالمملوك يتقلون من قصر إلى قصر !

كانت أم أحمد زنوبة حلوة الحديث ، تعرف حكايات كثيرة مشوقة جذابة ، ترويها في صوت هادئ عذب ، فكان الأولاد يفرحون بزيارتها ، ويتحلقون حولها ينصتون إلى حكاياتها في شغف وسرور . حتى إذا جاء حسن وتناول عشاءه ، دخل إلى بعض الغرف ، ثم دخلت أمينة وأم أحمد وراءه ، وأغلق عليهم الباب حتى لا يعكر الأولاد خلوتهم .

ورأى الأولاد الباب الموصل ، فأحسوا رغبة في الدخول . فهم يتشوقون إلى معرفة ما يجري وراء ذلك الباب ، ويعجبون من ذلك التبدل المفاجيء ، فما أغلق بينهم وبين أبيهم باب قبل اليوم ، فما الذي طرأ حتى يحول هذا الباب بينهم !

وتغلب عليهم حب الاستطلاع ، فتقدم ممدوح وأدار أكرة الباب في رفق وفتحت في احتراس ، ودلف منه في خفة وأغلقه وراءه . وراح الأولاد

يتطلعون إلى الباب لعل ممدوحا ينهره أبوه ويخرج ! ولكن مر الوقت ولم يحدث من ذلك شيء ، فتشجع أسعد واقترب من الباب ، وفتح في رفق ودخل وأغلقه وراءه .

ولم يطل تفكير سليم ومصطفى فاقتحما الباب ، فأشارت لهما أمينة أن يجلسا صامتين ، فانصاعا إلى إشارتها ، وجلسا ، وقد ارتسم العجب في وجهيهما .

كانت أم أحمد زنوبة تجلس على حشية ، ويجلس حسن على حشية بالقرب منها ، وتجلس أمينة قباليهما ، فجلس الأولاد على هيئة قوس إلى جوار أمهم وراحوا ينصتون في ذهول .

إن أم أحمد زنوبة تتحدث في نبرات خفيفة تختلف عن صوتها الذى سمعوه كثيرا ، وقد تكسر جفناها ، وبان في صفحة وجهها هدوء . إنها ما كانت تتحدث حديثا عاديا بل كانت تتنبأ بأشياء ستقع عما قريب . ثم شبكت يديها خلف رأسها وانتفض جسمها بقوة ، وأخذت تسعل في صوت متغير ، ولم تلبث أن انتفض جسمها انتفاضة أخرى وأخذت تتحدث بصوت فيه خفة وطيش :

— مساء الخير .

فقال أمينة وهى تبتسم :

— يسعد مساؤك .

فضحك مصطفى ، وأخذت أم أحمد تشاغله وتحدثه في صوت رفيع ، وكان جسمها يهتز في طيش ، كأنما هو جسم طفلة غريرة ، وانقلب الجو الوقور إلى جو تشيع فيه البهجة والخفة ؛ وابتسم حسن واندمج الأولاد في الجو فشاعت فيهم غبطة ، وعلم الأولاد من سياق الحديث أن أم أحمد يلبسها

جنتين لطيفتان هما أم وابنتها : الأم وقور رزينة تتحدث في ثبات وتؤدة وتدعى وردة ، والابنة طفلة غريرة تميل إلى عبث الأطفال وتتحدث في خفة وتدعى زهرة ، وأن الأم هي التي كانت تتحدث منذ قليل في وقار ، أما التي تعبت الآن مع الأولاد فهي زهرة اللطيفة الغريرة ، وراحت زهرة تصف نفسها ، فهي طفلة في العاشرة ممتلئة الجسم قليلا . وسألتها أمينة أهى جميلة ؟ فأجابت في خفر أنها لا تدري ، وكأئنا توحى بذلك إلى أنها حلوة خفيفة ، وسألتها أمينة أهى مخطوبة ؟ فغطت وجهها بطرف الطرحة البيضاء في حياء ، وراحت تصدر أصوات إنكار ، وإن كانت توحى بالرضا فابتسم الجميع . وراحت زهرة تتحدث عما تفعله للمريدة — وما كانت تدعو أم أحمد زنوبة إلا كذلك — قالت إنها تحضر لها تفاحا يشتهيها الناس ، وأخذت تسهب في وصف ذلك التفاح ، وطال الحديث وتشعبت فنونه ، ثم استأذنت في الانصراف ، فألحوا عليها في البقاء ، ولكنها اعتذرت بأن أمها قد تنهرها لتأخرها ، واتهمت منهم ألا يقصوا عليها ما فعلته ، فوعدوها بذلك ، ثم غطت وجه المريدة بالطرحة وانتفضت وأخذت تشاءب وتمرر يدها على جبهتها ، ثم رفعت الطرحة فعادت أم أحمد زنوبة سيرتها الأولى .

أنبأت الست وردة أمينة أنها ستضع بنتا ، وأنبأت زكية أنها ستنجب غلاما ذكرا ، ولكن سيتأخر حملها ، ومرت الأيام ووضعت أمينة فجاء المولود أنثى ، فكادت تطير فرحا ؛ ولما علمت أم أحمد بوضع أمينة جاءت متلهة الأسارير ، فقد تحققت نبوءة الست وردة ، واستمرت أمينة تشمل أم أحمد بعطفها ، وتزجى إليها شكرها كأئنا هي التي منحتها بنتا ، وقبل أن تنصرف أم أحمد دفعت أمينة إليها نقودا وهدايا فأبت أن تأخذها ، ولكن أمينة قالت لها : إن ذلك ليس لها ، وإنما للست وردة .

وأخذت أم أحمد الهدايا وانصرفت مغتبطة ، وأرادت أمينة أن تعترف
بفضل الست وردة ، فسمت بتها وردة .
ورأت زكية تحقق النبوءة الأولى ، فراحت تنتظر تحقق النبوءة الثانية ،
وعاد إليها إشراقها وأملها ، وعادت تهم في عالم الأحلام ، بعد أن كاد يوصد
في وجهها ، وتوطد مركز أم أحمد زنوبة ، واحتلت عند زكية وأمينة مكانا
مرموقا .

٣٦

وانغذرت الشمس وأمعنت في الانحدار ، وآن أوان عودة مصطفى إلى
البيت ، ولكنه انهمك في اللعب ونسى نفسه ؛ وساد الظلام ففطن إلى
تأخره ، فأسرع يجرى إلى الدار وهو يحسب لأمه ألف حساب .
صعد في الدرج واجف القلب حتى إذا بلغ شقة جدته فكر أن يلوذ بها ،
وأن يختبئ عندها حتى تمر العاصفة ، ولكنه وجد أن ذلك لا يجدي نفعاً ، فإن
أمه إذا علمت بعودته نزلت إليه وضربته ضرباً أقسى مما لو صعد بنفسه دون
شفاعة أورجاء .

وبلغ شقتهم وقد ازداد اضطرابه ، ودلف من بابها في خفة ، ولححت أمينة
تسلله فصاحت فيه :

— أين كنت حتى الآن ؟

فقال في ثبات :

— أُلعب .

— قلت لك مئة مرة أن تعود قبل الظلام .

(في قافلة الزمان)

ولمحت أمينة قذارة جلبابه فصاحت فيه :

— ما هذا الوسخ ؟ لقد هددتم حيلنا من الغسيل .

واقتربت أمينة ودفعته في صدره فقال في حدة :

— ولم هذا الضرب ؟

— والله عال ..

وتناولت شبيها وضربته ، فصرخ لا من الضرب ولكن لسمع جدته ، وكانت تخف لنجدته دائما وتأخذ في عتاب أمه في حماسة ، وما إن صك صراخ مصطفى أذن نفيسة حتى تركت كل ما في يدها ، وهرعت تصعد الدرج وهي تصيح :

— ما هذا الضرب يا أمينة ؟ كفاية وخلي في قلبك رحمة ، والله لن ترجعي حتى يموت في يدك مرة .

وكانت أمينة تمنى أن تسرع الجدة لتأخذه من يدها ، فما كان يطاوعها قلبها على ضربه ، ولكنها ما كانت تكف من تلقاء نفسها ، فهي لا تود أن تظهر بمظهر الضعف أمام أبنائها وخالتها .

وخلصت الجدة الغلام من يدها ، فراحت تصيح به :

— بموتك إن تأخرت أو وسخت هدومك .

ووضع الطعام وجلس الأولاد يأكلون ، ولكن مصطفى أبى أن يأكل معهم وقال : إنه لا يحب السمك ، وإنه يريد أن يأكل بيضا ، فصاحت أمينة فيه :

— كل يوم بيض ، هو أنت ثعبان ! ليس عندنا إلا هذا الطعام .

وغضب مصطفى وهم بأن ينسحب ، ولكنه لمح أمه تقبل عليه وقد بان الشر في عينيها ، فجرى من أمامها وجعل يقفز في البرج هاربا ، ولكنها لم

تدعه بل جرت وراءه ، فلما لم تلتحق به قذفته بالققباب .
ووقف مصطفى في الظلام على باب الدار حزينا ، لا يدرى سببا لذلك
الاضطهاد ، واستمر في إطراره ووجومه ، وفكر أكثر من مرة في الصعود
ولكنه أحس أن في ذلك إهانة له ، فكيف يصعد دون أن يدعوه أو يسترضيه
إنسان ؟

وأقبل حسن ولح ابنه واقفا في الظلام ، فاقرب منه ومسح بيده على رأسه
وسأله ما به ، فقال مصطفى :

— لقد ضربتني دون سبب .

فابتسم حسن ، ومد يده فأمسك يد ابنه وقال :
— تعال ..

وأحس مصطفى أمنا ، فهو يرتاح إلى أبيه ويركن إليه ، ويحبه ويطيعه .
وصعد حسن ومصطفى ، وكان مصطفى على يقين أن أباه سيلبى طلبه ،
فما رفض له ولإخوته شيئا ، فهو يعطف عليهم ولا يطيق أن يرى أحدهم
متكلرا .

دخل حسن غرفته ومصطفى معه ، حتى إذا بدل ثيابه خرجا وجلسا إلى
المائدة ، وأحضرت أمينة الطعام ووضعتهم أمامهما ، فراح مصطفى يأكل من
السّمك في هدوء حتى لا يثير مشكلة قد تعكر صفو أبيه .

وانتهى العشاء ، وهبط حسن وأولاده وزوجه إلى شقة أبيه يمضون
سهرتهم ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث كعادتهم كل ليلة ؛ وجاءت
نفيسة بصينية كبيرة عليها أطباق البطيخ ، فأخذوا يأكلون ، وأكل محمد
بطيخا كثيرا فقد كان يحبه ، وأخذ يتحدث إلى ابنه حسن في شئون التجارة
وهو يلتهم البطيخ . وحان موعد نوم الأولاد ، فهبطوا إلى الدور الأرضي
وكانوا يبيتون فيه مع خادم عجوز .

وأحس محمد تعباً فقام إلى فراشه ، وقام حسن في أثره ليرى ما به ، وجلست نفيسة وأمنة يتطلعان إليه في قلق ، وارتسم الألم على وجه محمد ، وحشرجت روحه في صدره ، فأخذ يلتقط أنفاسه في جهد ، فصاحت نفيسة في رعب :

— سيدى .. سيدى ما بك ؟

فرفع محمد بصره إلى زوجته ثم تكسر جفناه ، وخفت نفسه ، وهدم كل شيء فيه ، وأخذت نفيسة تدعوه ، ولكن ما من يجيب ، فقد مضى في دقائق معدودات مخلفاً دنيا الأوهام ، فصاحت نفيسة من قلب كليم :

— يا مصيبتنا فيك يا سيدى .

وصوت نفيسة وأمنة ، فشق صواتهما سكون الليل ، وأشاع في النفوس رهبة ، وانسل حسن من الغرفة تفيض عيناه بالدموع . وهرع الجيران يسألون عن سبب ذلك الصوات ، فعلموا أن عميد الأسرة مات . فبالا، عليهم الدهول ، فقد رأوه منذ قليل يدخل داره رافعا رأسه ، وما كان يحظر لأحد أن يخرج منها بعد ساعات محمولا على الأعناق .

وأسرع الخدم إلى بيوت الأسرة بالنبا الفاجع ، فجاءوا مهطعين تذرف عيونهم الدموع ، وأقبلت زكية والهة حزينة ، وما لحت الدار حتى صوتت من قلب محروق ، فجلجل صواتها في الفضاء رهيبا مخيفا ، ينذر بالموت والفناء .

ووفد النسوة من كل صوب وحذب ، كأنما انتشر النبا مع الريح ، ودوى الصوات وارتفع النحيب حتى جاوز الحى ، واستيقظ الأولاد على الصوات مفزوعين ، فرأوا رجال الأسرة الذين جاءوا بعد أن بلغهم النبا المروع تكدسوا في شقتهم ، وجلسوا على أطراف سررهم مطرقين ، وعلم الأولاد

أن جدّهم مات ، فبان عليهم الوجوم ، وقام مصطفى وخرج إلى باب الشقة ، فرأى النسوة يتسللن في ملاآهن كفيران سود ، ويهرعن إلى شقة جدّه ينطلق الصوات من حناجرهن يخلع القلوب .

وجلس رجال الأسرة يتشاورون في دفن المرحوم ، فقرر رأيهم على أن ينزلوه على الحاج أسعد فقد كان الحاج يحب ابنه ، ولا يطيق فراقه ، وقد آن الأوان لالتقاء الحبيبين .

ومر الليل بطيئا ، وبدا كأنما ليس له نهار ، وراح النوم يداعب عيون القوم فيهمومون في جلستهم ، وأحس مصطفى رغبة في النوم ، ولكنه خجل أن ينام وجده ميت في الدار ، ورأى بعض الرجال يغلبهم النوم فيتمددون في الفراش ، فتشجع ودخل فراشه ونام .

٣٧

وترك مصطفى المدرسة الأولية وهو فرحان ، فقد ترك مدرّس الدين الذي ما كان يمر يوم إلا ويؤذيه ، وذهب مع أخويه إلى المدرسة الابتدائية بحسب أنه سيجد فيها دعة وأمنا ، ودق جرس اليوم الأول ، فدخل إلى الفصل الجديد مضطربا ، وكان يضطرب ويحس انقباضا إذا أقبل على ناس لا يعرفهم ، وجلس في مقعد منعزل فشعر بوحشة ، ودخل مدرّس قصير أخضر العينين منفوش الشعر ، يربط رقبته برباط على شكل فراشة ، وتأبط صندوقا من الخشب ، فلما رآه الأولاد قاموا تحية له ، فقال لهم باللغة الإنجليزية : « اجلسوا » وما فهم الأولاد شيئا مما قال ، ولكن إشارة يده كانت أكثر وضوحا من عبارته ، فجلس الأولاد يتطلعون إلى الصندوق .

وفتح المدرس الصندوق ، وأخرج منه مربعات خشبية صغيرة كتبت عليها حروف الهجاء الإنجليزية ، فكان يرفع الرقعة أمام التلاميذ وينطق الحروف في وضوح ، ولما انتهت الرقعة التي في الصندوق ، راح يعيد الكرة ويطلب من الأولاد أن يرددوا النطق بعده .

وانتهت الحصّة ومصطفى كالتائه ، يحس جوا غريبا ؛ كان في المدرسة الأولية يردد آيات القرآن ، فإذا به اليوم يردد ألفاظا لها رنين غريب في أذنه لا يفقه لها معنى .

وتتابعت الحصص ، وراح كل مدرس يحاول أن يحشو أذهان الأولاد بدروسه ، ولو أمكنه أن يجرعها لإياهم لفعل واستراح ، واستمر الأولاد في مقاعدهم طول النهار يصب عليهم العذاب ، حتى إذا وافت الساعة الرابعة دق جرس الانصراف ، فخرج الأولاد يترنحون من التعب .

وهبط مصطفى إلى الشارع ، ولكن الشمس كانت قد مالت للمغرب ، فأحس انقباضا ، إن معنى ذلك وفود الليل ، وما أسرع ما يمر ، ثم يطلع النهار ويذهب إلى المدرسة ، وهل هناك أتعب من الذهاب إلى المدرسة .

أصبح مصطفى يمقت المدرسة أشد المقت ، ونمى ذلك المقت في نفسه غلظ المدرسين وقسوتهم ، فقد راح مدرس اللغة الإنجليزية مثلا يعطيهم كلمات يحفظونها عن ظهر قلب ، ويحفظون مرادفاتا بالعربية ، فإذا جاءت حصّة التسميع أخذ يسأل كلا منهم عن معنى كلمة منها في لهوجة ، فكان ذلك يربك الأولاد ، فلا يتمكنون من ذكر المعنى المطلوب ، فيخرجهم من مقاعدهم ويرصهم إلى جانب الحائط ، ثم يأمرهم أن يفرّدوا أكفهم ، فيهوى عليها بخيزرانة رفيعة في قسوة ، فيرتفع صياح الأولاد ، ولما ينتهى من ضربهم ، يأمرهم أن يعودوا إلى مقاعدهم ، فيعودوا يجهشون بالبكاء ، ثم

يجلس هو على كرسیه ویروح یدعك أسنانه بأصبعه ، ثم یرفع أصبعه إلى أنفه لیشمه ، وعیمل بكرسیه إلى الحائط ، ویهوم فی جلسته ، ثم یلقى برأسه على صدره ویغط فی نوم عمیق حتی یدق الجرس ، فیهب من نومه وینطلق إلى فصل آخر ، حیث یعجل بضرب التلامیذ ، ویعود یستأنف نومه اللذیذ .
وكان إذا انتهى بلاء مدرس الإنجلیزیه ، بدأ بلاء مدرس الحساب ؛ كان رجلا تركیا ، ینطق الأرقام فی لكنة ، ولولا رهبة الحصّة لضحك الأولاد ، كان مورد الوجه ، طویل القامة ، أنیقاً فی هندامه ، وكان كل شئ فیہ كاملاً إلا عقله ، فلو أن عقله كامل ، لما ضرب الأولاد على أم رأسهم بحمد المسطرة الحدید !

كان یجلس على كرسیه ، ویأخذ فی تسمیع جدول الضرب ؛ وهل كان یفعل المدرسون شیئاً إلا التسمیع ؟ ویطوح المسطرة الحدید فی یده فیحملق التلمیذ فی المسطرة ویتبّعها بناظریه وقد طار له ، وتملكه رعب شدید ، وما كان یقدر أن یجمع شتات ذهنه فی ذلك الجو الرهیب . فكان یخطئ وهو معذور ، فیضربه المدرس ضرب جنون .

ووقف مصطفی یرتجف وقد اتسعت حدقتاه رعبا ، وسرت فی جسمه رعدة شدیدة ، ولو أن المدرس سأله عن اسمه فی تلك اللحظة ، لما استطاع أن ینطق به ، وقال المدرس فی سرعة : 9×7 ، فلم یحرك مصطفی ساكناً ، وازداد وجیب قلبه ، وتعطل ذهنه عن التفكير . وأشار له مدرسه بصبعه أن تعال فسار إلیه كالمسحور ، ومد المدرس یده ، وجذب الغلام ، وخلع طربوشه ، ونزل على رأسه بالمسطرة الحدید ؛ وندت من الغلام صرخة ألم تفتت الحدید ، ولكنها لم تهز قلب المرئی الفاضل والوالد الشفیق .

وعاد مصطفی إلى مقعده یندرف الدموع ، حتی انتهت حصّة الحساب ،

وبدأت الفسحة ، وراح يفكر في نفسه لم سمي ذلك الجدول البغيض جدول الضرب ، فقطن إلى أنه سمي كذلك لأن جميع الأولاد يضرَبون فيه ! اشتد مقتته للمدرسة حتى إنه كان إذا دخل فراشه لينام أحس انقباضاً لأنه لم يمت فيستريح من ذلك العذاب الأليم .

وفكر في وسيلة يهرب بها من المدرسة ، وعلم أن بعض الأولاد يمشون نهارهم في الحارات القريبة من المدرسة يلعبون ، حتى إذا دق جرس الانصراف انصرفوا إلى دورهم مع التلاميذ المواظين ! ولكنه كره أن يشارك في ذلك ، فهو يحس في قرارة نفسه أن ذلك من ضعف النفوس ، وهو لا يحب أن يقف منكس الرأس أمام أحد ، ولا يحب أن يفقد أبوه ثقته فيه .

الاضطهاد في المدرسة على قدم وساق ، والهروب أمر لا بد منه ، ففكر في وسيلة شريفة يهرب بها ، وأخيراً هداه تفكيره إلى وسيلة اطمأن إليها ، فعزم على إنفاذها في الصباح .

سطعت الشمس ، وقام مصطفى من نومه يتأوه ويتلوى ، وصعد إلى شقة أبيه ، فقد أصبح الأولاد ينامون مع جدتهم في شقة واحدة بعد موت جدهم ، فلما لمح أمه وقف يمثل الألم الشديد ، ورأته أمينة فأقبلت نحوه وسألته :

— ما بك ؟

— عندي مغص شديد .

فتفرست في وجهه مدة وقالت :

— كذاب ، والله إن لم تلبس هدومك لأكسرن المقشة عليك .

وأخذ يرتدى هدومه ، وانسل ذليلاً في الدرج يتمسح في الحوائط ، حتى إذا بلغ شقة جدته علم أن هنا أمله الوحيد ، فأجهش بالبكاء ، فخرجت

نفيسة تهرع ، فلما رأت دموع الصبي تحركت شفقتها وسألته في حنان :

— ما بك ؟

— عندي مغص .

— ولم تروح المدرسة ؟

— ضربتني .

— ضربتك ؟ اقعد .

وجذبت الولد من يده في حنان عظيم وصاحت :

— ما هذا يا أمينة ؟ أقد قلبك من حجر ؟ والله لن تعودى إلى عقلك حتى

يموت الولد .

وجلس مصطفى في حماية جدته ، وقد أحس غبطة وأمنا ، فقد استطاع

أن يفر من المدرسة دون أن يسخط أبوه عليه .

٣٨

كان أسعد وسليم ومصطفى يمرون على دكان لابن عم لهم في ذهابهم إلى

المدرسة ورجوعهم منها ، فأصبحوا يترددون على ذلك الدكان كثيرا ،

وذلك لأنه كان لابن عمهم هذا حمار يستعمله في جر عربة يحمل عليه

البضائع فكانوا إذا ما رأوا الحمار يمتطونه فرحين ، ويسيرون به قليلا ثم

يعودون ممتلين غبطة وسرورا .

ولاحظ ابن عمهم تعلقهم بالحمار وحبهم له ، فقال لهم مازحا :

— لم لا تشترون حمارا ؟

فتطلع الأولاد إليه في شغف ، وكأثما أعجبهم الفكرة ، وسأل سليم في

اهتمام :

— وكم ثمن الحمار ؟

فقال الرجل في لهجة الخبير :

— ريال .

فغمغم الأولاد غير مصدقين :

— ريال ! ..

فقال شارحا لهم ما غمض عليهم :

— إنه حمار صيفي .

ولم يهتموا كثيرا بما تعنى هذه الصفة ، فهم يريدون حمارا أيا كان ،
وأرادوا أن يطمئنوا على سعره ، فسأل سليم .

— وياع بريال ؟

فقال ابن عمه مؤكدا :

— أجل ، يباع بريال لأنه حمار صيفي ولد في الصيف ، فلا ينمو كثيرا
ولا يكون قويا .

ولم يحفل الأولاد بذلك القول فكل أمانيهم أن يحصلوا على حمار ، وما
يهمهم ألا يكبر أو يكون ضعيفا ، ما داموا يعتلون ظهره وينطلقون به في
الطرقات في زهو وخيلاء ، وقال سليم مؤكدا :

— سنحضر ريالا لتشتري لنا حمارا .

وانصرف الأولاد وهم يفكرون في طريقة جمع الريال ، فقال سليم :

— ندخر مصروفنا وبذلك نجتمع ثمن الحمار في سبعة أيام .

وبان على أسعد التردد ، فقال :

— وأين نضع الحمار ؟



ندخر مصروفنا ، وبذلك نجتمع ثمن الحمار في سبعة أيام

فقال سليم :

— في غرفة من غرف الشقة الأرضية .

فقال أسعد :

— لن تسمح أننا بذلك .

فقال سليم في ابتهاج :

— نضعه في الوكالة المواجهة للدكان .

وأعجب هذا الرأي مصطفى فقال :

— هذا أحسن فلنا في الوكالة حاصل كبير

فأطرق أسعد قليلا ثم قال :

— لن أشارك في هذا الحمار .

فقال مصطفى في حماسة :

— سنشتري الحمار أنا وسليم .

فقال أسعد ليثنيهما عن عزمهما :

— والله لو اشترينا الحمار لضربتنا أننا كلنا .

فلم يفت ذلك في غضد الغلامين ، فما كان ثم شيء يثنيهما عن فعل شيء إذا عزموا عليه ؛ ومرت أيام وسليم يدفع قرشا ومصطفى قرشا ، حتى إذا جاء يوم الخميس ذهب أسعد إلى بيت جدته كعادته ، وبقي سليم ومصطفى يلعبان مع رفاقهما ، وكان هواة الحمير يخرجون كل خميس إلى المحمدى ممتطين صهوات حميرهم المطهمة ، وينطلقون مزهوين يتطلعون إلى اليمن وإلى الشمال ليروا ما تتركه ركبتهم في نفوس الناس من أثر .

ومر هواة الحمير بسليم ، وكانوا يمرون به كل خميس ، وما كان يلتفت إليهم أو يفتن إلى مرورهم ، ولكنه اليوم كان يتطلع إليهم في إعجاب ، فعما

قريب يصبح مثلهم ، وينطلق إلى الحمدي كما ينطلقون .
وخطر له أن يذهب إلى الحمدي ليشاهد ما يجري هناك ، حتى إذا اشترى
حمامه كان على بينة مما يفعله ، وعرض فكرة الذهاب على رفاقه فوافقوا ،
وسار الأولاد يخترقون السوارع الضيقة المزدحمة المؤدية إلى الساحة الواسعة
المتراصة أمام مسجد الحمدي ، ومرت الحمير بهم متبخترت مزهوة ، وكان
وقع حوافرها على الأرض يداعب آذان سليم ومصطفى فيلفتان في إعجاب
إلى الحمير ويتبعانها بأنظارهما .

وبلغ الأولاد القضاء العريض المواجه للجامع ، فوجدا هواة الحمير
يتسابقون في ناحية ، والناس يتبعون السباق في اهتمام ؛ فوقف الأولاد
ينظرون مدة ، فلما شعبوا من السباق ، ساروا إلى حلقات الناس المتناثرة هنا
وهناك ، فوجدوا حواة يلعبون في خفة ومهارة ، فراحوا يشاهدون ما يجري
أمامهم ويتنقلون من حلقة إلى حلقة حتى رأوا حاويا قد خلع عن ابنه جميع
ثيابه وألقاه على الأرض وبقر بطنه بسكين فتدفق الدم ، ولم يكتف بذلك بل
راح يخرج أمعاء الصبي ، فارتجف الأولاد ولم يستطيعوا الصبر على ذلك
المنظر الرهيب ، فولوا هارين ولم ينتظروا حتى يعيد الرجل الحياة إلى
الصبي .

وادخر سليم ومصطفى الريال ، فذهبا إلى ابن عمهما ودفعاه له والدنيا لا
تسعهما من الفرح ، ومرا في عودتهما على صانع براذع ، فخطر لهما أن
يصنعا برذعة للحمار ، فدخلوا على الرجل وسألاه عن ثمن البرذعة ، فقال لهما
ثمنا سبعة قروش ، فانصرفا على يعودوا إليه بعد أيام ثلاثة .

واستأنف سليم ومصطفى ادخار مصروفهما حتى إذا انقضت الأيام
الثلاثة ذهبا إلى صانع البراذع ودفعوا إليه بالقروش السبعة ، وطلبا منه أن يصنع

لهما برذعة لحمار صيفى صغير ، وأخذ سليم يصف للرجل البرذعة التى يريد بها .

وانطلقا إلى ابن عمهما يستفسران عما تم فى أمر الحمار فسيتم صنع البرذعة بعد يومين ، فأخبرهما أنه لم يعثر على الحمار بعد ، وأنه سيذهب إلى سوق الجمعة ليجث لهما عن حمار يناسبهما .

ومر اليومان بعد أن ظن الصبيان أنهما لن يمرا ، فذهبا إلى صانع البراذع فوجدا برذعتهما جاهزة ، فتطلعا إليها فوجداها أفخم مما توقعا ، فشاع فى نفسيهما الرضا ، وحملا البرذعة وهما يكادان يطيران من الفرح .

حمل سليم البرذعة على ظهره ، وراح مصطفى ينظر إلى أخيه نشوان ، حتى إذا بلغا الدار ، رآهما أسعد فأسرع إليهما ، وأخذ ينظر إلى البرذعة فى عجب ، فما كان يظن أنهما يجهازان البرذعة قبل الحمار . وصعد سليم ومصطفى فى الدرج مهرولين ، وتأخر أسعد فهو يحس بما سيحدث بعد حين .

ورأت أمينة ابنها يحمل على ظهره برذعة فرنت إليه فى ذهول ، وفغرت فاهما من الدهشة ، ثم وجدت لسانها أخيرا فقالت فى غضب :

— ما هذا ؟

فقال مصطفى فى فرح ولم يفتن إلى غضب أمه :

— اشترينا حمارا .

فصغته على وجهه فغاض فرحه ، ووقف سليم كالأخوذ لا يدري ما يفعل ، فتأولت شببها وأخذت تضربهما وهى تصيح :

— هو انتم قروء ، والله إن لم تعيدوا هذه البرذعة لصاحبها ...

فقال سليم فى صوت ذليل :

— دفعنا ثمنها ، ولن يقبل الرجل أن يعيدها .

فدفعتهما فى عنف وقالت :

— اذهبا وإن عدتما بها قصفت رقبكما .

وهبط سليم فى الدرج مطاطيء البصر ، ومصطفى خلفه يجر رجله .
وشاء أسعد أن يشاركهما فى عواطفهما ، فانطلق معهما يشجعهما على
إعادة البرذعة . وضاق صدر مصطفى بما حدث فصاح فى غضب :

— وهى مالها ؟

ولكن لم يرد عليه أحد ، فالتزم الصمت ، وبلغوا دكان الرجل فتقدم
أسعد وشرح له الظروف التى اضطرتهم إلى إعادة البرذعة ، فأعادها الرجل
بعد أن اتفق على أن يعيد إليهم خمسة قروش فقط .

وقفل الأولاد عائدين إلى البيت مكسورى الفؤاد ، إذ انهار أمام أعينهم
حلم من أحلامهم الجميلة العذبة .

٣٩

موسيقى صاحبة تدوى دوى ، ما إن تصبك آذان الأطفال حتى يدعوا
لعبهم ويهرولوا صوبها ، وهم يميزونها عن أى موسيقى أخرى ، وينشرحون
لها فإن لها فى نفوسهم دلالتها ، فهى تذكرهم بالسينا الحبيب إليهم .

وما إن يصل الأولاد إلى العربة التى تحمل منشورا من الخشب لصقت على
جوانبه صور الأبطال فى مواقف تثير الحماسة فى الأطفال والسذج ، وجلس
فى جوفه رجال الموسيقى بملابسهم القديمة ، حتى يهرعوا إلى الصبى الذى
يسير بجوار العربة يوزع الإعلانات ، فيأخذ كل منهم إعلانا ، ثم يتفرسون فى

الصور ، وينظرون إلى الشاب الذى يعتلى صهوة جواد ، ويرتدى فراء وقبعة ، ويقبض على مسدسين من الخشب ، ويسير أمام العربى فى خيلاء ، نظرة حسد وإعجاب ، فهو يذكرهم برعاة البقر الذين يحبونهم ويقبلون على رواياتهم فى لهفة وشغف .

قرأ الأولاد الإعلان ، فأبدى بعضهم إعجابه بالرواية العظيمة التى تعرضها تلك الدار التى لا تجلب إلا الروايات الفذة ، وراح البعض الآخر يدلل على سخفها مستندا إلى الملخص المطبوع بالإعلان . وكان الأولاد ينقسمون حزيين : حزب يؤيد دارا بعينها ويتعصب لها ولرواياتها . وحزب يؤيد دارا أخرى منافسة لها ويتعصب لرواياتها وأبطالها ، وكان الجدل يستمر يوم الخميس قبل الذهاب إلى حفلة الساعة الثالثة ، ويوم الجمعة بطوله . وحدث مرة أن عرضت رواية فى الدار الثانية لبطل محبوب من أبطال الدار الأولى ، فاعتبره أنصار هذه الدار من المارقين وقاطعوا رواياته ، وراح أنصار الدار الثانية يعيرونهم به ، ويتخذون من ذلك حجة على أن البطل وجد دارهم أفضل فانحاز إليها .

وعاد من السينا أسعد وسليم ومصطفى وحزبهم وأخذوا يقصون ما رآوه فى شغف ، ويذكر بعضهم بعضا بالمواقف المثيرة التى أعجبته ، وراح سليم يقص موقفا أعجبه كل العجب حتى تمنى أن ينفذه ، رأى فى الرواية المضحكة البطل وقد حاصره أعداؤه من كل جانب ، وما كان أمامه لينجو منهم إلا أن يقفز من الطابق السابع ، فتناول مظلة عادية وفتحها وقفز بها فى الفضاء ، فحملته وهبط إلى الأرض فى سلام . احتلت هذه الفكرة المضحكة ذهن سليم فراح يفكر فيها حتى اقتنع بإمكان إنفاذها .

وأصبح الصباح ، والفكرة لم ترح ذهن سليم ، فعزم على إنفاذها ،

ودخل غرفة أبيه فألقى مظلته معلقة ، فتناولها في خفة ، وانسل من الغرفة ، وهبط إلى رفاقه وقال لهم في فرح :

— سأقفز بالمظلة من شرفة الدور الأول .

فنظر الأولاد إليه في ذهول ، وحاول أسعد أن يثنيه عن عزمه ، ولكن سليما أبى ، وأصر على القفز بالمظلة . وصعد إلى الطابق الأول ، ووقف في الشرفة وفتح المظلة ، وتطلع الأولاد إليه وتعلقت عيونهم به وصاح أسعد فيه :

— إياك أن تقفز ، وإن كان ولا بد فاقفز من الدور الأرضي .

ونظر سليم تحته فازتجف ، وبان له أن الأرض بعيدة جدا ، فلو أن المظلة لم تحمله كما يقول أسعد لتحطم تحطما ؛ وأحس رهبة ، فترك الشرفة وهبط إلى الطابق الأرضي ، ووقف في شرفة مرتفعة قليلا وفتح المظلة وقفز .

وسرعان ما دك سليم الأرض واصطدمت ذقنه بركبتيه وتحطمت المظلة في يده ، فقد ملأها الهواء فلما زاد ضغطه لم يحتمل السلك الضغط فتكسر . وضع الأولاد بالضحك وشاء سليم أن ييكنى فهو يحس ألما في ساقيه ، ولكنه خجل من البكاء ، فأخذ يغالب ألمه ويحاول أن يتسم .

ومرت الأيام والأولاد يواظبون على الذهاب إلى السينما كل خميس ، فإذا غادروها تمنوا أن يقبل الخميس التالى على عجل ، فالدور تعرض رواية مسلسل ، وما كانت تنتهى الحلقة المعروضة إلا والبطل في مأزق من المآزق التى يشفق عليه الأولاد منها ، ويتشوقون إلى معرفة طريقة خلاصه منها .

وجاء الخميس الموعد الذى تنتهى فيه الرواية ، ويعرف الرجل الخفى الذى يعاون البطل والبطلة في الخروج من المآزق التى يقعان فيها ، فاستعد الأولاد للذهاب مبكرين ، ولكن أهمهم كانت قد عزمت على ألا تدعهم

(في قافلة الزمان)

يخرجون ، فقطن أسعد وسليم إلى نيتها ففرا هارين ، ووقع مصطفى في الكمين .

وبكى مصطفى وصرخ ، وتوسل وتضرع ولكن قلب أمه لم يلن ، وبقي حبيسا حتى إذا انقضى ميعاد السينما ، فكت عقاله ، فهبط إلى الشارع فلم يجد من رفاقه أحدا فقد ذهبوا جميعا لينعموا برؤية الحفى وهو يزيح النقاب عن وجهه ، فأحس حزنا ، وضاق بالظلم الذى نزل به فطفرت من عينيه الدموع .

وبقى ينتظر مرور الساعات في غيظ وتبرم ، ولاح له أن الساعات التى تمر فى السينما كالمح البصر طالت ولا تريد أن تنقضى ؛ وأخيرا آذنت الشمس بالمغيب ، وأقبل الأولاد فى جمعهم ، فما إن لمحهم حتى هرول إليهم وسألهم فى لهفة :

— من الرجل الحفى ؟

فأجابوه :

— أبو البنت .

فقال فى سرور :

— كنت أظن ذلك .

ولكنه ما لبث أن غاض سروره ، فقد فاته أمر عظيم . لقد كان يود أن يرى بعينه ، وأن يفعل للرؤية ، وأن يشارك أبطال الرواية فى فرحهم ، كما شاركهم فيما نزل بهم من رزايا . ولم يستطع أن يشارك الأولاد فى سرورهم فانزوى وهو حزين .

ومر يوم الجمعة ويوم السبت وأقبل يوم الأحد ، ففكر مصطفى أن ثم حفلة نهائية فى السينما ، وإنه يستطيع أن يذهب لمشاهدة الحلقة الأخيرة التى

فاته أن يراها يوم الخميس ، ولكن كيف يذهب وهو لا يخرج من المدرسة إلا في الساعة الرابعة ؟ فكر في أن يدعى المرض في الصباح ، وأن يلجأ إلى جدته كما اعتاد أن يفعل ، ولكنه تيقن أن أمه لن تدعه يهرب في سهولة ، وأنه قد يعرض نفسه للضرب الشديد دون جدوى ، ولو كان على ثقة من أنها تضربه وتدعه ، لما اهتم بالضرب ، ولكنه كان يحس في قرارة نفسه أنها لن تدعه يهرب هذه المرة ولو اضطّر الأمر إلى أن يحمله البواب ويذهب به إلى المدرسة . وذهب إلى المدرسة على مضض ومرت الساعات وهو في ضيق يفكر في الرواية التي ستنتهي دون أن يراها ، وأحس قلقا واضطرابا ، وجاء موعد الغداء فلم يتناول شيئا فقد عافت نفسه الطعام ، وخطر له خاطر سر له ، وذهب إلى أسعد وسليم فأسرهما لهما ، فأعجبتهما الفكرة فأخذهما وانطلقا به إلى ضابط المدرسة .

وضع مصطفى يده على بطنه وأخذ يتلوى ، وارتسم على وجهه الألم الشديد ، ودخل أسعد على ضابط المدرسة وقال له :

— إن مصطفى يحس مغصا شديدا .

وخرج الضابط فرأى الغلام يتلوى من الألم فقال في ارتباك :

— وما نفعل له الآن والطبيب قد انصرف ؟

فقال سليم في رجاء :

— دعه يذهب إلى البيت ليتناول شيئا .

فالتفت الضابط إلى الأولاد وقال :

— اذهب معه يا سليم .

فقال سليم :

— أظن أنه لا داعي لذلك .

ووصلوا إلى باب المدرسة فقال الضابط للفراش :

— دع مصطفى يخرج .

فتقدم مصطفى وهو يتلوى ويتأوه ، ومرق من الباب في خفة ، ولما رأى الباب يغلق وراءه ، أطلق ساقيه للريح .

أخذ مصطفى يعدو في الطرقات كغزال نافر ، ولم يتوقف ليلتقط أنفاسه حتى بلغ دار السينما ، فدخل في الدرجة الثالثة بعد أن دفع قرشا ، وجلس يرتفع صدره وينخفض في قوة وسرعة ، ولكنه كان على الرغم من تعبهِ الشديد يحس نشوة عظيمة .

وخرج مصطفى من السينما فرحان بعد أن رأى ما كان يتمنى أن يراه ، وكان الظلام ينشر ألويته ، فأغذ في السير ليدخل البيت قبل عودة أبيه .

٤٠

ممدوح يعمل في الدكان من الصباح إلى المساء ، يخرج مع أبيه ويعود معه ، ولا يعرف إلا أصحاب الدكاكين القريبة . وكان يمازحهم ويمازحونه ، وفي يوم أراد أحدهم أن يداعبه فقال لحسن :

— لقد كبر ممدوح فلم لا تزوجه ؟

فابتسم حسن في هدوء ، ولم ينبس بكلمة ، وبلغ القول مسامع ممدوح فدغدغ حواسه ، وراح يفكر فيه ، إنه كبر حقا فلم لا يتزوج ؟ إنه بلغ الخامسة عشرة فأصبح من حقه أن يطمئن على حياته المستقبلية .

وفطن جيرانه إلى أن حديث الزواج يسره ويرضيه ، فراحوا يحرضونه على أن يطلب من أبيه أن يزوجه ، وكانوا يجلسون مع حسن ويفاتحونه في أمر

زواج ابنه على مسمع منه فيغتبط ويتسم حسن في سكون .
واختمرت فكرة الزواج في ذهن ممدوح ففكر في أن يستعين بمن في الدار
لإخراجها إلى حيز الوجود ، فذهب إلى أمه وأفضى إليها برغبته فابتسمت
راضية فإنه يسرها أن تزوج ابنها ، ولكنها أرادت أن تريه أن الأمر ليس هينا كما
يظن فقالت له :

— اصبر قليلا يا ممدوح حتى تكبر .

فلم يعجبه ذلك . لقد كبر وانتهى الأمر فعلام الانتظار ؟ ورأى أن يهبط
إلى جدته يلتبس منها العون ، فجلس بجوارها واستكان لها وتودد إليها ، فإن
من طبعه الاستكانة والتودد إذا كان في حاجة إلى شيء ، ثم همس في أذنها :
— أريد أن أتزوج .

وبلغ الهمس مسامع الأولاد فضحكوا وأغرقوا في الضحك فقالت لهم :
— ما الذى يضحككم في ذلك ؟ رجل يريد أن يتزوج !
وأرضى ذلك غروره ، فلم يأبه للأطفال الذين لا يفقهون شيئا ، وما كان
يلتفت بطبعه إلى من لا يستطيع أن يسدى إليه يدا ، فهو يهتم بالناس بمقدار ما
ينتظر أن يعود عليه منهم ، وشجعه رد جدته فاسترسل :

— أريد امرأة ، أية امرأة ولو كانت سوداء كطرحك .

ولم يستطع الأولاد أن يكتموا حواسهم فانفجروا ضاحكين ، وأخذ
مصطفى يقهقه في صوت رفيع حتى دمت عيناه ، ولما فرغ من ضحكه أخذ
يقلد أخاه :

— أريد امرأة ، أية امرأة ولو كانت سوداء كطرحك !

فاستأنف الموجودون ضحكهم ، حتى الجلدة ابتسمت وأخفت فمها
بطرف طرحتها ، ثم قالت :

— سأزوجه عندا فيكم .

فتزل قولها بردا على قلب ممدوح ، ورأى من الحكمة ألا يسترسل في حديث الزواج حتى لا يفسد ما وصل إليه من نجاح .

وفاتحت أمينة زوجها في أمر زواج ابنها ، وحادثت نفيسة ابنها في ذلك أيضا ، فقرر ثلاثتهم تزويجه ، وأخذت أمينة تعرض على ابها أسماء فتيات الأسرة ، فأخذ يرفض هذه بحجة أنها تكبره ، وتلك بحجة أنها لا تصلح له ، وظهر جليا أن من كان يريد أن يتزوج امرأة ولو كانت سوداء كطريحة جدته ليس هينا كما تظاهر أولا ، إنه يستكين حتى يضمن فرصته ، فإذا استحوذ عليها أملى إرادته .

واستمر العرض واستمر الرفض ، وفي يوم قالت له جدته :

— لم لا تتزوج عصمت بنت عمثك ؟

— إنها صغيرة .

— غدا تكبر .

وأطرق ممدوح وصمت ، فهو يحب عمته سكينه ، ولا يرى بأسا أن يخطب ابنتها وينتظرها حتى تكبر ، ورفع رأسه وقال في نبرات المغلوب على أمره :

— افعل ما تحبينه .

كانت الجدة تحب دائما أن توفق راسين في الحلال ، وكانت كثيرا ما تفكر في زواج حفدتها ، فإذا جلست بين زوجات أبنائها أخذت توزع الصبيان على البنات بالعدل والقسطاس ، حتى ترضى جميع فروع الأسرة ، فتقول فلان لفلانة وفلان لفلانة ، ومن العجيب أن أغلب الزيجات التي تمت في الأسرة كانت وفق هوى الجدة ، وكأنما كانت تقرأ المسطور في سجل القدر .

وقر رأى على أن يخاطب ممدوح عصمت ، فأرسلت نفيسة إلى ابنتها وزوجها وأفضت إليهما بالخبر ، فقبلت سكينه النبا في خفة وسرور ، وراح مختار يبدى ويعيد ويقص ذكرياته ، ويروى في فخر كيف زوج أخواته وكيف حمل العباء كله في شجاعة بعد موت أبيه .

واتفق على يوم كتب الكتاب ، وجاء نساء الأسرة إلى البيت الكبير وما كان البيت كبيراً في الحجم ، ولكن سمي بذلك لأن الجدة تقطن فيه ، وجاء موعد الغداء فانتظر النسوة إقبال العروس ، فقد كانت في المدرسة الابتدائية ولم تنصرف منها بعد .

ودق جرس الغداء فاتخذت عصمت سمتها إلى البيت الكبير . لم تسرع ولم تهول فما كانت تدري خطر ما هي مقبلة عليه ، بل لقد رأت بعض زميلاتهما يتلكان ويلعن ، فلكأت معهن ، ولعبت قليلا . ثم انصرفت في هدوء دون أن يخطر على بالها النسوة اللاتي في الدار ينتظرن أوبتها .

ووصلت إلى حيث كان النسوة فقابلنها بالتهليل ، وابتدأت أمينة تجهز الغداء للموجودات . فدخلت عصمت المطبخ وطلبت أن تقوم بغرف الطعام . فابتسمت أمينة وقدمت لها المغرفة ، ووقفت ترقبها ، فلما وجدتها لا تستطيع أن تحمل الطبق في يد وتغرف باليد الأخرى تقدمت لمساعدتها . وتم إعداد الطعام فقام النسوة يلتهنه ، ويدعون الله أن يتم بخير .

كانت أمينة منهمكة في خدمة المدعووات ، ولكن لم ينسها ذلك أمر ابنتها الحبيبة ، فكانت ترمق وردة وهي في ثيابها الفاخرة وقد جلست في حجر عمتها سكينه ، فيداعب السرور أوتار قلبها ، وتتفتح نفسها ، إن أمنيته الكبرى أن تراها شابة كالشابات اللاتي يحظرن في ثيابهن الجديدة فرحات مزهوات .

وجلست أم أحمد زنوبة بعيدا ولم تشارك النسوة في طعامهن ، فاتجهت
أمينة إليها وغمزتها في كتفها ، فنهضت وسارت خلفها ، ودخلت أمينة غرفة
وأم أحمد في أثرها ، ثم خرجت أمينة وعادت تحمل ما لذ وطاب ووضعت أمام
أم أحمد .

ولما صلى الناس العشاء ، وفد المأذون وحسن ومختار وبعض الرجال ،
وكتب الكتاب وأديرت أكواب الشراب ، وارتفعت الزغاريد وراح النسوة
يهنئن أمينة ، ويقلن لها :
— عقيبى لوردة .

فكانت تحس فرحا لا يقدر ، وتقول في صوت متهدج :
— في حياتك .

وانصرف المدعوون ، واقتعدت أم أحمد زنوبة حشية وثيرة ، فالتفت
حولها أهل البيت ؛ وجلست أمينة قبالتها وابنتها وردة في حجرها ، وأخذت
تمسح شعرها في رفق وحنان . وغطت أم أحمد وجهها بطرف طرحتها
البيضاء وانتفضت ، ثم رفعت الطرحة وقالت في صوت متغير قليلا :
— مساء الخير .

فردت أمينة التحية في احترام ، فإن التي تتكلم الآن هي الست وردة
الوقور ؛ ومدت الست وردة يدها وأخذت سميتها الطفلة وجعلت تمسح على
رأسها وتتمتم ببعض آيات القرآن ، ولما انتهت هنأت ممدوحا وأمه ، وأخذت
تذكر تمنياتها السعيدة للزوجين في رزانة وهدوء ، ثم استأذنت في
الانصراف ، فأذنت لها أمينة بعد أن شكرتها على تكرمها بزيارتهم في هذه
المناسبة السعيدة ، وفرح الأولاد لانصراف الست وردة ، لأنهم يعلمون أنها
إذا انصرفت أقبلت ابنتها الصغيرة ، وهم يحبونها ويتمنون أن تمكث معهم .

وغطت أم أحمد وجهها بطرحتها وشبكت يديها خلف رأسها وانتفضت
فعادت إلى سيرتها الأولى .

وبقيت صامئة مدة ، ثم ظهر على وجهها إعياء وجهد ، فغطت وجهها
فانبعث صوت رفيع ، يمتاز بخفة وطيش ، وما إن صك الصوت آذان الأولاد
حتى انتعشوا وظهر في وجوههم الاهتمام .

كانت التى تتحدث هى زهرة الطفلة الغريرة ، فداعبت الأولاد
ومازحتهم ، ثم هنأت ممدوحا ، وأرادت أن تشاركه فى بهجته فغنت له ، ثم
زحفت حتى بلغت صوانا من الخشب ، فجعلت تنقر عليه بأصابعها نقرات
موزونة ، تتناسب واللحن الذى تغنيه ، وطلبوا منها أن ترقص ، فتمنعت فى
دلال ، فلما ألحوا عليها قامت وتحزمت ، وراحت ترقص فى نشاط ،
وضحك الموجودون جميعا ، فإن جسم أم أحمد زنوبة كان ضئيلا ، وكان
شعرها أبيض ، ووجهها متغضنا ، وما كان فى فمها سن واحدة ؛ لقد كان
منظرها وهى ترقص يضحك الثكلى .

وانصرفت زهرة وأفاقت أم أحمد إلى نفسها ، فوجدت الحزام فى
وسطها ، فأظهرت استنكارها وغمغمت :
— الله يكافئك يا زهرة .

وأقبلت عصمت بعد يومين لزيارة جدتها ، فلما علمت أن ممدوحا مقبل
إلى الحجرة التى هى فيها ، هرعت إلى المطبخ واختبأت به ، فقد أصبح من
العيب أن يراها أو تراه .

ووفد إلى الحى سكان جدد ، نزلوا فى شقة أرضية فى منزل منعزل له مسالك متعددة ، وطالما رغب فى هذه الشقة بنات الهوى ، ففيها جميع الشروط التى تلزم البيوت التى يدهمها البوليس فجأة ، فليليت أكثر من باب ، ونوافذ الشقة وطيدة تطل على نواحى متشعبة ، يسهل القفز منها والفرار تحت ستر الظلام ، فما تدب الحياة فى مثل هذه البيوت إلا فى جوف الليل ، بعد أن يهجع الناس الطيبون ، وتنام عيون الرقباء .

وما كان يعمر هذه الشقة سكان إلا لشهر أو بعض شهر ثم يرحلون ، فإن أمرها كان معروفا ، وما كان يحط فيها نسوة حتى يتغامز الناس ويهمس الجيران ، فتدهم الدار ويتدىء الرحيل .

كان السكان الجدد أسرة تتكون من أم وبتين كبيرتين وثلاثة أولاد ، فلما أصبح الصباح هبط الأولاد إلى الشارع يلعبون مع أبناء الجيران ، فما أيسر تعارف الغلمان ، وظلت نوافذ الشقة مغلقة ، فلم يتغامز الناس ، ولم يهمس الجيران ، فقد آن للشقة أخيرا أن ينزل بها أناس أشرف .

واختلط الأولاد الوافدون بأبناء الحى السابقين ، كانوا من طراز آخر جديد ، فلم يكتفوا بأن يشاركوا الأولاد فى لهوهم البريء ، بل شاعوا أن يعلموهم بعض ما يعلمون ، وقد كان فيما يعلمون إثم كبير .

رأى أسعد وسليم أن هؤلاء الأولاد خطرون ، فقررا مقاطعتهم ، وعدم مشاركتهم فى لعبهم ، وراحا يحذران أصدقاءهما القدماء منهم ، فانضم إليهما فريق ، وانحاز إلى الآخرين فريق .

ونشبت معركة بين الخير والشر ، وما كان الخير بقادر إلا أن يزجي النصح والتحذير ، أما الشر فكان يقدم ما يرضى النفوس الصغيرة المتطلعة إلى المعرفة ، المشتاقة إلى كل جديد .

وفرشت في الحارة الضيقة التي كان الأولاد يلعبون الكرة فيها قطعة حصير بالية ، وجلس الشياطين الثلاثة وحولهم حزيمهم وأخذوا في التدخين ، وأخذت السجائر تنتقل من فم إلى فم ، والأولاد يضحكون في نشوة لما يروى من حديث مكشوف . كان أكبر الأولاد الثلاثة يتحدث عن العلاقات الجنسية حديث خبير ، ولو أن رجلاً مجرباً أنصت إلى ما يروى لصعق دهشاً من علم الصبي الغرير الذى لا يحصله إنسان عادى على مر السنين !

ووقف أسعد وسليم ومصطفى ورفاقهم يرقبون ما يجرى من بعيد ، فلم يكتف الأولاد بالتدخين ، بل بعشوا في شراء خمر ، وجاءت زجاجة وكوب ، فأخذ الأولاد يديرون الكوب ويشربون ، ثم يتمايلون ويضحكون ضحكات ناعمة نشوانة ، لا تصدر عن صبيان صغار لم يبلغ أكبرهم الثانية عشرة من عمره .

وانسل أسعد وسليم ومصطفى إلى بيتهم ، وعاد أصحابهم إلى دورهم . وبقي الآخرون في هوهم وعيشتهم وصخبهم ، وأخذ مصطفى يفكر في الدخان المنبعث من أفواه الصبيان فيحس رغبة جارفة في أن يفعل مثلهم ، فراح يتخيل أن بين أصابعه سيجارة فيشد أنفاساً منها حتى إذا امتلأ صدره بالهواء ، أخذ ينفث في شغف وهذوء واطمئنان .

وعزم مصطفى أن يشتري علبة سجائر إذا أخذ مصروفه في الصباح ، ليتمتع بلذة التدخين كالآخرين ، فما إن أشرقت الشمس حتى ذهب إلى أبيه وأخذ منه قرشاً ، ثم هرع إلى أقرب دكان واشترى علبة بها عشر سجائر ،

وأخذ يفكر في مكان أمين يدخنها فيه ، فهو يعلم أنه مقبل على أمر عظيم ، فما من أحد في أسرته الكبيرة يدخن ، وهو يعلم أنه لو انكشف أمره لنزل به عقاب شديد ، وخطر له أن يختبئ في ركن مظلم خلف دارهم يخفيه جوسق صغير ، فاطمأن إلى ذلك وسار إليه يتلفت في ذعر خشية أن يدمه أحد إخوته فيسود نهاره ولا يتمتع بالتدخين .

وبلغ المكان الأمين ، ولكن نفسه ظلت على اضطرابها ، ثم أخرج علبة السجائر وتناول منها سيجارة وأشعلها ، وأخذ يشد منها أنفاسا فلم يشعر بأية لذة ، ولكنه أحس حرقانا في حلقه ، وانتهت السيجارة الأولى فأشعل الثانية ، وانتهت الثانية فأشعل الثالثة ، وانتهت الثالثة فأشعل الرابعة ، وانتهت الرابعة فأشعل الخامسة ، وضائق أنفاسه وأخذ يسعل سعالا متواصلا ، واغرو رقت عيناه بالدموع ، وشعر بضيق شديد ، ولكن كان عليه أن ينتهي من السجائر الخمس الباقية حتى تختفي معالم الجريحة ، فأشعل السادسة وأخذ يشربها وهو يكاد يختنق ، وأشعل السابعة وقد أحس دوارا ، فوضع السجائر الباقية تحت قدمه وداسها ، وخرج من الركن الذي لاذ به يسعل في شدة ، ويلتقط أنفاسه في جهد .

لم يجد في التدخين لذة بل عذابا ، ورأى رجلا يدخن فلم يحسده بل أحس نحوه إشفاقا ، ولم تراوده فكرة التدخين بعد ذلك ، وما خطر على باله أن يعيد الكرة ، وأصبحت رائحة الدخان تضيق من أنفاسه حتى لا يستطيع أن يجلس في مكان يعبق جوه بالدخان المتكاثف .

ومرت الأيام وأسعد وسليم ورفاقهما يقاطعون أولاد الجيران الجدد ومن لف لفهم ، وراحوا يرقبون دارهم ، فابتدأوا يتغامزون ويهمسون ، إذ وجدوا أن الجيران الجدد الأشراف لا يختلفون كثيرا عمن اعتادوا النزول في

هذه الشقة ، فإن رجالاً أغراباً يدخلون ويخرجون ، وإن شيئاً مريباً يجرى في الداخل ولا شك ، فإن الأولاد لا يجرؤون على الدخول إذا كان عندهم ضيف كريم .

وفي ليلة ليلاء ، انبعثت أصوات فزع تشق السكون ، فهب الناس من نومهم ، وفتحوا شبابيكهم يستفسرون ، فإذا بهم يفاجئون فينذهلون ، فإن الناس الذين حسبوهم أشرافاً قد دهمهم البوليس ، وقبض على رجال أغراب عندهم ، فأغلق حسن شبাকে وانسحب وهو يحس أسفاً وخجلاً ؛ واستمرت الضوضاء مدة ثم خفت وتلاشت .

وفي الصباح راح الناس ينظرون إلى الشقة الموعودة ، فوجدوها مفتحة النوافذ لأول مرة ، وما كان فيها شيء ، فقد رحل سكانها بعد فضيحة الليل . ودخل أسعد وسليم ومصطفى وصحابهم الشقة الخالية ، وراحوا يجوسون خلالها ويضحكون ويتغامزون ، وجاء أصحاب الأولاد الراحلين ، فلما علموا بما حدث في الليل طأطأوا أبصارهم .

ورحل الأولاد الشياطين بعد أن غلموا أولاد الحى أشياء ، ووسموا بعضهم بعدادات لم تفارقهم أبداً . إنهم نزلوا بالحى مدة ، ولكنهم تركوا به آثاراً لن تمحى .

٤٢

ورزقت أمينة بنتاً ثانية ، وسمتها زكية ، وكانت غبطتها عظيمة فلن تكون وردة وحيدة مثلها لا أخت لها .

وراحت أمينة تغمر وردة بحبا فتشترى لها الثياب الفاخرة ، وتعتنى بها ، ولاحظ الأولاد تعلق أمهم بأختهم ، فشاعوا أن يستغلوا ذلك الضعف ،

فكانوا إذا أرادوا أن يذهبوا إلى جهة ما ويخشون معارضة أمهم يستصحبون وردة معهم ، فتصرح لهم وتقدم لهم كل عون ومساعدة .

وفي يوم أراد أسعد وسليم أن يتصورا ، فقالا لأمهاتهما يريدان تصوير وردة ، فسرت الأم وأعجبتها الفكرة ، وقامت فألبستها ثوبا فاخرا ، ورجلت لها شعرها الذهبي السبط ، حتى إذا اطمأنت إلى روعة هيئتها دفعت بها إليهما ، فأخذ سليم يدها ، وأخذت أمينة تتطلع إليهم في نشوة ، وترمق ابنتها في غبطة ، وهبطوا في الدرج حتى إذا بلغوا نهايته أسرع إلى الشرفة تتملى من منظر وردة وهي تخطر في الطريق .

سارت وردة وأمينة تتبعها بقلبها ، وتذكرت فجأة أنها نسيت أن تعطيا منديلها ، فهرعت إلى الداخل وأخرجت منديلا صغيرا ونادت الخادم في لطفة ، وأمرتها أن تطير لتلحق بوردة وتعطيها منديلها :

وراحت الخادم تقفز الدرج ، وهولت أمينة إلى الشرفة فرأت الخادم تلحق بأولادها وتدفع بالمنديل إليهم ، فاطمأنت وانشرحت ، ولحت أسعد يسوى شعر أخته بيده ليعده عن عينها ، فمس ذلك وترا حساسا في قلبها ، فكادت دموع الفرح تطفر من عينيها .

وهبط مصطفى إلى الشارع يلعب مع رفاقه ، حتى إذا أخذت الشمس في المغيب ، عاد إلى البيت ، وقد اتسخت ثيابه ، فغسبته أمه ، وما كان يمر يوم دون أن تضربه على قذارته ، فهو يحمل التراب في حجره لينى زرقاه بيتا صغيرا مقلدين البنائين الذين كانوا يشيدون الدور في الفضاء المواجه للدورهم .

وفكر مصطفى في وسيلة يدرأ بها ذلك الضرب الذى ضاق به ، فهو لا يستطيع أن يحافظ على نظافة ثيابه ، ولكنه يريد أن يعود بها نظيفة ، فهداه

تفكيره إلى وسيلة اطمأن إليها .

ففى اليوم التالى أخذ صابونة ونزل بها إلى الدور الأرضى الذى خصص للعب الأولاد وتخزين الفائض من الأثاث ، وخبأ الصابونة فيه ، وخرج يلعب مطمئن البال .

انغمر مصطفى فى اللعب ، وكان كلما اتسخت يدها مسحهما فى جلبابه فى هدوء ، ولم يكتف بذلك ، بل التفت إلى أصحابه وقال :

— من تنسخ يدها فليمسحهما هنا .

ورفع جلبابه وهزه فى يده ، فهرع الأولاد إليه يمسحون أيديهم التى لطخت بالطين ، وهو يتسم فى سرور . وفى العصر دخل إلى الدور الأرضى وأخرج الصابونة التى خبأها ، ثم خلع جلبابه وراح يغسله ، حتى إذا اطمأن إلى نظافته عصره ، ولكنه لم يستطع أن يعصره جيدا فعلقه فى الصنبور وأخذ يلفه بيديه فى قوة فيتصبب الماء من الثوب ، ويتصبب العرق من وجهه ، ثم تناول الجلباب ونشره بين يديه وأخذ يهويه فى الفضاء .

وجلس مصطفى ينتظر جفاف جلبابه ، وكان الجو حارا فلم تطل جلسته ، فما مرت ساعة أو بعض ساعة حتى كان الجلباب قد جف ، فارتداه مغتبطا وصعد فى الدرج شائحا بأنفه ، فهو يعود اليوم نظيفا كما خرج نظيفا . ورات أمينة نظافة الولد فتملكها العجب ، فما كانت تتصور أبدا أن يعود مصطفى فى مثل هذه النظافة بعد أن يمضى ساعات يلعب فيها فى التراب . ومرت الأيام ومصطفى يحافظ على نظافته ، وجاء يوم تأخر فى اللعب فلم يدخل الشقة الأرضية ليغسل جلبابه إلا عندما آذنت الشمس بالمغيب . وغربت الشمس والجلباب منشور لم يجف ، ولف الليل الكون بردائه ، فساد الظلام المكان ومصطفى جالس ينتظر ، وأخيرا لم يجد بدا من أن يرتدى

الجلباب المبتل ، وصعد إلى أمينة ينتظر ما يناله في ثبات .
كانت الأم تجهز السفرة للعشاء ، وكانت منهمكة في إعداد الأطباق ،
فلما أحست دخول مصطفى قالت دون أن ترفع رأسها إليه :
— أين كنت ؟

— تحت .

وانتهى ما كان في يدها واتجهت نحو المطبخ ، فلاحظت أن جلابيه مبتل ،
فمدت يدها وتحسست الجلاب ، ففطنت إلى كل شيء ، فقالت :
— والله عال ، ومن أين جئت بالصابون ؟
فأطرق مصطفى ولم ينبس بكلمة ، فدفعته في صدره وقالت :
— هو أنت قرد ؟

فقال محتجا :

— ولم هذا الضرب ؟

فصغته على وجهه ، فصاح فيها :

— ما هذا الظلم ؟

فتناولت شيشبها وأخذت تضربه ، فارتفع صياحه ، وبلغ صوته مسامع
جدته فأسرعت إلى السلم وراحت تتهف :

— أمينة ، دعى الولد ، والله لن ترجعى حتى يموت مرة في يدك .

وهرعت الخادم إليه ، وأخذت تعمل على تخليصه من يدها .

وذابت أمينة تغرف الطعام ، فصاح مصطفى وهو يبكي في غيظ :

— والله لا ندرى ما نفعل ، إذا عدنا والملابس قدرة ضربنا ، وإذا غسلنا

الملابس ضربنا . هذا شيء يحير .

فابتسمت أمينة ، ولكنها أخذت تجاهد لتخفى ابتسامتها .

وجاء حسن فوجد مصطفى يبكى ، فأخذه من يده ودخل غرفته ،
ومسح على شعره وأعطاه بعض الحلوى ، فهدأت نفسه ، ورنأ إلى أبيه في
حب وإعزاز .

٤٣

ذاع في المدرسة الابتدائية أن عصمت كتب كتابها ، فراح البنات
يتهايمن وينظرن إليها ، وأقبل صويحاتها يسألنها عما حدث ، فاحمر وجهها
وأخذت تصف لمن ما جرى في اضطراب وتلعثم ، وإن كانت تحس زهوا .
إنها خطبت وهي في السنة الثانية ، وعما قريب تركت المدرسة لتبقى في
البيت ، فما يجوز لفتاة كتب كتابها أن تغادر الدار وحدها ، وإن كانت طفلة
لم تتجاوز التاسعة . وكان عليها أن تتعلم كيف تدير بيتها ، فلزم أن تبقى مع
أمها لتتدرب على شئون البيت .

وبلغ المدرسات نبأ كتب كتاب عصمت فتلقوه في دهشة ، وأحسنن في
أعماقهن شيئا ، فهن ناضجات مكتملات الأنوثة ، ولكن حرم عليهن
الزواج ، فإن وزارة المعارف تخبرهن بين الطبيعة والوظيفة ، وحتى لو
أباحن لمن الوزارة الزواج . فما كن ليجدن الزواج بهذه السهولة .

واستدعت المدرسات عصمت ، فذهبت إلى حجرتهن وهي تدرى
سبب استدعائها ، وكانت راضية كل الرضا ، فهي تحسن على الرغم من صغر
سنها أنها صارت ملحوظة مرموقة ، ودلفت من الباب ، فلما رأيها قالت
إحداهن :

— ادخلي يا شاطرة .

(في قافلة الزمان)

فضحكت مدرسة دميمة ضحكة مشوية بمرارة وقالت :

— بلى تفضلى يا هانم .

وقامت عن كرسيها وقدمته للفتاة الصغيرة ، فلم تضحك الأخريات ، ولم تغضب عصمت أو تختلج فيها خلجة فهي تحس في تلك اللحظة أنها أفضل من مدرستها ، فقد نالت غرضها ، بينما أن مدرستها ما تزال بعد تنتظر ، وقالت لها إحداهن :

— هل كتب كتابك حقا ؟

فقال عصمت في بشر :

— نعم .

— ومن ستزوجين ؟

— من ابن خالى .

— وما يعمل ؟

— تاجر .

ودخلت الناظرة ، فاضطربت المدرسات قليلا ، وقالت إحداهن :

— هذه بنت في السنة الثانية كتب كتابها .

فابتسمت الناظرة ابتسامة باهتة وأثارتها النظر من تحت منظارها ، وبدأ عليها التفكير الحزين . وساد السكون لحظة ، شردت فيها أذهانهم جميعا ، فقد كن يقارن بين حظهن وحظ تلك الطفلة الصغيرة ، التى منحها الحظ منحة لا تقدرها ، وليس يضيرها لو أنها تأخرت سنوات ، بينما أنهم يقدرنها ويترقبها في رجاء ويأس ، ويخشين أن تنساب من أيديهن فييقين عوانس . نكأت عصمت جرح قلوبهن ، وأفافت الناظرة إلى نفسها ، وكانت أكثرهن كمدا ، فقد لاح في مفرقها شعر أبيض ، فقالت للفتاة :

— اخرجى يا شاطرة ، ومبروك .

وخرجت عصمت مرفوعة الرأس ، وانسحبت الناطرة ونفسها لم تصف بعد ، وخرج المدرسات إذ دق جرس الحصة الثالثة ، ومالت مدرسة على زميلتها وقالت :

— ما أسرع مرور الأيام . غدا تأتى إلينا عصمت وفي يدها ابتها لتلحقها بالمدرسة .

فلم تنبس الثانية بكلمة ، بل أطرقت تفكر فى هذه الحقيقة المرة ، فما أكثر الفتيات اللاتي تعلمهن ، وكانت تعلم أمهاتهن من قبل .

وحجز مختار ابنته فى البيت فركت المدرسة ، وأصبحت تقضى معظم النهار فى المطبخ ، ولكنها كانت تحس حنيناً إلى اللعب ، فكانت تلعب بالكرة فى صحن الدار ، وفى يوم وسوست لها نفسها أن تلعب فى الحارة ، فراحت تلعب مع أختها ، وانهمكت فى اللعب فنسيت أن ميعاد أوبة أبيها قد حان ، ورفعت رأسها فجأة فرأت أباهاً أمامها ، فصرخت مرعوبة ، وجرت إلى الداخل حتى إذا بلغت المطبخ ، انكفأت على وجهها .

وهرعت سكرينة إليها ، وحاولت أن تقيها من عثرتها ، ولكنها وجدتها ترتجف ، فحملتها ووضعتها فى فراشها ، ودخل مختار معبساً ، فلما علم ما انتاب ابنته انقبض صدره ، ولكنه أحس رضا فقد كان يسره أن يرى ابنته تخشاه كل هذه الخشية !

ومرضت عصمت ولزمت فراشها ، ووفد النسوة لعيادتها ، فكانت سكرينة تقص عليهن ما حدث ، فكن جميعاً يقلن لها :

— لقد فرغت ، اسقيها من « طاسة الحضة » .

فكانت سكرينة تبتسم ، وطال مرض عصمت فلم تعرضها على طبيب ،

ورأت أن لا مندوحة لها من اتباع مشورة النسوة ، فأرسلت تستعير طاسة من بيت من بيوت الأسرة ، وكانت الأسرة تملك طاسات « خضبة » من غير شك .

وأحضرت الطاسة ، وكانت من النحاس الأصفر ، صغيرة مستديرة ، يتصل بحافتها أربعون مفتاحا من النحاس بسلاسل دقيقة ؛ ووضعت فيها كما قيل لها سبع بلحات وسبع زبيبات ، ثم غمرت البلح والزبيب بالماء ، ووضعت الطاسة في الليل تحت الندى ، وكانت الليلة الجمعة ، فليس لهذه الوصفة مفعول إلا في الليلة المباركة .

وفي الفجر أخذت سكينه الطاسة وجرعتها عصمت ، ثم أطعمتها البلح والزبيب ، وراحت ترقبها ، فقد قيل لها إنها إذا ما تقيأت ما تناولته ، تقيأت الفرع معه ، أما إذا لم تفعل فعليها أن تعيد الكرة ثلاث جمع حتى يذهب الروح عنها .

٤٤

وأحست وردة انحرافا ، وارتفعت حرارتها قليلا فشعرت أمينة بقلق ، وتركت كل شيء وجلست بجوار ابنتها تمرضها وتلبى لها ما تطلبه ، ومريوم وازداد على وردة المرض ، وشحب لونها قليلا ، فأحست أمينة خوفا ، وأرادت أن تطمئن على ابنتها فبعثت تستدعى أم أحمد زنوبة .

وجاءت أم أحمد وجلست بجوار فراش المريضة ، وأخذت تقرأ الفاتحة لتستدعى الست وردة ، ثم تناءبت وغطت وجهها بطرحتها البيضاء ، فأخذت أمينة ترقبها وقد غشيها شيء من الرهبة ، فهي تنتظر الست

وردة ، لتستفسر منها عما تحبّه الأيام لابنتها الحبيبة .

وتحدثت أم أحمد بصوت متغير وقالت :

— صباح الخير !

فقالت أمينة وقد بان في نبرات صوتها قلق واضطراب :

— صباح الخير .

ولم تنتظر أم أحمد حتى تستفسر منها أمينة عن ابنتها فقالت لها في ثقة

وهدوء :

— اطمئني ، وردة بخير .

فقالت أمينة في لهفة :

— حقا ؟

— إنما ابنتي قبل أن تكون ابنتك .

— إلى أعتمد على الله وعليك .

— ثقى أنها بخير .

واطمأنت أمينة وأحست راحة ، فقد أكدت لها الست وردة أن ابنتها

بخير ، وما كان ليخفى على الست وردة شيء .

وراح الأولاد يممون شطر فراش أختهم كلما دخلوا الشقة ليطمئنوا

عليها ، فهم يحبونها ويخشون أن ينزل بها مكروه ، بعد إذ أصبحت بهجة

البيت ، ومبعث فرح الأم الذى يضيف على كل من فى الدار غبطة وانشراحا .

وأقبل حسن فى الظهيرة يتناول غداءه ، فاتجه إلى فراش وردة ، وجس

يدها فأحس ارتفاع حرارتها فانقبض ، ثم وضع يده على جبهتها فأحس نارا

تلسع قلبه . وأقبلت أمينة فالتفت إليها وقال :

— أرى أن نعرضها على طبيب .

— لا داعي لذلك فقد رأتها الست وردة وقالت إنها بخير .

— من الأفضل أن يراها طبيب .

— لا يا حسن ، لو رآها طبيب فقد يأخذها إلى « العفنة » .

فاضطرب ولم يدر ما يفعل ، وسيطر على البيت قلق ، ولكن تأكيد الست وردة أن لا خوف عليها كان ينزل على قلوبهم جميعا بردا وسلاما .

وزاد على الطفلة المرض ، فبعثت أمينة إلى الست أم أحمد زنوبة ثانية ، فجاءت على عجل ، وجلست بجوار المريضة تقرأ الفواتح حتى أقبلت الست وردة ، فقالت لها أمينة في لهفة مشوبة بحزع :

— بنتى .

ولم تستطع أن تتم جملتها فقد خنقتها عبراتها ، فقالت الست وردة في هدوء :

— اطمئنى وقولى يا رب .

— أخشى أن ...

ولم تخرج الكلمة من شفتيها ، فإنها لا تستطيع أن تنطق بها ، فقالت الست وردة :

— أوقدى نارا .

فذهبت أمينة إلى المطبخ توقد المجرمة ، وجاءت الجدة وجلست بجوار أم أحمد زنوبة ، ثم نظرت في وجه الطفلة الممددة في الفراش ، ومدت يدها وسوت لها شعرها الذهبى البسط وحدقت في عينيها فألفتهما مطبقتين ، ووجدتها تلتقط أنفاسها في جهد ، فغمغمت في حزن عميق :

— يا خسارة !

وأقبلت أمينة تحمل بمجرة كبيرة من الفخار وضعتها أمام الست وردة ،

فأخرجت هذه بحجرة صغيرة من النحاس وضعت بها جمرات ، ثم أخرجت حقا صغيرا فتحته وتناولت منه بعض البخور ووضعه فوق الجمرات ، فانبعث البخور وتصاعد في الجو ، وهمت أمانة أن توقف ابتها لتبخرها الست وردة ، ولكن هذه قالت لها :

— دعينا ، إني سأبخرها في فراشها .

وأخذت الست وردة تبخرها وهي تتمتع ببعض آيات القرآن ، وأمانة ترقبها فينقشع قلقها ويودا .

واقترب الأولاد من فراش أختهم ، وأخذوا يداعبونها ويحاولون إضحاكها ، ولكنها كانت في كرب شديد ، فالدفريا تخنقها وتكتم أنفاسها ، ولا يحس أحد بما تعانيه ، والتفت أسعد إليها وقال :

— سنذهب إلى السينا اليوم .. أتأتين معنا ؟

فهزت رأسها نفيا ، وقال لها مصطفى :

— سأشتري لك دمية كبيرة ، إذا نيمتها أغمضت عينها ، وإذا أوقفتها فتحتهما .

فهمست في صوت خفيض :

— متى ؟

فقال مصطفى في حماسة :

— الآن .

وهب منتصبا ، ولكنه تذكر أنه لا يملك ما يشتري به الدمية ؛ فلو كان يملك ثمنها لدفعه عن طيب خاطر ، ورأى أن يأخذ ثمنها من أمه ، فذهب إليها وقال :

— هاتي عشرين قرشا أشتري بها دمية لوردة .

فأعطته ما طلب ، فخرج يجد في السير ، يحس حرارة في صدره .
وجاءت الخياطة ومعها ثياب جديدة لوردة وأختها زكية لا ينقصها إلا
« الكلفة » ، فأخذت أمينة تعرض الثياب على وردة وتقول لها :
— انظري ثيابك الجميلة ، لا ينقصها إلا الأزرار وتثبت الكلفة .
والتفتت إلى الخياطة وقالت :

— ومتى تنتهي ؟

— بعد غد .

— بعد غد ترتدينها يا وردة ، انظري ما أحلاها ، إنها ستنتطق عليك .
فارتسمت على شفتي وردة ابتسامة باهتة .

وأخذ مصطفى يبحث عن دمية في الدكاكين القريبة ، فلم يجد إلا دمية
صغيرة أصغر مما كان يتمنى ، فاشتراها وأسرع إلى البيت ، وكان يفحصها في
الطريق بين وقت وآخر ليرى ما عسى أن تتركه من أثر في نفس وردة ، وبينما
كان يرنو إلى الدمية في إعجاب إذ اصطدم به رجل فقصف رقبتها ، فأكفهر
وجه مصطفى ، وأحس انقباضا ، ووقف كالمندهول لا يدري ما يفعل ، يرى
بعقله الصغير أن هذه الحادثة نذير شؤم ، وقفزت إلى خياله صورة أخته
مسجاة في فراشها ، فأحس لوعة ، وشعر بغصة في حلقه ، وبالدموع
تترقرق في عينيه .

سار مصطفى حزينا يفكر فيما يفعل ، فهو لا يريد أن يرجع بالدمية وقد
قصفت رقبتها ، فقد يغضب ذلك وردة ولكنه سيفزع أمه بلا شك ، فهو
يحس في قرارة نفسه أنها ستطير وتشاءم . وخطر له أن يذهب إلى نجار
ليصق الرقبة المقصوفة ، وساز يتلفت يمينا وشمالا حتى وقعت عيناه على
دكان نجار فسأله أن يلصقها . ولكن الرجل أخبره ألا فائدة من لصقها فإنها

لن تثبت طويلا ، فتوسل إليه أن يفعل ، فألصقها الرجل تحت إلفاحه ، ورفض أن يتقاضى أجرا .

وسار مصطفى محاذرا حتى بلغ الدار وهو يحاول أن يبدو مطمئنا . ولكن ذلك لم يكن سهلا ، فهو يخشى أن تتحقق أوهامه ، ولا تزال صورة الدمية وقد قصفت رقبتها تحت فكره .

ودفع مصطفى بالدمية إلى وردة فتناولتها بإهمال ، ولم تهش لها بل نظرت إليها بعينين ذابلتين ، ووضعها بجوارها ، وأخذ مصطفى ينقل عينيه بين أخته والدمية ، فأحس صدره ينقبض ، فقد كانت الدمية أكثر حيوية من وردة . وجاء الليل وثقلت عليها وطأة المرض ، وجلس الفتيان بجوار فراش أختهم صامتتين ، وقد ارتسم الحزن في وجوههم ، وراح حسن يرنو إلى ابنته رنوة إشفاق وعطف والألم يهصر قلبه ، وأسندت أمينة خدها بيدها وراحت الدموع تسح من عينيها ، وظل الجميع في وجوم ، واستمر السكوت مسيطرا إلى أن قالت أمينة في صوت متهدج :
— قوموا لتأكلوا .

فلم ينبس أحد بكلمة ، وظلوا في صمتهم الحزين ، ثم انسل الأولاد إلى فراشهم بأسرى الوجوه ، مطاطى العروس .

وانقضى الليل ولاح النور ، فهب مصطفى من نومه ، وأسرع ليرى وردة ، فألفاها تلتقط أنفاسها في جهد شديد ، فانقبض صدره ، ورأى الدمية بجوارها وقد فصلت الرأس عن الجسد ، فأحس رعدة تسرى في بدنه ، ومد يدا ترتجف وأخذ الدمية ، وخبأها في طيات ثيابه وانصرف فما كان يريد أن تقع عينا أمه عليها .

وأقبلت أمينة ونظرت إلى وردة ، فرأت منظرا أقسى من ذلك الذى خشى

مصطفى أن تقع عيناه عليه ، رأت أبتها الحبيبة تجود بأنفاسها الأخيرة وكانت
الدفترية تخنقها خنقا ، فانتابها فزع وهتفت في صوت رهيب :
— وردة .. حبيبتى .

وسرى الصوت الرهيب في الشقة بحمل اليأس والألم ، فجاء حسن يهرول
ونظر إلى ابنته فغام وجهه بسحاب من حزن ثقيل ، وهرع الأولاد إلى فراش
أختهم واجمين فزعين ، وصعدت الجدة تستفسر عن وردة فلما رأتها في النزاع
الأخير راحت تضرب كفا بكف وتتمتم في قنوط :
— يا خسارة .. يا خسارة .

وحشرجت الروح في الصدر الصغير ، وبان الألم في الوجه الذابل الحلو
الدقيق ، ورأت الجدة ما تعانيه الصغيرة من سكرات الموت ، فراحت تردد
في صوت يقطع نياط القلوب :
— اسم الله .. اسم الله يا حبيبتى .

ولفظت وردة النفس الأخير ، فصوتت أمينة صوتا نزل كالصاعقة على
الجميع ، فانهدت القلوب في الصدور ، وانسل حسن من الغرفة وهو واله
حزين يحس جفافا في حلقه ، ونارا تشوى كبده ، انطلق إلى غرفته يرتدى
ثيابه وهو يسح الدمع في صمته وألم . وارتفعت أصوات الأولاد بالنشيج
والنحيب ، وراح صوت الأم الثكلى يدوى في الحى يخلع القلوب . وجاء
النساء من كل صوب وحذب في ثياجهن السود ، فانتظمت مناحة تذيب أقسى
القلوب .

وما انقضت ساعة على موت وردة حتى كانت أم عباس الندابة تضرب
الدفوف وتعدد بصوتها القبيح فزيد النار لهبيا ، وتغتصب من العيون الجامدة
الدمع العصى ، وتحيل عينيها في النسوة فإذا رأت الدموع تنهمر غزيرة من

العيون ، أحست راحة ورضا ، فإن ذلك عنوان نجاحها وقدرتها .
وجعلت أمينة تصك خديها في ذهول ، وكانت تحس كأن سكيناً يمزق قلبها ، ونارا تشوى كبدها ، فلا تستطيع أن تكتم ما بها ، فتندب ابتها في سخط ومرارة ، ثم تذهب كالمأخوذة إلى حيث كانت تحفظ ثيابها فتأخذها وتمزقها ، وتذكرت أن ثياب وردة الجديدة عند الخياطة ، فذهبت إلى بنت أخيها وقالت لها :

— اذهبي إلى الخياطة ، وخذي منها الثياب الجديدة وألقي بها في القبر مع وردة ، فلن يلبسها أحد بعدها .

وقبرت وردة ، وقبرت معها ثيابها ، وانسل النسوة إلى دورهن ، وجاء الليل والأولاد في الشارع يكون لا يجرؤون على الدخول ، فإنهم يحسون فداحة المصائب ، وإنهم يقدررون ما سيتتاب أهمهم من غم إذا رأتهم داخلين وقد غابت وردة الحبيبة عن البيت .

وساد الظلام والأولاد واقفون بباب البيت ، وأخيرا انسلوا إلى شقتهم وقد طأطأوا أبصارهم ، ولما لحوا أهمهم تجلس في ثيابها السود على قطعة حصير سالت عبراتهم ونزل بهم هم ثقيل .

٤٥

وسيطر الحزن على البيت ، وراحت أمينة تصرف أموره في وجوم ، وارتنى الأولاد ثيابهم وانصرفوا إلى مدرستهم صامتين ، وجلس حسن على أريكة يبين في وجهه الحزن العميق ، فهو يحس اليوم فراغا فقد غابت عنه وردة ، وكانت تؤنس كل يوم في مثل ذلك الوقت ، وكان يداعبها ، ويتملى

في حسنها حتى تأتى أمها بصينية القهوة .
ودلفت أمينة إلى الحجرة في صمت ، ووضعت صينية القهوة أمام زوجها ، فأحس كأن إبرة تحز قلبه ، وكأن إسفنجة تجفف حلقه ، وقد صور له خياله وردة بجواره بشعرها الذهبى السط ، تبسم له . وحاول أن يتجلد ، فمد يده وتناول فنجان القهوة ورشف منه رشفة ، فكأنما يرشف صابا ، وقهره جزئه ، فأعاد الفئجان إلى الصينية وظل في صمته .

ومر الوقت بطيئا بغیضا ، فشر بضيق ، ولم يستطع أن ينتظر موعد خروجه ، فقام وارتدى ثيابه وخرج يفر من ذلك الجو الذى يكاد يخنقه . وجلست أمينة وحيدة تسح الدموع ، وتكفكفها بمنديلها الأبيض الصغير ذى الإطار الأسود ، إن نار الشكل تشوى جوفها ، فاستسلمت لأحزانها ، حتى شعرت بسخط وقنوط .

واستيقظت ابنتها زكية ، ونادت عليها لتأخذها من فراشها ، ولكن أمينة ظلت في وجومها ، وثارت عواطفها ، فذرفت الدمع السخين ، وارتفع صياح الطفلة ، وانقلب الصياح بكاء ، وظلت أمينة في جلستها الواجحة لا تحرك ساكنا ، وصلك بكاء الطفلة أذن الخادم العجوز ، فهرعت إلى الطفلة وحملتها ، وغسلت لها وجهها ثم عادت بها إلى أمها ، ولكن أمينة ازورت عنها وأشاحت بوجهها . كانت لا تود أن تحملها أو تراها ، فغمغمت في نبرات حزينة :

— اغرنى عن وجهى .

فقالت الخادم في استعطاف :

— وما ذنبها يا سيدتى ؟ أمر الله نفذ .

— خذنها بعيدا ، لا أريد أن أراها .



فقام وارتدى ثيابه وخرج يفر من ذلك الجو الذى يكاد يخنقه

— ربنا يصبرك ، ويغير خاطرك ، ويخلصك لك .

— اخرجني من هنا .

وخرجت الخادم العجوز تضم زكية إلى صدرها في حنان ، وتغمغم :
— الله يكون في عونك .

كانت أمينة غارقة في أحزانها ، وما كان عقلها يعكس إلا صور نفسها المكتئبة ، كانت لا تريد أن ترى ابنتها أو تحملها ، لأنها تراها ولدت للموت ، فلم تتعلق بها ؟ ليت قلبها يقسو عليها ، حتى إذا فقدتها لم تحس هذه اللوعة التي تحسها لفقد وردة .

ودق الباب دقات ، فأسرعت الخادم العجوز أم على وفتحته ، فوجدت أم أحمد زنوبة بجسمها الضاوي الضئيل فأفسحت لها الطريق ، فدخلت في ثبات ، وانطلقت إلى حيث كانت أمينة وقالت لها موامية :
— شدى حيلك .

فجرت دموع أمينة على خديها ، فقالت أم أحمد في عتاب :
— أنت مؤمنة ، وهذا أمر الله .

فنشجت أمينة بالبكاء ، حتى شرقت بدموعها فقالت أم أحمد :
— كفى يا بنتى كفى ، العوض على الله ، ربنا يطرح البركة في زكية .
وما إن سمعت اسم زكية حتى انقبض صدرها فهي تحشى ما يجبه لها الدهر ، فقد يكون ادخرها اليوم يمزق قلبها ويشوى كبدها فيه ، فباتت تخاف المستقبل وتبكي منه فرقا .

وغطت أم أحمد وجهها بطرحتها السوداء وانتفضت ثم أزاحت الطرحة وتكلمت الست وردة بصوت حزين :
— البقية في حياتك .

فقلت أمينة دون أن ترفع رأسها :

— حياتك الباقية .

— والله إن موتها حز في نفسي كما يحز في نفسك ، لقد كانت بنتي كما

كانت بنتك ، ولكن ما نفعل ليس لنا إلا الصبر .

— ألم تقولى لى إنها لن تموت ؟

— أشفقت عليك ، ولم أشأ أن أعذبك .

— وما الفائدة وأنا الآن فى النار ، لو أنك قلت لى لما فارقتها أبدا ، ولبقيت

بجوارها الساعات الباقية لها على الأرض ، لو أنك قلت لى ...

— كفى يا أمينة ، كفى وقولى يا رب .

وبكت أمينة فى صمت ، ثم قالت فى نبرات بتشككة :

— أكنت تعرفين ؟

فقلت الست وردة بصوت هادى يوحى بالثقة :

— كنت أعرف ، لذلك لم أشأ أن أتعبها آخر يوم بخيرتها فيه ، فلم أنهضها

من فراشها بل بخيرتها وهى راقدة .

— إن حزنى عليها لن يبلى أبدا .

— تشجعى ، العوض على الله .

واستأذنت الست وردة فى الانصراف ، فأذنت لها أمينة ، فغطت وجه أم

أحمد زنوبة بطرف الطرحة وانصرفت ، ثم تكلمت أم أحمد :

— من التى جاءت تعزيك ؟

— الست وردة .

فقلت معتذرة :

— كانت زهرة تريد المجيء هنى الأخرى ولكن أمها منعتها حتى لا تجدد

أحزانك .

فقال أمينة في صوت خافض حزين :

— كثر الله خيرها .

وصمتت أم أحمد زنوبة ، وأطرقت أمينة ، فساد بينهما صمت قاتل ،
فرأت أم أحمد أن تنسحب لتفر من هذا الجو الحزين المقبض ، فاعتذرت بأنها
مضطرة للانصراف .

وبقيت أمينة وحيدة ، منطوية على نفسها ، لا ترى بعين خيالها إلا وردة
وهي قائمة ، وردة وهي نائمة ، وردة وهي ضاحكة ، وردة وهي عابسة ،
وردة وهي مقبلة ، وردة وهي مدبرة ، فلم تستطع أن تستمر في تفكيرها
الصامت ، فانكفأت على الأريكة القريبة منها تبكى وتتحب .

وانتصف النهار ، وزكية مع أم على لم تر أمها ، وشاءت الطفلة أن تذهب
لترتمي في الأحضان التي اعتادت أن ترتمي فيها كل يوم فهتفت :
— ماما .. ماما .

فدق الصوت الرقيق باب قلب الأم الحزين ، فكاد أن يفتح ، ولكن أمينة
تذكرت الموت وقسوته ، فلن يدعها لها ، فلم تفتح لها قلبها ؟ ألتعلق بها ثم
تتلف يوما فلا تجدها فتضطرم النار بين ضلوعها ؟ ليتها تغلق قلبها دونها حتى
توفر على نفسها ذلك العذاب المرير ، والحزن الثقيل . وعاد الصوت الرقيق
يهتف : « ماما .. ماما » فمس أوتار قلب الأم برغمها ، وكادت تهب من
جلستها لتنتقل إلى ابنتها لتضمها إلى صدرها ، ولكنها كبنت عواطفها
جاهدة ، وظلت مكانها ، وأقبلت أم على تحمل الطفلة ، ثم وضعتها في حجر
أمها وانسلت . ورأت زكية أمها فبرقت أساريرها ، فأخذت تعث في
ذقنها ، ففتحت قلب الأم ، ومدت يدها وأخذت زكية وضمتها إليها في حنان
والدمع ينهمر من عينيها .

واقترب امتحان آخر السنة ، فراح التلاميذ يستذكرون دروسهم ، وأخذ أسعد وسليم يتأهبان لامتحان الشهادة الابتدائية ، أما مصطفى فلم يفعل شيئا ، وما كان يدرى أن عليه شيئا يفعله ، إنه كان يظن أن الصباح للدراسة وأن العصر للعب ، وما كان يجد غضاضة في أن يلعب في الصباح ، ولكنه كان يجد كل الغضاضة في أن يشرك مع اللعب شيئا آخر في العصر . كان أسعد مجدا ، وكان ثاني فصله ، أما سليم فكان كمصطفى لا يستذكر أبدا ولا يفتح كتابا مدرسيا ، وإن كان مشغوبا بالكتب الأخرى ، يشتريها من مكتبات الأزهر ، وينكب على قراءتها في لذة ، دون أن يعبا باقتراب الامتحان ودنوه .

وفي يوم التفت مدرس الحساب إلى أسعد وقال له :
— قل لأبيك ألا يدفع رسوم الامتحان لسليم ، فدفعها حرام ، فهو لن ينجح ، وأبوك إنما يلقي بماله في الأرض .

وتضايق سليم من ذلك القول ، واحمر وجهه وأحس خزيا ، ولكنه ما كان يجب أن يجهه المدرس بهذه الحقيقة الأليمة .

وعاد الأولاد إلى البيت ، فأخذ أسعد في استذكار دروسه ، وهبط سليم ومصطفى إلى الشارع يلعبان . وأقبل أبوهم في المساء ، فلم يستطع أسعد أن يكتم ما قاله له المدرس ، فاقترب من أبيه وقال :

— لأنهم يطلبون رسوم الامتحان .

— خذها غدا .

(في قافلة الزمان)

— لا داعى لأن تدفع لسليم .

— له ؟

— قال مدرس الحساب إنه لن ينجح . وإنك تلقى بمالك فى الأرض .

— لا بأس .

فقال سليم :

— لا ضرر من دفع الرسوم ، فإذا كنت سأرسل هذه السنة ، فإنى على الأقل سألم بنظم اللجان ، فإذا ما دخلت الامتحان فى السنة القادمة لا أحس للجنة رهبة .

فابتسم حسن وقال فى إيمان :

— من يدري ؟

وامتحان مصطفى ، وانتهى امتحانه ، وراح أسعد يستذكر فى حماسة ، فلم يبق على الامتحان إلا أيام . وهبط مصطفى يلعب فى طلاقة فقد انقضى شبح المدرسة البغيض الذى طالما كدر صفوه فى ساعات لهوه .

ورأى صديقا من أصدقائه فهمس له :

— ما رأيك فى أن نذهب إلى ترعة غمرة لنصطاد ؟

فأعجبت الفكرة الصبى ، فوافق عليها ، وانطلقا فى سرور يقطعان الشارع المزدحم بالسيارات فى أمان ، ورأيا أن الطريق المطروق الموصل إلى الترعة طويل ، وشاء أن يختصرا الطريق ، فانسلا من بين قضبان الحديد التى تفصل الطريق عن قضبان القاطرات السريعة ، وأخذوا يجتازان قضبان السكك الحديدية فى طيش ، ولو أن الجدة رأتهما فى هذه اللحظة ، لصوت ولسقطت مغشيا عليها من الرعب .

وأخيرا بلغا الترعة فى سلام ، فوقفا على شاطئها ينظران ويفكران فيما .

يفعلان ليصطادا ، وما جاءا بشخص ولا غاب ، ورأى مصطفى صبيا يصطاد بزجاجة كسر عنقها فبرقت أساريه ، فإنه يستطيع أن يفعل مثله . وراح هو وصاحبه يبحثان عن حطام زجاجة هنا وهناك حتى عثرا عليه ، فخلع مصطفى حذاءه ، وغاص في الماء وشمّر جلبابه ، وأخذ يضرب الزجاجة في الماء ويرفعها ، ثم ينظر فيها فلا يجد شيئا .

وقعت عيناه على صفيحة أشبه بمصفاة ، فألقى الزجاجة وتناول الصفيحة وأخذ يملؤها بالماء ويرفعها ، فيتسرب الماء من الثقوب ويبقى ما عداه ، وتمكن مصطفى بذلك أن يصطاد بضع سمكات ، فبان الفرخ في وجهه ، وأخذ يهتف ويصيح في سرور ، ونال السمك لصاحبه ، وهم بالخروج ، فانزلت قدمه ، وكاد يهوى في الماء ، ولكنه حافظ على توازنه سريعا وضحك يدارى خوفه ، ثم خرج وجفف رجليه في جلبابه ولبس حذاءه . ورأى مصطفى وصاحبه أن يأكلا السمك قبل أن يعودا ، فنظفاه ، وجمعا بعض الورق والأغصان الجافة ، وكانا في حاجة إلى عود ثقاب يوقدان به النار ، فطلب مصطفى من صاحبه أن يلتمس عودا من أحد المارة ، فقد كان يخجل أن يطلب شيئا من أحد يعرفه أو لا يعرفه .

وقام صاحبه يسأل هذا وذاك عود ثقاب ومصطفى يرقبه ، وكان كلما اعتذر رجل وانصرف صاحبه إلى آخر ، أحس خجلا على البعد ، فيطأطيأ رأسه ، ويتورد وجهه ، ويحس كأنما يود أن تبتلعه الأرض . وأخيرا عاد صاحبه يهرول في سرور ، فقد تفضل عليه رجل يعود ثقاب ، وأشعل الولدان العود في حذر . ولما قويت النار وضعوا السمك فيها ، وارتفعت رائحة الشواء فدأبت أنفيهما ، وتحلب ريقهما ، حتى إذا تم شئ السمك ، أخذوا يأكلانه في لذة وسرور .

وشبعا وهما بالعودة ، ولكن لِمَ يعودان وقد أكلا ؟ فهما سيلعبان عصرا في الأرض القريبة من التربة ، فلينتظرا حتى العصر ثم يذهبا إلى ملعب الكرة ، حتى إذا انتهى اللعب عادا إلى البيت مرة واحدة !
وبقيا على شاطئ التربة يلعبان ، لا يفكران في أهلها ، وما ضرورة التفكير فيهم ما داما قد شبعا وملا بطنيهما ؟ ومر الوقت وتقهقرت الشمس عن موقعها في سمت السماء نحو الغرب ، فنهضا إلى الملعب يشاركان الأولاد في لعبهم . وغاصت الشمس في الأفق البعيد ، فعاد مصطفى وصاحبه إلى الحى منهوكين محطمين .

واقرب مصطفى من الدار فأحس انقباضا ، وأخذ قلبه يدق في صدره ، فلقد تذكر أمه ، فلن تغفر له أبدا غيابه عن الدار النهار بطوله .
ولمح سليم وأسعد والأولاد مصطفى وصاحبه قادمين فهرعوا إليهما ، وأخذوا يسألونها أين كانوا ، فإنهم قد بحثوا عنهما في كل مكان ، وعلم مصطفى أن أمه في قلق عليه من الظهر فأحس غما ، إنه يعلم أنه سيدفع ثمن ذلك القلق مضاعفا ، وصعد في الدرج مطأطئا صامتا ، وصعد صاحبه معه ليرى ما ستفعل أمه فيه ، وما إن وقعت عينا أمينة عليه حتى صاحت في حقن .
— أين كنت ؟

فلم ينس بكلمة ، وقال صاحبه :

— كنا في ترعة غمرة ، وقد كاد يغرق لولا أنني انتشلته .

فتالك الغضب الأم ، فهجمت على ابنها وأخذت تضربه في قسوة ، ولما رأى صاحبه ما حل به ، هرب فرقا .

وأخذت أمينة في سورة الغضب تعجنه بيديها ورجليها ، وهرع من في الدار لتخليص الولد منها دون جدوى ، وأخذت تصيح :

— إننى أفضل أن تموت هنا بيدى على أن تموت غريقا .
وعلى الرغم من الآلام المبرحة التى كان يحسها ، فقد أحس فى نفسه ألما ،
فما كان يظن أن يفترى الصديق على صديقه مثل هذه القرية !
ونمكنوا من تخليصه من يدها ، ولكنها عاودت الهجوم عليه . ففر منها ولم
يجد أمامه إلا الشرفة ، فأراد أن يقفز منها . فخفوا جميعا إليه . وقبضوا عليه
وهو يتسلقها ، ثم راحوا يضربونه جميعا على ذلك الخاطر الجنونى .
ودخلت أمينة حجرة بعيدة تتظاهر بأنها تجهز شيئا ، ومسحت الدموع
التي بللت عينها .

وعاد حسن إلى البيت ، وعلم بما جرى فاستاء ، فهو لا يعترف بالضرب
وسيلة من وسائل التقويم ، ويفضل الزجر الخفيف والنصح الهادئ ، ويعتمد
فى التربية على القدوة الصالحة . دخل إلى حيث ينام مصطفى فألفاه ينتحب فى
صمت . فتكدر ، وأراد أن يترضاه فاقترب منه وقال :
— قم يا مصطفى نأكل معا .

ولكن الغلام استمر فى بكائه ، فهو لا يستطيع أن ينهض بعد كل ذلك
الضرب الشديد ، وانسل حسن من الغرفة ، وجلس وأمينة وحيدين ،
فعاتبها على قسوتها ، وقال لها :
— إن الضرب لا يرى أبدا .
وإن تكن أمينة قد ندمت فى نفسها على قسوتها إلا أنها لم تشأ أن تعترف
بندمها ، فقالت فى استكبار :

— إن لينك هو الذى أفسده !

— إنه لم يفسد ، ولكنه فى طو الطفولة يلعب كما يلعب الأولاد ، فإذا
أخطأ أرشديه فى رفق إلى الصواب .

— إنه ليس كالأولاد ، إنه عجن بماء العفاريت .

وتذكر حسن أن الشباك القريب من سرير مصطفى مفتوح ، فخشى أن يلقى بنفسه منه ، فقام يهرول إلى غرفة مصطفى ، وأسرع إلى الشباك يغلقه في عناية ، ووقفت أمينة على باب الغرفة ترقبه ، وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة استخفاف ولما عاد إليها غمغمت :

— ما أخف قلبك !

ولم ينم حسن في تلك الليلة نوما هادئا ، فقد كان يقوم بين آن وآن من فراشه ويذهب ليطمئن على مصطفى .

ومرت الأيام وانقضى الامتحان ، وظهرت نتيجة الابتدائية ، ثم تقابل أسعد ومدرس الحساب الذى نصح بألا تدفع الرسوم لسليم فسأله :

— ماذا فعلتم في الامتحان ؟

فقال أسعد فى انكسار :

— نجح واحد ، ورسم واحد .

فقال المدرس :

— ألم أقل لك ؟ إن سليما لا ينجح أبدا .

فقال أسعد فى صوت مضطرب :

— ولكنه هو الذى نجح ، ورسمت أنا .

فأخذ المدرس يضرب كفا بكف ، وسأل :

— وفيم رسمت أنت ؟

— فى الحساب .

جاء الليل وتعشى حسن وأولاده ، ثم هبطوا جميعا إلى شقة الجدة يتسامرون ، ودار الحديث فقال حسن إنه يريد أن يشتري أرضا يشيد عليها دارا كبيرة ينقلون إليها ، فراح كل من الأولاد يشير بجهة ، ذكر أسعد وسليم جهة قرية من السيما ، فقد كانت أمنيتهما في الحياة أن يقطنا بجوار سينما ، وذكر مصطفى جهة قرية من الأرض الفضاء التي يلعب فيها البكرة ، فهو يريد ألا يتجشم تعب الطريق الذى يتحمله فى الذهاب والإياب ، وهو يحب أن يسكن بيتا يطل على الملعب ، حتى إذا لمح أولادا يلعبون هبط إليهم يشاركهم فى لعبهم . أما ممدوح فلم يشر بجهة معينة ، فهو يريد أن يتم الشراء والبناء سريعا ، إذ يعلم أن ذلك التفكير إنما هو من أجله ، وأن أباه إنما يريد أن يجهز له الشقة التى يتزوج فيها ، وما كان حسن ممن يذع ابنا من أبنائه يعيش بعيدا عنه ، فهو يحبهم جميعا ولا يطيق فراقهم .

وقالت الجدة إنها لا توافق على الجهات البعيدة التى ذكرها الأولاد ، فلن تترك هذا الحى أبدا ، فهو قريب من المقابر ، وهى تزور المقابر كل أسبوع ، فكيف يفكرون فى أن يعدوها عن المقابر ، أيريدون أن يحرموها زيارتها ؟! إنها لا تستطيع أن تتصور للحياة قيمة إذا خلت من زيارة القبور . إن ابنين من أبنائها الأعزاء يرقدان هناك ، وإن زوجها يرقد بجوارهما ، وإنها لتنتظر يوم الخميس لتخف لزيارة الأحبة الراقدين تحت التراب . إن صفة الجدة المميزة هى الوفاء للأموات ، والوفاء للأحياء إكراما للأموات .

وقرر حسن أن يشتري أرضا فى نفس الحى الذى يقطنونه ، فهو قريب من

دكانه ، وفي ذلك إرضاء لأمه .

ودخل ممدوح وأسعد إلى فراشهما ، وكانا ينامان مع جدتهما ، وصعد سليم ومصطفى إلى السطح فقد كانا يشاركان أم على الخادم المعجوز حجرتها في الصيف .

كانت أم على جالسة في فراشها تقزقزلبا ، وتلفظ القشر من فمها فيقع على صدرها ويتشر كعقد نضيد ، حتى إذا فرغ اللب تناولت (كثيرة وأبا كبير) وبعض عطارة أخرى للسمنة فهي تذكر أيام شبابها في حسرة إذ كانت مكنتزة باللحم والشحم ، وهي تمنى أن تعيد شحمها الذي أذا به السنون . ومدت يدها وأخذت فنجانا به غسل أسود وغمست أصبعها فيه وجعلت تمرره على جفنها الملتهب ثم غمض عينيها وتفتحهما في تعاقب حتى يدخل العسل في عينيها المضعضعتين ، وكانت هذه إحدى وسيلتيها في معالجة عينيها ، أما الوسيلة الأخرى فكانت أن تعصر فيهما بصلة !

وتحدت في فراشها ، وأخذت أصوات معينة تبلغ آذان الولدين في دوى مجلجل فيشمئزان منها ، وعبق جو الغرفة برائحة كريهة ، فلم يستطع الولدان صبرا ، فنهضا وحملتا حشيتيهما بينهما وخرجا من الغرفة ، وأحست أم على بهما فصاحت فيهما :

— إلى أين ؟

فهتف سليم :

— إلى السطح ، الدنيا هنا حر .

وهمس مصطفى :

— نفر من الغازات السامة .

ولاحت تباشير الصباح ، واستيقظ الولدان ، ولكنهما ظلّا في فراشهما

يستقبلان مولد النهار ، وداعبت زقزقة العصافير آذانهما ، فأحسا نشوة وانتعاشا ، وشعر سليم بذهنه صافيا رائقا ، فأخذ يفكر فى هدوء ، فألقى نفسه يترنم بأبيات من الزجل ، لقد حاول أن ينظم قبل النوم ولكنه كان يحس تعباً ، أما اليوم فهو ينظم فى يسر .

ولاح فى وجهه الرضا ، وخطر له أن يصدر مجلة يحررها هو وأسعد . ويصورها صديقهما فريد ، فهو يجيد الرسم حتى إن مدرس الرسم بالمدرسة كان يضع اسمه الكريم على اللوحات التى يرسمها ويعلقها فى فناء المدرسة مزهوا ، ولورأى بسمات الهزء التى ترسم على شفاة الأطفال الخبيثاء لحطمها تحطيمًا .

واسترسل سليم فى تفكيره ، فخطرت له فكرة قصة ، فأخذ يلفق حوادثها لتكون مثيرة كمثل القصص التى يراها فى السينما ، وما كان يدرى أن هناك قصصا مصرية ، وما كان يحسب أن فى مقدوره أن يجعل حسنا أو محمدا أو عليا أو زيدا أو عمرا بطلا لقصته بل كان يعتقد أن لابد أن يكون البطل أجنبيا لتكون القصة قصة ؛ وكان معذورا فقد كانت جميع الروايات التى يقرأها مترجمة ، يحمل أبطالها أسماء أعجمية ، فراح يفكر فى اسم أعجمى رنان ليطل قصته .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى ، فترك سليم ومصطفى فراشهما وهبطا إلى شقتهم فألفيا أسعد جالسا ، فقال له سليم فى نشوة :

— سأصدر مجلة .

فقال أسعد فى هدوء :

— راودتنى هذه الفكرة ، ولكنى وجدت إنفاذا صعبا .

فقال سليم فى إيمان :

— سأصدرها اليوم .

فايتسم أسعد ابتسامة هزء وقال :

— محال .

— ما أيسر ذلك ، فالمواد موجودة ، وفريد موجود ، والورق موجود ، ولا ينقصنى إلا الخبر الزفر والبالوظة ، وسأشتريهما الآن .

— وما تسميها ؟

فقال سليم فى فرح :

— نهضة الأشبال .

وتناول سليم طعام الإفطار على عجل ، وهبط مسرعا ليتمكن من إصدار العدد الأول قبل انقضاء النهار .

وهبطت أم على ترتب الشقة ، واستيقظت زكية ونادت عليها ، فهرعت إليها وحملتها فى حنان ، ثم غسلت لها وجهها ، وبدلا من أن ترحل لها شعرها شوشته ، وأدامت النظر فى وجه الطفلة فأحست وجلا ، إن زكية يبيضاء البشرة ، وهى تخشى أن تصيبها عين ، فخطر لها أن تلمخ وجهها بالتراب لتخفى ذلك البياض ، ولم تحجم عن إنفاذ فكرتها ، فأخذت قليلا من التراب ولونت به وجهها.

وذهبت زكية إلى أمها ، فلما رأت وجهها المعفر بالتراب استاءت وهتفت فى حنق :

— ما هذا يا أم على ؟

— بالله دعيتها يا سيدى .

— لم فعلت ذلك ؟

— عيون الناس ، اللهم اكفنا شر العيون .

فغمغمت أمينة في ضيق :

— خرف .

ثم حملت زكية ونهضت لتغسل لها وجهها ، ولما بلغت الحوض كانت نفسها قد صفت ، وخيل إليها أن كلمات أم على ترن في أذنيها : « عيون الناس ، اللهم اكفنا شر العيون » فكادت تدع الطفلة دون أن تغسل لها وجهها ، ولكنها خشيت أن تظهر أمام أم على بمظهر الضعف ، فأزالت التراب عن وجه زكية ورجلت لها شعرها ، وشاءت أن تطمئن نفسها فقالت :

— الأعمار بيد الله

وانتهى سليم من كتابة القصة والزجل ، وانتهى أسعد من جمع بعض الحكم والمعلومات ، وانتهى مصطفى من الإنصات إلى القصة والزجل والحكم والمعلومات . ثم حملوا الأوراق والخبر الزفر والبالوظة وأصول المجلة وهبطوا تداعبهم آمال وأحلام .

جلس فريد على عتبة الباب يكتب بخطه الجميل « نهضة الأشبال » وجعل الأولاد يرقبونه في زهو وإعجاب ، وأخذ يكتب المقالات ويرسم الصور والأولاد من حوله يتمنون أن يغمضوا عيونهم ويفتحوها فيجدوا المجلة انتهت ، ومر الوقت وقاربت الشمس للمغيب ، والأولاد بين اليأس والرجاء ، واستمر فريد في عمله ، ولم تبق إلا الصفحة الأخيرة ، فأخذ يكتبها على عجل قبل أن يهجم الظلام .

وانتهت المجلة ، وطبع منها خمس نسخ ، وزع منها ثلاث على ثلاثة أولاد من أحياء مختلفة ليطلع عليها أبناء أحيائهم ، واحتفظ سليم بنسختين وقد امتلأ نشوة وسرورا .

واشتري حسن أرضاً فضاء لا تبعد عن دارهم إلا أمثارا ، واتفق مع مهندس على أن يقدم له رسم الدار الجديدة ، ولم تمض إلا أيام حتى جاء المهندس يحمل أوراقا مطوية . كان المهندس يرتدى جلبابا أزرق ، وعمامة يعلوها التراب ، هى عنوان الهندسة والبناء .

وقابل حسن الرجل وتناول الرسم وجعل يفحصه والأولاد يلتفون حوله ، يتطلعون إلى الورقة الزرقاء التى بانت بها حدود الغرف فى إعجاب ، ورأى سليم فى الناحية الشمالية فضاء فسأل :

— أهذا الفضاء لنا ؟

فقال حسن :

— أجل .

فقال سليم :

— ولم كل هذا الفضاء ؟

فقال المعلم المهندس :

— لكى لا يحبس الهواء البحرى عن الشقق .

والتفت فى ذهن سليم فكرة فقال :

— ولم لا نبني سلاملك فيه ؟

فقال المعلم المهندس :

— لا ضرورة لذلك .

وأعجبت الفكرة أسعد فقال :

— بل لابد من بناء السلامك ، إذ فيه تستقبل الضيوف بدل أن يخوضوا في الحريم .

وقال سليم فدإصرار :

— إن السلامك ضرورى ، ولن يحبس الهواء عن الشفق .

ورأى حسن تشبث الأولاد بالسلامك فقال :

— لا بأس ، ابن لهم ما يريدون .

وتناول المعلم المهندس قلما ورسم حدود السلامك على الورق ، وطلب من سليم أن يكتب الأبعاد ، فقد كان المعلم المهندس لا يعرف الكتابة .

وفى يوم قفل أسعد عائدا إلى البيت فلمح صديقه فريد يتشاجر وغلامين فلم يخطر على باله أن يفض النزاع بالحسنى ، بل ألقى دمه بفور ، وانضم إلى صديقه فى قتاله ، فقد كان يرى أن ينصر صديقه ظالما أو مظلوما ، وتمزق جلبابه ، وأقبل الناس وفرقوا بينهم .

وانتهى الشجار ، وأقبل أسعد على صديقه يسأله عن سببه ، لقد كان سببا تافها لا يستحق تمزيق الثياب ، ومع ذلك لم يندم ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه أنه قام بالواجب عليه .

وفكر أسعد فى طريقة يتخلص بها من جلبابه الممزق ، فخطر له أن يستعين بمصطفى فناده ، ودخلا إلى الشقة الأرضية وقال له :

— أحضر لى إبرة وخيطا .

— لماذا ؟

— تمزق جلبابى .

— اخلعه وأنا أبده لك .

وأعجبت الفكرة أسعد ، فقد كان لا يجيد رتق القطع ، فخلع الجلباب

ودفع به إلى مصطفى ، فأخذه ولفه جيدا وخبأه تحت إبطه ، وراح يصعد في الدرج عدوا حتى بلغ الشقة فانسل في خفة ، ودس الجلباب في الملابس القذرة ، وفتح الصوان على حذر وأخرج جلبابا نظيفا لأسعد ، وعاد من حيث أتى دون أن يشعر به أحد .

واطمأن أسعد فلن تفتن أمه إلى مشاجرتة ، وراح يلعب مع الأولاد فأحس عطشا ، فشاء أن يشرب فطلب من مصطفى أن يحضر له قلة ، فصعد مصطفى ثانية إلى الطابق الرابع وأحضر له قلة وهبط ، وما بلغ الحارة حتى أسرع الأولاد إليه وجعلوا يجرعون الماء حتى فرغت القلة وما شربوا كلهم ، وأخذ مصطفى القلة وقد لوثتها الأيدي القذرة ، فأحس رهبة ، فلو أن أمه رآته وهو يعيدها بهذه القذارة لثارت في وجهه ولضربته .

ورأى أسعد أن الأولاد لم يشربوا جميعا فصاح في مصطفى :
— اصعد وأحضر قلة أخرى .

وما إن صك الصوت أذن مصطفى حتى فزع ، إن أسعد يأمر وينهى وهو جالس على قاعدة شباك وطىء في الحارة لا يهمنه إلا أن تطاع أوامره ، فهو لا يفكر فيما يتبع تنفيذ هذه الأوامر من أذى ، ولم يفكر ما دام الأذى لا يقع عليه ! إن أمه ستغضب لتلوث القلل ، وإنها ستصعب جام غضبها على مصطفى الذي عجن بماء العفاريت ، أما أسعد فلن يصيبه شيء .

وبقى مصطفى واقفا لا يتحرك ، فهو يخشى أن يصعد بالقلة القذرة ، ورآه أسعد في وجومه فصاح فيه :
— قلت لك هات القلة حالا .

فشاء مصطفى أن يعتذر ، إنه لا يريد أن يذكر السبب الحقيقي الذي يجعله يحجم عن تنفيذ الأمر ، قال :

— إنى قد تعبت ، لن أعود إلى الطابق الرابع لأحضر قلة ثم أعود ثانية لأعيدها .

فغضب أسعد فما كان يظن أن يعترض مصطفى وهو أطوع له من بنانه ، فصاح فى ثورة :

— امش وهات قلة حالا .

— سأعود ولن أعود .

فهب أسعد من جلسته ، وصرع مصطفى وركله ، فسار مصطفى مطأطأ يكظم غيظه ، فلولا أنه يخشى ألا يستصحبه أسعد إلى السينا ، وإلى ملعب الكرة لكسر القلة على رأسه .

* * *

وتم بناء الطابق الأول ، فحملت أناجر الثريد من البيت القديم إلى البيت الجديد ، وأخذ الفعلة والبناعون يأكلون ويتصاحكون ، ووقف المهندس يمينهم بأكلة دسمة مثلها لما يتم الطابق الثانى .

ومالت الشمس للغروب وانصرف العمال ، وأقبل حسن وبعض أصحابه وراحوا يجوسون خلال الغرف يشاهدون الشقق الجديدة ، وكان حسن يتمم ببعض آى الذكر الحكيم فى خشوع ، ثم حان وقت صلاة المغرب ، فأذن أحدهم فى صوت مجلجل ، واصطفوا جميعا يصلون ، فقد كان حسن يحب أن يذكر اسم الله أول ما يذكر فى البيت الجديد .

وبعث أمانة بأناجر الثريد إلى الضيوف ، وانطلق الأولاد يشاركون الزوار فى الطعام ، ووضعت الأناجر على الحصر ، والتف الجميع حولها وأخذوا يأكلون ويتحدثون ، فقال أحدهم وهو يدفع المعلقة فى الثريد :

— فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على ...

ولم يتبين الجالسون الكلمة الأخيرة ، فإن الملعقة كانت قد بلغت فم المتحدث وملأته بالتريد ، فابتسم حسن وضحك الآخرون .

٤٩

زكية الكبرى محطمة النفس ، كسيرة القلب ، فقد مرت السنون ولم تحمل كما منتها الست وردة ، وها هو ذا زوجها يمرض من إدمان الخمر ، ويصاب بشلل خفيف . وهى تحس فى قرارة نفسها أن عذابها سيطول . وأصبحت أم أحمد زنوبة تلازمها ليل نهار تؤنسها فى وحدتها ، وتحدثها أحاديث لطيفة ، وتقص عليها ذكريات بعيدة ، فتقصر عليها ساعات النهار الطويلة .

كانت أم أحمد تحب زكية وتعطف عليها ، وكانت تحاول جاهدة أن تروح عنها ، وأن تهدئ من نفسها القلقة . وكانت إذا أحست فشلها أفسحت الطريق للست وردة تفعل الأعاجيب ، فتعيد إلى النفس المضطربة هدوءها ، وإلى القلب الواجف طمأنينته .

وفى يوم جلست زكية على حشية صغيرة بالقرب من الأريكة التى تمدد عليها زوجها وأخذت تطرد الذباب عن وجهه بمنديلها ، وفتح الرجل عينيه فألفاها ساهرة عليه ، فبان فى وجهه الرضا ، ولما رأيته استيقظ قالت فى حنان :

— تأكل ؟

فهز رأسه موافقا ، فقامت وعادت تحمل صينية صغيرة عليها سلطانية حساء وأرنب مسلوقة ، وأخذت تطعمه بيدها ، وتغمره بعطفها .

وشعر الرجل بعطفها السابغ ، ومس حنانها أوتار قلبه فأراد أن يترجم عما يحس نحوها من امتنان ، فقال :

— أحببتك يا زكية ، ولم أصغ إلى من حاولوا أن يعبدوك عنى ، قالوا لى تزوج غيرها لتعقب ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، فما كنت أطيق أن أعمل ما يكدرك ، وكان يكفينى من الدنيا أن تكونى معى .

وصمت الرجل وصمتت زكية ، وإن كانت تود أن تستفسر عمن حاولوا أن يعبدوه عنها . هى تعلم أن الرجل أصبح خطاما ، ولكنها أحست لكلامه لذعا ، فلو أنها أنجبت لما قالوا له دعها وتزوج من غيرها ، ولم تستطع زكية أن تكتم ما بها ، فهمت أن تسأله عمن أشار عليه أن يتزوج من غيرها ولكن الرجل استأنف كلامه :

— والله يا زكية إنى أخاف عليك بعدى ، إن أخى لا يحب النساء ، ولا يعتقد أن لهن حقا ، أما ما أخشاه ألا يعطيك حقلك بعد موتى .

واغتاظت زكية ولكنها أرادت أن تدارى ما بها ، فقالت فى صوت حاولت أن يوحى بالثقة والطمأنينة :

— بعد الشر عنك ، غدا تبرأ .

فقال الرجل فى يأس :

— لا أظن ، إن يومى قد قرب .

وساد الصمت ثانية ، وشخص الرجل بصره إلى سقف الحجرة ، وبان

فى وجه زكية الأسى العميق ، ثم قال الرجل فى عزم :

— إن حجج البيوت والأراضى عندى ، نخبتها وأعطيها حسنا .

فقالت زكية فى خوف :

— لا .. لا .

— خذنيها خير لك ، قبل أن يستولى عليها أخى .

فقلت زكية فى إصرار :

— غدا تبرأ . إنك بخير ..

وصمت الرجل على مضض .

وفى يوم أقبل حسن لعيادة زوج أخته ، وأخذ هو والرجل يتجاذبان أطراف الحديث ، وتذكر الرجل فجأة أمر الحجج ، فقال لحسن :

— عندى حجج البيوت والأراضى خذها عندك ، فإذا شفيت استعديتها منك ، أما إذا مت ..

فقاطعه حسن :

— لا قدر الله .

فقال الرجل فى يأس :

— إني يا حسن سأموت ، فحرام أن يضيع حق أختك .

وأحسن حسن كأن يدا قوية تمصر قلبه ، فقد حرك منظر الرجل اليأس عواطفه الرقيقة ، فقال :

— لا تفكر فى هذا ، وفكر فى نفسك ، إن شفائك بالدنيا .

— طاو عنى يا حسن ، وخذ الحجج .

— لا . دعه عندك .

فتطلع الرجل إلى السماء وقال فى إيمان :

— اللهم اشهد ، إني لم أظلمها .

ومرت أيام تتبعها شهور ، وساءت حال الرجل ، فلم يعد يستطيع أن يتحرك أو يتكلم ، واستمرت زكية تبالغ فى تمرضه والعناية به ، وفى يوم أقبل أخوه ، ولما رأى سوء حاله دخل ينقب عن الحجج حتى عثر عليها فاطمأنت

نفسه ، وانطلق إلى الباب لا يلوى على شيء .

ورأى الرجل أخاه يخرج ويدس الحجج في جيبه ، فبان في وجهه الغضب وحاول أن يصيح ، ولكن لسانه كان ثقيلا في حلقه ، لا يدور ولا ينطق ولا يهمس ، وصعد الدم إلى رأسه ، ونظر إلى زكية في بأس فألفاها أطرقت ، لقد فهمت كل شيء ، فهمت أن أخاه سلبها حقها وقضى الأمر ، وتطلع الرجل إلى السماء في غيظ ، وبان في وجهه الأسى المرير ، ورأت زكية الثورة في وجه زوجها ، فريت عليه وقالت :

— لا تحزن ، منه الله .

وكأنما أشفق النوم على الرجل ، فمس بأنامله الرقيقة جفنيه فراح في سبات ، وبقيت زكية وحدها ، وأخذت الذكريات تتوافد عليها وهي مطرقة في جلستها ، فتذكرت حلمها إذ رأت نفسها في ثياب سود يوم زفافها ، فازداد انقباضها ، كانت تتمنى الولد ولكنها لم تنجب ، وها هو ذا رجلها عما قريب يولى ، إنها منكودة .. ولم تستطع أن تحمل حزنها ، فأجهشت بالبكاء .

٥٠

وتم بناء الدار الجديدة ، وراحوا يتأهبون للانتقال إليها ، فأخذوا يجمعون الأشياء القابلة للكسر في سلال ، ورأى مصطفى زجاجة مصباح ، فأخذها وكسرها ، فرفعت أمينة رأسها وقالت :

— ما هذا ؟

فقال مصطفى في عدم اكتراث :

— زجاجة مصباح .

— ولم كسرتها ؟

— لا لزوم لها هناك ، فسننير بالكهرباء .

فابتسمت أمينة ابتسامة خفيفة وقالت :

— أنت قرد .

وجلس أسعد وسليم يفكران في تأثيث السلامك ، ويجعلان أعينهما في المكان يبحثان عن أشياء يأخذانها ، ورأى سليم مرآة كبيرة فقال :

— نأخذ هذه المرأة .

وقال أسعد :

— ونأخذ أريكتين وهذه الكراسي .

ولما قرأتهما على الأشياء التي سيأخذانها ، انطلقا إلى أمهما فألفياها تصر الثياب فراحا يفاوضانها على ما سيستوليان عليه .

وانتقلوا إلى الدار الجديدة ، فاحتل الأولاد ورفاقهم السلامك بالنهار وراحوا يلعبون النرد والشطرنج ، وأقبل النسوة يهتنن نفيسة وأمينة بالمنزل الجديد ويتمنين لهما أن يجعله الله منزلا مباركا ، وهن يدرن بعيونهن في المكان ، وما من امرأة منهن لم تحسدهما ولم تتمن لو تكون الدار لها .

وجاءت بنت أخت الحاجة تزور نفيسة وتبارك لها ، وكانت تحب نفيسة فهي لم تتخل عنها بعد موت الحاجة كما فعل سلاتفها ، بل ظلت تودها وتبعث إليها بالخيرات التي كانت الحاجة تبعث بها إليها في المواسم والمناسبات .

وحان وقت الغداء ، فمدت الجدة السفرة ، ووضعت الطعام ودعت إليه بنت أخت الحاجة ، ثم تلفت تبحث عن الخادم ، حتى إذا لجتها نادتها :
— تعالى يا خضرة .

فأقبلت الفتاة في ثبات ، وجلست إلى الطعام ، فما كانت نفيسة تأكل وحدها أبدا ، بل كانت تأكل وخادمها في جفان واحدة ، وما كانت تدعو خادمها باسمها بل كانت تدعو أى فتاة تعمل عندها خضرة .

ورفع الطعام وقامت الجدة تصنع قهوتها بيدها ، فما كانت تحب أن يمس أحد غيرها قلبها أو تنكتها ، وخرجت خضرة تشاكس الأولاد وتشاغبهم ، فدفعتها ولد في صدرها ، فهرعت إلى المطبخ تتباكى ، فلما سمعت نفيسة نشيجها ، تحركت عواطفها ، وساءها أن تتألم الفتاة الصغيرة ، فأقبلت عليها وسألتها في حذب :

— ما بك ؟

فتصنعت الفتاة البكاء وقالت :

— ضربوني .

فغضبت الجدة ، وتركت القهوة ، وانطلقت إلى الأولاد تنهرهم على فعلهم القبيح ، فقد كانت تصدق خادمها دائما وتنتصر لها .

وجلست الجدة تتجاذب وبنت أخت الحاجة أطراف الحديث ، وما كانت مقبلة عليها بكليتها ، بل كانت تشرد بفكرها أحيانا ، فقد كانت تفكر في شىء تهديه إلى المرأة التى ما كانت تنصرف دون شىء .

ودخل مصطفى ، فنظرت إليه الجدة لحظة ، وبرقت أساريرها ، فهو يرتدى بذلة تصلح لابن ابن بنت أخت الحاجة ؟

وقر رأيها على أن تأخذ منه البذلة فقالت :

— تعال يا مصطفى .

فاقترب منها ، فمدت يدها وتحسست البذلة وقالت :

— ما هذه البذلة القديمة ؟ اخلعها .

فهم مصطفى بالانصراف ، فقالت له :

— إلى أين ؟

— ذاهب لأخلعها .

— اخلعها هنا .

فابتسم مصطفى ، وأخذ يخلعها ، فهو على يقين أنها ستعطيها المرأة « وماذا يهمه ؟ بل إن ذلك في صالحه ، فهو سيطلب أباه بغيرها جديدة » خلعها في سرعة فائقة ، ثم هرع إلى شقتهم يرتدى جلبابه .
ولفت نفيسة البذلة ، فتناولتها المرأة وهي تغمغم بالدعوات الصالحات ، وقامت وانصرفت في خفة كأنما كانت تخشى أن يعود مصطفى ليطلب ببذلته .

* * *

جلس أولاد الحى فى السلامك يلعبون النرد والشطرنج ، ويتجاذبون أطراف الحديث ويتضحكون ، وكانوا جميعا فى سن متقاربة ، وكانوا فى المدارس الثانوية ما عدا مصطفى فقد كان فى السنة الثالثة الابتدائية ، وكان يرسب سنة وينجح فى الثانية ، ثم يعود ويرسب ثم ينجح . سبب ذلك أنه كان يعتمد على ما يحصل فى الحصص ، أما فى البيت فما كان يفعل فيه شيئا للمدرسة .

وعلى الرغم من تقارب الأولاد فى السن ، فقد كانوا يتفاوتون فى التفكير ، فبينما كان فوزى راجح العقل ، حلو النفس ، يشع نور الذكاء من عينيه الواسعتين ، وتشرق فى وجهه ابتسامة حلوة ، كان فهمى فارغا لا يهتم إلا بالسفاسف ولا يقيس الأمور إلا بالظواهر ، فما كان يجب أن يصادق شكرى لأنه ابن جزار ! وكان عبد الرحمن قصيرا جدا ، خبيثا ، يميل إلى

الدعابة ، يضحك دائما ، حتى ليخال للمرء أن فمه قد اتسع من كثرة الضحك ، وكان ذرب اللسان ، يركب الأصدقاء بدعاباته ، وكان إذا ما سخر من شكري يتسم فهمي في شماته ، فتظهر ثنياته الكبيرتان البارزتان ، وتلمع عيناه العسليتان في سرور ، ويومئ إلى عبد الرحمن برأسه إمءاءة خفيفة كأنما يدعوه إلى أن يستمر في مسخرياته .

كان شكري يحفظ ألحان روايات الكسار ، وكان يؤديها أداء لا بأس به فكان الأولاد يقتربون منه ويلتفون حوله ينصتون إلى دندنته إذ كان صوته خفيفا ، أما فهمي فكان يجلس بعيدا ، وإن كان يرهف السمع ، ويتظاهر بعدم الاهتمام حتى لا ترفع الكلفة بينه وبين ابن الجزار .

وكانت ترن في السلامك بين وقت وآخر ضحكة فضية نقية ، كانت تنبعث من قلب خلى ، هي كل ما يملكه على من دنياه ، فقد كان فارغ الرأس ، فارغ القلب ، فارغ الجسم ، إنه هيكل عظمي شد عليه جلد أبيض رقيق .

استمر الأولاد في لعبهم حتى حان موعد الذهاب إلى ملعب الكرة ، فخرجوا من السلامك في جلبة وضوضاء ، وساروا يتضحكون ويتصايحون وما ساروا أمتارا حتى انحرفوا يمينا ، ولمح فوزي على شباك قريب من الأرض حلة ملوئية وضعت لتبرد ، فقفزت إلى ذهنه فكرة ، لم يستطع مقاومة إغرائها ، فمد يده وهو يضحك ضحكات متتالية ، ودفع الحلة فوقعت على أرض الغرفة ، ورأى الأولاد ما فعل فوزي ، فشاركوه في ضحكه ، وأطلقوا سيقانهم للريح .

لقد كانت في فوزي شيطنة على الرغم من ذكائه .

ذهب ممدوح إلى جدته وجلس إليها وقال لها في استكانة مصطنعة :
— إني أريد أن أتزوج قبل دخول الشتاء .

فقالت له جدته :

— إن شاء الله .

فقال في نفس الاستكانة :

— والله لا أدري لم كل هذه العطلة ! الشقة خالية ، والأثاث يملأ
الأسواق .

— سأجادث مختاراً .

— اليوم ؟

— اليوم عندما أراه .

وانصرف ممدوح إلى الدكان مغتبطاً ، وجاء مختار وكان من عادته أن يمر
على البيت الكبير كل صباح يتناول فنجاناً من القهوة ويأخذ في الحديث عن
نفسه وعما فعله في أمسه ، فهو يميل إلى الفخر ، ويضفي على نفسه أثواباً من
المهارة والمعرفة والحنكة ، وهو نحيل جداً ، ضعيف جداً ، ويحس ذلك
ولكنه يحب أن يوهم الناس أنه قوى ، فكان ينتهز كل فرصة ليقص قصة
وقعت له تدل على قوته ورباطة جأشه وشجاعته .

جلس يقول في انطلاق وهو ينظر إلى السامعين والسامعات بعينين فيهما
زهو ورضاً .

— كنت في ليلة حالكة الظلام أسير وحدي في الطريق ، وكان السكون

يخلع القلوب ، وكانت فى يدي عصاى هذه — ورفع عصاه الرفيعة التى ما كانت تفارقه أبداً — وبينما كنت أسير لا يصل إلى أذنى إلا صوت وقع أقدامى إذ بلغ سمعى صوت آت من بعيد يصيح . أمسك .. أمسك .. فأرهفت حواسى ، ونظرت أناامى محاولاً أن أخترق طيات الظلام الكثيف ، وكانت عيناي قد اعتادت الظلام ، فأمكننى أن أكشف الطريق الذى كنت أضرب فيه ، فلمحت رجلاً عملاقاً يعدو نحوى ، وسمعت الصوت يصيح : أمسك .. أمسك ، فى وضوح ، فرفعت عصاى وقبضت على كعبيها بيدي ، واستجمعت كل قواى وضربت الرجل ضربة شديدة فى صدره ، ولكن الضربة انحرفت قليلاً ، واشتبك مقبض العصا فى عضد الرجل ، وحاول الرجل أن يخلص نفسه ، ولكنى جذبت العصا جذبة قوية ، فنظر إلى نظرة يتطأير الشرر منها ، وكان أسود اللون يبعث منظره الرعب فى القلوب ، ويفكك الأوصال ، ولكنى لم أضطرب بل أخذت أجذبه وأتقهقر حتى لا يصل إلى ، ومرت برهة هائلة قبل أن يصل الرجال الذين يقتفون أثره ، وكان قد رفع يده لبيطش لى ، ولكن الرجال أحاطوا به وقبضوا عليه وخلصوا عضده من عصاى ، وأخذوا ينظرون إلى فى إعجاب ويتهايمسون فما كانوا يصدقون أبداً أن يقبض نحيل مثلى على مثل ذلك العملاق .

ورشف رشفة من فنجان القهوة الذى برد ، ثم وضع الفنجان ومد يده من جيب جلبابه الصوفى وأخذ يسوى قفطاناه الذى يرتديه تحت الجلباب . ولم يظهر على الوجوه إلا ذلك الاهتمام المتكلف ، فقد سمعوا هذه القصة جميعاً مئات المرات .

وصمت مختار لحظة ، فانتهزت الجدة الفرصة وقالت :

— ممدوح يريد أن يتزوج قبل دخول الشتاء ، فما الذى يؤخره عن

إتمام الجهاز ؟.

فاعتدل مختار وقال فى زهو :

— أريد أن أجهز جهازا لم يجهزه فى الأسرة أحد من قبلى .

فقال الجدة فى بساطة :

— السوق ملانة .

— لا تعجبى النجارة التى فى السوق ، ولا النماذج التى فى السوق ، إنى

أحب أن أجهز كل شىء بنفسى .

ورأى الفرصة سانحة ليتحدث عما فعله يوم زواج أخته ، وأن يفتخر ما

شاء له الفخر فقال :

— إنى جهزت زينب فى عز الغلاء ، وكلفت جهازها ألفين من

الجنيهات ، اشترت لها أفضل السجاجيد ، وغرفة سفرة فاخرة ، وغرفة نوم

رائعة ، وغرفة استقبال أعجب بها كل من رآها ، أليس كذلك يا أمينة ؟

ووافقت أمينة على ما يقول ، وأخذ يقص كيف كان يتقن الأثاث وكيف

كان يختار الألوان ، ومرت ساعات وقام مختار وقد اتفق على أن يبدأ فى إعداد

الجهاز .

واتفق مختار مع نجار على صنع غرفة نوم وغرفة سفرة وغرفة جلوس ،

واتفق مع آخر على صنع صالون مذهب . وعاد إلى البيت الكبير يسهب فى

وصف الغرف ويقص فى تفصيل ما قاله للنجار وما قاله النجار له .

وخرجت أمينة وعصمت وسكينة لشراء « النيشان » وهو هدايا يقدمها

الخطيب لخطيبته قبل الزفاف ، ويتكون « النيشان » عادة من حذاء فضى ،

وقماش من القصب الغالى ، وقفاز أبيض ، ومروحة كبيرة من ريش أبيض

فاخر . وطرحة بيضاء ، وجورب أبيض من الحرير الغالى ، ويطلق على

هذه الأشياء « الطقم الأبيض » وهو ما ترتديه العروس ليلة الزفاف ، ويحتوى « النيشان » كذلك على شباشب حمراء وصفراء وخضراء ، وجوارب ومناديل وروائح وصابون ممسك ، وصندوق تواليت فاخر ، وأقمشة متعددة وثياب داخلية .

وراحت أمينة وسكينة وعصمت ينتقلن طوال النهار من دكان إلى دكان حتى اشترين كل ما يحتجن إليه ، ثم عدن إلى البيت مغتبطات ، وإن كانت تلوح عليهن أمارات التعب .

ووضعت الأشياء في غرفة عند الجدة ، فإذا وفد إلى البيت وافد أفتيد إلى تلك الغرفة ليتفرج برؤية « النيشان » بين صخب الأولاد وضجيجهم ، واستمر باب تلك الغرفة يفتح ويغلق ، والأولاد يذهبون إلى الغرفة كلما جاء متفرج ، ثم يعودون ينتظرون تشریف زائر جديد لينطلقوا في ركابه إلى حيث وضع النيشان ، وليشاركوا أمينة في عرض الأشياء وتقديما .

ودارت عجلة الزمن ، وتم صنع غرف السفرة والنوم والصالون ، فحمل مختار الغرف على عربات ثم أسرع إلى البيت ينتظرها ، وجلس عند الجدة ، ولكنه لم يطق الانتظار فكان يقوم إلى الشباك بين لحظة وأخرى يطل منه . وأخيرا لمح العربات مقبلة ، فصاح في نشوة :

— افتحوا باب الشقة حالا .. افتحوا الشقة حالا .

وهرع إلى الدرج وراح يهبط فيه ، ووقف على الباب ينتظر في فرح ، ويتطلع إلى نوافذ الجيران وشرفاتهم ليطمئن إلى أنهم يشاهدون الجهاز الفاخر ، وتمنى في هذه اللحظة أن تطلق إحدى الخادومات زغرودة فيخرج الجيران إلى النوافذ ليروا الأثاث العظيم .

ووقفت العربات أمام الدار ، وأطلقت الزغرودة التي كان يتمناها ،

وملئت الشرفات بالرجال والنساء ، فامتلاً صدره نشوة ، وأحس زهوا ، وأمر الحمالين أن يحملوا قطع الأثاث في رفق حتى لا تخدش أو تصاب بسوء ، وكانت عيناه تدوران في الشرفات فيرتسم على محياه غبطة وبشر .

ووضع الأثاث في الغرف ، وفتح مختار الشبايلك يمكن الجيران من النظر ، وانصرف الحمالون ، ودعا مختار كل من في الدار ليشاهدوا الجهاز البديع . صعدت الجدة وأمينة وسكينة وعصمت ونساء كن في زيارة الجدة ، وامتألت الشقة بالأطفال ، وراح مختار ينتقل من غرفة إلى غرفة ويسهب في الشرح ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة زهو :

— هذه نجارة ممتازة ، لا يوجد مثلها في السوق ، إن الحمالين قالوا إنهم لم يروا أثاثاً مثل هذا ، إنه متين وجميل ، انظري يا أمينة إلى هذا الصوان ، إن الخراط الذي به عجب ، وانظري إلى ..

واستمر يقدم الأثاث قطعة قطعة ، وأمينة تقول :

— عال .. جميل .. بديع .. ألف مبروك .

وأضاف مختار :

— لو رأيتم الجيران وهم ينظرون ! لقد بان الإعجاب في وجوههم . وبعد أن تفرجوا برؤية الأثاث ، أغلقت الشقة في عناية ، وهبطوا إلى شقة الجدة يستمعون إلى مختار وهو يقص ما فعله مع النجار وما تكبده من تعب حتى حصل على تلك الغرف النادرة .

وجلسوا يوماً يفكرون في خياطة تحوك ثياب العروس ، فأخذ النسوة يعرضن أسماء خياطات مصريات ، فلم يوافق مختار على واحدة منهن ، فهو يود أن تحوك ثياب ابنته خياطة أجنبية حتى يقول في زهو : إن مدام فلانة خيطة ثياب ابنتي .

وخرج يبحث عن خياطة أجنبية ، فأرشدته عامل من عمال صيدناوى إلى خياطة يهودية ، فاطمأن إليها دون أن يعلم عنها شيئا ، وعاد إلى الدار يسهب فى مديحها ، ولم لا يمتدحها ما دامت أجنبية ، وفى هذا خير دليل على أنها ماهرة لا يعلو على مقصها مقص !

وأخذت الخياطة اليهودية القماش ، وقصته وراحت تجرى التجارب مثنى وثلاث ورباع ، وواعدتهم ذات يوم على أنها ستحضر الثياب فى المساء ، فلما وافى الموعد انتظر حسن ومختار وأمينة وسكينة وعصمت تشريفها فى غرفة الاستقبال ، وجلسوا فى وقار كأنما كانوا ينتظرون شخصا كريما مهابا ، ومر الميعاد ولم تحضر ، فانتاب مختارا بعض الضيق ، وأخذ يلتمس لها المعاذير ، ولم يدر أنها من نساء الأعمال ، تعلم أنها كلما تأخرت ازداد الشغف إليها . وأخيرا جاءت يتبعها ثلاث بنات يحملن على أيديهن ثيابا لفت فى ورق فاخر ، واعتذرت عن التأخير ، وراحت تصافح الموجودين ، فأقبل عليها مختار يهش لها ويش ؛ وسلم عليها حسن فى وقار ، وما كان يخشى أن تنقض وضوءه فقد صلى العشاء .

وراحت عصمت ترتدى ثوبا وتخلع ثوبا ، ومختار يظهر إعجابه ، ويكيل المديح للخياطة اليهودية الأجنبية — وظل حسن فى صمته ووقاره لم ينبس بكلمة ، وارتدت عصمت أربعين ثوبا ، وما كان فى تفصيلها شيء جديد ، ولكن عين الرضا جملت الثياب ، وما ارتدت عصمت آخر ثوب حتى فتحت الخياطة حافظتها وأخرجت بعض الملابس الفاخرة ونثرته فى حركة بارعة أرضت مختارا كل الرضا ، فدفع ما طلبته دون أن يناقشها فى الحساب . وانصرفت الخياطة مغتبطة ، وخرج مختار خلفها يوصلها حتى السلم ، وقال حسن فى سخرية :

— جنون ، ضحككت عليكم وأخذت الجننيات منكم وطار .
وتم إعداد الشقة ، وأخذ مختار يحضر أصدقاءه ليفرجهم على الجهاز ،
فكانوا يكيلون له الشاء ، فيحس فرحة كانت تعوضه عن الحسرة التى كان
يشعر بها أحيانا كلما فكر فى الجننيات التى أنفقها .

واتفقوا على ليلة الزفاف ، وكان حسن يود أن تكون ليلة هادئة لا يدعو
إليها إلا الأقارب فهو بطبعه لا يميل إلى الظهور ، ويحب أن يركن إلى الهدوء ،
وأن يبتعد عن الصخب ووجع الرأس ، ولكن مختارا أبى وأصر على أن تكون
ليلة صاخبة ، تتحدث عنها الأجيال ، فما كان يهتم بالفعال بقدر ما يهتم
بالإعلان .

وقبل حسن وهو كاره أن يقيم فرحا كبيرا إكراما لأخته سكيئة ، حتى لا
يغضبها أو يكدر صفو الساعة ، وأخذوا يفكرون فيمن يحبى الليلة ،
فاصطدموا بعقبة كأداء . فهم لا يستطيعون أن يحضروا مطربا معروفا ،
فسيطلب المطرب ورجاله خمرا ، وهم لن يقدموا الخمر بحال ولو لم يتم
الزفاف ، وقال أحدهم فى انتصار :

— نحضر عبد اللطيف البنا ، فهو مطرب صالح ، يغنى وفى يده
المسبحة .

فقال مختار فى ابتهاج :

— عال وأنا أعرفه ، ولنا على استعداد لأن اتفق لكم معه .

وسرت موجة ابتهاج ، ولكن حسنا لم يشاركهم فى ابتهاجهم ، وقال فى
هدوء :

— ولكن رجاله لن يعزفوا ما لم تقدم لهم الخمر ، أنسيتم يوم فرح

عثمان ؟

وتذكروا جميعا تلك الليلة ، فقد طلب رجال التخت خمرًا ، ورفضوا أن يجيبوهم إلى طلبهم ، فقامت مشادة عكرت صفو الليلة ، وهم لا يريدون أن تتكرر تلك المأساة ، وأطرقوا جميعا يفكرون في مطرب لا يتناول خمرًا ، وأعياهم البحث والتتقيب ، وتال مختار :

— ما رأيكم في إحضار منيرة المهديّة ؟.

فقال حسن في سخرية :

— أتغنى للرجال ؟ ومن ذا الذى يغنى للسيدات .. سيد شطا !؟
وعلم الجمع أن الاقتراح لم ينل استحسانا ، فاستأنفوا التفكير ، وأخيرا قال أحدهم :

— ليس هناك أفضل من الشيخ على محمود لإحياء الليلة .

فبان الرضا في وجه حسن وقال :

— إى والله إنه رجل صالح ، ما أحلى صوته وهو يقرأ المولد .

وتم الاتفاق على استدعاء الشيخ على لإحياء الليلة التى ستحدث عنها الأجيال !

وجاء الفرائش يعد العدة لليوم العظيم ، فأقام فى الشارع سرداقا فخما كبيرا ، وأقام فى السطح سرداقا آخر ، وأخذت الرايات ترفرف فى الحى معلنة أن حدثا عظيما سيجرى هنا عما قريب ، حدث يستحق كل هذه العناية والرعاية ، وكل هذه الضجة وذلك الاستعداد الهائل ، ألا وهو بناء شاب بشابة !

وأرسلت إلى حسن الهدايا من أقاربه وأصدقائه ، وكانت الهدايا خرافا تكفى لطعام الحى بأجمعه ، وأرسل زوج زكية على الرغم من مرضه عاجلا ، وبات الأولاد ينتظرون اليوم الموعد بصبر نافذ ، أما سعد وسليم فما كانا

يفكران إلا في صحابهما وهما يطلبان أن تجهز لهما سفرة خاصة بهم ، وكان ذلك اليوم بالنسبة لمصطفى يوما هاما ، فهو اليوم الذى يرتدى فيه البنطلون الطويل لأول مرة .

وجاء اليوم الموعود ، فأقبل أحمد من أول النهار ليعاون أخاه حسنا في مهام ذلك اليوم الكثير الزحام ، وقد قام أحمد بعمل جليل خطير ، فقد أخذ كرسيه وجلس بجوار الباب يتطلع إلى النسوة اللاتي أخذن يتدفقن على البيت من أول النهار ، واللاتي أمضت أمينة وسكينة في دعوتهن خمسة عشر يوما . ولمح أحمد امرأة رائعة الجمال ، فالتفت إلى صديق كان يجلس بجواره وقال :

— إنها أجمل من رأيت اليوم .. إنها امرأة .

ولم يستطع أن يكتم إعجابه ، فراح يهمس لها بغزل رقيق ، وانفلتت من جواره وهى تضحك ، ولما دلفت من باب البيت وقفت والتفت إليه ، فألقى نفسه يقوم من على كرسيه وينطلق إليها ، فقد كانت فيه خفة ، ولما اقترب منها غاضت نشوته ، وأحس خزيا ، فقد كانت كبرى بناته .

وجاءت زكية تهنيء أخاه وأختها وتنصرف قبل وفود الليل حتى لا تترك زوجها المريض وحده ، ورأت النساء يقبلن سافرات الوجوه ، عاريات الأذرع والصدور ، فتذكرت قول جدها لها وهو يبكى : « سيأتى أوان تخرج النساء فيه عرايا ، سافرات الوجوه ، كاشفات الصدور » فغمغمت : — الله يرحمك يا جدى ، تعال شف .

وراح مصطفى يخطط في بنطلونه الطويل بين الكراسى المذهبة التى صفت في السرادق الكبير ، وأخذ أسعد وسليم يجهزان سفرة خاصة لأصحابهما في شقة منعزلة ، بعيدا عن المكان الذى أعد لسفرة المدعوين .

وقبع بجوار الطاهى أناس من الأسرة وظيفتهم فى كل فرح أو مأتم أن يرقبوا الطاهى ، وأن يخزنوا الحلوى لحين الحاجة إليها ، وأن يسريوا إلى بيوتهم كل ما يستطيعون تسريبه من الأصناف اللذيذة الفاخرة ، إنهم القط الذى تسلم مفتاح « الكيلار » .

وفى الساعة الخامسة سرى فى الجو صوت موسيقى قادمة ، فهرع الناس إلى النوافذ والشرفات ، وأقبلت موسيقى البوليس حتى إذا بلغت السرادق احتلت مكانها أمامه ؛ وأسرع ممدوح إلى رئيسها يصفاحه فى حرارة ، فقد كان من المعجبين به ، وكان يذهب كل جمعة إلى حديقة الأزبكية ليشنف أذنيه بأنغامه العذبة التى كان يطرب لها .

ووقفت أمام باب البيت عربية هبطت منها امرأة مكتنزة اللحم ، قصيرة القامة ، بيضاء البشرة ، إنها العاملة المعروفة بمبة كشر ، فلما وقعت عينا أحمد عليها هتف فى بشر :

— اسم الله .. اسم الله .. النبى حارسك .

وأسرع إليها يصفاحها فى شوق فقد كانت من معارفه . كان منظرا رائعا ، أحمد فى عمامته وجلبابه الصوف ، وبمبة كشر فى ثوبها الذى يتألق والذى لا يكاد يستر جزءا من جسمها الممتلئ ، إن من يراها يتضاحكنا على السلم يتذكر كشكش بك فى مبادلته .

وأرخصى الليل سدوله ، فساد الظلام ، ولكن السرادق كان قطعة من النهار فى جوف الليل ، ووفد الناس زرافات حتى اكتظ السرادق بهم ، ودار العشاء فى نظام ، ولكن بعد قليل فسد النظام الذى وضع لمعرفة من تناولوا الطعام ومن لم يتعشوا بعد ، فأكل أناس مرات ، وترك أناس بلا طعام .

وضاق السرادق بالناس ، فقد جاء سكان الحى والأحياء المجاورة ،

(فى قافلة الزمان)

جاءوا يشاركون الناس الطيبين فرحهم ، وأسرع الفراش يصف الكراسى الخيزران بين صفوف الكراسى المذهبة .

وأحسن حسن ضيقا ، ولكنه كظم غيظه ؛ إنها ليلة وتنتهى . وجاء الشيخ على محمود فابتدأ التهليل والتكبير ، وراحت الساعات تنقضى حتى إذا ما وافت الساعة الثانية عشرة انسل ممدوح وبعض أصحابه ، وارتدى ثياب الزفاف ثم هبط ورفاقه وركبوا سيارتين وانطلقوا إلى ضريح الحسين يقرءون الفاتحة .

وعاد ممدوح وصحبه ، ثم صعد بين شابين من أهله إلى سرادق النساء حيث كانت العروس جالسة على كرسى فاخر ، وما إن رأى النسوة ممدوحا حتى أطلقت الزغاريد متتابعة مدوية وجلس ممدوح بجوار العروس ، والتف النسوة بهما . يتغامزن ويضحكن ، وجاءت سكينه تضحك وترسل نكاتا التي لا تنتهى ، ثم تناولت قليلا من الملح وأخذت ترشه فوق رأسى العروسين ، واستمر الضجيج والعجيج ، وأخذ النسوة بمجن موجا ، وحدث هرج ومرج ، وممدوح جالس صامت كأن على رأسه الطير ، ورأى مصطفى تلك الفوضى فاشمأز ، وانطبت في ذهنه صورة قبيحة للأفراح ، إنه لن يقبل أبدا أن يجلس في يوم من الأيام تلك الجلسة التي يجلسها ممدوح ليكون أضحوكة النسوان .

وقام العروسان ، فدوت الزغاريد ثانية ، وارتفعت دقات الدفوف ، وصوت بمبة كشر الجهد ، وأسرعت الفتيات اللائى لم يتزوجن بعد إلى العروس ورحن يقرصنها ليلحقنها في أسبوعها . كن جميعا يتهلن إلى الله في حرارة أن يبعث إليهن باين الحلال .

وأغلق الباب على العروسين ، وارتفعت ضجة النسوة وغوغاؤهن ، فإن



إن من يراهما يتضحكان على السلم
ليتذكر كشكش بك في ماذله .

كلا منهن تطلب حاجاتها لتصرف : فهذه تطلب بقجة الثياب التي جاءت بها لترتدى في كل ساعة ثوبا ، كأنما كانت نموذجاً في معرض الأزياء ، وهذه تطلب ملاءتها ، وتلك تطلب معطفها ، وتلاشت الضوضاء ، وثبت أن العروس للعروس وأن الجرى للمتعوس .

وأصبح الصباح فأطل حسن إلى الشارع ، فلم يجد للسرايق العظيم من أثر فابتسم ابتسامة ساخرة وغمغم :

— قلة عقل .

وخرج إلى الدكان مبكراً ، فإن مدوحاً لن يخرج اليوم ، وقابله في الطريق رجل صافحه وهناه بزواج ابنه ، وأخذ يعتب عليه أنه نسي أن يدعو فلانا وفلانا . وما خطا خطوات حتى قابله آخر وراح يشكو له ما لقيه من عدم حفاوة واحتفال ، فقد كان ممن لم يدعوا إلى الطعام . وأحس حسن ضيقاً ، فقد انتهى كل شيء ولم يبق إلا النقد والعتاب .

٥٢

جلس أسعد وسليم وفريد يفكرون في إصدار مجلة : إن العدد الأول يحتاج إلى تسعة جنيحات ، وإنهم يستطيعون الحصول على ذلك المبلغ ، أما العقبة الكبرى فهي صغر سنهم ، فما من واحد منهم قد بلغ سن الرشد ، فكيف يطلبون رخصة المجلة من الداخلية ، وباسم من تصدر المجلة ، وظلوا يبحثون في أذهانهم عن رجل يثقون فيه تصدر المجلة باسمه ولا يستأثر بها . وأخيراً قال فريد :

— ما قولكم في خالي محمد الإيراني ؟

فقال سليم .

— وهل يقبل ؟

فقال فريد فى تأكيد :

— يقبل ! إنه يفكر جدياً فى إصدار مجلة ؛ وقد خاطبني فى ذلك . إننا نستطيع أن نعاونهُ معاونة فعالة ، أنا أرسم الصور ، ويكتب سليم زجلاً وقصة ، ويكتب أسعد أخبار المسرح والسينما ، ويكتب خالى الفكاهات . إن خالى كاتب كبير .

فقال أسعد :

— فاتحه غدا فى الموضوع ، وقل لنا غدا ما رأيهِ .

فقال فريد :

— لم ننتظر الغد ؟ سأدعوه الآن .

وخرج فريد من السلامك يعدو ، ثم دخل فى بيت قريب وأخذ يصعد فى الدرج مهرولاً حتى إذا ما قطع مائة درجة ودرجة ، سار فى السطح قليلاً حتى بلغ غرفة ، فطرق بابها وهو يلتقط أنفاسه فى جهد ، إنها غرفة الكاتب الكبير .

وانتظر أسعد وسليم فى السلامك تداعبهما الآمال ، فعمّا قريب تصدر المجلة ، ويقرأ لهما الناس . إنهما يكتبان الآن لأصحابهما ، وإن فوزى ليعجب بسليم حتى أصبح راويته ، وإن ذلك يرضى سليماً ويشرح صدره ، ولكن غدا عندما تصدر المجلة سيقراً له ألف ، وسيعجب به ألف .

وجاء فريد متلهللاً الوجه وقال :

— تعالوا ، فخالى ينتظر كم فوق .

لم يشأ الكاتب الكبير أن يهبط ليقابل أولاداً يلتمسون عونهُ ، بل رأى من

الأكرم له أن يجشمهم مشقة صعود مائة درجة ودرجة ، فإن ذلك يرفعه في أعينهم ! وصعد سليم واجف القلب ، واضطرب أسعد فإنه يحس أنه مقبل على أمر خطير ، وصعد مصطفى وهو لا يحس شيئا ، إنه وجد أخويه يصعدان فصعد معهما ، أما فريد فلم يكن الأمر جديدا بالنسبة إليه ، فقد رسم صورا كثيرة لمجلات عديدة .

ودق فريد باب حجرة الأستاذ ، ففتح لهم ، وإن الأولاد يعرفونه فقد رأوه كثيرا ، ولكنهم لم يحدثوه في أمر خطير كأمر اليوم ، لذلك أحسوا رهبة ، ولما وقع بصره عليهم قال لهم :

— تفضلوا !

فدخلوا الحجرة هيايين ، وجلسوا على كراسى محطمة ، وجلس الأستاذ على حافة السرير .

كان الكاتب الكبير شابا قصيرا ، أسود الشعر ، واسع العينين ، مفتول العضل ، وإن من يراه يحسبه مصارعا أو من أولئك الذين يعرضون عضلاتهم في سرك .

أخذ فريد يشرح لخاله فكرة المشروع ، وانقشع خجل أسعد وسليم فاندجبا في الحديث وأخذوا يتجاذبون أطرافه ، فقر رأيهم على أن يكتب سليم طلبا للدخالية يلتمس فيه التصريح لهم بإصدار المجلة ، وأخذوا يستعرضون الأسماء التي اقترحها كل منهم ، وأخيرا اختاروا من بينها اسم « البهلوان » . وانصرفوا على أن يبدأوا في تحرير العدد الأول وإعداده ، وعلى أن يجتمعوا بعد أسبوع عند الأستاذ .

وظفك سليم يكتب وينظم ، وراح أسعد يكتب وينظم ، وجاء أصحابهما إلى السلامك ، فقرأ سليم عليهم ما نظم ، فأبدوا إعجابهم الشديد ، وقرأ

أسعد زجله ، فلم يظهروا استحسانا ، بل تجرأ أحدهم وقال في سخرية :
— إنك دعى .

فاضطرب أسعد ووجهم ، وأحس انقباضا ، وكأن جدارا انهار على رأسه ؛ وفطن فوزى إلى أن أسعد قد جرحت كبرياؤه . فشاء أن يكون البلمس للجرح الأليم ، فقال :
— إنه رجل رائع والله .

فلم تنقشع سحائب الحزن التي رانت على صدره ، وظل في كدره ، وإن حاول أن يبدى الهدوء . إن زجل أسعد كان رائعا ، ولكن الأولاد كانوا يفضلون أزجال سليم لأنها كانت سهلة متدفقة ، يحفظونها في سهولة ، ويتغنون بها في يسر .

ومر الأسبوع ، وصعد الأولاد المائة درجة ودرجة ليقابلوا الأستاذ العظيم ، وليعرضوا عليه ما كتبوه ، وليستفسروا عما تم في أمر الرخصة . قال الأستاذ وفي وجهه دلائل الثقة :

— نظمت بيتين من الزجل ليوضعا على الغلاف تحت صورة البهلوان . وصمت قليلا وقد أرفف الأولاد ليسمعوا الدرر من الأستاذ ، فأنشد في تنغيم :

« يا بهلوان الله يعينك ويديم حياتك للأوطان
بكره تكيد اللى يكيذك إن كان عزول ولا شيطان »

وابتسم في زهو ، وراح يقرظ البيتين ، ولم يعجب البيتان سليما ، ولكنه لم يتكلم ، فإنه سيقراً زجله الآن ، وإنه لعلى يقين من أن زجله سيمحق ذلك العبث ، ويبحث عن الورقة التي دون فيها الزجل فلم يجدها ، فقال لمصطفى :
— نسيت الزجل في السلامك ، انزل وهاته .

فهبط مصطفى مسرعا ، وذهب إلى السلامك ، وجعل يبحث هنا وهناك فلم يجد شيئا ، فعاد إلى أخيه وقال له :
— لم أجد الزجل .

— كيف ؟

— بحثت عنه في كل مكان .

فهبط سليم إلى السلامك ، وجعل ينقب في أدراج المكتب ، وتحت المقاعد ، ولكنه لم يجد له أثرا ، ولما عيس من العثور عليه عاد إلى الأستاذ وقال له :

— لم أجد الزجل ولكني أحفظه .

وأخذ يسمع الأستاذ الأبيات ، والأستاذ يظهر إعجابه ، فلما انتهى هناك على قدرته ، وقال له إن المجلة ستظهر مواهبه الفذة . وسأل الأولاد الأستاذ عما تم في أمر الرخصة فقال لهم :

— هناك عقبة الجنسية . فلا بد أن يكون صاحب المجلة مصريا .

فغامت صفحات وجوه الأولاد ، ولكن الأستاذ أردف :

— ولكنني سأغلب على هذه العقبة .

فسأل الأولاد في لهفة :

— وكيف ؟

— سأثبت لهم أني ولدت في مصر . اطمئنوا ستصدر المجلة ، واستمروا

في التأليف .

ولم يستطع الأستاذ أن يحافظ على وقاره طويلا فقد غلبه طبعه ، فهو يحفظ المنولوجات التي تلقى في « الكلوب المصري » بالحسين ، وهو يحب أن يعرض عليهم هذه الموهبة الفائقة ، فراح ينشدهم منلوجا في إلقاء حلو :

« احنا العربية الخططور جاين تشكىلك (يا شيخ طرطور) »
واندمج في الإلقاء ، فأخذ يرتل في نشوة ، والأطفال ينظرون إليه
مذهولين . وكان هذا هو كل ما يعرفه الأستاذ العظيم عن الأدب !

وفي يوم بينا كان سليم جالسا في السلامك ، جاءه ابن عم له ودفع إليه
بمجلة مشهورة تهتم بالزجل وتطبع على ورق ملون ، وراح سليم يقرأ الزجل
فبان في وجهه العجب ، إنه زجله الذي فقد منه ، فهزه الفرح وراح قلبه
يرقص في صدره ، وأسرع ليقراً الإمضاء فألقى الزجل باسم ابن عمه . لم
يغضب ولم يثر ، بل ظلت الغبطة تشيع في نفسه فإن ما كتب يستحق النشر .
وها هو ذا قد نشر ، وأين ؟ في المجلة التي ينشر فيها كبار الرجالين أزجالهم .
وأسرع إلى مكتبه ، وأخذ في كتابة زجل من أزجاله ، وقلبه يخفق في
صدره ، وحرارة صدره تنتقل إلى قلمه فيكتب في عجلة ، ووضع الزجل في
ظرف ، وخرج يضعه في صندوق البريد ، ولكنه يريد أن يصل اليوم ، بل
الآن ، فخطر له أن يضعه في صندوق العتبة الخضراء حتى يصل سريعا ،
فراح يقطع الطريق إلى العتبة يهرول تارة ويمجى تارة ؛ حتى إذا بلغ العتبة
وضع الظرف في الصندوق وقلبه في صدره كجناح خافق .

وراح سليم يعد الأيام حتى إذا ما واثى يوم ظهور المجلة خرج من الصباح
الباكر إلى العتبة الخضراء ، واشترى نسخة ، وتناولها بيد مرتجفة ، ونفس
مضطربة ، وفتح المجلة فوقع بصره أول ما وقع على اسمه ، فهزه الفرح حتى
لكاد يرقص في الميدان طربا . وعاد إلى البيت سريعا ، وقد امتلأ صدره
بحرارة النشوة ، وانتظر وفود الصحاب بصبر نافذ ، فهو يريد أن يقبلوا
ليعلموا أنه أصبح الأستاذ الكبير .

واستمر سليم ينشر زجلا كل أسبوع ، وأصبح اسمه يكتب بالبنط

الكبير ، وفقد بعض الأعداد التي ظهرت فيها أزجاله ، فأراد أن يشتريها من الإدارة ، فذهب إلى هناك في رفقة أسعد وفريد .

دخل الأولاد الإدارة ، وسألوا عن الأعداد التي تنقصهم ، فأحضرت لهم فدفعوا ثمنها وهموا بالانصراف ، ولكن فريدا أراد أن يعرفهم أن الذى تفضل وجاء إليهم ليشتري بعض النسخ هو زجالهم الكبير فقال فى زهو :
— حضرته الأستاذ سليم الذى ينشر أزجاله عندهم .

فنظر صاحب المجلة إلى الطفل الواقف أمامه نظرة فيها استعلاء ، وقال فى عدم اكتراث :
— تشرفنا .

لقد كان يتخيل الأستاذ رجلا ضخما كبيرا ، قد وخط الشيب رأسه فإذا به يحده غلاما نحىلا لم يتجاوز الرابعة عشرة ، فانهار التقدير والإعجاب .
وظهر عدد الأسبوع واختفى منه زجل سليم ، فانتظر سليم الأسبوع التالى ، ولكن مرت أسابيع ولم ينشر الزجل على الرغم من أنه كان أروع ما كتب سليم ، فأحس مرارة ، وأخذت فكرة إصدار مجلة تراوده ثانية بعد أن ماتت الفكرة عقب ظهور أزجاله .. إنه يريد أن يصدر مجلة يكتب فيها على هواه .

٥٣

وقف أسعد وسليم وصحابهما أمام الباب الحديدى الموصل إلى السلامك ، وراحوا يتحادثون ويتضحكون ، ولمح عبد الرحمن أريكة البواب خالية ، فذهب إليها بقامته القصيرة ، وجلس يهز رجله ، وراه على فى جلسته ، فانطلق إليه وهو يضحك ضحكته الفضية العالية ، ثم مال

عليه وقال:

— تقعد على الرصيف وتهز رجليك .

وظل يقهقه كأنما قال شيئا عجيبا يستحق الضحك والفقهة ، فالتفت الجميع إلى على وضحكوا لضحكته ، ثم أقبلوا على عبد الرحمن وأخذوا ينكتون على قصره ، ولكن لسان عبد الرحمن كان طويلا ، أطول منه على كل حال ، فأفحنهم ببذاته ، فلما وجدوا أنه سينتصر عليهم ، التفوا به ، وأمسك أحدهم بيده ، وأمسك آخر بيده الثانية ، وأمسك ثالث برجله ، وأمسك رابع برجله الثانية ، وهموا أن يرفعوه بين أيديهم ليؤرجحوه بينهم كما يؤرجح الكبار طفلا مدلا ، فراح يجاهد ليتخلص من أيديهم ، وجعل يضحك فأتسع فمه حتى بانت أسنانه كلها ، ودمعت عيناه من كثرة الضحك ، ولما رأى أنهم جادون ، وأنهم سينالون منه في الشارع تظاهر بالغضب ، أخذ يسبهم في ثورة ، ويقسم أنه لن يكلم أحدا منهم بعد اليوم أبدا ، فتركوه ، وما كاد يستقر على الأريكة حتى لمح فتاة تسير بالقرب منه فهتف وقد تهلت أساريره :

— قمر .. والله قمر .

فرنت ضحكة على ، وابتسم الآخرون ، واستمر عبد الرحمن في عبثه ، ورأى على بواب البيت المقابل قادما فضحك ، فهو رجل قمى ، ضعيف البصر ، له زوجة ممثلة الجسم ، عظيمة الحجم ، وكان أولاد الحى يشاغبونه ويشاكسونه كلما رأوه ، فيجرى خلفهم يحصبهم بالحصى والتراب ، وخطر لعل أن يشاكسه ، فصاح كما يصيح الأولاد :

— حرامى الوزه بعنونه ، زوج القرعة بعنونه .

ونجلجلت ضحكاته ، ومال الرجل يقبض الحصى والتراب ، فلما رأى

على ذلك جرى بقامته الطويلة وهو يضحك في سرور فانطلق الرجل خلفه ،
وابتسم الأولاد ، وارتفع صوت البواب يسب ويلعن ، وبلغ الصوت
مسمع زوجه المصون فأظلت من السطح ، وأخذت تقذف السباب من
فيها ، فانسل الأولاد إلى السلامك وتحصنوا به ، حتى إذا ما هدأت العاصفة
خرجوا إلى الشارع يعاتبون عليا ويلومونه ، ولكنه استمر في ضحكه ،
فالتفت إليه عبد الرحمن وقال له :

— والله لو قتل أبوك لضحكك ، خليك عاقلا .

وأقبل فهمى في بذلة جديدة جميلة ، وقميص جديد ورباط رقبة فاخر
بديع ، جاء وهو يتبختر في مشيته ، ويرفع بصره إلى النوافذ في زهو ، وقد
انفجرت شفاته عن ضبه الكبير ، فهو يقدر الثياب ويجعلها تبجيلا ، ويحكم
على المرء بما يرتدى ، فإذا كان يرفل في الحرير كان شخصا محترما يستحق منه
كل عناية ورعاية ، أما إذا كانت ثيابه بسيطة فلا يستحق منه أى التفات .
ونظر على إليه فألفاه منتصبا كالعمود خشية أن يتكسر قماش البذلة ،
فقال له في سخرية :

— أهلا فهمى بك .

فانشرح صدر فهمى ، فإن ذلك اللقب يرضيه ويدغدغ حواسه ،
فابتسم في سذاجة وقال في بساطة :

— أهلا بك يا على بك .

ولم يستطع على أن يحافظ على وقاره طويلا ، فدوت ضحكته الفضية ،
ومد يده ووضعها على كتف فهمى ، فاستاء فهمى لا من ضحكة على
الساخرة ، بل من يده التى وضعت على كتفه ، خشية أن تفسد البذلة
الجديدة ، فقال في استياء :

- يدك من فضلك .
- فرفع على يده وقال وهو ينحنى :
- حاضر يا فهمى بك .
- والتفت عبد الرحمن إلى فهمى وقال فى خبث :
- شكرى مشتاق إليك .
- فارتسم الامتعاض على وجه فهمى ، وقال فى زراية :
- لم يبق إلا ابن الجزار هذا ، والله لا أدرى كيف تصاحبونه .
- فقال أسعد :
- ما به إنه شاب مؤدب .
- فقال فهمى فى امتعاض :
- إنه قذز .
- فضحك على وقال :
- العفو يا فهمى بك !
- فقال فهمى فى غطرسة :
- والله لو لم يكن فى الدنيا غيره ما صاحبتنه .
- فقال على :
- صوته حلو .
- فكشر فهمى وجهه وقال :
- صوته مقرف وذوقه بلدى ، إنه لا يجد إلا حامد مرمى ليقلده .
- وقال سليم فى احتراس :
- هس شكرى وصل .
- فالتفت فهمى فبان فى وجهه الدهش .. إنه لا يكاد يصدق عينيه ، لقد

كان شكرى يرتدى بذلة أفخر من بذلته ، بذلة رائعة كان لا يطمع في أن يرتدى مثلها ، وراح شكرى يصفاح الموجودين ، ومد يده لفهمى فتناولها في حماسة ، وأخذ يصفاحه في حرارة ، وقد تهلل وجهه بالبشر . وما وقف شكرى لحظات حتى مد فهمى يده إليه وجذبه من يده وقال : — هيا .

فقال عبد الرحمن في خبث :

— إلى أين أيها الأصدقاء !؟

فقال فهمى وهو يتسم :

— والله لن يسير أحد معه اليوم غيرى .

وانطلقا وفهمى يتلفت يمينا ويسارا ، ويرفع بصره إلى النوافذ والشرفات كأنما يقول للناس ، انظروا فهذا الذى يرتدى البذلة الفاخرة صاحبي . ورنّت في الشارع ضحكة فضية مجلجلة ، وارتسمت على الشفاه ابتسامات .

٥٤

وعاد مصطفى من مدرسته الثانوية ، فقد نال الابتدائية بعد سبع سنوات عذاب ، وجلس على أريكة البواب ينتظر مجيء الصحاب ، وكان قد كبر ، وإن من يراه يحسبه شابا موفور الحيوية والنشاط ، ورفع يده ومررها على شعره الفاحم ، ثم مد بصره لعله يرى رفيقا من صحابهم فيهب لاستقباله ، فهو لا يطيق أن يمكث وحده دون أن يحدث هذا أو يشاغب ذاك . وكانت في الشرفة الأرضية المواجهة فتاة إسرائيلية في السابعة عشرة ،

تدفق حيوية ، وتمتاز بقدر ممشوق وبياض ناصع وشعر متهدج جذاب . جلست على مقعد وفي يدها كتاب تقرأ فيه ، وكانت ترفع عينيهما عن الكتاب وترنو إلى الغلام رنوة فاحصة ، ثم تعود تنظر إلى الكتاب دون أن تقرأ حرفاً ، فهي تجده شاباً كالشبان ، ولكنه لا يرفع عينيه إليها ولا يحس وجودها . كانت ترجو أن يحدق نظره فيها لعله يقدر جمالها ، ولعله يبدى إعجابه بها كما يفعل كل من يراها من الشبان ، ولكنه ظل في تلفته دون أن يحس وجودها أو يلحظ أنها هناك ، وساءها ذلك الإهمال ، فأحست بعض الضيق ، وعزمت على أن تجذب بصره إليها ؛ فقامت عن مقعدها ، وتمطت وتناعبت فبرز نهديها ، وبانت فتنها ، ولكن مصطفى لم يشعر بها فقد كان يحس مللاً لتأخر الصحاب .

وضايق الفتاة ذلك الإهمال ، فودت أن ترغمه على أن يلتفت إليها . فنادت على بائع جوال ، وأخذت تحادثه من الشرفة التي ما كانت تبعد عن مصطفى إلا أمتاراً ، فألقى مصطفى عليها نظرة عابرة ، ثم عاد يحدق في الطريق في تهرم ، فقد تأخر الرفاق . لم تجد هذه الطريقة للفت نظره فاغتازلت ، وقررت أن تخاطبه مباشرة ، فقالت :

— هس .. هس .. من فضلك .

فلم يلتفت إليها فما كان يظن أنها تدعوه ، ولكنها هتفت :

— تسمح من فضلك !

فتلفت يمينا ويسارا فلم يجد في الطريق أحداً غيره فاضطرب ، وسرت في بدنه رعدة ، والتفت إليها وقد تدفق الدم الحار إلى وجهه ، وعلاه ارتباك فقالت له وهي تبتسم في رقة :

— معك فك عسرة قروش ؟

فهم بأن يعتذر ولكن صوته لم ينطق ، فhez رأسه في خجل ، ولم تفتن إلى اضطرابه وحسبت أنه لم يرد عليها تكبرا فامتلاً صدرها حقناً ، وفكرت في أن تدعه وألا تلتفت إليه أو تهتم به ، ولكنها ألقت نفسها تتبعه يبصرها برغمها ، ووجدت نفسها تفكر في طريقة ترغمه بها على محادثتها ، ونظرت إلى الكتاب الذى فى يدها فبرقت فى تخيلها فكرة ، فابتسمت ابتسامة خفيفة ، ثم التفتت إليه وهتفت :

— تسمح من فضلك ؟

فرفع رأسه فألفاها تشير له بأصبعها أن تعال ، فخفق قلبه ، وفار دمه فى عروقه ، وقام إليها كالماًخوذ ، حتى لامس حديد الشرفة ، ورفع بصره إليها وقال فى صوت مرتفع أجش :

— نعم .

فرنت إليه فى دلال ، ولكنه لم يفتن إلى دلالها أو فتنتها ، وقالت له وهى تبتسم :

— تعرف تقرأ عربى ؟

فhez رأسه موافقاً ، فدفعت إليه الكتاب من بين حديد الشرفة وقالت له :

— تسمح تقرأ لى هذه الأغنية لأكتبها بحروف فرنسية فأنى لا أجيد قراءة العربية ؟

— حاضر .

وأخذ الكتاب وراح يقرأ لها الأغنية فى تمهل ، ولم تهدأ نفسه ، بل زاد اضطرابه ، واحتبس صوته أكثر من مرة ، فإن الأغنية كانت من الأغاني التى تؤذى من كان مثل مصطفى ، فإنه ينجل من نفسه ، فما بالك إذا كانت

الأغنية تتحدث عن العضة التى فى الشفة ، والسريـر الذى ألقاها الحبيب عليه ١٩ ورفع نظره إليها أكثر من مرة ، فألقاها تكتب فى هدوء دون أن تضطرب أو تصطبـغ وجنتاها بحمرة الخجل ، بينا كان وجهه يصهد ، وصوته يتهدج ، وقلبه يخفق خفقان قلق واضطراب ، وأخطأ فى نطق كلمة ، فقد نطقها نطقا عربيا صحيحا ، فصوبتها له ، وأخطأ فى نطق كلمة ثانية فصوبتها له ، فسرت فى جسمه رعدة كأنما مسه تيار كهربائى ، إنها تحفظ الأغنية عن ظهر قلب . وإنما ما دعتـه ليقراها لها إلا لتسخر منه ، وما خطر له هذا الخاطر حتى تملكه الغضب ، فأغلق الكتاب ، ودفعه إليها من بين قضبان الشرفة ، فلم تتناوله بل قالت له فى رقة :

— استمر .

فقال فى صوت أجش ينم عن الغضب الذى يرتفع فى صدره :

— لا .

وأحسـت ما فى قوله من عزم ، فأخذت الكتاب منه وغمغمت فى دلال ، وانفـرجت شفتاها عن أسنانها البيضاء المنتظمة :

— متشكرة .

فقال فى غلظة وقد أدار ظهره وانطلق إلى أريكة البواب :

— العفو .

وجلس وفى صدره ثورة ، فهى تريد أن تسخر منه ، أن تضحك عليه ، فود لو أنه صفعها على وقاحتها ، ونظر إليها فى غضب ومقت ، ولكنه رآها تبسم له ابتسامة هزته ، فألقى ثورته تخمد وغضبه يذوب كما يذوب الجليد إذا مسته أشعة الشمس .

وجاء فهمى يتبختر ، وسلم على مصطفى وجلس بجواره ، وجعل يتطلع

(فى قافلة الزمان)

إلى الفتاة وقد انفرجت شفتاه عن ضبه الكبير ، فأحس مصطفى انقباضا لم يدر له من سبب ، وشعر أنه يود أن يصرف فهمى بأية صورة ، فنهض وقال له :

— هيا ندخل السلامك .

فقال وهو يتنسم :

— هنا أفضل ، الدنيا حر .

وغمغم في صوت خفيض :

— دعنا نلعم بجارتكم الحسناء .

فأحس مصطفى كأن يدا هصرت قلبه ، وأن شيئا ضيق صدره ، وهو لا يدرى ما به اليوم ، وما كان يحس مثل هذه الأحاسيس من قبل .

واستمر فهمى يصوب إليها نظرات نارية ، فقامت من على مقعدها ودخلت ، فأرضى ذلك مصطفى ، وأحس له راحة ، وقهقه فهمى فقهقه عالية فقال له مصطفى :

— ما يضحكك ؟

— قامت .

— وما في ذلك .

— إنها تخشاني .

فسأل مصطفى في لهفة :

— تخشاك ؟! وله ؟

— إنها تعمل في شيكوريل ، وقد ذهبت إليها بالأمس لأشترى منها شيئا ،

ولكنها لما لمحتني عرفتنى ، فتركت زميلتها تتقدم إلى وتشاغلته هي بتنسيق المعروضات .

فهّم مصطفى بأن يقول له ، لعلها تستثقلك ، ولكنه صمت وأحس مرارة في فمه ، وجفافا في حلقه . واستمر فهمى في حديثه ، قال :

— إنها عيبت من الترام في الميدان ، وتعود في الثامنة مساء ، وقد انتظرتها على محطة الترام مرتين ، فلما رأته أسرعته وجدت في السير ، كأنما تخشى أن ألحق بها .

واستمر في قهقهته ، ولكن مصطفى لم يستطع أن يجاريه أو يتسم ، ودوت في المكان ضحكة فضية مجلجلة ، فالتفت مصطفى فرأى عليا يميل على عبد الرحمن ويضحك ، فهذا وخاض مع الرفاق في أحاديثهم التافهة ، فردت نفسه إلى طبعها .

وانقضى النهار ، فانصرف الرفاق إلى دورهم ، ووقف مصطفى أمام الباب الحديدى ينظر إلى الشرفة فرآها تجلس في الظلام فاضطرب ، وظل مدة في وقفته ، يحس راحة ، وقامت عن مقعدها فازداد وجيب قلبه ، ومدت يديها وتناولت ضلفتى الشرفة وهمت بإغلاقها فارتبك ، فهو لا يحب أن تغلق الشرفة في وجهه ، وتحرك لينصرف ولكنها أحنّت له رأسها وقالت بصوت رقيق يدغدغ حواسه :

— مساء الخير .

فأحس بنشوة ، وبقلبه في جوفه يرقص طربا ، وكأنما خف وزنه ، فقال بصوت يتهدج يتهدج الفرحة :

— مساء الخير .

وأغلقت الشرفة ، فانطلق يعدو فرحان ، يدندن في غبطة وهو يصعد في الدرج .

وجاء الليل ، وفتح السلامك لاستقبال أصحاب حسن ، وكانوا جميعا من رقيقى الحال ؛ أحدهم تاجر دخان قمىء الجسم ، أبيض الشعر ، يتدلى شاربه على فمه ، يقرأ كتب السحر ، مارس السيمياء وحاول أن يستخرج الذهب من النحاس ، يتكلم فى هدوء ، ويدل مظهره على أنه رجل محوط بالأسرار . والآخر خادم زاوية ، ضعيف البصر ، ذرب اللسان ، لا ينجو من لسانه أحد حتى نفسه ، كان فى شبابه خياطا . وكان شيطانا ، فما من معصية إلا قارفها ، فلما ضعف بصره وأقعده عن السهر تاب . لا يسمع قصة إلا ويروى مثلها وينسبها إلى نفسه ، وقد عرف الجميع فيه ذلك ، فكان إذا انتهى أحدهم من قصة تطلعوا إليه ليسمعوا ما سيدخله عليها من حواشى وزيادات . والثالث رجل كبير السن تجاوز التسعين ولكنه قوى ، يشتغل إمام جامع ويقطن إمبابة ، والجامع الذى يعمل فيه بباب الشعرية ، ومع ذلك لم يركب الترام أبدا ، بل كان يأتى على قدميه ، ويعود على قدميه ، وكان يزور السلامك لما ، فما كان من زبائنه الدائمين . والرابع رجل ضخيم الجسم ، له كرش كبير ووجه مستدير منتفخ . وشارب أصفر رفيع ، يشتغل وكيل محام ، والخامس رجل ضيق العينين إذا تكلم أنصت إليه الجميع وبان فى وجوههم البشر ، فهو لا يتكلم إلا عن الولايم وجرونى ، والطعمية التى أكلها عند جرونى ، ثم يأخذ فى وصفها فى إسهاب وطمطنة ، والجميع يتسمون ، وهو ساذج لا يفطن إلى أنهم يسخرون منه ويحسب أنهم مهتمون بحديثه ، ويشتغل تاجر حدايد ، والظاهر أن عقله من جنس بضاعته .

والسادس رجل خفيف ظريف يقص نوادره فى لباقة ، ويشاكس وكيل الحمى ، فهما يقطنان بيتا واحدا ، وكانا رفيقى طفولة ، فى روى قصص صوانى البسبوسة التى التهماها سويا ، ومئات التينات التى غيبت فى الكرش الكبير .

وأخذوا بأطراف الحديث ، وحسن صامت على عهده ، ولكنه مال على القمىء وقال له فى همس :

— الولد ظهرت على عينه سحابة .

فقال الرجل المحوط بالأسرار :

— أمر هين .

— وما نفعل ؟

— أحضر لى غدا تفاحة وسكر نبات ، وسأصنع له قطرة تزيل السحابة بإذن الله .

واستمر الحديث لطيفا حتى بدأ خادم الزاوية فى مهاجمة تاجر الخدايد ، فأراد حسن أن يغير مجرى الحديث ، فمد يده وجذب كتابا من على الشباك وقال :

— من سيدأ القراءة اليوم ؟

فقال الرجل القمىء :

— سليم .

فدفع حسن بالكتاب إلى ابنه ، فتناوله سليم وقال :

— أين وقفنا أمس .

فقال خادم الزاوية :

— صفحة ٢٦ ، ضرار بن الأزور رضى الله عنه .

فتح سليم الكتاب ، وأخذ في القراءة ، وكانوا يمضون سهرتهم في قراءة كتب السيرة ، وقد ابتدأوا أمس في قراءة فتوح الشام للواقدي . وجلس مصطفى ينصت ، ولكنه لم يحس الشغف الذي كان يحسه كلما أنصت إلى ما يقرأ ، فهو يحس اليوم قلقلًا ، وإن قلبه يخفق في صدره ، وإن قوة خفية تدفعه إلى القيام ، وهم بالانفلات ولكنه اضطرب ، وخيل إليه أن الجميع يعرفون سره ، وأحس رهبة تغشاه ، رهبة للذيدة ، رهبة الإقدام على مجهول محبوب ، والتفت إلى الجالس إلى جواره وسأله في حشجة :

— كم الساعة ؟

— الثامنة إلا ربع .

فدق قلبه ، وأجال عينيه في المكان ليرى ما إذا كانوا قد فطنوا إلى تبدله ، ولكنه ألغاهم جميعا مطرقين ، وينصتون إلى سليم في اهتمام ، وقد بان في وجوههم التأثير العميق ، فقام في خفة ، وانسل وقد أرهفت منه الحواس ، وبلغ الباب الحديدي فلفحه النسيم الطلق ، ولكنه لم يهدئ من قلقه واضطرابه ؛ وسار إلى الميدان ، ووقف على محطة الترام ، فكان إذا لمح تراما مقبلا وقف من بعيد يرقب الهابطات وقلبه في صدره يدوى دويًا ، فلما لا يجدها بينهم ، يخف وجيب قلبه ، ويعود إلى محطة الترام ثانية .

واقترب الترام من المحطة ، والتفت فرآها تهبط ففر في الطريق الموصل إلى البيت ، وأحس تغلجلا في مفاصله ، ورعدة تسرى في بدنه . وخفف من خطوه برغمه فما كان يستطيع أن يسيطر على عواطفه ، ومرت لحظات وهو مرهف الحواس ، وشعر بها خلفه فاضطرب ، وظل في سيره ووسعت من خطوها حتى أصبحت بجواره ، وحاول أن يلتفت إليها ولكنه لم يقدر ، فقد كان في غمرة من القلق والذهول ، وداعب صوتها أذنيه فقد قالت في رقة :

— مساء الخير .

فالتفت في ذعر ، وقال في صوت مبجوح مخنوق :

— مساء الخير .

وتطلع إلى وجهها ، فأحس أمنا ، فقد كانت تبسم له وقالت :

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— إذن نسير معا .

وهدأت نفسه ، وتبخر فزعه وذعره ، ولفته نشوة ، وأحس وهو يسير إلى جوارها غبطة ، وأنه قد خلق خلقا جديدا . سارا صامتين في الشارع الذي نخم عليه الظلام والهدوء ، وهو يشعر بأحاسيس حلوة لطيفة ، وحاول أن يتكلم ، ولكن سعادته فاضت عليه وغمرته ، فلم يجد ما يقول .

وبلغا باب السلامك الحديدى ، فالتفت إليه وقالت :

— مساء الخير .

فقال في صوت هادئ واضح :

— مع السلامة .

وانخرفت إلى بيتها ودلف إلى الدهليز الموصل إلى السلامك في سرور وصعد الدرجات القليلة التى اعترضته قفزا ثم جلس ينصت إلى قصة أسر ضرار بن الأزور ، ولكنه لم يستطع أن يحصر ذهنه فيما كان يقرأ بل كان يود أن يمتلئ بنفسه ليجتز ما حدث على مهل ، وليستعيد النشوة الخاطفة التى غمرته وهو إلى جوارها .

وصعد إلى شقة جدته ، وانطلق إلى غرفة فيها نافذة تطل عليها ، فأسرع وأطل منها ، فألفاها تجلس فى الشرفة ، فجلس على حافة النافذة ينظر إليها فى رضا ، وأخذ الوقت يمر وهو لا يشعر بانقضائه .

التفت سليم إلى فريد وقال :

— لن تصرح الحكومة لخالك بإصدار المجلة ، فما نفعل الآن ؟

— نبحث عن مصرى نثق فيه نصدر المجلة باسمه .

فقال أسعد فى يأس :

— فلندع هذا المشروع ولا نفكر فيه .

وفتح باب السلامك ، ودخل راتب ، وهو نجار يرتدى البذلة لأنه عضو

فى لجنة الوفد بباب الشعرية ، وفى يده رواية ، فهو مشغوف بقراءة

الروايات ، وقد قرأ جونسون وفانتوماس وطرزان والروايات التى تنشرها

جريدة الأهرام تباعا ، وكان يأتى إلى سليم ليستعير منه الروايات التى يشتريها

من مكاتب الأزهر ، وقال سليم فى إصرار :

— بل لابد من إصدار المجلة .

فتدخل راتب محبذا :

— تصدران مجلة ؟ والله فكرة رائعة .

فقال أسعد فى سخرية :

— فكرة رائعة ، ولكن كيف ننفذها ؟

فقال راتب :

— ما أيسر التنفيذ .

فضاق أسعد به وقال فى تبرم :

— وما أدراك أنت ؟

وقال له سليم :

— إن العقبة الوحيدة يا راتب هي أننا لا نستطيع أن نحصل على
الرخصة .

— وهل هذه عقبة ؟ ما أكثر الرخص في السوق .

فبان الاهتمام في وجه سليم وقال :

— ما تقول ؟

فقال راتب في بساطة :

— لى زميل نجار عنده رخصتان .

فقال فريد في لهفة :

— حقا ؟

— إن شئت أن أحضره معى غدا فعلت .

فقال سليم في حماسة :

— بل اليوم إن استطعت .

— اليوم .

وخرج راتب يدعو زميله ، وبقي أسعد وسليم وفريد يفكرون فيما
يقولونه للرجل ، ولم يخطر على ذهن واحد منهم الأستاذ الكبير محمد
الإيراني ، فلم يفكرون فيه وقد انفرجت أزمة الرخصة ؟

وفي العصر جاء راتب وزميله ، وكان شابا نحىلا أثمر البشرة ، له شارب
أسود خفيف ، يميل طربوشه إلى اليسار قليلا ، وكان ذلك دليل الأناقة في
ذلك الوقت ! — ومد يده الحشنة وصافح الموجودين ، وبعد وقت قليل
ارتفعت الكلفة بينهم ، فراح سليم بسمعه أزجاله ، وأخذ محمود يروى
أزجاله ، وشاء راتب أن يريهم أنه زجال مثلهم ، فراح يقرأ بعض أزجال لم

تصنفر بعد ، فبانت على الوجوه أمارات سخرية واستخفاف .
واستمروا في الحديث حتى إذا ما غابت الشمس كانوا قد اتفقوا على إصدار المجلة ، على أن يكون سليم رئيس التحرير .
وانصرف الشبان ، وخيم الظلام ، فأنازل البواب السلامك لاستقبال وفد الليل ، وابتدأ الرجال يقدون حتى إذا اكتمل عقدهم وفرغوا من حديثهم ، التفت أحدهم إلى مصطفى وقال :
— على مصطفى أن يقرأ اليوم .

فانقبض صدر مصطفى ، وأحس قلبه يغوص في قدميه ، فهو لا يريد أن يقرأ ، وهو ينتظر في قلق مرور الدقائق ليخرج لاستقبال راشيل ، وخطر لتاجر الحديد أن يروي قصة وليمة حضرها عند تاجر كبير من تجار الخيش ، فأخذ يقص قصته ويسهب في التفاهات ، والرجال يتسمنون ، ورأى مصطفى الفرصة سانحة ليفلت ، فانسلت في خفة ، وانطلق نشوان في الطريق الموصل إلى الميدان .

ووقف على محطة الترام كما اعتاد أن يقف كل يوم ، وكلما جاء ترام خفق قلبه ، وابتعد عن المحطة ، فهو لا يريد أن تراه وهو واقف ينتظرها ، ويجب أن يوهما أنه يقابلها صدفة ، ولكن أية صدفة هذه التي تتكرر كل ليلة .
وجاء الترام وهو بعيد يرقبه ، فلما لمحها تهبط ، أغذ في السير ثم استدار وسار ليقابلها وجها لوجه ، وتقابلت العيون ، فابتسمت الشفاه وخفق الفؤاد ، وهز مصطفى السرور وقال مرحبا :

— أهلا يا ...

وود أن ينطق باسمها ، ولكن الاسم مات على شفثيه ، فهو لا يجزؤ على أن ينطقه ، ويحس انحلالا إذا حاول أن يدعوها باسمها ، وضعفا يدب في

أوصاله ، وسارا في الطريق المعتم الموصل إلى بيتيهما ، ومدت يدها وقبضت على يده ، فشعر بنشوة وبخدر لذيد يدغدغ حواسه ، وبسعادة شاملة تشيع في نفسه ، فهو يود ألا ينقضى الطريق . ليت يسير إلى جوارها أبدا ، فقد أصبح يعيش لهذه اللحظات القصار . ولو أن حياته خلت من هذه الدقائق التي يقضيها معها يحدثها في نشوة ، لبات حياته فارغة لا تستحق شيئا . وبلغا نقطة الانفصال ، فضغطت على يده في خفة ، فرقص قلبه في صدره فرحا ، وقالت له في رقة :

— إلى اللقاء .

فغمغم بصوت مفعم بالسعادة :

— إلى اللقاء .

ولم يذلف إلى السلامك ، فإن جو السلامك الصاحب لا يصلح للأخيلة الشعرية التي كانت تملأ رأسه ، وهو يريد مكانا هادئا ينفرد فيه بنفسه ، ينعم بأحاسيسه اللذيذة المذخورة .

وصعد إلى شقة الجدة هيمان نشوان ، ودخل إلى الغرفة المواجهة لشيقتهما ، واعتلى النافذة التي تطل عليها ، وجلس ساهما يحس أحاسيس النائم الذي ينعم بحلم لذيد .

وفتحت الشرفة وجلست راشيل على مقعدها تستروح هواء الليل البليل ، فراح يرقبها في سرور ، وقد تفتحت نفسه كما تفتح الورد في الربيع . ومدت يدها وأدارت القونوغراف القريب منها . ووضعت عليه أسطوانة ، وانبعث صوت سيد درويش أخاذا يردد في سكون الليل :

« آه ، أنا هويت ... » فأحس الصوت المعبر ينفذ إلى قلبه ، ويهز أوتاره ، ويملؤه خشوعا ، فسالت دموعه على خده ، ولكنه لم يحس في صدره لوعة ،

بل أحس حبا ، إن كل شيء تقع عليه عيناه الساعة يبدو له جميلا ، وأصبحت الدنيا باسمه ، وزها قلبه وازدهر حتى أصبح يتسع للدنيا بأسرها .

٥٧

استيقظت أم على الخادم العجوز من نومها وجلست في فراشها ، وجعلت تعالج عينها حتى تمكنت أخيرا من فتحهما ، فرأت النور قد غمر السطح ، فهبت من فراشها وهبطت إلى الشقة لتجهيز الشاي للأولاد . سارت في الردهة ، وراحت تمد بصرها إلى الغرف ، فلمحت كومة ييضاء من الثياب على أريكة في الغرفة الوسطى ، فخطر لها أن تدخل لتحمل الغسيل وتنقله من هذه الغرفة قبل أن يستيقظ سيدها ، فهو يجلس في الصباح في تلك الغرفة .

وانطلقت إلى الثياب ، ومالت عليها لتحملها ، ولكنها ارتدت مذعورة ، وخرجت تفر من الغرفة ، فلم يكن ما تحت كومة من الثياب ، بل سيدها نفسه ، وانطلقت إلى المطبخ وهي تردد في أسف :

— يا للكسوف .. يا للكسوف !

فسألها أمينة ، وكانت في المطبخ تجهز القهوة :

— ماذا جرى يا أم على ؟

— اسكتي يا سيدتي ، اسكتي ، حملت سيدي .

— ماذا ؟

— حسبته الغسيل لم يطبق .

فابتسمت أمينة ، وتركت القهوة على النار ، وذهبت إلى حيث كان

حسن فألفته صامتا ، فضحكت وقالت :

— ماذا فعلت أم على ؟

فابتسم وقال :

— مسكينة ، نظرها ضعيف .

وجاء سليم وفي يده مجلات إنجليزية يحاول أن يترجم بعض مقالاتها ، فهو رئيس تحرير المجلة ونجاحها مرهون بجهوده ، وأقبل مصطفى وجلس بجواره ، فأخذ يقرأ له ما اختاره للعدد الأول فيبدي مصطفى إعجابه بكل ما يسمع . وشربوا الشاي وتناولوا الفطور . وهبط أسعد وسليم ومصطفى إلى السلامك ينتظرون فريدا ومحمودا .

وجاء فريد وفي يده صورة الغلاف التي صممها ، ونشرها أمام الرفاق في زهو ، فأبدوا إعجابا شديدا بها ، وكانت تصور مارس إله الحرب يشن الحرب على الرذائل والموبقات .

وجاء محمود متلهل الوجه وقال :

— اتفقت مع المطبعة على أن نقدم لها الأصول اليوم ، وتسلم لنا المجلة بعد

خمسة أيام ، فقال سليم :

— عال .. الأصول جاهزة .

فقال أسعد :

— فلنعد قراءتها الآن ، ولنذهب في العصر لتسليمها .

وجعلوا يقرأون الأصول للمرة العاشرة ، ومصطفى ينصت في إعجاب ، وقد كاد أن يحفظ مقالات العدد الأول كلمة كلمة .

وجاء راتب ، وقد ظهر في وجهه ضيق وغضب ، فسأله محمود :

— ما بك ؟

— هل رأيت الصورة الخلية التي لصقتها دار السينما في ميدان باب الشعرية ؟
— لا .

— لو رأيته لفار دمك .

— وما بها ؟

— ما بها ! امرأة عارية يتندى جبين الفضيلة خجلا من رؤيتها .

— وما الذى يفضبك ؟

— يغضبني هذه الدعارة السافرة ، لو كان في البلد حكومة لما جرؤت
دار سينما على لصق مثل هذه الصورة الفاجرة .

— وما تستطيع أن تفعل ؟

— سأمزق هذه الصورة .

— هون عليك ولا تحرق دمك .

— لا . الفضيلة تدعوني وسألبى النداء ، وليكن ما يكون .

وخرج من السلامك شاخا بأنفه ، وقد بان في وجهه العزم الأكيد ،

فخرج مصطفى خلفه ليرى ما يفعل راتب المفضل .

سار راتب يغذ في السير ، فقد كانت الفضيلة تضطرب في صدره ،

وأخذ مصطفى يهرول خلفه ، حتى إذا بلغ الميدان رمق الصورة في غضب ،

فقد كانت عالية لا يستطيع أن يصل إليها وهو على الأرض واقف ، ولكنه لم

يقنط ، فذهب إلى دكان قريب استعار منه سلما وضعه على الحائط ، وجعل

يرقاه في حماسة حتى إذا بلغ الصورة أخذ يمزقها وهو يزمج في غضب :

— وقاحة .. قلة أدب ..

وكادت هذه الفعلة تمر بسلام ، لولا حظ راتب التعيس ، فقد مر في ذلك

الوقت موظف من موظفي السينما ، فلما رأى ما يفعله راتب استدعى رجل

البوليس ، فجاء والتفت إلى راتب وقال له :

— ما تفعل ؟

فقال راتب في فخر :

— أمحو الرذائل ، إننا شرقيون ، عندنا شرف ، لا نقبل ذلك التهتك .

وهبط ، ووقف مزهوا ، فقال له موظف السيما :

— لم هذه الخفة ؟ أليس في البلد شريف غيرك ؟

— ومالك أنت ؟

— مالى ؟ سترى مالى ، لن أدعك إلا في القسم .

فقال راتب في حدة :

— أنا الذى سأقتادك إلى القسم . لو كان في البلد حكومة لما عبثتم مثل

هذا العبث .

وساء رجل الحكومة أن تهان الحكومة في حضرته ، فقبض على راتب ،

وسار راتب إلى القسم مرفوع الرأس .

وذهب سليم إلى المطبعة يصصح التجارب ، وفيما هو منهمك في عمله إذ

بلغهم نبأ وفاة سعد زغلول ، فترك ما كان يفعله وتناول ورقة وقلما وأخذ

يكتب رثاء للزعيم الراحل ، فهو رئيس التحرير ، وحق عليه أن يكتب ذلك

الرثاء من ذوب القلوب .

وانقضى الموعد المضروب ولم يتم طبع العدد الأول ، فانتاب أسعد وسليما

القلق ، وفات موعد ظهور المجلة ولم تظهر ، فنزل بهما هم ثقيل ، وطبع

الغلاف فلم يبد من الصورة الرائعة شيء .

وتم إعداد العدد بعد موعد ظهوره بأسبوع ، فلم يدروا ما يفعلون ، فإن

متعهد الصحف رفض توزيعه ، فحملوه وراحوا يوزعونه على باعة الصحف

بأى ثمن وبدون ثمن .

وحزن سليم لذلك الفشل المرير الذى حاق به ، وما زاد في حزنه أنه كان يعتقد أنه لم يقصر ، وأنه بذل كل ما في وسعه ، وأن الفشل نتيجة عوامل خارجية لا سلطان له عليها . ومما ملأه غضبا وحنقا أن المجلة ظهرت في السوق بعد أسابيع تحمل اسم رئيس تحرير غيره . وأن سليما ليقسم أن العدد الأول الذى أخرجه أعظم بكثير من ذلك العدد التافه الذى لا يستحق شيئا ، ومن يدرى فقد يكون سليما محقا ، أو قد تكون تلك العاطفة التى تحسن في عين الإنسان كل ما ينتجه هى التى دفعته إلى أن يقسم في حرارة وإيمان .

٥٨

زكية في ثيابها السود جالسة تسح الدموع ، تحس نارا تتأجج في صدرها وحزنا يكاد يفلق كبدها ، فقد مات زوجها ، وما كان كل ذلك الحزن على الراحل الذى ولى بعد مرض طال ، ولكن على نفسها ، فقد خرجت من الدنيا بلا ولد ، فلو أنها أنجبت لكان حالها اليوم غير الحال .

أصبحت وحيدة في الدنيا وإن كثر أهلها ، كانت تتمنى لو يكون لها ولد تغمره بمحبتها الذى ظل مذكورا لا يجد له متنفسا ، وتبتلع به آمالها ، ويخفق له قلبها ، وتقاسمه أفراحه وأتراحه . أما الآن فقد أصبحت حياتها فارغة لا وزن لها ، تحيا بلا أمل ، وما أقسى الحياة على من يحيون بلا آمال .

أسودت الدنيا في عينها ، فسترحل بعد يومين إلى بيت أمها ، فما الذى يبقيا في هذه الشقة بعد موت زوجها ؟ لقد أصبحت وحيدة ، وما كان لوحيدة أن تعيش في شقة بمفردها ، لو أن لها ولدا لبقيت في الشقة التى نعمت

غيبها بالسعادة ، تختلس لحظات تجتر فيها الذكريات العذبة التى يوحىها المكان إليها ، ولكنها سترحل مخلقة المكان ، هاربة من الذكريات ؛ ولكنها سترك الدار التى عرفت فيها الأحزان والأشجان ، ولكن أين ؟ إلى نعيم ينتظرها أم إلى سعادة تبسط لها ذراعها ؟ ! إنها منطلقة إلى مستقبل كئيب موحش ، ستمضى بقية أيامها فى بيت الأحزان تندب الحظ العائر وتسخط على الزمن الذى جار .

وتذكرت يوم دخل أخو زوجها وأخذ حجج البيوت والأرض ، فزاد انقباضها ، فهى تعرفه جيدا ، قاس قد قلبه من صخر ، جشع الأطماع ، لا يتورع عن أن يأكل حقها فى يسر ، فهو يعتقد فى قرارة نفسه أن المرأة التى لا تنجب لا حق لها فى أموال زوجها ، وقد حزرت ذلك من أحاديث سلفتها . وانتابها قلق شديد فلو أنه أكل نصيبها لكانت أيامها المقبلة عذابا مريرا ، فهى لا تطيق أن تكون عالة ، حقا إنها قد ورثت عن أبيها شيئا ، ولكن ذلك الشيء لا يكفيها لتحيا أيامها الباقية حياة كريمة .

وكيف يأكل حقها ! هل تشكوه وتأخذ منه حقها كاملا غير منقوص . ولكن من ذا الذى يشكوه ؟ إن أهلها لم يلجأوا إلى المحاكم أبدا ، وإنهم يفضلون أن يتركوا حقوقهم على الدخول فى قضايا ، إن حسنا يقول دائما إذا ما ذكرت المحاكم : « الخصمان خاسران ، والمخامى هو الرابع » . وأحست غصة فى حقها ، وكآبة مريرة تسرح فى صدرها ، فأجهشت بالبكاء على ميل بختها ، فالتفتت إليها أم أحمد زنوبة وقالت :

— كفى يا زكية ، كفى يا بنتى ، أمر الله نفذ .

فقال زكية فى نبرات حزينة وقد خنقتها عبراتها :

— اسودت عيشتى يا أم أحمد .

— اصبرى رحمة ربنا واسعة .

وانقضى اليومان الباقيان ، فتأهبت زكية للرحيل ، فلما انقضت خاتمة الأربعين ، قامت زكية وأخذت تبكى حتى كاد ينصدع قلبها ، وسارت وأم أحمد خلفها ، وقابلتها سلفتها على بسطة السلم التى تفصل بين شقتيهما ، فسلمت عليها وقد انخرطت فى البكاء ، وارتفع النحيب ، وهبطت زكية فى الدرج وهى تنهه وتذرف الدمع السخين ، وقالت السلفة فى صوت مخنوق .
— هذا من يختنا الأسود .

ولم تنبس زكية واستمرت فى بكائها ، ولكن انبعث صوت من أعماقها يهتف :

— والله ما أحد اسود بخته غيرك يا زكية .

وسارت تحترق الحارة التى كانت تقطنها وأم أحمد بجوارها ، وكان بعض النسوة يجلسن أمام دورهن ، فلما لمخنها أخذن يمصمصن فى حسرة فى صوت مسموع ليبلغن سمعها ، وراحت هذه تقول : « كبدى » وتلك تغمغم « أمر الله » وثالثة تهتف : « شدى حيلك ، العوض على الله » واستمرت زكية فى طريقها ملتاعة ، تحس لحزنها لذعا يضمنها ويعذبها تعذيبا .

وبلغت البيت الكبير فاستأذنت أم أحمد فى الانصراف ، فأذنت لها ، وصعدت فى الدرج ، وقد ارتسم فى وجهها الحزن المرير ، ودخلت شقة أمها فى صمت ، فلما رأتها نفيسة بأسرة الوجه انقبض صدرها ، واهتز قلبها حسرة على ابنتها . وجرى دمعها فتحركت شجون زكية فأجهشت بالبكاء . وبلغ صوتها آذان أمينة وأم على ، فهرعتا إليها ، وراحت أم على تعزيبها وهى تبكى ، وجلست أمينة بجوارها تنتحب فى صوت مسموع ، وجاء أسعد وسليم ومصطفى يحيون عمتهم ، فقد كانوا يحبونها ، فوجدوا

المناحة قائمة فجلسوا صامتين .

ومرت أيام وأخذت زكية تلمح لحسن ليكلم سلفها في أمر ميراثها ، إن زوجها لم يقصر في حقها ، فقد عرض عليهم الحجج لما اشتد عليه المرض ، ولكنهم أبوا أن يأخذوها ، لو أنهم أخذوها لسهل عليهم إثبات ما يملك ، ولسهل على زكية أن تأخذ حقها ، أما الآن فإن الأمر جد عسير ، إذ باتوا في قبضة الرجل الجشع ، وسيفعل بهم ما يحلو له ، وسيرغمهم على قبول ما يملئ من شروط .

قالت زكية :

— ألم يرسل لك ؟

— انتظري ، إذا مر هذا الأسبوع دون أن يرسل لي ، فسأذهب لمقابلته وسأفاته في الموضوع .

— وما نويت أن تفعل معه .

— التفاهم في هذه الحالات أفضل .

— أتدعه يأكلني ؟

— لا . سأخذ حقه منه

— ماذا لو أخذت معك أخاك أحمد ؟

— لا لزوم لذلك ، فإن أحمد سريع الغضب ، قد يفسد كل شيء .

— افعل ما بدا لك .

ومر يوم وأرسل الرجل إلى حسن ، فذهب لمقابلته ، وبقيت زكية تنتظر أوبة أخيها في قلق ، فهي تعلم أنه سهل وتخشى أن يضيع لها كل شيء بطيئته ، وعاد حسن فسأله في لهفة :

— خير ، ماذا فعلت ؟

- عرض الرجل ألف جنيه على أن تتنازلى له عن كل شيء .
فقالت فى تحفز :
— وهل قبلت ؟
— كيف أقبل والموضوع يخصك ، قلت له إني سأعرض الأمر عليك وأبلغه رأيك .
— إني أرفض .
— وكم تطلبين ؟
— حقى ، ما شرعه الله لى .
— إن ذلك عسير ، كيف يمكننا أن نحصر كل ما كان يملكه ، إن كل شيء له كان فى جيب أخيه .
— وما ترى أن نفعل ؟
— نقبل ألفين .
— أبدا .
— لا تشددى ، كل شيء زائل .
— لو كان مستحقا لتركته له حقى ، ولكنه غنى ، مقتدر .
— لا لزوم لذلك ، نأخذ الألفين أفضل .
فطأطأت زكية بصرها وقالت :
— افعل ما ترى .
وذهب حسن إلى شقته ليخلع ثيابه ، فالتفتت زكية إلى أمها وقالت فى حسرة :
— لولا ألقى لا أحب أن أتعب حسنا ، وأن أجشمه متاعب المحاكم ، لما قبلت أبدا ، إن ذلك الرجل يغتالنى ، يقتلنى . ألفا جنيه ؟ أنصيبى فى البيوت

أم في الأراضي ، أم في أكياس الذهب ؟ يا للعيشة التي اسودت .
ثم تناولت منديلها ، وجعلت تمسح دموعها التي تفرقت في مقلتيها .

٥٩

جلست راشيل في الترام تتدثر بمعطفها الكحلي ، وترفع بنيتها لتتحمى
البرد الذي يصفع وجهها ، ثم خفضت رأسها وأطلقت لحياها العنان ؛
راحت تفكر في مصطفى الذي ينتظرها كل يوم على محطة الترام . وإن ذلك
يسرها ويرضيها ، ولكن صمت مصطفى يجرح كبرياءها ويفيظها .. لماذا لا
يحدثها عن حبه ، ولماذا لا يظهر إعجابه بها ؟ هي تعلم أنه يحبها ، وهي تحس
ذلك وتقدره وتسره له ، ولكنها تريد أن يثبتها لواعج نفسه ، لو أنه قال لها
أحبك ، لكانت أسعد حالا . هي تتمنى أن تسمع منه كلمة غزل كتلك
الكلمات التي تسمعها من الشبان كلما مرت بهم . ما أروع جمالك ، ما
أحلاك . هي تتمنى أن يناديها باسمها مرة ، فهو يحدثها دون أن يذكر اسمها ،
فما نطق به أمامها أبدا ، ترى كيف ينطقه ؟ وهل يتهدج صوته إذا ذكره ؟
لعله لم تتح له الفرصة ليثبتها لواعج نفسه ، ولكن أية فرصة ، إنه يقابلها
من شهور كل يوم ، ويحدثها في حذر ، ويفترق عنها دون أن يضغط على يده
كما تفعل ، ماذا عليه لو أنه أخذ يدها بين يديه ، وقال لها أحبك يا راشيل ...
ثم ضمها إليه وقبلها قبله تترجم عما يكنه لها قلبه من حب وهيام ، لو أنه فعل
ذلك لاستسلمت له وفرحت به .

إنها سترغمه على أن يعترف لها بحبه ، بل سترغمه على أن يركع عند
قدمها ، إن صمته يؤذيها ويضايقها ، إن لم يبع لها الليلة بمكنون نفسه

فستهجره . وهى تحس أنه لا يطيق أن تمر الليلة دون أن يراها ، ولكنها لا تحب أن تعذبه ، ألا يكفيا أنها تشعر بحبه ، فما قيمة البوح به ! ما قيمة البوح به ؟ إن مناجاته لها تشرح نفسها .. تروىها ، إن فى إنصاتها إليه وهو يعرض عليها قلبه فى صوت مضطرب متهدج لذة أى لذة ! فلماذا يحرمها سعادة لا تكلفه شيئا ؟ لابد أن يثبثا لواعج نفسه وأن ييوح لها بمكنون قلبه .

وهبطت من الترام ، فصفرت الريح الباردة ولفحت وجهها ، فضمت معطفها ، ومدت بصرها فألفت مصطفى يضرب فى الميدان وحيدا . إن الليلة قارسة البرد ، ومع ذلك فقد جاء مصطفى ليقابلها ، وأرضى ذلك غرورها فابتسمت ، وأقبل مصطفى إليها مسرعا كأنما هو إبرة تنجذب إلى مغناطيس ، وسلم عليها وسار بجوارها وهو يرتجف من البرد ، وأحست القشعريرة التى تسرى فى بدنه فأثلج صدرها . فهو يحبها ، ولولا ذلك ما تحمل الجو المكفهر الذى فر الناس منه إلى بيوتهم ، وما خرج الليلة إلا لأنه يهاها ولا يطيق أن ينام دون أن يراها ، ولولا ذلك لكان الآن قابعا فى سريره ، أو جالسا بجوار الجمرة يستمد منها الدفء فتسرى الحرارة اللذيذة فى جسمه المفلور .

ورأت الفرصة سانحة لتستدرجه ليعترف لها بحبه ، فالتفتت إليه وقالت فى دلال :

— ما الذى يدعوك إلى الخروج فى مثل هذه الليلة الشديدة البرودة ؟ . وانتظرت أن يقول لها : أنت ، فما أطيق أن تمر ليلة دون أن أراك ، ولكنه اضطرب قليلا ، وقال وقد أحس الدم يصعد إلى رأسه ونبضه يسرع ، وكانت هذه حاله كلما اضطرب إلى الكذب :

— أحب أن أتمشى بعد العشاء .

ولم ترتح إلى هذه الإجابة ، وساءها هديره . وقالت في نفسها في
سخرية :

« حقا ؟ سنرى أتحب أن تتمشى بعد العشاء أو أنك تحبني » ، وأرادت أن
تنال منه كما نال منها فقالت في سخرية :

— لو كنت مكانك لكنت الآن في فراشي نائمة .
فلم يغضب كما غضبت ، فهو يعلم أنها تكذب كما يكذب ، فقال في
بساطة :

— أتحبين النوم ؟

— لو تركوني نمت الليل والنهار .

فابتسم ، وسارا في الشارع المظلم الهادئ وحيدين . وانتظرت أن
يقرب منها وأن يلتصق بها ، وأن يلف ذراعه حولها ، ولكنه ظل سائرا
بجوارها لا يفكر في شيء من ذلك ، فقد كان يحس سعادة عارمة ، ونشوة
كبرى لسيره بجوارها ومحادثتها ، فإن ذلك يكفيه ، وحسبه أن يدوم .
ودخلت في فراشها وراحت تفكر في ذلك الشاب الصغير الذي ينال منها
بصمته ، ويجعلها تحقر نفسها أحيانا . لماذا لا يتكلم ؟ لماذا لا يحاول معها ما
يحاوله الشباب ؟ لعله صغير لا يدري ما الحب بعد ، فما الذي يربطها بغلام
لا يفقه ؟! إن له أخوين أكبر منه ، يفقهان في الحب أكثر منه ، فلماذا لم تختتر
واحدا منهما بدلا منه ؟! بل لماذا لم تختتر شابا آخر من أصحابهم الكثيرين الذين
يتطلعون إليها في نهم كلما جلست في الشرفة ، أو خطرت في الطريق ؟! إنها
لن تقابله غدا ، وستعذبه ، وستتزع اعترافه بحبها انتزاعا ، وسترغمه على أن
يتفرغ في الرغام ، وستضنيه وستصهره حتى يلين ويصبح عجينة في يدها
تشكلها كيف تشاء .

وحاولت أن قطرد صورته من رأسها ، وتفكر في شبان جاءوا إليها ذلك اليوم في المحل وأخذوا في مغازلتها والتودد إليها ، ولكن صورته كانت تلح عليها ، وفكرت في فهمي صديقه ذى الضب الكبير الذى انتظرها في شارع فؤاد الأول وراح يكلمها في إلحاح ، فأحست امتعاضا وعادت تفكر في مصطفى وفيما تفعله لترغمه على الاعتراف بحبا .

ومر النهار وولد الليل البهيج ، ووافى الموعد فخرج مصطفى إلى الميدان منشرح الصدر ، وراحت الريح تولول ، والبرد يخزه فيرتجف ، ولكنه لم يتأفف ، وأخذ يرقب الترام في تشوف ورجاء ، وجاء ميعاد أوتبها ولكنها لم تأت ؛ لعلها تأخرت لسبب من الأسباب . وانتابه قلق ، وراح يقطع الطريق بين محطة الترام ومخزن الأدوية وكانت في واجهته ساعة كبيرة ، نظر إلى الساعة فألفاها الثامنة والربع . لقد مر ربع ساعة على ميعادها . فأخذ يسير في الميدان وحده منقبض الصدر ، يتطلع إلى الترام في قلق ، وكان كلما هبطت منه فتاة خفق قلبه وهرع إليها . فلا يجدها فتاته فيعود إلى المحطة وقد انتابته خيبة وفشل . وسار إلى مخزن الأدوية وتطلع إلى الساعة فألفاها الثامنة والنصف ، فأحس حنقا ، وأرهفت حواسه حتى كاد يسمع تردد أنفاسه ، ودقات قلبه في صدره .

ووقف عند محطة الترام يتلفت في قلق ، يحس غصة في حلقه ، وضيقا في صدره . ومر الوقت قاسيا لا يرحم ، وهو يتعلق بخيوط واهبة من الأمل ، وفكر في العودة أكثر من مرة ، ولكنه كان يقنع نفسه بأنها قد تأتت في الترام القادم ، فإذا أقبل الترام ولم تكن فيه ، أخذ في إقناع نفسه بأنها في الترام الذى يليه .

وسار مطاطىء البصر ، يتملكه الضيق ، ويشع في نفسه الأسى ، حتى إذا



وانتظرت أن يقترب منها، وأن يلتصق بها، وأن يلف ذراعه
حولها... ولكنه ظل سائرا بجوارها لا يفكر في شيء من ذلك

بلغ مخزن الأدوية رفع بصره فألفاه مغلقا ، فتلفت حوله فلم يجد دكانا واحدا مفتوحا ، ولم يجد في الميدان غيره ، حتى الشرطي اختفى خلف بناية قائمة في الميدان يحتمى من البرد الزمهرير .

وعاد إلى محطة الترام ، وقد عزم على أن ينتظر ترامين وبعدها يعود ، ووقف بمد بصره إلى الطريق ، فلما لمح الترام قادما تمنى أن تكون فيه ، وجاء الترام واستأنف سيره كما فعل عشرات قبله دون أن تهبط منه راشيل . وأخيرا سار في طريق البيت وحده كسير القواد خافض الرأس ، وكلما سار خطوة التفت خلفه ، حتى اختفت المحطة عن عينه .

وفي الليلة الثانية خرج ليقابل راشيل ، وراح يفكر فيما دعاها لعدم مقابلته بالأمس . إنه يحزر أنها فعلت ذلك لتنتقم منه لأنه لم يبيع لها بحبه ، وهي في كل ليلة تسأل أسئلة لا جواب لها إلا : أنا أحبك ، ولكنه كان يتربص من الإجابة عنها أو يلوذ بالصمت . كان يتمنى أن ييوح لها بحبه ، ولكنه كان يعتقد في قرارة نفسه أن الاعتراف بالحب ذل وخضوع . لقد أحبها ، وهي تعلم أنه يحبها ، فلماذا تلج في أن يعترف لها بحبه ؟ لعلها تريد أن تذله ، ولكن هيئات ، فهو يفضل أن يطوى حبه ، وأن يدوس قلبه ، وأن تأكل النار صدره ، من أن يذل كبرياؤه .

هو لا يستطيع أن يتصور نفسه يتذلل لفتاة أو أن يكتب لها رسالة حب ؛ ويرى في ذلك ضربا من الملق والرياء ، وهو يربأ بنفسه أن يمزج عواطفه الصادقة بالملق والرياء !

ووصل إلى الميدان الهادئ ، وخطر له أنها قد لا تأتى اليوم أيضا فاضطرب ، وراح يضرب في الطريق وحده يتتابه القلق ، وما وافى الميعاد حتى ألفاها تهبط من الترام متلهلة ، فرقص قلبه في صدره ، وانطلق إليها

نشوان ، ونظرت إليه وابتسمت ابتسامة لها معناها ، كأنما تقول له في تشف : « لم آت بالأمس لأغيطك » ولكنه تجاهل ابتسامتها ، وانتظرت أن يسألها أين كانت البارحة ، ولكنه ظل في صمته ، ولم يشر إلى ذلك أية إشارة ، فأحست بهزيمتها ، فما كانت تظن أن يستعصى عليها أمر ذلك الغلام ، وانتشرت على وجهها سحابة خفيفة من الضيق ، ولكنها ما أن التفتت ورأت الهيام في عينيه حتى انقشعت تلك السحابة ، وأحست قلبها ينجذب إليه ، وتذكرت الهدية التي اشترتها له ، فقد اشترت له هدية ، ولم يفكر في أن يهديها شيئا .

ومدت يدها وأخرجت زجاجة عطر فاخرة دفعتها إليه وقالت :
— خذ هذه .

— وما هذه ؟

— هدية بسيطة منى .

ونظر إلى يدها الممدودة فرأى زجاجة عطر فاخرة ، فاضطرب وقال في توسل :

— أبقها لك .

— خذها .

فقال في قلق :

— لا أستطيع .

فازداد عجبها ، أيريد أن ينال منها أكثر مما قال ؟ لقد قهرها أكثر من مرة ، أو يرفض أن يأخذ منها هدية ؟ وما معنى هذا ؟ احتقارها ؟ ! استخفاف بها ؟ ! فما كانت تدري أن هناك من يرفض هدية من حبيبة ، وكانت تحسب أن الطرب سيستخفه ويحل عقدة لسانه ، فيشكرها على هديتها . أما أن يعتذر

عن قبولها فهذا ما لم يحل لها بخاطر . حقا إن هذا الغلام يحيرها ، وساءها إحجامه فقالت وقد تبدل ضوتها بعض التبدل :
— والله إن لم تأخذها فلن أكلمك بعد اليوم .

إن هذا قسم عظيم لا يطيقه ، وأخذ الزجاجة وهو كاره . لم تقدم له هدية قبل الآن أبدا ، ولا يدري لها من مغزى ، إنه يرى أن الهدية من ضعيف إلى قوى رشوة ، ومن كبير إلى صغير صدقة ، وإنه ليرى الهدية على ذلك القياس تخدش الكرامة ، وتنال من الكبرياء ، وما كان يدري أن الحبيب يهدى إلى الحبيب ، وكان يعتقد أن خير ما يهدى إلى الحبيب صادق الود ، وخالص الحب ، لا زجاجة عطر .

وسار صامتا لا ينبس بكلمة شكر ، فقد وضعته بهذه الهدية في مأزق ، فكيف يعود الآن إلى الدار ومعه زجاجة تفضح سره ؟ لقد خرج من البيت وليس معه شيء ، فإذا عاد بالزجاجة نظروا إليه نظرة ارتياب .
وقد يسألونه أسئلة تخرجه ، فماذا يقول لهم إذا سألوه من أين جئت بهذه الزجاجة ؟ أيقول لهم اشتريتها ؟ ولكن من أين اشتراها وقد أغلقت جميع المحال ؟

وسلمت عليه وانصرفت ، وبقي مبليبل الخاطر لا يدري ما يفعل ، وانتابته وساوس وأوهام ، فكر أكثر من مرة أن يلقي بالزجاجة بعيدا ، وأن يعود إلى البيت مطمئنا ، ولكن نفسه لم تطاوعه ، إن هذه الزجاجة منها على أية حال ، وهى تستحق أن يحتفظ بها ، وخبأها في طيات ثيابه ، ودلف إلى البيت وصعد في الدرج يخفق قلبه في صدره في شدة ، كأنما كان مقبلا ، على أمر خطير .

وكانوا يتحداثون في غرفة بعيدة تصل أصواتهم إليه واضحة فتزيد من توتر

نفسه ، فدخل غرفة بها صوان ملابسه ، وفتح الصوان في حذر ، وأخرج الزجاجة بيد مضطربة ، ووضعها في جيب بذلة من بذلاته المعلقة ، ثم أغلق الصوان وخرج من الغرفة ، وقد سكنت الطمأنينة قلبه .

٦٠

بلى حزن زكية واندمل جرح قلبها وصفت نفسها ، فلم تجد الدنيا مظلمة ولا الحياة بغیضة ، فهي تحيا بين أهلها ناعمة ، ولو أن زوجها مات فليست أول من مات عنها زوجها ، ولو أنها لم تنجب ، فما أكثر اللواتي لم ينجبن ، وقد أحبت أولاد أخيها حسن وتعلقت بهم ، وبادلوها حبا بحب ، فوجدت نفسها لعواطف كانت مذخورة ، وأحست رضا ما كانت تحسه في بيت زوجها . كانت هناك تنقذها عوامل اليأس والرجاء ، عوامل اليأس من الحمل والرجاء فيه ، تتعلق كل شهر بخيط من الأمل ، إن يكن واهيا ، وإن يكن سرايا ، إلا أنه أمل يداعبها ويمنيها بزوجه ، ثم لا يلبث أن يعذبها ويضنيها أفوله .

كانت ألعوبة في يد الزمن القاسي يسخر منها ، أمل وفشل ، ثم أمل وفشل ، أما الآن فقد ركنت إلى اليأس ، واليأس لإحدى الراحيتين ، فلن تتصارع العواطف المتضاربة في صدرها بعد ، ولن تحترق بنار الشوق ، ولن تبكي خيبة أملها كل شهر .

ووضعت عصمت بنتا ، فاحتضنتها زكية وفرحت بها ، وراحت ترعاها وتغمرها بحبها الفياض . إن زكية تحب ممدوحا وزوجه ، فممدوح يتمسح بها ويتودد إليها ، وعصمت تربت في بيتها ، فما أكثر الليالي التي قضتها في

حضنها ، لذلك أحبت ابنتهما حبا لهما ، بل أحبتها حبا للوليد الذى فتح قلبها ، وأشاع فى نفسها الغبطة والرضا .

ودخل مصطفى الشقة فجأة ، فألقى عمته تضم الطفلة إلى صدرها فى حنان وتقبلها قبله شعر بأنها تودعها عصارة قلبها ، فاهتز فؤاده ووقف صامتا تغمره أحاسيس من العطف والشفقة والرثاء ، ثم استدار على عقبه وانسل فى هدوء . لم تكن هذه أول مرة يراها تقبل الطفلة ، ولكنها كانت أول مرة تهزه فيها قبله .

وكانت العلائق بين الأم والابنة طيبة ، كلها صفاء وحب ، كانت نفيسة تحب زكية ، وكانت زكية تحب أمها وتعمل على إرضائها ، ولكن ذلك الصفاء كان يتكرر أحيانا عقب زيارة بنت أخت الحاجة ، فما كانت نفيسة تدعها تنصرف إلا بعد أن تعطيها شيئا من ثيابها الجديدة ، وكان ذلك يضايق زكية ، فإن أمها كانت تعطي دون أن تفكر فى شيء ، ودون أن تفكر هل الثياب الباقية تكفيها أو لا تكفيها ، وما كانت تكتفى بأن تعطيها من ثيابها ، بل كانت تعطيها أيضا من ثياب زكية .

وجاءت بنت أخت الحاجة ، وتغدت عند نفيسة ، وجلست حتى قاربت الشمس المغيب ، فنهضت نفيسة وانتهزت فرصة انشغال زكية بتجهيز القهوة فى المطبخ ، وانسلت إلى الحجرة التى وضعت فيها ثيابها ، وأخرجت بعض أهدام ولفتها فى سرعة ، وخرجت وهى تخشى أن تقابلها زكية فى الردهة فتأخذها منها ، وسارت حتى بلغت المرأة فأعطتها الثياب ، وتنفست الصعداء كأنما تخلصت من عبء ثقل .

وأقبلت زكية تحمل صينية القهوة ، ووقع بصرها على الثياب فى حجر المرأة فأربد وجهها ، ثم نظرت إلى أمها نظرة عتاب ، فنشأغت عنها نفيسة ،

وجعلت تحادث بنت أخت الحاجة فى هدوء ، وإن كانت تنأهب لمعركة العتاب التى ستتشب بعد انصرافها .

وانتظرت زكية حتى انتهت المرأة من شرب القهوة ثم نهضت متبرمة ، وكأنما فطنت المرأة إلى تبرمها فاستأذنت فى الانصراف ، ولم تجاوز باب الشقة حتى قالت زكية لأُمها فى غضب :

— والله إذا اتسخت ثيابك فلن تجدى ما تلبسينه .

— إنك لا تحبين الخير يا زكية .

— لو كان عندك ثياب تكفيك ما غضبت .

— لم أعطيها شيئا يستحق غضبك ، أعطيتها قميصا وسراويل .

— إذا جاءت فى المرة القادمة فأعطيها الثياب التى عليك .

— لماذا هذا التأنيب يا زكية ، إنها ليست قريبتى ، إنها قريبتكم ، بنت

أخت جدتكم ، وكان الأولى بكم أن تعطوها أنتم .

— إنها ليست محتاجة .

— وهل لابد أن تكون محتاجة لتعطوها ، إن الهدايا تقرب القلوب .

— اخلى ما عليك وفرقيه .

— يا ليت ! لو كان عندى ملء هذا البيت مالا لفرقته .

— غدا إذا دخلت تستحمين فاغسلى ثيابك وانتظريها حتى تجف .

— سأبعث فى شراء قمماش .

— ومن التى تخيطه لك .

— أمانة .

فاستاءت زكية بعض الشيء ، فقد كانت تحب أن تقول لها أنت ، وينتهى

العتاب ، أما أن تقول لها : أمانة : فذلك دلالة على أنها استاءت منها ،

وأرسلت نفيسة خادما إلى حسن ليشتري لها قماشا ، فانطلقت الخادم وغابت ساعة أو بعض ساعة وعادت بالقماش ، فجلست زكية تفصله ، فلما رأتها نفيسة انشرح صدرها ، وأقبلت عليها تحادثها في ود .

لم يكن يسمى زكية أن تعطى أمها ثيابها لبنت أخت الحاجة ، ولكن كان يسميها أنها كانت تنصرف في آخر ثوب لها ، فإن من تقاليد الأسرة أن يبقى لكل فرد غيار جديد لا يس ، حتى إذا مات وجدوا ثيابا جديدة يكفونه فيها !

ومرت الأيام ، وجاءت بنت أخت الحاجة لزيارة نفيسة ، وفطنت زكية إلى أن أمها ستعطيها بعض ثيابها الجديدة ، فقامت إلى الصوان وسكته بالمفتاح ، وغيب المفتاح في صدرها ، وأخذت تغدو وتروح مطمئنة .

وجاء أوان انصراف الضيفة ، فقامت نفيسة تحضر لها الثياب ، وما إن وصلت إلى الصوان حتى وجدته مقفلا ، فأيقنت أن زكية أقفلته ، ولكنها لم تجرؤ أن تطلب منها المفتاح ، فقد كانت تخشى أن تتلاحيا فيبلغ صوتهما المرأة فتكون جرسمة وفضيحة .

وأجست الجدة ضيقا ، فهي لا تستطيع أن تعود وتعذر للمرأة ، فما بخلت بشيء ألبته ، فما تدرى كيف تعتذر ، وخطر لها أن تعطيها ثيابها التي ترتديها لتخرج من ذلك المأزق ، فأغلقت باب الغرفة ، وخلعت ثيابها الداخلية ، ثم أسبلت عليها جلبابها ، وخرجت راضية .

وخرجت المرأة مسرورة ، وبقيت نفيسة ترتجف من البرد ، ولاحظت زكية رعدة تسرى في بدن أمها ، فاقتربت منها وبان الشك في وجهها ، فضمت نفيسة جلبابها إليها ، وحاولت أن تبدو هادئة ، ولكن زكية تيقنت أنها لا ترتدى إلا جلبابا على لحمها ، وأنها أعطت المرأة ثيابها التي ترتديها ، فامتلا صدرها بالغیظ ، وصكت خديها في حنق .

تصادق مصطفى وأسرة راشيل ، فكان كثيرا ما يمضي الوقت عندهم ، يلعب الأب النرد ، ويحدث الأم أحاديث تافهة كانت تحب أن تسمعها منه ؛ وكان يعبر جاك رواياته التي قرأها فيفرح بها كل الفرح ؛ ويعطي لياهو قطعة من شيكولاتة فيسر لها وتنفرج أساريره ، وما كان لياهو طفلا بل رجلا ولكنه كان لا يعرف القراءة ولكن يعرف الأكل ويحتفى به .

وجلس مصطفى يلعب الأب النرد ، فأقبلت راشيل فسحبت كرسيها وجلست إلى جواره ، ثم نظرت إليه وابتسمت ، ومدت رجلها وداست على قدمه وراحت تضغطها في خفة ، فاضطرب مصطفى واحمر وجهه ، ولم يدرك ما يفعل ، ولو أن أحدا نظر إليه في تلك اللحظة لفطن إلى تبدل حاله ، ولاحظت راشيل ارتباكها فابتسمت في خبث ، وراحت ترنو إليه من طرف عينيها ؛ وكلما هلل أبوها للعبة لعبها ضحكت ضحكات متتابعات ، لتفرج عن عاصفة الضحك الحبيسة في صدرها .

وهزم مصطفى فانبط الأب ولم يلحظ شيئا ، وكان مصطفى يرتجف خشية أن يرفع الأب بصره فيرى تبدله فيحزر كل شيء ، ولكن الأب كان في نشوة انتصاره ، لا يهمه إلا أن يعقد له الفوز ، وكان هذا أول يوم يهزم فيه مصطفى ويتنصر عليه !

وانتهى النهار ، ومد الليل ذراعيه لاحتضان الكون ، ومس أذن مصطفى رنين الضحكات الفضية تدوى في الطريق ، ففطن إلى أن الرفاق أقبلوا وتجمعوا عند الباب الحديدى ، فقام واستأذن ، فلما خرج إلى الشارع رأى (في قافلة الزمان)

عليا وعبد الرحمن وفهمى ، فانطلق إليهم ؛ ولحى فهمى خارجا من عندها فأحس غيرة واضطرب قليلا ، أما على فأقبل عليه يصافحه وهو يضحك ، فعلى يحبه ، ومصطفى يجاريه دائما ويخصه بصداقته ، إذ يراه أنقى الرفاق سريرة ، وأطيبهم قلبا ، وأكثرهم بساطة ، وإن كانت بساطته تصل إلى حد التفاهة غالبا .

ووقفوا يتسامرون ويتضحكون ، وهبطت راشيل ووقفت على عتبة الباب ، حتى إذا لحى مصطفى أشارت له أن تعال ، فاستأذن من رفاقه وذهب إليها ، فقالت له :

— تعال معى نزور إحدى صديقتى .

وسارت وسار بجوارها ، وانطلقا صوب الميدان ، وراح الرفاق ينظرون إليهما ، أما على فقد نظر إلى فهمى وضحك ضحكته الطليقة ، أما عبد الرحمن فقد انفرج فمه الواسع في خبث ، أما فهمى فقد اربد وجهه ، وأحس نارا تلسع صدره ، ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال فى مرارة :

— كيف تمثى معه وتدعنى ، مع أننى فى البكالوريا ، وهو فى السنة

الثانية الثانوية !؟

فدوت ضحكات على الفضية ، وقال عبد الرحمن :

— هذه قواعد جديدة للغرام .

ولمح فتاة مقبلة فرمقها بنظرة والهة وقال مغازلا :

— أهلا يا غزال ، محسوبك فى البكالوريا .

فقهقه على ، وابتسم فهمى فى مرارة ، وقال عبد الرحمن فى سخرية :

— أتعلم أن روميو كان حاصلا على الدكتوراه ؟

ورأى فهمى أن عبد الرحمن سيركبه بسخريته ، فتركهما وانطلق إلى

الميدان .

ودخل مصطفى وراشيل شارعاً ضيقاً مظلماً ، وما سارا فيه أمتاراً حتى دلفت إلى بيت وهو خلفها ، وصعدا بضع درجات ، ثم طرقت باب الشقة الأولى فاضطرب مصطفى وأحس رهبة وتملكه خجل ، ترى كيف ينظر إليه أهل البيت وكيف يقابلونه ؟ هل تغضبهم صحبته لراشيل ، وهل ينظرون إليه من أطراف عيونهم في ريبة ؟ وأحس قلقاً ، ولكنه لم يستطع أن ينكص على عقبيه ، فهو يفضل أن يكون بجوارها وإن غشيه قلق واضطراب على أن يكون بعيداً عنها في أمن وطمأنينة ! .

وفتح الباب ، وظهرت خلفه فتاة في مثل سن راشيل ، وإن كانت أقل منها جمالاً ، فلما وقع بصرها على القادمة هتفت في غبطة في نبرات امتاز بها الشعب الإسرائيلي :

— أهلاً وسهلاً تفضل .

ودخلت راشيل ثم قالت وهي تبسم :

— تعال يا مصطفى .

فتقدم مصطفى وفي قلبه رجفة ، وفي صدره رهبة خفيفة ، وبان في وجه صاحبة الدار الاهتمام ، وانتظرت دخول القادم لتفرس في وجهه في النور ، فلما دخل رأتها شاباً صغيراً أمرد ، فاحم الشعر ، مقبول الشكل ، وإن كان لا يجذب نظرها إن قابلته في الطريق مقابلة عابرة ، فما كان فارع الطول عريض المنكبين كنجوم السيما الذين يعجب الفتيات بهم ، وما كان من الغلمان الذين تبدو الشيطنة في سحتهم ، ولكن كانت تبدو الوداعة في صفحة وجهه ، وكانت وداعة أخذت قد تنفخ إليها قلوب .

وأخذت راشيل تراقب وجه صديقتها ، فلما لمحتها تتشوف إلى رؤية

مصطفى وتطيل النظر إليه سرت فيها نشوة ، وفطنت إلى أنها تنفو لمعرفة من يكون ، فقالت لها في بساطة :

— مصطفى ابن جيراننا .

فمدت الفتاة يدها وقالت وهي تصافحه :

— تشرفنا .. تفضلا .

وسارت أمامهما حتى دخلوا غرفة بسيطة ، فقعده مصطفى على كنبه ، وجلست راشيل إلى جانبه ، وجلست الفتاة قبالتها ، وما انقضت فترة حتى نهضت صاحبة الدار تجهز شيئا تقدمه لهما ، فاقتربت راشيل منه حتى مس كنفها كتفه ومدت ذراعها من ورائه والتفت إليه وابتمت ، ورأى عينيها تبرقان ، وشفتيها ترتجفان قليلا . كانت كل خالجة في وجهها تصرخ فيه أن يقبلها ، فصعد الدم حارا إلى وجهه وتنى أن يليى ندائها ، ولكنه لم يجد في نفسه الشجاعة ليرفع لها وجهه ويمد لها شفثيه ، كان على يقين أنها ترغب في أن يضمها إليه وأن يشبعها لئما ، ولكنه لم يجد لها قدسية في نفسه .

وعادت الفتاة تحمل صينية عليها كوبان بهما عصير الليمون ، فشرب مصطفى وراشيل ، ولاحظ مصطفى أن راشيل لم ترفع ذراعها الممدودة خلفه فاضطرب ، وفطنت إلى اضطرابه فشاعت أن تداعبه ، فأخذت تقرصه في ظهره فتغير وجهه ، وأخذ يتحمل ألم القرص في صمت ، وحاولت راشيل أن تخفى ابتسامتها ولكنها لم تستطع ، فأخذت تروى لصديقتها قصة تافهة وتبتسم ، ولم يتسم مصطفى أبدا ، بل ظل في صمته يتحمل القرص وهو كاره ، وضايق راشيل احتماله ، فقد كانت ترجو أن يصرخ فتضحك وتضحك صديقتها ، فترفع هذه الكلفة التي فرضها مصطفى عليهم فرضا ، فما جاءت به إلى هنا إلا لتخلصه من نفسه المحافظة ، وساءها بقاءه على

وقاره ، فمدت يدها وتناولت دبوسا كان في صدرها ووخزته وخزة ، فجز على أسنانه في غيظ ، ودوت ضحكاتها فازداد غضبه ، ورماما بنظرة نائرة فأحست خشوعا ، ثم نهضت ونهض ، واستأذنا في الانصراف وخرجنا إلى الشارع الضيق المظلم الهادئ .

خرج مصطفى وفي صدره ثورة ، فما كان يحب أن يكون ألعوبة في يد أحد ، وإن كانت راشيل التي يهاها ، فلم يشعر وهو في فورته إلا ويده تمتد إلى شعرها فيقبض عليه في قسوة ، ويجذبه فتبهط راشيل من طولها وتقرص في جلستها ، وتنبعث منها ضحكات ناعمة هزت كيانه ، فمات غضبه ، وعبثت ضحكاتها بأوتار قلبه ، فأطلق شعرها ، فنهضت وأخذت يده بين يديها ورفعتها إلى فمها ، وراحت تلتهمها في غبطة ، فشعر مصطفى بخدر لذيد شهى يسرى في جسمه ، ويدغدغ حواسه .

٦٢

الرفاق يجتمعون في السلامك ، ولا يتحدثون إلا همسا ، فسيف الإرهاب مصلط على الرقاب ، والجواسيس منبثة في كل مكان ، وكان راكب الترام ينظر إلى جاره نظرة مرتابة ، يحسبه جاسوسا يريد أن يطلع على خبيثة نفسه ليسوقه إلى المحاكم والاضطهاد ، كان صدق يحكم البلاد بالحديد والنار .

وجاء إلى السلامك صديق وفي رفقة شيخ شاب رفيع ، أسمر الوجه ، جاف التقاطيع ، يرتدى العمامة ، وما إن رآه الرفاق حتى ذهلوا ، وبان عليهم الاضطراب ، فهم يعرفونه جميعا ، فهو شاب قبض عليه بتهمة توزيع

منشورات ضد الحكومة ، وحكم عليه بالسجن . سلم الشاب وجلس ،
وابتداً الوجوم ينقشع ويحل محله الإعجاب ، إعجاب بالشاب الذى لم يرهب
القوة ، ولم يخش السلطان ، وراح ينافح عن الحرية ، وهو يعلم أن الحكومة
ستبطلش به إن وقع فى قبضة يدها ، واحتمال وقوعه بين أعوانها كبير ، فقد
كان يوزع منشوراته النارية على هذا وذاك ، وما كان يستطيع أن يفرق بين
خصوم الحكومة وأعوانها .

ودار الحديث عاديا بين الجميع ، إلى أن التفت على إلى الأستاذ وقال :
— وكيف قبضوا عليك يا أستاذ حسنين ؟

فتلفت عبد الرحمن فى ذعر ، ونظر إلى الشباك المفتوح خلفه فى رهبة
وقال :

— لا .. لا . الحيطان لها آذان .

فرنت ضحكات على الفضية ، ولكنها لم تشع البهجة فى المكان بل بلغت
مسامع الرفاق خاوية تقبض القلوب ، وقال على وهو يضحك :

— وهل هذا حديث فى السياسة ؟ إنه رواية واقعة وقعت .

فقال عبد الرحمن فى غضب :

— خليك عاقل ، وقعتك سوداء .

فقال على فى إلحاح :

— وكيف طبعت المنشورات ؟

فنهض عبد الرحمن وقال :

— أنا خارج .

فابتسم الرفاق وجذبوه ليعود إلى مكانه ، ولكنه راح يقاومهم ، ولما
تكاثروا عليه جلس وقال :

— رجينا في شربة ماء .

وتجاذبوا أطراف أحاديث متشعبة عادية ، واطمأن عبد الرحمن ، وأراد سليمان أن يشاغبه فقال :

— وكيف كانوا يعاملونك في السجن يا أستاذ حسنين ؟

فتلفت عبد الرحمن ولم يتكلم ، ووقع بصره على النافذة المفتوحة القرية منه ، فوقف على الكنية الجالس عليها وتسلق النافذة وفي مثل لمح البصر قفز منها إلى الممر الذى يقود إلى الباب الحديدى ، وراح يعدو ويصيح :

— السلام عليكم ، نشوفكم فى الليمان .

فدوت ضحكات على الفارغة ، وابتمس الرفاق ، وكان حسنين أكثرهم انبساطا .

وخرج مصطفى وركب الترام إلى باب الخلق ، فإن راشيل تعمل في محل هناك بعد أن تركت محل شيكوريل ، فأصبح من الميسور عليه أن يراها إذا مر أمام المحل ، وأصبح من عادته أن يمر أمامه كل يوم وأن يقف على الطوار الآخر يرقبها دون أن تراه ، وكانت تلمحه أحيانا وهو يمر أمامها فكانت تناديه وتدعوه إلى الجلوس معها ، فكان يحظى بسويغات حلوة في غياب صاحب المحل ، أما إذا عاد الرجل فإنه كان يستأذن في اضطراب ، وينسل هاربا . وبلغ الترام ميدان باب الخلق فهبط مصطفى بحس اضطرابا ، ولكنه اضطراب لذيق ، فهو يتمنى ألا يكون صاحب المحل هناك ، ولم يكن ذلك وحده يكفى ، فهو يتمنى كذلك أن تلمحه وهو يسير أمام المحل فتدعوه ، فقد كان يتطلق إلى سبيله إذا لم تره ولا يجروء على أن يقتحم الدكان ، ثم يعود من نفس الطريق ثانية لعلها تلمحه ، ثم يدور على عقبيه ويعود مرة ومرة حتى تلمحه أو يئأس فينصرف وهو مستاء .

وسار حتى إذا اقترب من الدكان خفق قلبه ، ولم يجد في نفسه الشجاعة الكافية ليمد بصره ، فاكتمفى بأن ألقى نظرة خاطفة ، فلمح صاحب المحل واقفا ففر كأرنب مذعورة .

وسار على الطوار الآخر متمهلا ، ووقف يرقب الدكان ، ويتمنى أن ينصرف صاحبه إلى بعض شأنه ، ولكن الرجل لم ينصرف ، فأحس حنقا . كان الدكان لتفصيل القمصان وبيع أربطة الرقبة ، ومع ذلك لم يفكر في أن يفصل قميصا أو أن يشتري بعض لوازمه ، إذ كان يعتقد في قرارة نفسه أن هذه وسائل ملتوية ، وكان يخجل من نفسه لو قارف شيئا منها .

وراح يتمشى حتى بلغ معرض مصور في الميدان ، فأخذ يتفرس في الصور يقطع الوقت لعل صاحب الدكان ينصرف ، فينعم بقرها لحظات ، وراح يتطلع إلى الصور في إهمال ، ووقع نظره على صورة بدلت كيانه ، فاربد وجهه ، وفاردمه في عروقه وصعد إلى رأسه ، وتمنى أن يحطم المعرض ويمزق هذه الصورة حتى لا يراها الناس .

كانت صورتها متهدلة الشعر ، تغطي صدرها العارى بغلالة رقيقة ، وكان الأخذود الذى يفصل ثدييها واضحا وضوحا معيبا . كيف قبلت أن تقف أمام المصور شبه عارية ؟ ولكن من أدراه أنها كانت شبه عارية ولم تكن عارية ؟! إن هذه الصورة لا تليق بفتاة .

وسار واجما مطاطىء الرأس ، والألم يحز في نفسه ، ونشبت في نفسه ثورة ، وإذا بصوت ينبعث من جوفه يصيح به في سخرية : ومن قال لك إنها فتاة ؟ إنها لا تفقه إلا حب الجسد وقد دعتك إلى نفسها مرارا ، ولكنك جاهدت لتبقى على حبك ، وهى إن نالتك نبذتك ، وما أبقاها معك تلك السنين إلا لأنها لا تريد أن تنهزم ، دعها ولا تدنس حبك دعها .

ولكنه لا يستطيع أن يلبي نداء ذلك الصوت المنبعث من نفسه ، فهو يحبها مهما تكن ولا يتصور أن في مقدوره أن يعيش بدونها ، وهو لا يستطيع أن يكرهها ، فيا لقلبه الذى تمرد عليه ! وخنقته أحاسيسه المتصارعة في نفسه فضيقت من أنفاسه .

وعاد إلى الحى حزينا ، فألقى أسعد وفريد وسليما جالسين أمام الباب الحديدى ، فانضم إليهم ، وأراد أن يسرى عن نفسه فقال لفريد :
— ما هذه الأنافة ؟ رباط رقبة بديع .

فابتسم فريد وقال وهو يغمز بعينه في انشراح :
— اختارته لى جارتكم الحسنة .

فانقبض صدره وتملكه غيظ ، ولم يستطع أن يشاركهم الحديث حتى لا ينكشف أمره ، فأنسل إلى البيت دون أن يستمع إلى قصة رباط الرقبة التى راح يرويها فريد :

وأقبل الليل وفكر مصطفى فى عدم الخروج للقائها ، فهو يريد أن يوفر على نفسه ذلك الدل ، يريد أن يتحرر منها ، ولكنه أصبح أسير حبها ، أصبح لا يستطيع أن يحكم نفسه ، فإن قوة خفية تدفعه للخروج إلى الميدان .
وقابلته راشيل وابتسمت له ، فكأثما يدا سحرية مست صدره ، فمسحت أحاسيس الغضب والحق وأشاعت مكانها نشوة وانشراحا .
وسارا حتى إذا بلغا دارها جذبته من يده ليصعد معها ، فلم يقاوم وصعد معها ، وسلم على أبيها وأُمها وأخويها ، وجلسوا يتحدثون حديثا هادئا إلى أن قال الأب :

— أرايت صورة راشيل ؟

فاضطرب ، وأشفق من العاصفة التى توشك أن تهب ، فإن تكن تلك

الصورة قد حركت شجونه ، إلا أنه لا يجب أن يسمع الأب يقرع راشيل على فعلتها الشنيعة أمامه ، وتمنى لو لم يأت الليلة ، وفكر في أن يفر ليوفر على نفسه الألم الذى سيحسه من أجل راشيل ، والتفت الأب إلى لياهو وقال :
— هات الصورة .

فقام لياهو وعاد وفي يده الصورة وهو يتسم ، ولم يستطع مصطفى فى اضطرابه أن يميز هل كانت ابتسامته عن رضا أو عن سخرية ، وأخذ الأب الصورة ، ونظر فيها فى عجلة ودفع بها إلى مصطفى ، فتناولها هذا بيد مرتجفة ونظر إليها ، ولكنه لم ير شيئا فقد أسدلت على عينيه غشاوة ، وسمع لياهو يقول :

— صورة رائعة .

وقالت الأم فى فرح :

— من أجل الصور التى رأتها عيناي .

وقال الأب فى اقتناع :

— لو أن الغلالة نزلت قليلا لكانت الصورة أروع .

فقالت راشيل دون أن تختلج فيها خلجة :

— أراد المصور أن ينزل الغلالة ولكنى رفضت .

وزاد اضطراب مصطفى فنهض واستأذن دون أن يشير إلى الصورة

بكلمة ، وسألته الأم :

— ما بك ؟

— أحس دوارا .

وخرج .

سيقام حفل كبير في بيت من بيوت الحى العريقة ، وسيحىي الحفل مطرب شاب ذاع صيته وتهاقت الناس على سماعه ، وقد دعى إلى الحفل حسن وأبنائه ، ولكن حسنا لا يحب السهر ، ولا يميل إلى الحفلات الصاخبة ، ويفضل أن ينزوى في السلامك مع صحابه ينصت إلى أحاديثهم ، ويستمتع إلى تاريخ العرب الأجداد ، حتى إذا شارفت الساعة العاشرة ترك الرفاق في جلستهم وأوى إلى فراشه .

ووافى يوم الحفل ، وحاول أسعد أن يغرى أباه على الذهاب ، ولكن حسنا ابتسم وقال :

— اذهبوا أنتم ، فأنا لا أميل إلى السهر .

— ستكون حفلة رائعة .

— اذهبوا واعتذروا من تغيبي .

ودقت الساعة التاسعة وخرج أسعد وسليم وبعض صحاب حسن المدعوون إلى الحفل ، وكان أسعد منشراحا فإن هذه أول مرة يسهر فيها ، فأقبل على صحاب أبيه يحدّثهم في غبطة ، وأخذ سليم ينظر إلى الكون الذى لفه الظلام في نشوة ، ويرى في كل ما يمد إليه بصره جمالا لم يره قبل الليلة ، فما كان يرى في الليل إلا السلامك وصحاب أبيه ، ثم الفراش والأحلام . ودخلوا البيت العريق ، فاحتفى أهلهم بهم ، وبعد تناول العشاء أخذ المطرب الشاب في الغناء ، فداعب القلوب ولعب بالعقول ، وأخرج الناس من وقارهم ، فتعالى صياحهم ، وراحوا يتمايلون في نشوة ، واعتبط أسعد

وسليم وأحسا تلك السعادة التى يحسها الغارق فى حلم لذيد .
وذهب حسن إلى فراشه لينام ، ولكن النوم جافاه ، فهو لا يستطيع أن
يغمض عينيه وأحد أبنائه خارج البيت ، وهو لا ينام كل ليلة إلا بعد أن يطمئن
إلى أنهم دخلوا فرشهم ، وأغلقوا عليهم بابهم . وراح يتقلب فى الفراش ،
ومر الوقت بطيئا فأحس مللا ، فسحب كرسيه وجلس فى الشرفة يملا رثيه
بهواء الليل البليل .

ومر الوقت كلمح البصر فى الحفل ، بطيئا فى الشرفة وكان حسن يخرج
ساعته بين وقت وآخر من جيبه فيحس كأنما كفت عن الدوران ، فيضعها
على أذنه ليسمع دقائقها وليتحقق من أنها تدور .

وانطلق أسعد وسليم إلى البيت ، وزاد من غبظتهما هدوء الليل ، وضوء
القمر الفضى الذى فرش لهما الطريق ببساط من النور الأبيض الأخاذ ، وأراد
سعد أن يترجم عما يجيش فى صدره من أحاسيس لذيدة فغمغم :

— إنها ليلة من ليالى العمر .

فقال سليم :

— ما ألد السهر .

— ليتنا نختلس فى الشهر ليلة نعيش فيها مثل هذه العيشة الناعمة اللذيذة .

— ما كنت أدرى أن فى الليل حياة .

— إن فى الليل كل الحياة .

— أتعلم أنه سيحىى حفلته القادمة فى أول الشهر بكازينو القبة ؟

— سنذهب لسماعه .

— أتحسب أنهم يوافقون على سهرنا ؟

— وما المانع ؟

— إنهم ينامون في التاسعة ، ومن يفتح لنا ؟

— نأخذ المفتاح معنا .

— فكرة . والآن هل يفتح لنا البواب إذا طرقتنا الباب أو يدعنا ندقه ساعة .

— سنرى .

واقتربا من البيت ، ولحهما حسن فشر براحة ، وهبط في الدرج مسرعا وفتح الباب ، فلما بلغاه ألقياه مفتوحا ، فدلغا منه فرأيا أباهما يقابلهما بوجهه الطلق ، لا يعاتبهما ولا يقول لهما شيئا عن تأخرهما ، فابتسما له وصعدوا جميعا في الدرج ، ودخلوا شقة الجدة ، وتعد أسعد وسليم في فراشهما ، وانطلق حسن إلى الشباك فأغلقه في رفق ، ثم سحب الغطاء على ولديه ، وانسل من الغرفة وأغلق باب الشقة خلفه وذهب إلى فراشه لينام .

واستيقظ الشابان في الصباح وقد ماتت فكرة السهر في نفسيهما ، فإن معنى سهرهما أن يسهر أبوهما ليفتح لهما الباب ، وليطمئن على عودتهما ، وهما لا يحبان أن يحشمهما تعباً أو يتسببا في إقلاقه .

وهبط أسعد وسليم ومصطفى إلى السلامك ، وجاء الرفاق يلعبون ، وأقبل حسنين الشيخ الشاب ، فقد أصبح من الصباح ، ولما كانوا في الصيف فقد أحسوا أن الجلوس في السلامك لا يطاق ، فخرجوا إلى الشارع وجلسوا أمام الباب .

وكان لا يحلو لفوزى مشاغبة الشيخ حسنين إلا في الطريق ، فاقترب منه وغمره تحت إبطه بأصبعه . فقفز الشيخ وهو يقهقه ، فقد كان يغار إذا دغدغه أحد ، فرنت ضحكة على القضية وابتسم الآخرون ، وقال الشيخ وهو يبتسم :

— افعل ما تحب في السلامك ، أما في الطريق فلا .

— له !

— للعمامة وقار .

ولكن الرفاق لم يستمعوا إلى النصيحة الغالية ، بل راحوا يشاغبونهم وهو يضحك ويفر منهم ، واستمرت المشاغبة أسابيع ، وفي يوم أسرفوا في مداعبته فقال لهم مهددا :

— انتظروني هنا غدا ، وسترون ما أفعله بكم .

— أتهددنا ؟

— نعم .

فقالوا وهم يضحكون :

— إنا منتظرون .

وفي اليوم الثاني اجتمع الرفاق وجلسوا أمام الباب ، وأقبل الشيخ حسنين يرتدى بذلة أنيقة ، وقد وضع على رأسه طربوشا جديدا ، فلما وقع نظر الشبان عليه هللوا له ، والتفوا به ، ولكنه لم يفر منهم كما كان يفر ، بل هجم على هذا يشده ، وعلى ذاك يدفعه ، وصاح فيهم وهو يضحك :

— من يتحداني ويريد الهذر فليخرج إلى الميدان .

وأشار بأصبعه إلى الميدان الذي ينتهى عنده الشارع ، فابتسم الرفاق وقال

عبد الرحمن :

— يا شيخ حسنين .

فقال الشيخ حسنين في غضب مفتعل :

— حسنين أفندى من فضلك .

ثم نظر إليهم وقال وهو يضحك :

— هيا إلى اللعب فقد خلعنا الوقار .

أنوار تتلألأ ، وفتيات يخطرن في ثياب أنيقة ، وفتيان يطلقون النكات ويضحكون ، وجلبة وعجيج ، فهذه ليلة خطوبة راشيل . عزفت الموسيقى فقام الشبان والشابات يرقصون ، ونهضت راشيل وكانت ترتدى ثوبا أزرق جذابا أبرز مفاتها ، ونهض الخطيب فلف ذراعه حول خصرها وضمها إليه وأخذ يدوران على الأنغام وقد لاحت الغبطة في حركاتهما ، كانا يرقصان في رشاقة ، ويتمايلان في دلال .

ووقف مصطفى في الشباك ينظر يشيع الحزن في نفسه ، وراحت الغيرة تنهش قلبه وتعذبه ، فأخذ يتبع راشيل ببصره ، فغامت عيناه بالدموع . وارتفعت الضحكات فضايقتة ، فقد كان لها في أذنيه وقع النحيب .

عذبتة أحاسيسه فشعر بدوار في رأسه ، فترك الشباك وانطلق إلى الفراش وحاول أن ينام ، ولكن أصوات الموسيقى كانت تصك أذنيه فترهقه وترهق حواسه . فقام إلى الشباك وأغلقه ؛ ولكن الأنغام كانت تتسرب إليه واضحة ، حتى خيل إليه مرة أنها تنبعث من جوفه وتصب ألحان الألم في أذنيه .

كانت راشيل في سعادة سابعة وكان مصطفى في شقاء مقيم ، وكانت بين يدي خطيبها مشرقة الوجه ، وكان يتململ في فراشه لا يدرى به أحد ، ولا يحاول أن يسرى عنه واحد .

وهاله استسلامه لأحزانه ، فكبح جماح نفسه ، وراح يفكر في أمره ، ما باله يحزن لخطوبة راشيل ؟ هو يحبها أجلا ، ولكن ما نهاية هذا الحب ؟ ليس له إلا نهاية واحدة هي الفراق ، ثم ينطلق كل في طريقه . فلو أن قلبه عقلا لما أحبها أو تعلق بها ، ولكن قلبه مجنون .

هو يحبها ، يحبها لذاتها ، يحبها بلا أمل يحبها ولا يطمع في أن ينال منها شيئا ،

يحبا لأن حبا قد ملأ نفسه غبطة ، ولأنها أول من دقت قلبه فانفتح لها ،
يحبا ... يها ، والحب يتمنى لحبيه السعادة والهناء ، فلم لا يرجو لها
حياة رغيدة سعيدة ما دام لا يستطيع أن يمنحها هو تلك السعادة ؟ إن عليه أن
يسر لسرورها وأن يفرح لفرحها ، وأن يغتبط ما دامت راضية ، وأن يكبح
جماح القلب الجموح .

وأخذت سحب الحزن التي تلبدت في صدره تنقشع ، وتبخرت
أحاسيس الغيرة التي ضيقت من أنفاسه ، وكأنما استمع القلب إلى صوت
العقل مرة فهدأ ، أو لعله هدأ مرغماً لما رأى ضياع الأمل .

وأرضاه الخاطر الجديد فأحس راحة ، وراح يتمنى لها رغد العيش
صادقا ، فهو يحبا ، ويتمنى أن تكون له ولما كان ذلك محالا ، فقد تمنى في
قرارة نفسه أن يسعدها الرجل الجديد . إن كل ما يطمع فيه أن يراها سعيدة ،
وأن يتزود منها بين وقت وآخر بنظرة .

ومس النوم جفنيه فراح في سبات ، ورأى فيما يرى النائم راشيل إلى
جواره تضمه في اشتاء وتقبله في وله وتمسح شعره بيدها في حنان ، فهب من
نومه وقلبه يدق ، ولم يرتح إلى الحلم اللذيذ ، فما كان يحب أن يضمها ، أو أن
يلمسها ، ولكنه كان يحب أن يجلس إليها وينظر في عينيها ، فتناجي الروح
الروح .

وانقضى الليل والنهار ، وحن موعد الخروج إلى الميدان فأحس انقباضا ،
فلن يقابل راشيل ، فهي لن تميط الليلة من الترام فلا بد أنها خرجت مع خطيبها
تبرح وتمناً ، وأحس على الرغم من ذلك رغبة في الانطلاق إلى هناك ، ولم
يكن ثم دافع يدفعه إلى الخروج ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم رغبته ، فسار في
خطا وثيدة مطرقاً رأسه ، حتى إذا بلغ الميدان أخذ يتلفت في حزن ، وإذا

بعينه تفتشان عنها بين الهابطات ، وإذا بقلبه يخفق . وإذا به يفيق إلى نفسه ، فيبتسم ابتسامة مريّة ، ابتسامة تقطر صابا .

ومرت الفتيات بجواره فلم يرفع بصره إليهن ، ولم يلحظ رشاقتن وفنتن ، فقد كان منطويا على نفسه يحترأحزانه ، هو اليوم حزين فقد انقضى يوم دون أن يراها . وفي الصباح ذهب إلى الشباك الذي يطل عليها فرآها مشرقة الوجه في الشرفة ، فخفق قلبه . ورفعت رأسها فجفل فهو لا يحب أن تراه ، ويعتقد أنه أصبح من المحرم عليه أن يوميء لها برأسه ، أو أن يتسم لها ، لو أن تلاقى عيناه عينيها ، فهي لم تعد له بل لرجل آخر !

وأحس راحة وامتلاء نشوة ، فهو يتزود منها ، وخير الزاد نظرة تنعش الروح ، وتملأ القلب .

وفي العصر أطل من الشباك فرأى راشيل تجلس وخطيبها إلى جوارها ، ورآها تميل عليه فيضمها إليه ويلثمها ، فأحس وخز الغيرة ، ولكنه حاول أن يقنع نفسه بأنه لا يغار عليها ، وبأن ذلك الوخز إنما هو لما قد ينزل بها ، فهي غريبة لا تفهم الرجال على الرغم من معرفتها إياهم ، فهي تمد له شفقتها وتدع له خصرها بهصره ، وجسمها يضمه ، وهي لن تصده وستسلم له ، وسينعم بها ، حتى إذا ما ارتوى ، بحث له عن مخرج يفر منه .

ولم يستطع البقاء في مكانه فأنسل منقبض الصدر ، كسير القلب ، يزفر في ضيق ، إنه يشفق على راشيل !

ومرت الأيام ومصطفى يحاول ألا يفكر في راشيل ، وألا يتطلق إلى الشباك يتزود منها . إن قلبه يعذبه ، ولكنه قرر ألا يخضع لقلبه ، فهو لا يجلب له إلا الضنا والعذاب . انتهت راشيل من حياته ، فلم تعد إلا ذكرى ، إلا وهما ، فما له يتشبث بالأوهام ولما يدلف من باب الحياة ؟! إن قلبه قد جرح ،

(في قافلة الزمان)

وسيندمل جرحه ، فلماذا ينكأه بالذكريات ؟
 وجلس مصطفى أمام الباب الحديدى ينتظر الرفاق ، ومد بصره إلى شقة
 راشيل برغمه فرآها تمر يدها على شعر خطيبها فاضطرب ، وأخذت الأفكار
 تتزاحم في رأسه ، لقد رآها في حلمه تمر يدها على شعره هو ، فإذا به يراها
 اليوم تمررها على شعر خطيبها ، هل يغار ؟ أبدا ، ولكنه يحس بما سيحل
 براشيل الغريرة ، سيصفعها خطيبها صفقة تحطم كبرياءها ، ليته يقابلها
 وينصحها بأن تصده .. بأن تتمنع عليه .. بأن تلهب حواسه ، فهى إن فعلت
 تعلق بها ، أما أن تقبل عليه ، وأن تمكنه من نفسها ، فسيمتصها ثم يلفظها .
 ليته يقابلها ! وهبه قابلها فهل يستطيع أن يفاتحها في أمر كهذا ؟ إنه في
 حضرتها يحس خشوعا و قدسية ، ولا يتكلم إلا بقدر ، إنه في حضرتها يحس
 رهبة العابد في محرابه ، فلو أنه قابلها لآثر الصمت ، ولترك روحه تهم طليقة
 لتصل بروحها ، إنه الآن نائر ، فإذا قابلها ماتت في صدره كل ثورة ،
 وهدأت نفسه ، فلا يجرؤ على أن يزجها نصيحة ، أو يوجهها وجهة يبغيها .
 ورنث ضحكة راشيل فقام حانقا ، وسار إلى السلامك فريسة طيعة
 لأفكاره التى ما فتئت تعذبه وتضنيه .

٦٤

أسعد يسير بين أصحابه مطرقا ، وفد بان في عياه الأسى ، فقد ظهرت
 نتيجة البكالوريا وكان من الراسبين ، ومما زاد في حزنه أن أخاه نجح وقد
 حصل على البكالوريا من السنة الثالثة ! وتفسير ذلك أن سليما كان قد رسب
 في السنة الثالثة وأعاد نصف السنة ، ثم أصيبت قدمه إصابة بالغة في إحدى

مباريات كرة القدم أقعدته عن الخروج ، ورأى الفرصة سانحة ليستذكر دروس السنة الرابعة ولتتقدم لامتحان البكالوريا من منازلهم ، فراح يستذكر ، وأسعد يعاونه ويشرح له ما غمض عليه . كانت مغامرة قوبلت بالاستخفاف من الجميع ، ودفع حسن الرسوم حتى لا يغضب ابنه ، وظهرت النتيجة فإذا المغامرة تفوز ، وإذا بالمضمون يفشل . كان حظ أسعد عاثرا ، لم يساعده مرة ، بل يتأمر عليه في كل مرة . وذاع نبال رسوب أسعد فعخمت على الدار سحائب من حزن ، فلو أن سليما هو الذى رسب لكان الأمر طبيعيا ، ولما ساد البيت وجوم . ونزل بأمانة هم ثقيل ، فإن حزن ابنها يحز في نفسها وتحس له ألما ، فهي تشفق عليه من ذلك الحزن وما كانت تحب له أن يتجرع الكأس المرة . وأقبلت الجدة تضرب كفا بكف وتقول في أسى :

— مسكين بخته سىء ، صعبان على قهرته .

وجاءت زكية بأسرة الوجه وقالت في مرارة :

— يا خسارة تعب .

ودخل أسعد مكتئبا ، وحاول أن يكظم ما به ، ولكنه لما رأى أنه لا يستطيع أن يغالب دموعه ، بكى وأجهش بالبكاء ، ثم ارتقى على كنبه قربة ينهه في عصبية . وأحست أمانة والجدة يدا قوية تهصر قلبيهما ، ولم تطو الجدة أن ترى بكاءه ، فانقبض صدرها وأسرعت إليه تربت على كتفه :

— كفى يا أسعد .

وهرعت إليه زكية وقالت :

— ما هذا البكاء يا أسعد ؟ أنت رجل والرجال لا يكون .

وظلت أمانة صامئة وقلبا يدمى من الألم ، ودخل سليم وجلس مطرقا فهو يشعر بحزن لرسوب أخيه ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عن حزنه ، فلو أنه

رسب لخفف ذلك من حزن أخيه ، أما أن ينجح وهو لا يستحق ، ويرسب أسعد وهو أجدر منه بالنجاح ، فهذا ما يغيظ . وأطل مصطفى برأسه ورأى تلبد الجو فقر من المكان :

انخرط أسعد في بكائه ، واستمرت الجدة وزكية في توسلاتهما ، وأمينة وسليم في إطرافهما ، ودلف حسن إلى الغرفة فوقع بصره على أسعد يبكي فانقبض لحزنه ، وساء تأله وفشله المرير .
وتمالك عواطفه فقال في صوت رقيق :

— قم يا أسعد .

ولكن أسعد ظل في بكائه ، فقالت زكية في توسل :

— كفى يا أسعد من أجل أهلك .

وقالت الجدة :

— كفى وقم ، صحتك أحسن من مئة شهادة ، ماذا ستفعل بالشهادة !

الديكان موجود .

ومد حسن يده وجذب ابنه من كتفه وقال :

— قم واغسل وجهك .

فنهض أسعد وقام إلى الحوض وأمينة خلفه ، وقلبا مكثب حزين .

وأحاط حسن ابنه بعنايته ، فأخذ يحادثه في ود ، ويبدى له ضروب

الحنان ، وفي العصر خرج معه ليرفه عنه .

وجلس مصطفى أمام الباب وحيدا ، فإن الرفاق لم يحضروا ذلك اليوم

مراعاة لشعور أسعد ، وأقبل لياهو وجلس بجواره وقال له :

— مضت مدة كبيرة لم أرك فيها .

فقال مصطفى في تلثم :

— كنت مشغولا .

فابتسم لياهو وقال :

— في اللعب ؟

فابتسم مصطفى في ارتباك ولم ينبس بكلمة ، وقال لياهو :

— لم لا تزورنا الآن ، إن أنى سأل عنك أكثر من مرة .

فاضطرب مصطفى وخشى أن يكونوا قد فطنوا إلى أنه امتنع عن زيارتهم

عقب خطوبة راشيل ، وأراد أن يوجد مبررا لعدم زيارتهم ، فقال في صوت

متهدج ، وقد احمر وجهه :

— إنكم مشغولون .

— فيم ؟

— زواج أختك .

فابتسم لياهو في مرارة وقال :

— انتهى كل شيء اليوم .

فخفق قلب مصطفى ، وتفصد العرق منه ، وشعر بارتباك وحيرة وقال

في صوت مضطرب خفيض :

— دخلت ؟

— فسخت خطبتها ، لم يعجب الخطيب راشيل .

وأطرق مصطفى ، واختلطت عليه أحاسيسه ، وهو لا يدري أحزنه النبأ

أم أحس له راحة . لم يكن ما يحسه بسيطا ، إذ اجتمعت في صدره أحاسيس

متباينة تلاطمت وتصارعت ، فهو يحس انشراحا ، ويحس رهبة ، ويحس

راحة ، كأنما ضوابط أحاسيسه قد سابت ، فانطلقت جميعها طليقة تتمازج

وتتمازج لا تستقر ولا تهدأ . وأراد أن يمد في حبل الحديث فقال :

- ولكنه شاب وسيم .
- اتضح أن راتبه ضئيل ، لا يكفي لتكوين أسرة .
- بالوفاق تتكون الأسر .
- لا يا حبيبي ، بالفلوس .
- لقد أحزن ذلك أختك ولا ريب .
- فغمغم لياهو :
- طبعا ، صرفت جنيتات .
- أهى الفلوس كل شيء ؟
- وهل الدنيا إلا الفلوس ؟ لو كانت راشيل غنية لوجدت ألف خطيب .

واستمر لياهو يلقي محاضرة عن قدرة المال وسحره ، ومصطفى ينصت إليه مرة ، ويشرد بذنه مرات ، وانصرف لياهو أخيرا ، وبقي مصطفى يرقب الشقة . ولمح راشيل ، وخيل إليه أنها في ضيق فاهتز قلبه واضطرب ، واستمر يتبعها ببصره وهو واجم ، ولحها مقبلة نحو الشرفة ، فأحس رهبة ورعدة تسرى في بدنه ، ولم يستطع أن يبقى في مكانه ، فهو لا يحتمل أن يرى حزنها ، فنهض من على مقعده كمن لدغته أفعى ، وفر كالمذعور .

٦٥

مصطفى يرقب شقة راشيل ، ويود لو يراها ، فهو يحس الآن أنها عادت له . فمسخت خطوطها وانتهى الأمر ، فما الذى يحول بينه وبينها ؟ أصبح من حقه أن يصل ما انقطع بينهما ، وأصبح له أن يقابلها وأن ينعم بقرها . وهو يحس أنها ستبته شجونها وتشكو له ميل بختها ، وهو يقدر أن ذلك سيبهز ويحز

في نفسه ، ولكن حديثها مهما كان يشيع في نفسه غبطة ، فهو يجب أن ينصت إليها ، وأن تطول اللحظات التي يقضيها معها .

ومر نصف النهار ولم تلح راشيل لعينيها ، وفكر في أنها قد تكون قد عادت إلى العمل فلم يستطع أن يقاوم رغبته في الذهاب إليها ، فركب الترام وراحت تتخايل لرؤى وأحلام ، وراح يدير في نفسه حوارا بينه وبينها يعبر لها فيه عن حزنه لفسخ خطوبتها ، ويتمنى لها صادقا أن يعوضها الله خيرا . وبلغ الترام ميدان باب الخلق فأفاق إلى نفسه ، وهبط منه وقلبه يخفق فهو لا يدرى كيف يقابلها بعد ما حاق بها وخدش كبرياءها، وهو لا يدرى ما يقول لها إذا صافحها والتقت العين بالعين ، إن الكلمات المنمقة التي راح يزوقها في الترام تبخرت ولم يعد يذكر منها شيئا .

وسار يتلفت يمنة ويسرة ينقب عنها ، فقد حان ميعاد انصرافها للغداء ؛ وكان يخشى أن يقابلها فجأة ، فهو لا يعرف ما يفعل لو وجد نفسه أمامها وجها لوجه على غير استعداد .

ووصل إلى الدكان ولحقها خارجة منه ففر إلى الطوار الآخر وجعل يرقبها من بعيد وقد قامت في نفسه معركة بين الإقبال والإحجام .

انطلقت في طريقها دون أن تلتفت واتخذت سمتا إلى محطة الترام ، وفكر في أن يسبقها إليها ولكن ساقيه خذلناه ، فهو لا يجد في نفسه الشجاعة ليواسيها . ماذا يقول لها ؟! هأنذا جئت بعد أن فسخت خطوبتك . لا ، إنه لن يقابلها الآن وتمهل في سيره ، وعيناه عليها لا تختلجان ، ها هي ذى قد بلغت محطة الترام ، وها هو ذا الترام قد أقبل ، فليسر وليقفز فيه ، وليقابلها عند محطة المهبوط ، وسيظن أنها مقابلة لم يسبقها تدبير ، ولكنه لم يسترح إلى ذلك الرأى ، أو لعل خجله الموروث جعله يحجم ، فانطلق الترام براشيل ،

وذهب هو إلى المحطة ينتظر قدوم ترام آخر .

وعاد مصطفى إلى البيت وهرع إلى الشباك الذى يطل على شرفتها ولكنه لم يجدها فأحس انقباضا ، فما بالها أصبحت تفر من الشرفة وما كانت تتركها أبدا ؟ إنها لا تريد أن تراه .. وما خطر له هذا الحاضر حتى شعر بدمه الثائر يتدفق إلى رأسه . إنها لا تريد أن تراه ، لم ؟ وما له ضلع فى فسخ خطوبتها ؛ ولم يخطر له ألبتة أنها تفر منه لأنها تحس خجلا .

وانقضى النهار ومصطفى فى ضيق ، يريد أن يراها وأن يسعد بقرىبا لحظات . وما حان موعد رجوعها فى الليل حتى خرج إلى الميدان ، وأخذ ينتظر على محطة الترام فى قلق وهبطت راشيل فجمع أطراف شجاعته وتقدم منها وقلبه يقفز فى صدره ، وما إن أصبح منها على قيد خطوات حتى مد لها يده ولم ينبس بكلمة ، ومدت يدها وصافحته فى حرارة ، وقالت فى نبرات كسيرة هزت أوتار قلبه :

— أهلا مصطفى .

وانطلقا صامتين ، وإن كانت نفسيهما فى حركة دائية ، وكانت راشيل تحس رغبة فى أن تتحدث وتقضى بمكنون نفسها لعل ذلك ينفس عن آلامها . كانت حانقة ، وكان غضبها يأكل صدرها ، وكبت ذلك الغضب يزيد فى عذابها ، كانت تريد أن تتكلم ، أن تشكو ، أن تيكى لترفع تلك الأحاسيس القاسية التى جثمت على صدرها ، وهمت بأن تتكلم ولكن إغراق مصطفى فى الصمت جعلها تكبح جماح نفسها . ما بال ذلك الشاب يسير إلى جوارها كالأخوذ ، يكتفى بأن ينظر إليها بين لحظة وأخرى لا يثرر ولا يتحدث ؟ لو أنه أخذ بأطراف الحديث معها لأمكنها أن تنفذ بلباقة إلى حديث خطيتها وفسخها ، وأن ترفع عن كاهلها عبء الأحاسيس المذخورة التى تضيقها .

وراح مصطفى يفكر في أن يتكلم ، في أن يزاسيها ، في أن يشار كها بعض أحزانها ؛ ولكنه خشى أن يجرح شعورها فالتزم الصمت ، فلعلها لا تريد أن يخوض في ذلك الموضوع ، أو لعلها تريد أن تدفن آلامها في أعماق نفسها . واستمر في صمتهما ، وجعلا يضربان في الشارع المظلم الهادئ فلا يبلغ آذانهما إلا وقع أقدامهما ، وهمت راشيل بالحديث أكثر من مرة ولكنها كانت تحبس الكلمات التي كانت تتذبذب على طرف لسانها ، ووصلا إلى البيت ومد مصطفى يده ليصافحها ، ولكنها أخذت يده بين يديها مدة وقالت وهي تنصرف :

— انتظر . سأعود إليك حالا .

ووقف مصطفى ينتظر وهو يضيق بصمته ، إنها حزينة ، وهي في حاجة إلى من يزاسيها ويرفه عنها ، فعاله ييخل بكلمات قد تخفف من آلامها . إنه لا ييخل ، ويتمنى أن يحدثها أبد الدهر ولكن لسانه يخذله . لو أن لسانه ترجم عما يحسه قلبه لشعرت ببعض الراحة والعزاء ، سيكافح خجله ويقهره ، سيحدثها عن خطيبها الذي فر ، سيحدثها حديثا يرفه عنها ويعيد إليها ثقتها بنفسها ، تلك الثقة التي يلوح أنها فقدتها بعد أن جرح ذلك الجرح الذي أدمى كبرياءها ، ونال من كرامتها .

وعادت راشيل وقد تهدل شعرها ، وارتدت ثوبا ورديا قصيرا يكشف عن ذراعيها البضتين ، وساقها العاجيتين ، وانبعثت منها رائحة نفاذة حلوة ملأت خياشيمه ، ورفع نظره إليها فراعته حسنها ، وهم أن يظهر إعجابه بها ، وأن يقول لها :

— ما أروع جمالك الليلة !

ولكن الكلمات ماتت على شفتيه قبل أن تولد ، ولو أنه لم يصرح بإعجابه

إلا أنها رأت في عينيه أثر جمالها في نفسه . وسارت وسار بجوارها ، وأخذتا يطوفان شوارع الحى المظلمة ، وفي شارع هادئ وقفا تحت مصباح خافت ، وسقط الضوء الباهت على وجهيهما ، فزاد من حسنهما ، وتطلع كل منهما إلى رفيقه فأحس أبخرة من النشوة تنتشر في بدنه ، ومرت دقائق وهما في صمتها المعبر ، وفكرت راشيل في أن تضمه إليها وأن تغمره بقبلاتها ، ولكن ذلك الشاب الصغير كان يشيع في نفسها رهبة أحيانا ، فاكثفت بأن مدت يدها وضغطت على يده ، ثم استأنفا سيرهما . وخرجا إلى الميدان فكأنما هما من حلم لذيذ ، والتفتت راشيل إليه وقالت :

— أعلمت سبب فسخ خطبتى ؟

فاحمر وجهه وقال في صوت حبيس خرج كحشرجة رجل في النزاع الأخير :

— لا .

— لم نكن نعرفه ، وقد قدمه إلينا صديق ، وفاتحنا في أمر الزواج ، فوافق أبى ، وأقمت حفلة صرفت عليها دم قلبي ، ومرت أيام الخطبة ولم يبق على الزفاف إلا أيام ، فلمست منه تبديلا ، فبعد أن كان يرعاني ويحوطنى بحبه راح يعاملنى في غلظة وجفاف ، وفي ليلة وجهه إلى انتقادات مريرة أمام أهلى ، فلم أشعر إلا وأنا أخلع الخاتم وألقى به في وجهه ، لم يثر ولم يغضب وكأنما استراح إلى فعلتى ، فتناوله وانصرف ، كان سافلا ، صرفت عليه كل ما ادخرت ، صرفت عليه دم قلبي .

وأطرق مصطفى وقد غامت صفحة وجهه وانبعث من جوفه صوت يصيح : « أنت السبب فلو أنك تمتعت ولم تتركى نفسك له يعيث بك كما يشتهى ، لما عافتك نفسه ولما فكر في الفرار » وصلك الصوت أذنيه في

وضوح ، وتذبذب على لسانه ، وأراد أن يقذفها به ، ولكنه لم يجد في نفسه قوة على التصريح بما يدوى في جوفه ، فاستمر في صمته ، وكانا قد بلغا الدار ، فافترقا وصوتها يدوى في أذنيه : « صرفت عليه دم قلبي ، صرفت عليه دم قلبي » فيحس انقباضا ، فهو شاعري يحتقر الماديات ، ولا يحب أن يقام لها أى وزن .

٦٦

مالت الشمس للغروب ، وعاد الرفاق من ملعب كرة القدم يسرون جماعات يتحدثون ، وكان سليم وفوزى وبعض الرفاق قد بلغوا باب السلاملك الخارجى فجلسوا على أريكة البواب ، وكان أسعد وعبد الرحمن وعلى مقبلين متمهلين ، فإن من عادة أسعد أن يسير الهوينى ، ويقف وهو يتحدث ثم يستأنف سيره في بطاء شديد ، فكان أسعد ورفاقه آخر من يصل دائما إلى الملعب ، وآخر من يصل إلى البيت .

ورنت ضحكات على فقد كان عبد الرحمن يروى بعض نواذر فهمى التافهة في سخرية لازعة ، وتلفت على فوق بصره على شاين يغازلان فتاة ، وكانا شاين غريين ، فقال على وهو يضجك ضحكته الفارغة الطليقة : — والله عال ، خروفان غريان يعتديان على نعاج الحى .

وبلغ صوته آذان الشاين ، فثار أحدهما وسب أم على وذكرها بسوء ، فتغير دم على فإن أمه قد ماتت ولا يحتمل أن يذكرها أحد بسفاهة ، فاندفع صوبهما وهو غضبان ، وقبل أن ينبس بكلمة عاجله أحدهما بكلمة قوية ، فاختل توازنه وسقط على الأرض ، ولأول مرة لم تنطلق ضحكاته الفضية ،

بل انطلق السباب من فيه في ثورة وحنق ، ورأى أسعد ما حل بعلى ، فلم يفكر ولم يتدبر ، بل هجم على الشاب المعتدى وراح يوسعه ضربا ، ورأى بعض أصحاب الشاب المعتدى هجوم أسعد عليه ، فأسرعوا لتجديته وكانوا يقفون في متعطف قريب ، وبلغ نأ القتال أصحاب أسعد الجالسين أمام باب السلامك الخارجى فهرعوا ليروا الخبر ، فلما وصلوا إلى هناك وجدوا شبانا ملتفين حول أسعد ، وعلى عبد الرحمن يكيلان لهم الضربات فانقضوا عليهم ، وراحوا يوسعونهم ضربا ، واستمرت المعركة ، واستمر التحام أسعد والشاب المعتدى ، وفتحت الشبايك ، وخرج الناس من البيوت يشاهدون المعركة المحتدمة ، ولم يجرؤ أحد أن يقتحم المعركة ليفض النزاع ، فقد كانت معركة حامية ، كتلك المعارك التى كانوا يشاهدونها فى السينا ، فاللكمات تتبادل فى سرعة ، والركلات تضرب فى قسوة ، والأجسام تسقط على الأرض ثم لا تلبث أن تنتصب فى خفة لتستأنف القتال ، وراح فوزى الوديع الهادى يجول ويضول ، بينا انزوى فهمى وأخذ يتمسح بالحيطان .

وسالت الدماء وود كل من الفريقين أن يتدخل أحد ليفض ذلك القتال ، وما إن جاء فريد وحجز أسعد عن خصمه حتى هدأت المعركة ، وراح فريد يهرب الشبان الأغراب فقد كان يعرفهم فانسلوا فى خفة ، فعجب أسعد لذلك ، فكيف يفرون والدماء تسيل منهم وقد أصيبوا إصابات بالغة ؟ !

واقترب مصطفى من أسعد ، فرأى فى كتفه دماء فقال له فى فزع :

— ما هذا الدم ؟

— إنها دماء سألت من أمتائه .

— وما نفعل الآن ؟

— اذهب وأحضر لى جلبابا آخر .

فأسرع مصطفى إلى الدار وأحضر جلبابا ، ودخل أسعد السلامك وخلع جلبابه ولبس الجلباب النظيف ، وما انقضت لحظات حتى نضح الجلباب النظيف بالدم ، فصاح فوزى :

— أنت مجروح .

فقال أسعد فى ثقة :

— أبدا .

— أنت مجروح فقد نضح جلبابك بدمك الذى يسيل .

وتقدم فوزى ورفع جلباب أسعد وقميصه ، فرأى جرحا كبيرا يترشرش الدم منه ، فقال :

— طعنت بسكين .

فساد المكان وجوم ، وارتمى أسعد على كنبه ، وأسرع مصطفى ليحضر قطننا . وصاح فوزى :

— كيف طعنت ولم تحس ؟!

— لم أحس شيئا ، كان فى يده منديل يضربنى به .

— كان يلف مطواة فى المنديل .

— كيف تطعن بمطواة ولا تحس ، هذا عجيب !

وبلغ من فى الدار أن أسعد طعن بسكين ، فساد النسوة فزع عظيم ، وهرعت الجدة إلى السلامك فى رعب شديد ، ووقفت زكية فى الشباك تستفسر فى قلق من سليم عما جرى ، ولأول مرة اختلطت الجدة بالأولاد وراحت تسأل فى لهفة :

— مالك يا أسعد ، مالك ؟

فقال لها فوزى :

— اطمئنى ، لا شيء ، جرح بسيط .

وسار أسعد يتكئ على فوزى ، وأسرع سليم يفسح له الطريق ، وصعد إلى الشقة وفوزى فى صلابته ، ثم تمدد فى الفراش وأخذ فوزى ينظف له الجرح ، فقد كان طالبا بكلية الطب .

وأغمى على أسعد فهرع سليم وأحضر زجاجة الكولونيا ، ووقفت أمينة خلف الباب وقلبا يضطرب ، وأخذ فوزى يعتنى به حتى أقبل حسن . فلما علم بما جرى هروا إلى أسعد وتطلع إليه وهويش ويتألم فى سريره ، فلاح فى عيائه القلق ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة ، ولمح فوزى قلقه فقال :

— أسعد بخير يا عمى ، جرح بسيط .

وانسل حسن من الحجرة مشغول البال ، وحاول أن يطمئن نفسه ، ولكنه كان يحس قلقا واضطرابا ، إن ابنه طعن بسكين فكيف يتركه هكذا حتى الصباح ؟ فقام ودخل على ابنه ، فرأى فوزى بجواره يرعاه ، فقال فى صوت حاول أن يبدو هادئا :

— أليس من الأفضل أن نعرضه على طبيب الآن ؟

فقال فوزى فى ثقة :

— لا ضرورة لذلك ، نعرضه على طبيب فى الصباح إن لزم الأمر .

ولم يرتح الأب إلى ذلك ، وخرج وهو قلق ولكنه لم يصر على رأيه حتى لا يجرح كبرياء فوزى .

وغفا أسعد قرب منتصف الليل فانسحب فوزى فى هدوء ، ووعد أن يعود فى الصباح ، وظل حسن ساهرا لا تغمض له عين ، يرجو أن يطلع النهار سريعا لم يعرض ابنه على طبيب .

وانقضى الليل ، وما إن لاح الخيط الأبيض في الأفق البعيد حتى طلب من ابنه أن يرتدى ثيابه ليخرج مع ممدوح ليعرض نفسه على الطبيب . ولبس أسعد بذلته وقبل أن يخرج جاء فوزى ، فخرجوا ثلاثهم يقصدون جراحا معروفا .

وعاد أسعد بعد أن خيط الطبيب جرحه ، ولزم البيت ، ومريومان ، وفي صبيحة اليوم الثالث كان يجلس بالقرب من شباك ، وكانت الخادم تغسل الشبايك ، فسقط الماء على عابر طريق ، فشتم وسب ، وبلغ السباب مسامع أسعد ، فثار دمه ، وهب من جلسته دون وعى ، وهبط في الدرج مندفعاً ليحطم وجه ذلك الرجل البذئ ، ولكنه تذكر السلك الذى كان في جسمه لا يزال ، فكظم غيظه ، وعاد أدراجه وهو يعجب في نفسه لدفعته ، فليست هذه أول مرة يخرج فيها ، فقد سبق أن شذخ رأسه في مشاجرة لا ناقة له فيها ولا جمل .

٦٧

مرضت راشيل ولزمت الفراش ، وأخذت صور الماضى تتابع في مخيلتها تتابع شريط سينمائى ، وراحت تفكر في مصطفى وتجتز ذكرياتها معه فتعجب لنفسها ، فقد عرفته من سنوات ، وكانت تقابله كل ليلة متجددة الأمل ، ترجو أن يخرج عن صمته ، وأن يشها حبه ، وأن يعرض عليها قلبه ؛ ولكن السنوات ولت وما حقق مصطفى الأمل ، فما نطق بكلمة حب ، وما فعل ما يفعله المحب ، كانت تمنى أن يضمها إليه ، وأن يلثمها في شوق ، وأن تحس أنفاسه الحارة تهب على وجهها .

وراحت تسائل نفسها عما يربطها بذلك الشاب ، عرفت قبله شبانا وما دامت علاقتها بأحدهم كما دامت علاقتها به . كانت تعرفهم شهرا أو بعض شهر ثم ينتهى كل شيء ، أما مصطفى فقد دامت علاقتها به سنوات ، وما تسرب الملل إلى نفسها ، إنها تحس أن ما يربطها به يختلف عما يربطها بالآخرين ، فإن نظراته الواهمة الصادقة تنفذ إلى قلبها ، وإن وداعته تأسرها ، وإن صمته وإن كان يحققها إلا أنه يستولى عليها ويجعلها تتعلق به ، إن كل قوته فى صمته ، فلو أنه ثرثر كما يثرثر الآخرون ، ولو أنه عرض قلبه كما يفعلون ، ولو أنه أبدى الخضوع والخنوع ، لانتهى كما ينتهون ، ولما دامت صلته بها شهرا أو بعض شهر .

كانت تشعر بأن ذلك الشاب الصغير يأسرها ويستولى عليها ، وكانت تريد أن تهرب من ذلك الأسر ، وأن تحطم القيد الذى يريد أن يشدها به إليه . إنه يربطها إليه بالحرمان فستظل متعلقة به ما دام بعيدا عن حوزتها ، أما إذا نالته فستهدأ نفسها ويصبح شابا كالآخرين الذين نعمت بهم سويعات ثم غابوا من حياتها كما يغيب عابر الطريق فى زحمة الناس .

إنها تحس إليه حنيناً وظماً شديداً ، فراحت تتخيل نفسها وهى تضمه وتقبله ، فلم تطفئ التخيلات ظمأها ، واشتدت رغبته فيه فعزمت على أن تدعوه إليها .

ودعت أختها الصغيرة فلما جاءت قالت لها :

— اذهبي ونادى مصطفى .

فخرجت الفتاة ورأت مصطفى جالسا أمام البيت فاقتربت منه وقالت :

— كلم أختى .

فأحس مصطفى دمه يفرور ويتدفق إلى وجهه ، فنهض فى صمت ، وسار

خلف الفتاة كما يسير النائم المسلوب الإرادة .
ودلف من الباب فرأى الأب والأم والأولاد جالسين في الردهة ، فسلم في
خجل وتناول كرسيًا وجلس ، وتحدث الأب ومصطفى حديثًا عاديًا فما إن
بلغ صوته أذنى راشيل حتى هتفت في صوت واضح :
— مصطفى .. مصطفى .

فشعر بقشعريرة تسرى في بدنه ، وبعرق ساخن يتفصد من جسمه ،
وأرهفت حواسه ، واتسعت حدقتا عينيه ، فما يفعلون لو خامرهم شك في
علاقته بها ، وما يكون موقفه لو سألوها لم تدعوه ؟! ومرت برهة خالها
دهرا ، ولما لم يحرك أحد ساكنها كادت نفسه تهذاً ، ولكن صوتها انبعث ثانية
يهتف في إصرار :

— مصطفى .. مصطفى .. مصطفى !
فأخذ وبان في وجهه الفزع ، فما بالها لا تتحرز ، وما بالها لا تصبر حتى
يدخل ليسألها عن صحتها ! وصاح أبوها في غضب :
— ماذا تريدین ؟

فلم يثنها عن عزمها ، بل قالت في ثبات :
— أريد أن أكلمه .
فقال له أبوها :
— ادخل وشف ماذا تريد .

فنهض مصطفى ، ودخل غرفة يسودها ظلام شديد ، غرفة لم يدخلها قبل
اليوم أبداً ، غرفة نوم راشيل . ولحقها في الظلام ممددة في فراشها ، فاتجه إليها ،
وما إن لمس حافة الفراش حتى أحس بها تنهض وتطوقه بذراعيها وتقبله في
جنون .

لم يحس مصطفى لتلك القبلات طعما ، فقد كان يخشى أن يدخل عليهما أحد فتكون الفضيحة ، وهو يرتجف من الفضائح ويفر من شبحها . وحاول أن يتخلص من ذراعيها اللتين طوقاه في شدة ، ولكنها ظلت متعلقة به تلثمه هنا وهناك .

وتمكن أخيرا أن يعيدها إلى فراشها ، فغمغمت :

— مصطفى .

— نعم ؟

— أريد بعض الأظرف .

— سأحضرها لك الآن .

وانسل من الغرفة يزفر في اطمئنان ، فقد انقضت حماقتها في سلام ، فالتفت الأب إليه وقال :

— ماذا تريد ؟

— بعض الأظرف .

وخرج مصطفى يشتري لها الأظرف ، وفي الطريق أخذ يفكر فيما كان ، لقد أحس روعة ما فعلته الآن بعد أن اجتاز الخطر ، ودب في أوصاله نشاط فراح يوسع الخطا في طريقه إلى المحل الذي تباع فيه الأظرف .

واشتري الأظرف وهو فرحان ، ولكنه ما لبث أن غاض فرحه ، فقد قفزت إلى ذهنه فكرة أزعجته وقلبت رضاه غضبا ، وأشاعت في صدره الغيرة مكان الانشراح ، فهي ما طلبت منه هذه الأظرف إلا لتراسل حبيبها ، لترسل إليه رسائلها تحمل نجواها وسخطها على المرض الذي حال بينها وبينه وحرما الوصال . وضاق صدره بغضبه فهم أن يمزق الأظرف ، فهو لا يطيق أن تسخر منه هذه السخرية المريرة ، ولكن قلبه لم يطاوعه ، لقد طلبت

منه شيئا تافها ، فكيف يبخل عليها بذلك الشيء ؟!
ودخل مصطفى عليها ، ومد لها يده بالأطرف . فجذبتة وقبلته قبلة طويلة
حارة ، ثم قالت بصوت عال ليصل إلى مسامع أهلها الجالسين في الردهة :
— متشكرة .

فلم يجر جوابا وترك الغرفة ، ولم يشارك أهلها في جلستهم بل انسحب في
صمت وهو سكران بخمر القبلة .

وفي اليوم الثاني جلس مصطفى أمام الباب الحديدى ، ففتحت الشرفة
وأطلت منها أمها ، فلما رآته نادى :
— مصطفى .

فرفع رأسه إليها فقالت :
— تعال .

فنهض وسار إليها فقالت :
— تعال ادخل .

فاتجه إلى باب البيت وصعد في الدرج الذى يفصل بين باب البيت وباب
الشقة وثبا ، وألقى الباب مفتوحا فدخل ، فقابلته الأم وقادته إلى حيث
كانت راشيل وقالت له :

— اجلس مع راشيل حتى أذهب وأحضر لها الدواء .

فجلس وهو يضطرب ، ونظر إلى راشيل فابتسمت له وغمزت بعينيها
فزاد ذلك من قلقه ، وخرجت الأم ولم يبق في الشقة إلا مصطفى وراشيل .
ومرت دقائق ساد فيها السكون ، ونظرت راشيل إليه فألفته مغرقا في
صمته ، كان سعيدا لقربه منها ، وكان يكفيه أن يتطلع إليها ليمتلئ رضا
وغبطة ، أما راشيل فلم تحس ما يحسه ، هى لا تفهم ذلك النوع من الحب ،

ولا تهم بشبع النفس بقدر ما تهم بشبع الجسد ، فقالت له في دلال مشوب
بسخرية خفيفة :

— اقرب ولا تخف فلن تنتقل العدوى إليك .

فاقترب بكرسيه منها وقد احمر وجهه ، فأخذت تمر يدها على شعره
الأسود الفاحم ، ثم همت بصدرها وقربت رأسها من رأسه وأخذت تقبله في
اشتواء ، ثم أعادت رأسها إلى الوسادة وتقلبت في خفة ، فانحسر عنها الغطاء
فبدا فخذها كمخروط من الشمع الناصع البياض .

اندلع في نفسه لميب ثورة جامحة كادت ترغمه على أن يرتقى في أحضانها ،
ولكنه أحس أنه سيقع في شباكها ، ويهوى من علياء سمائه التي تهم روحه
فيها ، أحس في تلك اللحظة أنه لو لبي نداءها لتفوضت صروح أحلامه ،
ولتلوث حبه ، ولانسابت راشيل من يده كما ينساب الماء من بين أصابع
القابض عليه . أحس أنها لو نالته لقل اهتمامها به ، وأنه لو نالها لانطفأت نار
حبه ، وهو لا يريد أن تنطفىء ، بل يتمنى أن تظل مشبوبة الأوار . إنه
سعيد بذلك الحب ، فخور بطهارته ، راض به كل الرضا ، أفترضى راشيل
أن تخضع لذلك الخيال ، سيعمل على أن يرغمها على الرضا به وإن لاقى من
نفسه ومن راشيل عنتا أى عنت .

ورمق فخذها العارية فكادت مقاومته تنهار ، ولكنه غض من بصره ، ثم
نهض ومد يده وسحب عليها الغطاء .

وأبلت راشيل من مرضها فكانا يختليان في الشوارع الهادئة التي يلفها
الظلام ويتعانقان ، وكان مصطفى يجد في العناق نهاية ما يتمنى من سعادة ،
فهو يشعر بالقبلة ترفعه إلى دنيا مفعمة بالبهجة والغبطة ، أما راشيل فكانت
ترى في القبلة بداية إشباع ذلك الجوع الذي يستبد بها ، ويظل يصرخ حتى

يخمد أنفاسه رجل قادر ، والتصق جسماهما وغابا في قبلة طويلة ، وودت راشيل لو أشبع مصطفى نهما تلك الليلة ، ولكن مصطفى اكتفى بضمها إليه لعل قلبها ينصت إلى دقات قلبه الطروب !

وامتلأت نفسه غبطة ، فابتعد عنها وراح ينظر إليها في اغتباط ، ثم وضع يده في يدها ، وتحرك ليعود ، فقد ارتوت روحه ، ولكن راشيل تحركت في ضيق ، فهي تحس نشوة ناقصة ، وساءها أن تعود وفي جسدها ثورة لم تنطفئ ، فعزمت على أن تبدى له رغبتها في أن تنطلق معه حتى النهاية ، فقالت في خفر مصطنع :

— رأيت رؤيا أريد أن أقصها عليك ، ولكني أحسن خجلا .

فابتسم وقال :

— وماذا رأيت ؟

فقالت وقد طأطأت رأسها في حركة تمثيلية ، دون أن يضطرب صوتها أو تبدو في وجهها بادرة خجل :

— رأيتك نائما بجوارى في سريري .

فتدفق الدم حارا في جسمه ، وأطرق ولم يحرك ساكنا ، وفطنت إلى اضطرابه ، وحزرت ما يعتمل في صدره من ثورة ، فأرادت أن تهد مقاومة جميعا ، فقالت في دلال كاد يفقده صوابه :

— أترضى ؟

فاغتصب ابتسامة وظل في صمته ، ولكن ثورة هائلة نشبت في صدره : إنه يريد أن يلبي نداءها فيرضى قلبه وجسده ، ولكن روحه تريد أن ترتفع بذلك الحب عن الدنس .

وسار صامتا وهي إلى جواره تضيق بصمته وجموده ، وشعرت برغبتها في

أن تصفعه ، وأن تصرخ فيه ، وأن تقطع شعره لتنفس عن أحاسيسها التي ضاق بها صدرها ، ولكنها مدت ذراعها ولقتها حوله وضمته إليها في قوة ، وأخذت تقبله في حنان .

ووصلا إلى البيت فافترقا ، وانطلق مصطفى يحس ذلك الرضا والفرح اللذين يشعر بهما الناجي من الخطر :

ومرت الليالي والمعركة محتدمة بين الإغراء والمقاومة ، ومصطفى حائر لا يدرى علة صموده ، ويكاد يقنع نفسه بأنه يقاوم في سبيل بقاء حبه والترفيع به عن الدنس ، ولكنه كان يرى أحيانا أن خجله هو الذى يعقله ، فلو لا ذلك الخجل لاندفع معها إلى نهاية الشوط . وكان يرى أحيانا أخرى أن حبه الطاهر هو الذى يكبح جماحه ، وسواء أكان يقاوم برضاه ، أم بدافع من خجله أو حبه ، أو بهما جميعا ، فقد صمد لإغرائها ، وأرغمها على أن تستمر علاقتهما به .

وجاء يوم الصيام عند الإسرائيليين ، والصيام عندهم امتناع عن الطعام والشراب من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم الثانى ، فصامت راشيل ومرت ساعات النهار بطيئة . فكانت تنتقل من مقعد إلى مقعد وقد استولى عليها سأم وملل ، وخرجت إلى الشرفة ، فلمحت مصطفى واقفا ، فقفزت إلى رأسها فكرة ، إن الوقت ينقضى سريعا وهو بجوارها ، فلماذا لا تهبط وتسير معه حتى غروب الشمس ؟ وأعجبتهما الفكرة فأشارت إلى مصطفى أن ينتظرها .

وراحا يضربان في شوارع الحى وقد أخذتا بأطراف حديث شهى ، فنسيت جوعها وعطشها ، وانقضى الوقت لطيفا ، ومالت الشمس لتغوص في الأفق البعيد ، وكانا قد بلغا شارعا مقفرا ، فضمته إليها وجعلت تقبله



وكانا قد بلغا شاعرا مقفرا، فضمته
إليها وجعلت تقبله لتسلي صياهما

لتسلي صياهما !

٦٨

وقف مصطفى أمام المرأة يسوى هندامه ويتأهب للخروج للقاء راشيل ، فلم يبق على ميعاد أوبتها إلا ساعة ، ومرت الجدة به وهو يمشط شعره فقالت له :

— اذهب يا مصطفى لتطل على بنت عمك فتحية وقل لهم إنى لم أستطع زيارتها اليوم لأنى تعبانة .

— غدا أذهب .

— اذهب الآن من أجلى .

فأطرق مصطفى قليلا ، وراح يفكر ، فهو لا يحب أن يرفض للجدة طلبا . وهو يستطيع أن يذهب ثم يعود إلى الميدان سريعا قبل عودة راشيل ، فأمامه فسحة من الوقت فقال :

— سأذهب .

وانطلق إلى بيت عمه أحمد ليعود فتحية ، أصغر بنات عمه ، وتكبر أخته زكية قليلا ، وكانت تزور البيت الكبير كثيرا لتلعب مع الأولاد ، وتمضى عند الجدة أياما ، وكانت تلك الأيام أحب الأيام عندها فهى تتمكن فيها من الهرب من المدرسة التى كانت تبغضها كل البغض .

وكان مصطفى كثيرا ما ينهرها ، فقد كانت تضايقه بشقاوتها ، وكانت تجرى وراءه على وتتهف : « أبو طويلة .. أبو طويلة » فكانت ضحكته القضية تجلجل ، وما كانت جلجلتها طليقة ، بل كان يشوبها شيء من ضيق ، وكان

مصطفى يقطن إلى ذلك فيكثر في وجهها ويطردها ، ولكنها كانت تعود في إصرار وتظل في هتافها ، فيهم بضربها ولكنه يحجم خشية إغضاب الجدة ، إن هذه الفتاة الشقراء ذات الجفون المحمرة ، كثيرا ما ضايقته حتى إنه كان ينقبض إذا ما رآها في عصابتها من أولاد الأسرة الشياطين ، فإنهم كانوا يقلبون البيت رأسا على عقب ، وذهب مصطفى لعيادتها إكراما للجدة ، ولولا ذلك لما فكر فيها وما خطرت له على بال ، وبلغ البيت وصعد في الدرج مهرولا وقد عزم على أن يمكث عندهم دقيقة أو دقيقتين ثم ينصرف ، فالوقت يمر وهو يخشى أن تأتى راشيل وتروح دون أن يراها .

ودخل غرفة فتحية فألفاها خالية من الأثاث إلا من سرير تمددت فيه ، وقد وقفت أسها عند رأسها وفي يدها كوب به سائل ، ووقف أحمد في وسط الغرفة يصيح :

— دعيا ، إنها لا تود أن تشر به الآن .

فقالَت الأم في أمسى :

— انقضى النهار دون أن ينزل في جوفها شيء .

— دعيا .

فقالَت الأم دون أن تلتفت إلى قوله :

— قومى يا فتحية واشربى .

فصاح الأب في غضب :

— قلت لك دعيا .

فقالَت الأم في ضيق :

— كيف أدعها ولم ينزل في جوفها شيء ، إن مصراتها سيجف .

فقال ثائرا :

— أوه ! والله لأترككن لكم البيت .
وخرج ثائرا دون أن يلتفت إلى مصطفى أو يسلم عليه ، فأحس مهانة ،
وفكر في أن ينسل خارجا ، ولكن امرأة عمه التفتت إليه وقالت :
— اقعد يا بني .

فتلفت في اضطراب ، فرأى كرسيًا من الخيزران فجلس عليه ، ونظر إلى
فتحية الممددة في سريرها فهاله شحوبها وضعفها ، كان شعرها الأصفر
يتهدل على الوسادة ، وبشرتها البياض الناصعة بين فيها الذبول ، كانت
الطفلة الشيطانة لا تستطيع الحراك ، فقد كانت فريسة التيفويد .

وأحس مطفى نحوها بالشفقة لأول مرة ، فإن ضعفها قد هز أوتار قلبه .
وشعر بأنه لا يستطيع أن ينظر إليها طويلا ، فنهض وانصرف ، وما إن وصل
إلى الطريق حتى نسي فتحية ومرضاها وراح يفكر في راشيل ، وأخذ يجد في
السير ليلع الميدان ، وأخذ يلتفت بين وقت وآخر إلى مركبات الترام
المنطلقة ، وفيما هو يلتفت إذ وقع نظره على راشيل في الدرجة الأولى وإلى
جوارها شاب أسمر يحادثها ويتسم لها ، فأخذ واضطرب وخفف من
خطوه ، وأمسى حزينا تنهش قلبه الغيرة . وأخذ يفكر فيما رأى فازداد
حنقه ، فإنه يسوؤه أن يكون ذلك سلوك من يهاها ، وإنه ليحرق على قلبه
الذي تعلق بمن لا تفهم معنى الحب ، ليته يسلوها .. ينساها .. ينزعها من
قلبه .. يدوسها بقدمه ، فهي لا تستحق خفقات قلب مثل قلبه .

وراح يستمد من كبريائه القوة فهو لا يرضى لنفسه الهوان ، سيصدها ..
سيهجرها .. سينساها .. سيكبح جماح ذلك القلب المجنون .

وانطلق وفي جوفه نار ، وفي حلقه غصة ، وفي عينيه بوارد دموع ، وبلغ
الميدان فلم يبحث عنها ودلف إلى الشارع ، وما قطع فيه خطوات حتى

وجدها مقبلة يشرق وجهها بابتسامة حلوة فاضطرب ، وبان في وجهه الغضب ، واقتربت منه وقالت :

— أين كنت ؟ بحثت عنك فلم أجذك فانطلقت إلى البيت ، ولكنى لم أستطع المكوث فيه دون أن أراك ، فعدت لأبحث عنك .

فقال في نبرات حزينة يشوبها اضطراب :

— كنت أزور ابنة عمى ، إنها مريضة .

وأراد أن يقول لها إنه رآها في الترام برقعة شاب أسمر قذر ، ولكنه لم يجد في نفسه الشجاعة ليواسيها بذلك . ومدت يدها وقبضت على يده ، فخدمت ثورته ، وصفت نفسه ، فهو لا يستطيع أن يكرهها وقد سرى حبها في دمه ، وامتزج بروحه .

* * *

واقترح الشيخ حسنين على الشبان أن يخصصوا يوما في الأسبوع لإقامة مناظرة أو إلقاء محاضرة ، فوافقوا على الفكرة ، وحددوا لذلك يوم الثلاثاء ، وفي ذلك اليوم التج السلامك بالزوار ، فقام فوزى وألقى محاضرة عنوانها « فسيولوجية النوم » ثم قامت المناظرة بين الشيخ حسنين وفهمى من جهة وأسعد وسليم من الجهة الأخرى ، واستمرت المناظرة وعلى يضحك من آراء فهمى ، وعبد الرحمن يغمزه ويغمغم :

— خليك عاقل .

فلا يزداد إلا ضحكا . وانتهت المناظرة وأخذت الأصوات ، فلم يهتم المصوتون بالآراء والحجج التى أدلى بها كل فريق ، بل كان اهتمامهم بالأشخاص ، فأغلبهم لا يستلطفون فهمى فانحازوا إلى الجانب الآخر ، فانتهصر أسعد وسليم .

وقام مصطفى وألقى محاضرة عن الموسيقى ونشأتها . وما كان يدري عن
الموسيقا شيئا ، ولكنه اختار ذلك الموضوع لأنه وجدته في مجلة من المجلات
المدرسية .

وعتمت الدنيا ، فخرج الشبان إلى الشارع ووقفوا يتناقشون ويتبادلون
الآراء في مواضيع متفرقة ، ولمح مصطفى راشيل مقبلة فاضطرب ، وعجب
لعودتها مبكرة ، وزاد في اضطرابه أنها كانت مقبلة نحوهم ، لماذا تسير على
ذلك الطوار الذى تكدسوا فوقه ولا تنطلق على الطوار الآخر ؟! أصبحت
على بعد خطوات منهم فخفق قلبه ، واستولى عليه ارتباك ، ومرت بهم
والفتت إليهم وقالت في صوت هادئ ثابت :
— السلام عليكم .

فكاد مصطفى يذهل للمباغثة ، فهو لا يصدق ما يسمع ولكنه لم يكن
واهما ، فإن الأصوات التى ردت عليها قد صكت أذنيه ، وحركت
حفيظته ، وشعر بأحاسيس تتحرك في صدره تقلقه وتضايقه ، وبأن عليه
الوجود ، ولولا الظلام لفطنوا لتغيره .

وانصرف الشبان وبقي مصطفى في مكانه يفكر فيما فعلته راشيل فيحس
امتعاضا ، فهو يحب في الفتاة الحفر والحياء ، ويمقت الوجه المكشوف حتى
في الرجال ، فما بالك لو كانت صاحبة الوجه العريان حبيبتة راشيل ؟ أحس
بشعور مقت واستياء ، شعور مقت لنفسه التى تتعلق بفتاة لا تستأهل حفة
قلب ، ليته يبرأ من ذلك الحب . ورأى عقله الفرصة سانحة ليعذب قلبه ،
فراح يهتف به : « من أدراك أنها لك ، وليست للجميع ! إنها عشيقه الحى »
فتار قلبه ، وبات تلك الليلة نهبا لنوازع الفكر وشوارد الفؤاد .
وأطلت راشيل من شرفها وهتفت :

— مصطفى ، انتظرنى .

فنبذت أفكاره ، وأخذ قلبه يخفق بشدة كأنما يرهو بانتصاره ، وهبطت راشيل إلى الطريق ، فأسرع إليها وسارا جنباً لجنب ، وقالت :

— هل علمت ؟

— ماذا ؟

— سنتقل غداً إلى شقة أخرى .

فوجم وران عليه حزن عميق ، ولم يجد لسانه فلم ينطق بكلمة ، ولححت راشيل وجوهه وشعرت بانقباضه ، فسرّها ذلك وأرضى غرورها ، فابتسمت وقالت :

— لا تحزن ، لن يفرق بيننا شيء ، سأقابلك كل يوم .

فقال مصطفى فى صوت خفيض :

— وأين تسكنون ؟

· — شارع قريب من هنا . تعال لثرى بيتنا الجديد .

وتركا الشارع الذى كانا يقطعانه معا كل ليلة لأربع سنوات متتاليات ، وانحرفا إلى اليسار فى شارع قصير ، ثم إلى اليسار ثانية ، وما سارا أمّثارا حتى انحرفا إلى اليمين ودلفا من شارع ضيق حالك الظلمة ، ليس به مصباح واحد ، ولولا الأنوار الخافتة التى تنبعث من نوافذ الدور لكان من العسير على الضارب فيه أن يجد طريقه .

وانطلقا فى الظلام حتى بلغا الشارع ، فوقفت راشيل أمام بيت قديم وقالت :

— هذه دارنا الجديدة .

وضمته إلى صدرها ، فلف ذراعيه حولها ، وغابا فى قبلة طويلة تحية

للدار الجديدة !

واستمر يقابلها كل ليلة وينطلق معها حتى باب البيت الجديد ، ثم يعود إلى السلامك يستأنف سهره مع والده وصحبه .

وفي ليلة من الليالي خرج إلى الميدان ليقابلها ، ومرت الساعات ولم تقبل ، فانصرف وهو يحس تبرا وضيقا ، وانتظرها في الليلة التالية ولكنها لم تأت فتملكه ضيق شديد ، وعزم على أن يذهب لزيارتهم في الليلة التالية ليقابلها هناك .

خرج قبل مواعده الذي اعتاد أن يخرج فيه كل ليلة وطفق يضرب في الطريق الموصل بين محطة الترام ومنزلها وهو يحنى النفس بقلباها ، ومر ميعاد عودتها ولم يلمحها ، فسار بقلب واجف . ودلف من الباب وقد أرهفت حواسه ، وصعد في الدرج وهو مضطرب حتى إذا وصل إلى الشقة وقف أمام بابها مدة يفكر في أن يعود أدراجه ، وهم بالعودة ولكن قلبه لم يطاوعه ، فاستمر في مكانه ودب فيه وهن ، وسرت في بدنه قشعريرة ، فجعل يتلفت في الظلام مذعورا .

وأخذ يجمع رباطة جأشه ، حتى إذا سكن روعه قليلا ، رفع يده وطرق الباب في رفق ، ولكن الطرقات دوت في أذنيه دويا . فازداد قلقه وفكر في أن يفر ، ولكن الباب فتح ، فتقدم خطوة فوق نور المصباح على وجهه ، فقال له ليا هو مرحبا :

— أهلا مصطفى ، تفضل .

فتقدم وقد هدأت نفسه قليلا ، وأدار عينيه في الجالسين فلم يجد راشيل فأنقبض ، وكان عليه أن يبدو هادئا فقال وقد اغتصب ابتسامة :
— منزل مبارك .

فقالت الأم :

— الله يبارك فيك ، تفضل .

فجلس على أريكة من الخشب ، وحاول أن يتكلم ولكنه لم يجد ما يقوله ،
فلزم الصمت ، وقال الأب في تساؤله :

— أين راشيل ؟

فشعر مصطفى بالدم يتدفق حاراً إلى رأسه ، فما بال أبيها يسأل عنها الآن
بعد أن رآه ؟ ترى أيود أن يلحق إلى أنه قد حزر مجيئه وأنه ما جاء إلا لرؤيتها ؟
وقالت الأم في بساطة :

— عند الجيران .

فقال الأب في ثورة مفتعلة :

— وماذا تفعل هناك ؟

— تزفه عن نفسها ، إنها حبيسة طول النهار .

وأطرق مصطفى ، وأحس لكلامها للدعا ، إنه يخمن ما تفعل هناك ، إنها
تجربى وراء ابن الجيران ولاشك ، وشعر كأن يدا تضغط على رقبته ، وشعر
بالتبدل الذي طرأ على سحته فخشى أن يفتضح أمره ، فانسل إلى الشرفة
القريبه منه ، وجعل يملأ رئتيه بالهواء لعل نفسه تهدأ ، ومد بصره إلى الشقة
المواجهة للشرفة فاضطرب وخفق قلبه ، وأحس دواراً يستولى عليه . رآها
جالسة تضحك وأمامها شاب بدين قصير في جلباب أبيض ، فهشت الغيرة
قلبه ، وأحس نفسه تدمى ، وشعر برغبة في أن يفر ، وتحرك ليغادر الشرفة ،
ولكن لياهو وقف إلى جواره وهتف :

— راشيل .. راشيل .

فجاءت إلى الشرفة تهرول ، فطأطأ مصطفى بصره ، ولم يخفق قلبه ،

وشعر به هامدا ، ورفع رأسه فالتقت عيناها فابتسمت ، وظل مصطفى في عبوسه وكان الألم يعذبه ، وزاد في ألمه أنه أحس تلك اللحظة ضالة نفسه وهوانها ، وهم بأن ينصرف ولكن بلغ أذنيه صوتها وهى تحيه :

— مساء الخير يا مصطفى .

فغمغم في صوت خفيض :

— مساء الخير .

وقال لها لياهو :

— تعالى فإن أباك يسأل عنك .

— آتية حالا .

واستأذن مصطفى في الانصراف ، ولكن لياهو حاول أن يقيه فاعتذر ، وسلم على الموجودين وفتح الباب ليخرج فإذا براشيل أمامه فاضطرب وغض من بصره ، وانفلت من جوارها وجعل يهبط في الدرج متمهلا ، وقرع سمعه صوتها وهى تقول لأهلها .

— سأنزل لأتمشى قليلا .

فانقبض ، وحاول أن يهبط مسرعا ليفر منها ، ولكن الظلام الشديد عاقه ، وما هى إلا ثوان حتى أحس يدها على كتفه ، فانتفض من الغيظ ، وأراد أن يصرخ فيها أن تبتعد عنه ، ولكنه لم يستطع ، وظل غارقا في صمته ، وبلغا الشارع فقالت له :

— لنا جارة لطيفة دعتنى لزيارتها فذهبت ، وقابلت ابنها هناك فجعل يتودد إلى فلم أرتح إليه ، إنه شاب سمج .

فثار دمه في عروقه ، وشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، وعلى الرغم من الظلام الدامس فقد أحست اضطرابه وارتياحه ، وأرادت أن تتودد إليه فالتصقت به

ومالت برأسها عليه في دلال ، ولكنه استمر منظويا على نفسه بجتر آلامه في صبر ، واهتز قلبها لصمته ، فلقت ذراعها حوله وأخذت تقبله ، فهدأت نفسه وتبخّر حزنه فراح ييادها القبل ، وقالت له :

— اقترب عيدكم ، فماذا ستهدى إلى ؟

— ما تودين .

— « إشارب » .

— سأحضره إليك غدا .

— حقا ؟

— غدا .

ووقف عند محطة الترام ينتظر ، وفي يده المنديل المشجر الذي اشتراه لها ، وكان على يقين أنها ستقبل في مياعدها ، ولكن حان وقت أوبتها ولم تعد ، فاغتاظ ، وقفزت إلى رأسه فكرة . إنها تلهو الآن مع جارها الجديد ، فاريد وجهه وثارت نفسه ، فعاد إلى البيت يستولى عليه غضب شديد .

وفكر في أن يدخل إلى السلامك يشارك أباه وصحبه مسهرتهم ولكنه وجد صدره منقبضا ، فراح يقطع الطوار المقابل للباب الحديدي صاعدا هابطا . وانقضت ساعة وهو في ضيقه . ولحقها أخيرا تدلف من الباب الحديدي وتتقدم إلى السلامك في خطأ ثابتة ، فحنق قلبه وتملكه رعب شديد ، وجرى وراءها وهتف في صوت خافت خشية أن يصل إلى مسامع الساهرين في السلامك :

— راشيل .. راشيل .

فالتفت خلفها ولحنته فعادت أدراجها ، فقال لها وقلبه يدق في جوفه دقا

عنيفا :

(في قافلة الزمان)

— إلى أين ؟
— أسأل عنك .
— تسألين عنى ، وكيف ؟
— أمر بسيط . مصطفى هنا ؟ أخى يطلب منه الروايات التى قال له
عنها .

— يا سلام !
— وماذا كان يحدث لو سألت عنك ؟
فقال فى سخرية :
— لا شىء .
وكانا قد ابتعدا من الباب الحديدى ، فقالت له :
— أين « الإشارب » ؟
فدفعه إليها فنشرته وأخذت تتطلع إليه فى إعجاب وقالت :
— بديع ، متشكرة .
ومدت يدها وضغطت على يده ، وانطلقا إلى بيتها ، ودلفا من بابه ، فإذا
الظلام حالك ، فضمته إليها ، ولف ذراعيه حولها يعتصرها ويقبلها ، وقرر
أن ينطلق معها إلى النهاية .
وارتقيا الدرج وهما ملتصقان ، يبغيان الوصول إلى السطح ، ولكن فتح
باب ، وصاح صوت نسوى :
— من ؟

ففر مصطفى كأرنب مذعورة ، وسمع فى فراره مشادة بين راشيل
وإحدى النساء فأمن فى الفرار ، وبلغ داره فجعل يفكر بما جرى فأحس
راحة ، لقد قاوم إغراءها سنين ليقى جذوة اشتهاؤها مشتتلة ، وكاد الليلة فى

لحظة من لحظات ضعفه أن يطفىء تلك الجذوة . إنه يشكر تلك الصدفة التي جعلت المرأة تفتح بابها لتستفسر عن الصاعدين . وإنه على يقين الآن أن ذلك كان في صالحه ، فهو يحس أن علاقته براشيل وشبكة الانفصام . ولكنها ستذكره دوماً ، لأنه الشيء الفريد في حياتها : الشاب الذي عاشته سنوات دون أن تناله .

٩٦

ورسب أسعد في البكالوريا ثانية ، فهجر المدارس وراح يعمل مع أبيه في التجارة ، وكان يزوغ في العصر ليلعب مع الرفاق ، وما كان أبوه ينهره أو يمنعه ، بل كان يتركه على هواه ، فإذا اعترض ممدوح على ذلك قال حسن في هدوء :

— دعه يلهو قليلاً ، فسيحبس في المحل طويلاً .

ورسب على في مدرسته سنين ، فترج إلى الريف ليعيش في العزبة التي اشتراها أبوه ، والتحق فهمي بمدرسة البوليس ، وجاء إلى الشارع يتبختر في بذلته السوداء ذات الشريط الأحمر ، ويتطلع إلى الشبايبك ، وقد التمتعت عيناه سرورا ، وانفرج فمه عن ضبه الكبير . أما شكرى فقد مات أبوه فاضطر إلى أن يحل محله في دكان الجزارة . ترى أيزهف فهمي إليه يوما ليشتري منه اللحم !؟

وتفرق الصحاب ، ولم يعد السلامك يجمعهم ، وراح مصطفى يمضي العصر في محل جلوى يطل على الميدان ، وهناك تعرف بمنافسه ، ذلك الشاب البدين القصير الذي رآه مع راشيل . كان شاباً أسمر ، واسع العينين ، مفلفل

الشعر ، قصير القامة بدين الجسم ، وكان حديثه يشي بأنه لم ينل حظا من التعليم ، كان من ذلك الطراز الواقعي الذى يعيش فى الدنيا بجسمه وحسه ، أما الخيال فما كان يحب أن يطرق بابه أو يعيش فيه .

وجلسا يتحدثان ، وكان حديث الشاب البدين يدور حول راشيل ، فهو يعلم أن مصطفى عرفها من سنين ، ويظن أنه ملها وسئما ، وما يدري أنه يحبا ويهاها ، فطفق يتحدث حديثا يمزق قلب مصطفى تمزيقا ، ولو كان حصيفا لفطن إلى الأثر السيئ الذى ينعكس على وجه مصطفى المتقنع الحائق . راح يقول :

— حدثنا أول يوم ، وزارتنا ثانى يوم ، ونلتها ثالث يوم .

واستمر يصف ما جرى بينه وبينها ، ومصطفى يتألم فى صمت ، كان حديثه شواظا من نار تصب فى أذنيه ، وسكينا حادة تمزق فؤاده ، وكان يحاول أن يكبت عواطفه فيزداد أله .

وانصرف على أن يقطع ما بينه وبينها . إنه لا يحب أن يلوث روحه أو يدنس نفسه ، فلن يخضع لحبه أو يستمع إلى قلبه .

وجاء ميعاد خروجه للقائها فنشبت المعركة بين عاطفته وعقله . وراح تتنازعه أحاسيس وأفكار ، ثم قام يسير متمهلا حتى إذا بلغ نهاية الطريق الذى يصل إلى الميدان وقف فى مكان مظلم يرقب الغادين والغاديات . وهبطت راشيل من الترام فحقق قلبه وتطلعت عينه ، وهفت روحه إلى اللقاء ولكن كبرياءه ثار فدار على عقبيه ، وعاد من حيث أتى يجترأ أحزانه فى صمت . ومرت أيام ومصطفى يكافح قلبه ، ولقد كاد أن يهزم لولا بقية من كبرياء . وفى ليلة من الليالى جاء فريد وراح ومصطفى يذرعان الطريق جيئة وذهوبا ، ولمح فريد فتاة جالسة مطرقة ، فرنا إليها رنوة وقال :

— انظر .

— ماذا ؟

— فتاة رائعة ، ليها تقبل .

— تقبل ماذا ؟

— أن أصورها .

فنظر مصطفى فرأى فتاة كثيرا ما رآها قبل الليلة ولكنه لم يلتفت إليها ، كانت فى السادسة عشرة ، بيضاء البشرة ، دقيقة التقاطيع ، صفراء الشعر ، غربية الملامح ، عليها مسحة من فقر زادت ملاحه ، فكانت تبدو كأميرة إغريقية فى أسمال بالية .

وانقضت أسابيع ومصطفى منطو على نفسه ، يسير فى رفقتها يحاسبها وتحاسبه ، وكان يكتفى بالانطلاق إلى الميدان ، والانزواء فى ركن من أركانه ، والنظر إلى راشيل على البعد ، ثم العودة إلى الدار وقد تجددت أشجانه .

ورأى مارى مرارا ، تلك الفتاة الصغيرة التى كانت تذكره بأمرات الأساطير ، وتلاقت عيناه بعينها ، فكان يرى فيهما ابتسامة خفيفة ، ففكر أن يلهو لعله يسلو فيندمل جرح قلبه ، ويرأى من حبه المهين .

وفى ليلة من الليالى بينا كان يضرب فى الشارع وحيدا ملح مارى قادمة ، فمال نحوها حتى إذا أصبح أمامها ابتسم وقال :

— مساء الخير .

فاضطربت الفتاة ولكنها لم تجفل ، وهدأت نفسها بعد المباشرة فابتسمت ، فسار بجوارها بقدم ثابتة ، وانعطف بها إلى شارع هادئ ، ووافق يحدتها فى طلاقة ، والفتاة تنصت إليه فى رضا ، وانقضى الوقت

لطيفا ثم قالت :

— أوه ! تأخرت .

فقال في هدوء :

— سأنتظرك غدا في الخامسة ، عند نهاية شارع غمرة .

— إلى الغد .

وهمت بالانصراف ، ومدت يدها تصافحه ، ولكنه جذبها إليه وقبلها قبلة سريعة ، ففرت من أمامه ، وجرت وهي تقفز في سرور ، فطفق مصطفى يرقبها ويتسمم ابتسامة عطف وإشفاق .

وجلس في الشرفة في الصباح فلمحها تخرج من بيتها ترفع ثوبا في يدها وتوجه إلى الكواء ، كانت تتأهب لموعد اليوم . فأحس نحوها عطفًا ورثاء ، فقد تفتح قلبها ولكن لمن ؟ لشاب سلب قلبه ، وبات بلا قلب .

وقبيل الخامسة خرج مصطفى إلى الموعد ، ولم يحفل بثيابه ، فلم يتأنق كعادته كلما خرج للقاء راشيل ، ولم يخفق قلبه ، ولم تختلج فيه خلجة ، بل سار دون أن يحس أنه ينطلق لموعد غرام .

وفي الخامسة أقبلت ماري ترتدى ثوبا أسود بسيطًا ، زادها رونقا وجمالا ، ولخت مصطفى فاحمر وجهها ، وتهللت أساريرها ، وشع من عينها بريق حلوا أخذ ، فأحس مصطفى رضا ، وصافحته في سرور ، فتناول يدها وسار بها إلى محطة الأتوبيس ، فسارت معه دون أن تسأله إلى أين يقودها ، ف شعر لأول مرة أنه السيد الأمر .

وهبطا في طريق حدائق القبة الهادئ ، وسارا متلاصقين ، ولف ذارعه حول خصرها ، فطلعت إليه في وله ، وخيم الظلام فعادا إلى الحى ، فذهبت ماري تفكر في مصطفى وتجتر حديثه ، وذهب مصطفى إلى الميدان ينتظر

عودة راشيل ، ليرقبها على البعد .

* * *

وقابل مصطفى ماري ، فانطلقا إلى جسر قصر النيل ، وداعبهما النسيم اللطيف ! فزاد انشراح ماري ، ودلفا إلى الشارع الهادئ الذى يصل بين الجسر والزمالك ، وتآلق القمر ، وبعث ضوءه الفضى الأخاذ ، فكسا البساط السندسى الأخضر الممتد على جانب الطريق ، فبدت للحدائق روعة تأخذ باللب ، وتشرح القلب .

وغمرت النشوة الفتاة الفقيرة التى لم تر مثل ذلك الجمال قبل ليلتها ، فالتصقت بمصطفى وقد ذخرت نفسها بأحاسيس حلوة بهيجة ، أحاسيس الحب الصافي ، ورتت إليه رنوة هيام ، فلف ذراعه حولها وضمها إليه ، وقبلها قبله هزت كيائها وأشاعت فيها خدرا لذيذا .

وسارا صامتين ، فهامت روحها فى دنيا بهيجة : دنيا الأحلام ، فسرت فيها موجة من السعادة ، فأمالت رأسها على كتفه ، وانطلقت وفى صدرها نشوة عارمة وقلبا يرقص طربا ، أما مصطفى فقد تذكر راشيل واقترب موعد أوبتها ، فاضطرب وانقبض ، وأحس رغبة تدفعه إلى أن يغذ فى السير ليعود إلى الميدان ينعم برؤيتها من بعيد . فغمغم :

— تأخرت !

فقالت فى نبرات حاملة سعيدة :

— لا يهم ، ليت هذا الطريق لا ينتهى .

وأراد أن يقتل القلق الذى شب فى صدره ، فأقبل عليها يداعبها :

— ستضربك أمك .

— بالله لا تذكرنى ودعنى أحيأ هذه اللحظات السعيدة ، إنها

لحظات حياتي .

وثار قلبه ، فقد كان يهفو إلى راشيل . إن نظرة واحدة إليها ترضيه وتسره أكثر من ألف قبلة من ماري .

وأحس تبرما ، وانقبض برغمه ، واستولى عليه ضيق ، ولكنه لم يشأ أن يركن إلى أحاسيسه التي تأمرت عليه ، فضم إليه ماري وراح يلثمها ليخمد الأحاسيس المتمردة الثائرة التي شبت في صدره .

وركبا الترام ، فراح ينظر إلى ساعته بين الفينة والفينة ، وبان في وجهه التبرم والحنق ، ليت الترام ينطلق دون أن يتوقف ، فقد أوشك أن يحل موعد عودة راشيل .

ووصلا إلى الحى فتركها تعود إلى بيتها ، وسار إلى الميدان وفي صدره حرارة ، وقلبه يخفق بشدة ، ومد بصره فألفاها مقبلة نحوه ، فأحس كأنما سرى في جسمه تيار كهربي ، وحاول أن يفر من طريقها ولكنه أخذ وتسمر في مكانه ، واقتربت منه فأدار ظهره ، ومد بصره إلى لا شيء وقد أرهفت حواسه ، وشعر بها تدنو منه فازداد وجيب قلبه ، وسمعها تهتف :

— مساء الخير .

فاضطرب ، والتفت إليها وقال في صوت حاول أن يوحى بعدم الاكتراث :

— مساء الخير .

ثم مد بصره من فوق كتفها يتفحص الطريق ، فقالت :

— ترى من تنتظر ؟ يا بخت من تنتظرها ! .

فصعد الدم حارا إلى وجهه ، فهو لا يدرى أتقول حقا ، أم تسخر منه . فقال في غيظ :

— إني لا أنتظر أحدا .

فابتسمت وقالت له :

— إذن ، تعال معي .

— متشكر أحب أن أقف هنا .

وسارت راشيل ، لا تلوى على شيء وقد لاح في وجهها الغضب ، وبقي مصطفى في مكانه حتى هدأت نفسه ، فتعجب كيف صدها ذلك الصد ، كيف عاملها بهذه الغلظة ؟! لقد حاولت أن تسخر منه وهو لا يقبل أن يسخر منه أحد . وغضب قلبه ورضى كبرياؤه ، ونشب صراع بين القلب المجنون ، والكبرياء المفتون .

وتصرمت الأيام ومصطفى لا يغادر البيت لرؤية راشيل عند أوتها في الليل ، فقد عزم ألا يراها ، ولكن قلبه أخذ يعذبه ، فهو لا يستطيع أن يسلوها . وأخيرا رأى أن يخرج للقيها ، وأن يعمل على أن يتصل بها ليستريح من عناء حبه .

ووقف يرقب الترام ، واعتزم أن يعترف لها بحبه ، وأن ينطلق معها إلى البيت ، وأن يتذلل إليها إن احتاج الأمر ، وأن يدوس كبرياءه ليضع حدا لذلك الحب الذي يوشك أن يورده موارد التلف . إنها متاع مباح فلم يحرمها على نفسه ، ويضفي عليها تلك القدسية وذلك الجلال ؟

ومر موعدها ولم تهبط من الترام ، فانصرف وهو مستاء ، وسقط فريسة لأفكاره ، فلم ترحمه أفكاره ، فازداد إصرارا على أن يقابلها وأن يناها على الرغم من روحه التي هبت تحول بينه وبين التمرغ في الأحوال .

وخرج في الليلة الثانية وأخذ يرقب عودتها ، ولكنها لم تعد ، فانتشرت في صدره أحاسيس الغضب والغيط ، وضاق صدره بها فانطلق كالمجنون إلى

دارها وقد قرر أن يطرق بابها . وما إن بلغ الدار حتى خفت ثورته . رفع رأسه ومد بصره إلى الشرفة فلم يلمح ذلك البصيص من النور الذي ينبعث منها دواما ، بل وجد ظلاما دامسا ، فغمغم :

— لعلهم ناموا .

وقفل راجعا يحمر نفسه ويجتر أحزانه .

وفي عصر اليوم التالى جلس فى محل الحلوى ، وأقبل منافسه بحجسه الأسمر وقامته القصيرة ، وحجسه البدين ، فما يحس إلا وهو ينهض ويشير له بيده ، فاتجه الشاب إليه وهو يتسم ، وجلس معه يشاركه فى مقعده .

وهم مصطفى أن يسأله عنها ، وأحجم وتصبر ، فلن تنقضى الجلسة قبل أن يفضى إليه الشاب بما يريد أن يعرف ، وبما لا يود أن يسمع .

واعتدل الشاب فى كرسيه وقال :

— انتقلوا من شقتهم .

فجف ريق مصطفى ، وأحس كأن يد هاون تدق فى جوفه ، ولكنه لم يشأ أن يلحظ الشاب ارتبأكه ، فأدار وجهه وقال وهو ينظر إلى الطريق :

— من .

— راشيل وأهلها .

— آه .

— انتقلوا أول الشهر . ألم تقل لك ؟ .

— إني لا أقابلها .

— أحسن ، فهي لا تستحق شيئا .

فخفق قلب مصطفى ، واحمر وجهه ، وشخص ببصره ، وغمغم :

— ألم تذهب لزيارتهم ؟

— لا . قطعت صلتى بها من زمان .

وساد السكون لحظة ثم همس الشاب :

— اسمع نصيحتى وحاذر أن تقترب منها ، فهى عرضة لأن تصاب بمرض خبيث فى أية لحظة .

فشعر مصطفى بضيق ، وخشى أن يثى وجهه بما يعمل فى صدره ، فنهض وانصرف باسر الوجه تراوده أفكار وخيالات .

وانطلق فى اليوم التالى إلى المحل الذى تعمل فيه ، ولكنه رأى فيه فتاة أخرى غير راشيل ، فانقبض صدره ، وأحس بياس وقنوط . حتى المحل الذى يمكنه أن يراها فيه غادرته ، لقد انسابت راشيل من بين أصابعه . وذهب إلى ميدان العتبة الخضراء فى موعد انصراف عاملات المحال التجارية ، وجعل يرقب الفتيات العائدات إلى دورهن ويتفرس فيهن لعله يلمحها ، وراح ينقل بصره فى سرعة ويتلفت فى ذهول ، ورأى على البعد فتاة فى قوام راشيل ، فخفق قلبه ، وانطلق خلفها كصبي غريب ، حتى إذا اقترب منها ، تمهل وراح يسوى هندامه ، ثم أغذ السير ليلحق بها وفى نفسه رهبة . وتلاصق كتفاهما ، والتفت إليها فغاص قلبه ، وشاع الحزن فى نفسه ، كانت فتاة أخرى غير راشيل .

ومرت أيام وأسابيع وشهور ومصطفى يجوس خلال القاهرة ينقب عنها . وكان إذا أتعبه البحث يعود إلى ماري يرفه عن نفسه ، ويحاول أن ينسى آلامه وأحزانه .

وفى يوم من أيام الآحاد بينا كان واقفا فى شرفته لمخها ، راشيل بعينها أمام الباب الحديدى تبحث عنه ، فغمره سرور وفرح . وهم بأن يسرع إليها ولكنه كان فى منامته ، فأخذ يصفر لها ، ولكنها لم تسمع صفيحه ، فترك

الشفرة وارتدى ثيابه في سرعة ، وراح يهبط في الدرج قفزا ، وبلغ الطريق فلم يجدها ، فأخذ يعدو إلى الميدان وتلفت عليها ، ولكنه لم يجد لها أثرا ، فاغتاظ واستولى عليه حنق شديد ، وعاد إلى البيت تكاد الدموع تطفر من عينيه .

٧٠

أطرت الجدة وظهرت في وجهها آثار التفكير العميق ، كانت تستعرض في مخيلتها شباب الأسرة ، وشاباتها الذين يصلحون للزواج ، وتأخذ في التوفيق بينهم ، وما كان يهمها التكافؤ بين من ترشحهما للزواج ، ولكن كانت تضع نصب عينها توزيع الأزواج على الفتيات بالعدل والقسطاس ، حتى ترضى فروع الأسرة الضخمة ، وتربط الأواصر بينها .

أصبح أسعد من العاملين في الأسرة ، فهو يعمل في الدكان ؛ فمن حقه في شرع الجدة ، بل وفي شرع الأسرة أن يتزوج ، ولكن كيف يتزوج أسعد دون سليم ومها في سن متقاربة ؟ إن كان سليم لا يزال طالبا ، إلا أنه في السنة النهائية بالجامعة ، فإذا خطب الآن ، فإن إجراءات التجهيز قد تستغرق العام ، فيتزوج وأسعد في يوم واحد .

وما كان مركز الزوج بالأمر الذي يشغل بال الأسرة ما دام والده مقتدرا ، فمن المألوف عندهم أن يتكفل الوالد بالزوجين حتى يشتد ساعد الزوج ويشق طريقه ، وما يقلقهم مستقبل الأبناء ، فهم تجار ، وما على الوالد إلا أن يفتح لابنه دكانا ثم يدعه يبنى نفسه بنفسه . ولما كان حسن من أثرائهم ومن عقلاتهم فقد كان أمنية الآباء أن يزوجوا بناتهم من أبنائهم . وفكرت الجدة فيمن تزوجه من أسعد ، ولكن لم يطل تفكيرها فهي تذكر

أن أمينة حجزته لبنت أخيها ، وقد شبكتها يوم ولادتها ، ولما كانت المخطوبة بنت ابن أخيها هي أيضا فقد كان الأمر يهمها ، فوافقت على هذه الزيجة ، وأخذت تفكر في زوجة لسليم .

وراحت تستعرض فتيات الأسرة ، فابنها أحمد عنده بنت ، وابن ابنها عنده بنت . وابنتها سكيئة عندها بنت ، وراحت تفاضل ، لا بين الفتيات ولكن بين الآباء والأمهات وعلاقة كل منهم بها . وتملكها حيرة ، فقد كانت لا تحب أن تغضب أحمد أو سكيئة ، فياليت حسن قد انجب فتيانا يكفون فتيات الأسرة كلهن !

وفكرت في مخرج من هذا ، وتمنت لو أن مصطفى كان أكبر قليلا ، إذاً لقضى الأمر وتزوج من ابنة أحمد ، ولزوجت سليما من ابنة سكيئة .. وبدأت كفة سكيئة ترجح .

وفاتحت الجدة أمينة في أمر زواج ولديها فوجدت ترحيبا ، وكلمت الجدة ابنها فوافق ، وخاض الجميع في أمر زواج أسعد وسليم ، وأسعد وسليم ينصتان إلى الأحاديث دون أن يخوضا فيها ، وأخذ صمتهما على أنه موافقة ! وابتسم مصطفى ابتسامة هزء ، فقد كان يعجب لهذه الزيجات التي تتم وفق هوى الآباء والأمهات ، وبيت النية على ألا يقبل هذا الوضع أبدا ، وعلى ألا يتزوج من الأسرة ، ولو أغضب الأسرة جميعا . كان يحلم كثيرا فكان يرى بعين خياله مستقبله مليئا بالكفاح ، فهو طموح يود أن يبلغ النجوم ، فلا بد أن تشاركه حياته فتاة مثقفة ، تبث فيه روح الكفاح إذا تضعضع ، وتواسيه إذا فشل ، وتشد من أزره ، وتقف إلى جواره يواجهان الحياة معا ، وما من فتاة من فتيات الأسرة تصلح لهذا ، فما كن يعرفن من الدنيا إلا المطبخ والبيت .

وكتب كتاب أسعد وسليم ، فسر مختار وسكينة بعد أن تزوجت بنتهما الثانية . وغضب الآخرون ، فقد كانوا يرون أنهم أحق بسليم منهما ، فقد زوجا بنتهما عصمت من ممدوح ، فأخذوا نصيبهما ، فإذا بهما اليوم يعتديان على نصيبهم !

وخصصت شقة لأسعد وأخرى لسليم . وصفت قطع الجهاز في الغرف ، فكان الأولاد يمحرون من غرفة لغرفة ، وكانت جلبتهم تشتد إذا أقبلت فتحة ، فقد كانت شقية ، تحمل الكراسي وتنقلها من مكان إلى آخر ، فكان مصطفى يرقبها في غيظ ، ويهم بضربها ، ولكنه كان يحجم ، لأنها كانت تعتبر ضيفه ، وما كان من الذوق ضرب الضيف . ولكن إذا تجاوزت شقاوتها الحد حملها وسلمها لأسعد ، فداعبها بأن يضربها في قسوة وهو يضحك !

وفي ليلة من الليالي انطلقت سيارة حسن وأحضرت العروسين ، وتم زواج أسعد وسليم في غفلة من الأسرة الغاضبة ، دون أن يحضر زفافهما أحد أو يشعر به أحد ، سوى أمينة وزكية وسكينة والجددة ، وكن جميعا في ثيابهن السود .

وبدأ الحمس في الأسرة بأن حسنا يصرف على البيت الكبير شيئا كثيرا ، وأنه إذا لم يقبض يده فمآله الإفلاس ، وقال له بعضهم ناصحا أن يطعم البيت جميعه من طعام واحد ، بدلا من أن يترك كل شقة مستقلة تنفق على هواها ، فأطرق ولم يحرك ساكنا ، فهو لا يريد أن يعود بأسرته إلى الفوضى التي كانت تسود الأسرة أيام الحاج أسعد ، وكان يحب أن ينعم أبناؤه بالسعادة في أيامه ، ويفضل أن ينفقوا في حياته عن سعة عن أن يغل يده عنهم فيسقطوا أيديهم بعد موته ، وعاونوه على البذل أنه ما كان يقدر المال أكثر من قدره .

وأصبح مصطفى وحيدا بعد زواج أسعد وسليم ، ولو أن سليما لم يعمل بعد ، إلا أن زواجه حجب عنه ، فكان يذهب إلى السينما كثيرا ليزجى أوقات فراغه . وجلس في مقعده مرة ، وراح يدير عينيه في الموجودين ، إذ وقع بصره على راشيل تقبل في رفقة شاب ، فاضطرب واشرب عنقه ، وحدث فيها كأنما يريد أن يجذبها إليه ببصره ، ووقفت عند الصف الذي يجلس فيه ، فزاد خفقان قلبه وتفصّد العرق من وجهه ، وانسابت بين الصفوف وصديقتها خلفها ، والتقت عيناه بعينها فامتقع وجهه ، واتسعت حدقاتها وبان في وجهها قلق خفيف لم يلبث أن اختفى ، وولدت على شفيتها ابتسامة لم يعرف تأويلها ، أهي ابتسامة تحية أم ابتسامة هزء .

وجلست إلى جواره فأرهفت حواسه ، ومد بصره ولكنه كان يحس كل حركة تأتيا ، فإذا حركت رجلها حركة خفيفة تنبهت حواسه ، وإذا مس جزء من جسمها جسمه شعر بتيار كهربى يسرى فيه ، وأحس بها وهى تختلس النظر إليه ، ولكنه لم يجرؤ على أن يدير عينيه إليها خشية تلاقى العيون . وأقلع اضطرابه ، واستولى عليه وجوم ، وسرت الغيرة فى صدره وراحت تحزه ، فانكمش وراح يجاهد غيخته ، ولكنها كانت تضنيه ، وانحصر فكره فيها ، فساء ذلك وحنق على نفسه ، وحاول أن يفكر فى أشياء أخرى ولكنه لم يستطع ، فأخذ يفكر فى ماري ويعمل جاهدا على أن تحتل فكره ، ولكن فكره كان يرتد إلى راشيل الجالسة إلى جواره ، فقد بحث عنها ستة ثم ركن إلى اليأس ، وقد حسب أنه قد برأ من حبها ، فإذا به يجدها الليلة ، وما وجدها وحيدة ، بل فى رفقة عشيق جديد .

وأطفئت الأنوار ، وبدأ العرض ، وراح يجمع شتات فكره ويركز فى الصور التى تتلاحق أمامه ، ولكن فكره كان يشرد ، وكان يحس على نفسه

غضباً في اللحظات القصار التي تفيق فيها ، فإنه ليعجب لشروء ذهنه في حين أن التي يشرد ذهنه من أجلها تجلس إلى جواره يلتصق كنفها بكتفه وإلى جوارها عشيق ! .

ومر الوقت بطيئاً ، وشعر مصطفى بتعب وجهه ، وفكر أكثر من مرة في أن ينصرف ، ولكنه كان يحجم خشية أن تقطن إلى فراره من جرح قلبه . وانتهى العرض وما رأى شيئاً ، فقد شغلته أحاسيسه عما يجري على الشاشة أمامه .

٧١

ودارت عجلة الزمن ، ونال مصطفى البكالوريا والتحق بالجامعة ، واستمرت علاقته بمارى ، فكانا يتلاقيان كل يوم ، وعلمت أمها بما بينهما فكانت تزجرها وتحاول أن تمنعها من مقابلته دون جدوى ، وألحقتها بعمل لتشغلها عنه ، ولكنها كانت تفر من العمل إليه ، وفي يوم ارتدت ثيابها ووقفت تصفف شعرها ، فلما رأتها أمها تتزين قالت لها في حدة :

— مارى ، إلى أين ؟

— إليه .

— لن تخرجى اليوم .

— سأخرج .

— أمجنونة أنت ؟

— أجل ، مجنونة .

— وما تودين منه ؟

— أحبه .

— وما نهاية هذا الحب ؟

— لا أدري ، ولا أود أن أدري .

— ماري ، إنه لن يتزوجك ، فهو مسلم وأنت يهودية .

— ليس هذا من شأنك .

— ماري ، أنا أمك وعلى أن ...

— أوه ، دعيني .

— لن تخرجي أبدا .

وأغلقت الأم الباب بالمفتاح ، فأربد وجه ماري ، واستولى عليها الغضب ، فهجمت على أمها تتترع المفتاح منها ، وأخذت الأم تقاوم ابنتها ، فلما وجدت أن مقاومتها وشيكة الانهيار صرخت ، فقالت ماري :

— لا فائدة من صراخك ، فلو جاء الجيران كلهم لما منعوني من الخروج .

وصار المفتاح في حوزتها ، ووقفت أمها حائلا بينها وبين الباب ، ولكنها دفعتها في شدة ، وأدارت المفتاح فافتتح الباب ، وهمت بالخروج فتشبثت أمها بها فجعلت تتملص من قبضتها ، ثم اتسابت منها وراحت تهزول وأمها خلفها تصيح في يأس :

— ماري .. ماري .

وانطلقت وأصمت أذنيها عن النداء . وابتعدت عن البيت فهصدأت نفسها ، ووقفت تسوى هدامها الذي شوشته أمها وهي تحاول أن تحول بينها وبينه .

وتقابلا ، وسارا جنبا إلى جنب ، وامتلاأت نفس ماري غبطة ، وأخذ قلبها يرقص طربا . كانت تحس خدرا للذيذا وهي معه ، وكانت النشوة تلفها فقد

(في قافلة الزمان)

كان حبها عارما ، فهو أول من خفق له قلبها . وكان مصطفى يحس وهو معها تلك النشوة التي يحسها الشاب إذا ما كان في رفقة فتاة ، أما خفقات القلب ، وفورات الأحاسيس ، فما كان يشعر بها إلا إذا ذكر راشيل ، أو رأى فتاة على البعد حسبها راشيل .

ونظرت إليه بعينيها العسليتين الصافيتين ، وقد شع منهما بريق حلو ، وهتفت :

— مصطفى !

— ماذا ؟

— أحبك .

فابتسم ولف ذراعه حولها وضمها إليه ، فغمغمت :

— مصطفى !

— ماذا ؟

فقطأت بصرها وقالت بعد برهة صمت :

— لا شيء .

فرمقها من طرف عينه وقال في تأكيد :

— بل هناك شيء .

— أبدا ، كنت أفكر لماذا تطول مدة دراستكم ، في حين أن الشاب عندنا

يحصل معارفه في سنوات قليلة ثم ينزل إلى ميدان العمل .

وفطن إلى أن هذا ليس السؤال الذي كانت على وشك أن تسأله ، ولم يشأ

أن يقول لها ذلك بل راح يجاريها فقال :

— إنكم رجال أعمال بالسليقة ، تتعلمون التزر اليسر في المدارس ثم

تكتسبون من الحياة التجارب .، إن كل همكم أن تسيطروا على دنيا المال ، بينما

أنا نطمح في المناصب ، وهذه تستلزم إعدادا طويلا :
وصمت قليلا ثم قال :

— لنا جارة يهودية يعمل ابنها صبي في محل من المحال التجارية ، وقد
ساعها أن يضيع وقت ذهابه إلى المحل والعودة منه دون استغلال ، فأعطته
أوراق « اليانصيب » لبيعها في ذهابه وإيابه .
فتبسمت ماري ضاحكة وقالت :

— نحن شطار .

فقال وهو يتبسم :

— جدا .

وركبا الترام حتى إذا بلغا الزمالك هبطا منه ، وسارا في الشارع الموازي
للنيل متلاصقين ، وكان النسيم لطيفا فراح يداعبهما وينعش روحهما .. ومد
بصره فرأى قاربا يتهادى على الماء ، وكان كمرأة مصقولة تعكس أضواء
الشمس الغاربة .

كان منظرا رائعا يأخذ باللب ، فغمغم :

— ما أحلى الركوب في النيل وقت الأصيل ، تعالى نركب مركبا .

فقالت :

— لا . ليس الآن .

— أتخشين الغرق ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينها العسليتين قد تألق فيهما ذلك البريق
الذي يرتاح إليه وقالت :

— إنى أمتنى أن أموت معك .

فابتسم وضغط خصرها بذراعه . واستمرا في سيرهما هائنين حتى إذا

ما تحكم الظلام في الكون قفلا عائدين إلى الحى .
ومت ماري بالانصراف ، ولكن ظهر عليها التردد ، ثم قالت في صوت مرتعش :

— مصطفى !

— ماذا ؟

— لا شيء .

— لا شيء !

وتركه وانطلقت لا تلوى على شيء ، وأخذ يرقبها وهو يستسم في إشفاق .

وتمدد في فراشه وراح يفكر في ماري ، فأحس نحوها شفقة وعظفا ، فهي تحبه من كل قلبها ، وهو لا يملك أن يحبها ، فلو أنه قابلها قبل راشيل لتعلق بها ولهام بها حبا ، وراح يفكر في راشيل فتسى ماري ، ونسى نفسه ، وأخذ يجتر ذكرياته في لذة وشغف .

٧٢

وخرج إلى الشرفة يملأ صدره بهواء الصباح المنعش ، ورأى من زاوية عينه فتاة تطل عليه من شرفة قريبة ، فأدار رأسه ورنا إليها ، فخفق قلبه في شدة ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، وأذهلته المباغة ، كانت راشيل تبسم له ، فالتفت إلى الناحية الأخرى يلفظ أنفاسه في جهد .

وترك الشرفة ودخل وارتمى على مقعد طويل ، وحاول أن يستعيد هدوءه ، ولكنه راح يفكر يرغمه فيما فعل ، لقد ابتسمت له وكان في

مقدوره أن يتسم لها وأن يقابلها ، ولكنه أظهر لها الجفاء دون أن يفكر أو يتدبر .

وثار قلبه ، فها هي ذى راشيل تعود ، ولولا الكبرياء الممقوت لنعم بالوصل وانتعش بالقرب ، وراح قلبه يدفعه إلى الخروج إلى الشرفة والتطلع إليها والابتسام لها ، فقام وأخذ ينظر من خصائص النافذة فألفاها واقفة ترقب شرفته ، فحقق قلبه في سرعة وقوة ، وسار إلى الشرفة بخط مترنحة . كان مترددا لا يدرك أبداً أو يحجم ، وما إن خطا في الشرفة حتى ثار كبرياؤه وراح يزجر نفسه . كيف ينسى عبثها في لحظة ؟ إنها لا تستحق حبه ، فعليه أن ينساها .. أن يسلوها .. أن يحتقرها .. ونكص على عقبيه وارتمى على المقعد مبهور النفس .

وجاهد ليفكر في أمر آخر ، ولكن هيات ! فالقلب مشغول بها . وضاق مصطفى ذرعاً بحاله ، فنهض وأخذ يقطع الغرفة صاعداً هابطاً ، ثم ارتقى على سرير الغرفة ، وأخذ يتقلب فيه ، كان فريسة لقلبه وعقله ، وعاطفته وكبريائه .

وجاء أوان عودة الفتيات إلى الحى في الظهر ، فارتدى ثيابه وخرج وقد عزم على أن يقابلها ، وانطلق في الطريق الموصل إلى محطة الترام ، حتى إذا بلغ نهايته لمحها قادمة ، فأخذ ، وهم بأن يتقدم إليها ويصافحها ، ولكنه ألقى نفسه يشيح بوجهه عنها ، وينطلق من جوارها في سرعة كأنما يفر منها . ودق قلبه ، ولفه وجوم ، فما يدري لماذا فر منها ، فما خرج إلا ليلقائها . لقد انقطع خيط الأمل ، وانتهى كل شيء .

وفي العصر قابل ماري ، فوجدها ساهمة على غير عادتها ، فقال لها :

— ما بك ؟

- لا شيء .
- إنك حزينة .
- فطأطأت رأسها وغمغمت :
- إني لا أطيق ذلك الثقيل الذى فى البيت .
- أى ثقيل .
- خطيبى .
- أخطبت !؟ مبروك .
- بالله لا تسخر منى ، إني متضايقه .
- أبيضايقلك أنك خطبت ! هذا عجيب ، كل الفتيات يتمنين هذه الخطوبة . فما أندر المغفلين الذين يتزوجون فى هذه الأيام .
- إني لا أطيقه ، لا أحبه .
- غدا تحببته .
- أبدا .
- وما الذى يرغبك على زواجه ؟
- أمى .
- لماذا ؟
- تريد أن تقيدنى حتى لا ألقاك .
- وأطرق ساهما ، وطأطأت بصرها ، وراح كل منهما يفكر ، ثم رفعت رأسها وغمغمت :
- مصطفى .
- نعم .
- كم تنفاضى لو أنك تركت المدرسة والتحققت بمخدمة الحكومة ؟

فابتسم في مرارة وقال :

— ستة جنيتات أو سبعة .

فقالت وقد اتسعت حدقتها :

— لا بأس ، يمكننا أن نعيش بها .

فلذعر وتمتم :

— ماذا ؟ . مارى !

— مصطفى أحبك ، لا تدعنى ، إني أريد أن اهجر البيت ، أن اهرب

معك .

فلف ذراعه حولها وضمها إليه وغمغم في صوت مضطرب مرتعش :

— مارى اعقلى .

— مصطفى ، تزوجنى إذا كنت تحبى .

فوجم ، وحبست الكلمات في حلقة ، وتفصد العرق منه ، وسار وهو

كالماخوذ لا يدري ما يقول ، وتطلعت إلى وجهه فألفته عابسا مقطبا

فقالت :

— لا تريد أن تتزوجنى لأنك لا تريد أن تتزوج من يهودية .

— لا يا مارى ، إنك في فورة من فورات النفس ، فلا تنقادى لعواطفك ،

غدا إذا هدأت نفسك وتذكرت حديثك اليوم فستتسمين في سخرية .

— لقد فكرت طويلا ، وهممت أكثر من مرة بأن أفاتحك ، ولكن كانت

شجاعتي تخوننى ، مصطفى أحبك ، وسأظل أحبك ، وأنتى أن أقضى

العمر معك .

— إن الأمر لا يعنينا وحدنا ، فكرى في أهلك وأهلك .

— فكرت .

- لأنهم لن يرضوا عن زواجنا .
— وما بهم ما دمتا سعيدين ؟
— أراك تتطلقين في طريق وعر .
— مصطفى ، إنك لا تريد لأنك لا تحبني ، فلو كنت تحبني لما فكرت .
— إنك لا تستمعين إلا لصوت قلبك فإذا انطفأت هذه الجذوة غدا ،
وصرخ فينا صوت العقل ، فسندم على انصيانا وراء عاطفة هوجاء .
— قد تندم أنت ، أما أنا فلن أندم أبدا .
— لا يا ماري .
— دع المعاذير ، فأنت لا تريد .
— إني لا أريد أن أحطمك أو أحطم نفسي .
— إنك لا تريد أن تضحى بشيء من أجلى .. إنك لا تحبني .. الوداع .
ودارت على عقبيها ، وانصرفت تغذ في السير لا تلتوى على شيء ،
وهتف :
— ماري . ماري .
ولكنها كانت قد ابتعدت ، فسار مطرقا وقد امتلأ صدره بالشفقة على
الفتاة .

* * *

ومرض حسن وغاضت نضارته ، فجزع كل من في الدار ، وهرع
مدحوح إلى طبيب صديق وأحضره ، فلما فحصه أطرق ثم قال :
— إني أنصح ألا يبذل أدنى مجهود ، اطرحوا له حشايا على الأرض حتى
لا يصعد السرير أو يهبط منه .
فأسرع مدحوح وقال لأمه أن تفرش الحشايا على الأرض ، وأخذت الجدة

وأمانة وزكية يهين الفراش الذى أمر به الطبيب ، وانتقل حسن إليه ، وراح صدره يعلو وينخفض ويلتقط أنفاسه فى جهد ، وقال الطبيب مؤكدا :

— عليه ألا يغادر الفراش ، أو يذل مجهودا قبل شهر .

وانسل الطبيب . وخرج ممدوح خلفه وسأله :

— ما به ؟

— قلبه فى منتهى الضعف .

فصمت ممدوح واربد وجهه ، وهبط الطبيب ، وعاد ممدوح يحاول أن يخفى قلقه ، وسأله الجدة فى لهفة :

— ماذا قال الطبيب ؟

— تعب بسيط يحتاج إلى الراحة .

وظل حسن فى فراشه يومين يتناول الدواء الذى وصفه الطبيب ، ولكن ذلك لم يعجب نفيسة وأمانة وزكية ، فقد كن يرين ألا ضرورة للدواء ، فإن حسنا قد أصابته « نظرة » ، فأرسلن فى استدعاء أم أحمد زنوبة .

جلست أم أحمد زنوبة على حشية بجوار فراش حسن ، ثم غطت وجهها بطرحتها البيضاء ، وتمطت وانتفضت ، ثم رفعت الطرحة ، وقالت الست ورده :

— السلام عليكم .

— عليكم السلام .

والتفتت إلى حسن وقالت فى صوت هادى : يوحى بالثقة والاطمئنان :

— اطمئن ، بخير .. إن شاء الله بخير .

وقالت لأمانة :

— هاتى بعض جمرات .

فأسرعت أمينة إلى المطبخ ، وغابت قليلا ثم عادت بالجمرات ، فأخرجت الست وردة مبخرتها الصغيرة ، وأخذت تبخر حسنا وتمتع ببعض آى القرآن ، ثم وضعت يدها على الصدر الذى يعلو ويهبط فى سرعة واستمرت فى قراءتها . وكان مصطفى يرقبها فى ضيق ، ولولا خشيته أن يغضب أهله لصاح بها أن تكف .

وما انتقضت لحظات حتى هذا الصدر المضطرب ، وانتظم تنفس حسن ، فبان فى وجه مصطفى العجب ، وخرج من الغرفة وهو لا يدرى لما رأى من تأويل !

وفى يوم وقف مصطفى أمام الباب الحديدى ، ولخته راшил من شرفتها العالية ، فعزمت على أن تهبط إليه وتحذمه وتعيده إليها . إن فكرة أن ذلك الشاب الصغير أذل كبرياءها تعذبها . هى تعلم أنه يحبها ويتمناها .. ولكنها لا تدرى لنفوره من سبب . قابلته أكثر من مرة بعد أن عادوا إلى الحى ، وكانت كلما التقت عيناه بعينها تبتسم له ، ولكنه كان فى كل مرة يزور عنها ويلتفت إلى الناحية الأخرى . كانت على استعداد لأن تبدأ بالتحية ، وأن تبدأ بالكلام ، ولكنه لم يدع لها فرصة . كان يفر مذعورا إذا اقتربت منه أو همت . بندائه .

وأرسلت إليه أختها مرة تدعوه لزيارتهم ، فوعدها أن يفعل ذلك فى فرصة أخرى ، ومرت الأيام دون أن يبر بوعده ، ترى أحب غيرها ؟ وأسرعت راшил تنفى ذلك الخاطر فى قوة ، فهو يحبها ما فى ذلك شك ، فإن كل حركة من حركاته توحى بحبه ، ولكن ما قيمة ذلك الحب إذا كانت لا تنهأ به ولا تسعد !؟ ستقابله وتحادثه وتستعيده وتستولى عليه .

وهبطت إلى الطريق وانطلقت إليه ، ولحقها مقبلة فأخذ ، وراح قلبه

يدق ، وأحس رهبة وجفافا بحلقه ، ولم يشعر إلا وهو يزور عنها برغمه ،
ويشيع بوجهه إلى الناحية الأخرى .

ورأت نفوره فلم تياس ، فقد صممت أن تبذل آخر ما في جعبتها ،
فانحرفت إلى الدكان القريب من الباب الحديدى ووقفت بالقرب منه حتى لو
أنه مال قليلا لالتصق كتفه بكتفها .

زاد في خفقان قلبه ، وفكر في أن يفر ، ولكنه تسمر في مكانه وأرهف
سمعه برغمه ، وأخذت راشيل تحدث صاحب الدكان فقالت :

— سندع هذا الشارع قريبا .

فقال الرجل مستفسرا :

— لم ؟

— عدنا إلى هنا وكنا نحسب أننا منجد أحبابنا ، ولكن لما عدنا وجدنا
جيراننا يعبسون في وجوهنا ، ولا يريدون محادثتنا ، أصبح الكل يكرهونا .
ونظرت من زاوية عينها إليه فألفته جامدا في وقفته كتمثال ، فانقبضت ،
وقال الرجل :

— ولكن لماذا يكرهونكم ؟

— والله لا ندرى ، وهذا ما يبحرنا .

— لا تفكروا فيهم ، ولا تهتموا بهم .

— وكيف نعيش بين أناس يبغضوننا ، ستترك هذا الشارع غير آسفين .
وتبدلت نبراتهما فإذا هى توحى بالعتاب والغضب ، وما إن بلغ صوتها
مسامعه حتى هزه . وكاد يضعف ويلتفت إليها ، وهم بأن يدير رأسه ،
ولكنه تحرك وانطلق كالعاصفة تاركاً راشيل خلفه ، ودلف من باب البيت
وصعد وقلبه يخفق في شدة .

وتجدد في المقعد الطويل ، وراح يستعيد ما حدث فأحس راحة ، لقد دعتة إليها ولم يستجب لندائها ، ولم يعد لها عليه من سلطان ، لقد برأ من حبها ! ولكن ما انقضى يوم حتى أحس حنيناً إليها ، ورغبة في رؤياها ، فارتدى ثيابه ، وانطلق إلى الشارع الذي تعمل به لينعم برؤيتها على البعد .

٧٣

حمل مصطفى حافظة كتبه وانطلق إلى محطة الترام ليذهب إلى كليته ، فألقى فتاة بيضاء الوجه ، زرقاء العينين ، كستائية الشعر ، ممتلئة قليلا ، ترتدى ثوب المدرسة الأبيض الفضفاض ، كان ثوبها يخفي مفاتها ، وعلى الرغم من ذلك كانت تبدو حلوة كالفجر ، وتذكر أنه رآها على محطة الترام مرارا ، ولاحظ أنها تركب الترام الذي يركبه سواء أ جاء مبكرا أم متأخرا ، فخطر له أنها تنتظره ، ولم يركن إلى ذلك الخاطر طويلا فقد ابتسم في سخرية واتهم نفسه بالغرور .

وجاء الترام فركب مصطفى وركبت الفتاة ، وما لبث أن شغل بأفكاره ففسى الفتاة ، ولكن ما وصل الترام إلى العتبة الخضراء حتى هبط وهبطت ، وسارا إلى طوار آخر ينتظران تما آخر ، والتقت عيناها أكثر من مرة ، فكان كل منهما يغض من بصره سريعا ، وراح يختلس إليها النظر فأعجبه حسننها ، وجاء الترام فركباه ، لقد كانت تنطلق في نفس طريقه ، وأخذ يطل برأسه كلما وقف الترام ليعرف أين تهبط . ولحقها تهبط بعد ميدان الأزهار فأخذ يرقبها ، فرآها تدلف من شارع يصل إلى الليسيه فرنسيه ، فعلم أنها طالبة بها . وفي اليوم الثاني خرج مصطفى إلى كليته ، وقبل أن يبلغ محطة الترام خطر

له أن يقف بعيدا يرقب فتاة الأمس ، فانتحى جانبها ومد بصره إلى محطة الترام ، فرأى الفتاة تتلفت نحو الطريق الذى يقدم منه ، وجاء ترام فلم تركبه ، ثم ثان وثالث ، وركب الناس وهى واقفة تتلفت ، فانفجرت أساريه وخرج من مكمنه وسار إلى محطة الترام . فلما لحنه تظاهرت بأنها متبرمة لتأخر الترام ، وراحت تمد بصرها تكشف الطريق ، وتقطع الطوار صاعدة هابطة فى قلقى مفتعل ، فابتسم وأخذ يتطلع إليها فى اهتمام ، حتى إذا أقبل الترام ركباه .

وفى العصر دخل حجرة استذكاره وفتح نافذتها ، وهم بالتوجه إلى مكتبه ولكنه لمح فتاة الصباح فى شرفة بعيدة ، تمد بصرها إليه ، فبان الدهشة فى وجهه ، وعجب كيف لم يلمحها قبل اليوم ، لعلها كانت هناك من سنوات ، ولعلها ظلت ترقبه وهو لا يحس بها . كان مشغولا براشيل ومارى ، أما الآن بعد أن رحلت راشيل مرة أخرى ، وبعد أن تزوجت ماري وصارت لرجل آخر أصبح يرى ما حوله .

وجلس على مكتبه ، وراح يتلفت إلى شرفتها بين وقت وآخر ، فوجدها جلست على كرسي فى الشرفة وأخذت تستذكر دروسها ، وكانت ترفع الكتاب بين لحظة وأخرى وتتطلع إليه ، فيبتسم ويستمر فى استذكاره .

وانسحب النهار ووفد الليل ، فأثار غرفته ، وظلت هى على كرسيها مدة ، ثم قامت وأغلقت باب الشرفة ووقفت ترقبه من خصاصها . وكانت تحسب أنه لا يراها ، ولكنه كان يرى خيالها فى وضوح . كان الضوء ينبعث من خلفها فكان وجهها يبدو كقرعة سوداء يحدها الضياء .

وظل فى استذكاره ، وظلت فى وقفها لا تريم ، ثم نهض يغلق شباك حجراته ، ومد بصره إلى شرفتها وأحنى رأسه تحية للخيال البادى من

الخصاص ، فلمحها تفر ، فقد فطننت إلى أنه يراها ، فابتسم وأغلق الشباك في رفق .

وفي الصباح رآها تقف عند محطة الترام ، فابتسم لها ابتسامة خفيفة ، فبدأ عليها الارتباك ، وأخذت تلتفت في اضطراب ، فوقف ينظر إليها من بعيد من بين أهدابه المسبلة ، وأقبل الترام فركبها ، وهبطا في ميدان العتبة الخضراء ، وسارا إلى الطوار الآخر جنباً إلى جنب ، فلم تجفل ولم تحاول الفرار ، ووقفا ينتظران الترام الآخر ، وما كان يفصل بينهما أشبار أو أفتار ، وهم بأن يحدثها ولكنه رأى أن يترث ، ولعل خجله منعه ، ولو أنه فعل لما صدته أو نهزته فقد بيتت النية على أن ترد عليه إذا خاطبها أو ألقى عليها السلام . وجاء الترام فركبها وكل منهما ينظر إلى صاحبه كأنما يدعوه إليه .

وفي العصر أسرع إلى غرفة استذكاره وفتح نافذتها ، فألقى كوثر تجلس على كرسيها في شرفتها ؛ فحياها بإحناء رأسه ، فأومأت له برأسها إيماءة خفيفة ، فنجعل يستذكر دروسه منشراح الصدر .

وفي الصباح قابلها عند محطة الترام فابتسم لها ، وابتسمت له ، واقترب منها ، وقبل أن تتحرك شفتاه بالكلام رأى ألا يفعل ، فقد يكون في حديثه لها في حبه ما يسوؤها ، فرأى أن يصبر حتى يتعدا عن الحى .

وفي ميدان العتبة الخضراء اقترب منها وهنس :

— صباح الخير .

فغمغمت في صوت مضطرب خفيض ، وقد أطرقت إلى الأرض في حياء :

— صباح الخير .

وركبا الترام معا ، وجلسا جنباً إلى جنب يتحادثان وقد بان في وجهيهما السرور .

رأت الجدة أن ابنها أحمد لم ينل نصيبه من أبناء حسن ، فقد تزوج أسعد وسليم من بنات غير بناته ، وقد كدر ذلك أحمد وساءه ، ولما كانت الجدة لا تحب أن تكدر أحدا ، ولما كان يسرها أن يرضى ابنها ، فقد راحت تذيع أن مصطفى سيتزوج من فتحية ، وكانت تذكر ذلك لزوجة ابنها كلما قابلتها ترضية لها ، وكانت واثقة من أن ذلك الزواج سيم ، فما كانت تظن أن من حق مصطفى أن يختار زوجه ، وما كانت تحسب أنه يرفض الزواج من ابنة عمه .

وكان مصطفى يستمع إلى ذلك القول فيتسم في سخرية ، فغدا تعلم الجدة أنه ليس كأُسعد وسليم ، وأن من حقه وحده أن يختار زوجه . وانقضت مدة طويلة ولم يرفها فتحية . فقد أصبحت تزور البيت الكبير لما بعد أن كبرت ، وما كانت تمكث طويلا ، فكانت تنصرف دون أن يراها ، وما كان يتصورها إلا طفلة شقية ، تضايقه بعشها ، وتجري وراءه على تهتف في إصرار ممقوت : « أبو طويلة .. أبو طويلة » . ما كان يستطيع أن يتصور أن هذه الطفلة العابثة تصلح أن تكون له زوجة ، إنه ما رآها إلا وفكر في ضربها ، وما كان يحجم إلا خشية إغضاب الجدة .

وفي يوم أقبلت فتحية لزيارة الجدة ، وكان مصطفى جالسا في الغرفة ، فما إن رآها حتى بانث الدهشة في وجهه ، فالطفلة الصغيرة ذات العينين المحمرتين قد تبدلت ، وصارت شابة مكتملة الأنوثة ، كانت أجمل من كوثر ، ولكنه لا يبحث عن الجمال فقط ، فهي على الرغم من جمالها لا تصلح له ، إنه طموح . يحلم كثيرا ، ويريد زوجة يفهمها وتفهمه ، يريد زوجة مثقفة لا تقف حجر عثرة في سبيله بل تقتحم الصعاب معه .

إن فتحية كبقية أهله لا تصلح إلا للبيت ، ولكنه يريد زوجة تشاركه آماله

وأحلامه ، يريد لها قوة تشد من أزره ، وتنفخ فيه من روحها إذا ما وهن أو ضعف أو تضعضع .

لو أنه تزوج من فتحية لقضى على نفسه بالخمول ، فما تعرف إلا الاستكانة والاستقرار كبقية أهلها ، ولكنه يريد أن يكافح في الحياة ليحقق أحلامه ، وما كان لأحلامه حدود .

يريد زوجة تفهم أن الحياة ليست مأكلا ومشربا ونوما ، ولكنها كفاح ونضال ، ومن أجدر بذلك من زوجة مثقفة ، خريجة الليسيه فرنسية مثلا ، لو أنه تزوج لما تزوج إلا من كوثر .

٧٤

ران على البيت الكبير قلق ، وبان في الوجوه وجوم ، فكانت أمينة بأسرة الوجه منقبضة الصدر ، وارتسم الحزن في وجه زكية ، أما الجدة فراحته تغمغم : « والله خسارة .. خسارة كبيرة » ، فقد اشتد المرض بأم أحمد زنوبة ، وأصبح حالها لا يسر حبيبا .

كان حزنهن صادقا ، وكانت فكرة احتمال موت أم أحمد زنوبة تقلقهن وتحز في نفوسهن ، فلو أنها ماتت لحرمن من الست وردة وبركاتها ، إنها ملاذهن الوحيد ، فما مرض في البيت الكبير أحد أو أحس ضيقا ، إلا وكانت البلسم الشافي وطيبية النفوس .

كن يشعرون بأن موت أم أحمد زنوبة رزء كبير ، فستقطع بموتها كل صلة بينهم وبين الست وردة التي كانت تنزل بقلوبهم الطمأنينة والأمن إذا ما سرى في صدورهم خوف من غيب أو رهبة من مجهول !

وخرجت أمينة لزيارة أم أحمد زنوبة ، فراحت تضرب في طرقات ضيقة متعرجة ، ثم دخلت بيتا مهدهما ، وصعدت في الدرج العتيق ، ودخلت حجرة ضيقة ، فرأت أم أحمد زنوبة تمددة في فراشها ، وقد جلست بنتها أم حبيبة على الأرض بالقرب من رأسها ، فسلمت وجلست ، ومالت على أم أحمد وقالت :

— كيف أنت الآن ؟

— الحمد لله على كل حال ، سأموت يا أمينة .

— بعد الشر ، غدا تستردين صحتك .

— انتهى الأمر .. أيام نمضيها .

ونفضت أم حبيبة ، وكانت قصيرة ، لها رأس صغير ، وعجيزة كبيرة ، وساقان تضججان من حمل تلك العجيزة ، وتركت الغرفة لتعد القهوة لأمينة . وأسبلت أم أحمد زنوبة عينيها قليلا ، ثم قالت بصوتها المتغير :

— السلام عليكم .

فقالت أمينة وقد انبسطت صفحة وجهها :

— وعليكم السلام يا ست وردة ، كيف حال المريدة ؟

— ستذهب .

فانقبض صدر أمينة ، وقالت في نبرات حزينة :

— هذا من حظنا السيئ فسنحرم منك ، وسنحس لك وحشة .

ورفعت منديلها إلى عينيها تكفكف عبرة ترقرت فيهما . فقالت الست وردة .

— اطمئني ، سأتصل بكم .

فقالت أمينة بغبطة مشوبة بخوف :

- حقا !؟ وكيف ؟
- إننا نخبر الآن أم حبيبة ، فإذا رضينا عنها اتصلنا بكم عن طريقها .
- فتهللت أسارير أمينة وقالت :
- الله يبارك فيكم ، ما أطيب أم حبيبة .
- ولكن أم حبيبة تبكى بالليل كثيرا ، فتضايقنا ببكائها .
- سأنصحها أن تكف .
- سأنصرف الآن وسراكم قريبا . فأم حبيبة آتية .
- مع السلامة .
- وأسبلت أم أحمد زنوبة عينها قليلا ، ثم قالت بصوتها العادي :
- خطوة عزيزة ، ربنا يطرح البركة فيك ، كيف حال ست زكية ،
- والست الكبيرة ..
- بخير .
- وفتحت أمينة حافظتها وأخرجت بعض أوراق مالية دستها تحت رأس أم أحمد ، فأشرق وجه المريضة وقالت في صوت خفيض :
- ربنا يستركم .
- ونهضت أمينة ، فنهضت أم حبيبة ، وتركنا الغرفة ، وقبل أن تهبط أمينة في الدرج التفتت إلى المرأة القصيرة وقالت في رجاء :
- بالله كفى عن البكاء .
- فقالت المرأة في انكسار :
- ليت الأمر يبدى ، الرجل خائب ، كلما فكرت فيه جرت دموعي بالرغم منى .
- جففي دموعك ، فستنالين خيرا كثيرا .

ثم هبطت أمينة من شرحة الصدر ، فما أصبح موت أم أحمد زنوبة يحزنها ،
فلن تنقطع صلتهم بالست وردة ، وراحت تغذ في السير لتفضي إلى زكية
بالنبأ العظيم .

ودخل مصطفى إلى مكتبه ليستذكر دروسه ، ولكنه أحس ضيقا ، إذ
كان الجو حارا ، فارتدى ثيابه وخرج يرفه عن نفسه ، وما إن بلغ ميدان العتبة
حتى راودته فكرة الذهاب إلى السينما ، فدخل سينما حديقة الأزبكية ، وراح
يبحث عن مكان هادئ يستمتع فيه بالرواية بعيدا عن ضوضاء أولئك الذين
يملؤ لهم الحديث في أثناء عرض الفيلم ، وفيما هو يقلب ناظره في المكان ،
وقع بصره على كوثر تجلس إلى نضد مستدير . كانت في ثوب وردي بسيط ،
وكانت هذه أول مرة يراها في ثوب غير ثوب المدرسة ، فبدت له فاتنة
ناضجة ، فاتجه إليها ، ولحته قادما فلم تضطرب بل ابتسمت له ، فشجعه
ذلك ، ومد يده وصافحها ثم قال :

— وحذك ؟

فأومأت له برأسها أن نعم .

فقبض على الكرسي المجاور لها وقال :

— أسمحين ؟

فضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

— تفضل .

فجلس ، وبلغت أذنيه نغمات موسيقية شرقية ، كانت مقطوعة من

المقطوعات التي يجيها فقال :

— موسيقى لطيفة .

— لا أظن .

— كيف ؟!

— لأنها على وتيرة واحدة سرعان ما تبعث السأم والملل .

— وأى موسيقى تحبين ؟

— الموسيقى الغربية .

— لا تسيفها أذنأى .

— سأسمعك بعض مختاراتى ، وسترى أنها موسيقى رائعة .

— ومتى ؟

فضحكت وقالت :

— عقب الامتحان .

ومد بصره أمامه وبان فى وجهه سهوم ، وطال صمته قليلا فقالت له :

— فيم تفكر ؟

— فيك .

— حقا ؟!

— أجل ، كنت أفكر فى مجيئك إلى هنا وعودتك فى الليل وحدك .

فظهر على وجهها أمارات الدهشة وقالت :

— وماذا فى ذلك ما دمت واثقة من نفسى !

وكاد يقول لها فى سخرية : « ومن أين جاءتك هذه الثقة ؟ » ، ولكنه كبح

لسانه وقال :

— قد يضايقك بعض الشبان فى أثناء عودتك .

— لا يجرؤ أحد على الاقتراب منى .

— بالله ، ولماذا ؟

— كيف يجرؤ ما دمت أنا لا أريده ؟!

وكادت تتابع حديثها ، ولكن أطففت الأنوار ، وابتدأ العرض ، فمد يده وقبض على يدها ، فعالت عليه وأسندت رأسها إلى كتفه .
وعادا معا ، وكان يفضل أن يتركها قبل أن يبلغا الحى . ولكنها كانت تسير معه ثابتة الخطو ، لا تختلج فيها خلجة ، وبلغا دارها فصافحته وانصرفت .

ودخل فراشه ، وحاول أن ينام ، ولكنه راح يفكر فيما جرى بينه وبين كوثر ، وتذكر حديثه لها فأحس ضيقا ، فما الذى دفعه إلى ذلك الحديث التافه ؟ . أما كان أجدر به أن يحدثها عن جمالها ، وأن يطربها بحديث الحب الشهى ، إنه لا يدري لماذا يكدر ساعات صفوه بيده .

وتقلب فى فراشه وأغمض عينيه ، ولكن النوم لم يطف به ، فقد كان فكره يعمل ، وتذكر فتحة ، وراح يعقد المقارنات بينها وبين كوثر ، وتخليلها تسير وحدها فى الليل فابتسم فى سخرية .

٧٥

أصبح حسن إذا جلس فى المحل يحس ضيقا ، وإذا ما بقى فى البيت يحس اختناقا ، فكان يأخذ بعض أولاده فى سيارته ويذهب يوما إلى الجزيرة حيث يتناولون عشاءهم ، وينعمون بالهواء الطلق ، ولكن ما إن يعود إلى البيت حتى يعود إلى حسن انقباضه ، ويأخذ فى التقاط أنفاسه فى جهد .

وكان فى بعض الليالى يشتد به الكرب ، فيذبل لونه ، وتغشى وجهه صفرة ، ويرتفع صدره وينخفض ، فكانت أمينة تسرع إليه ، وتدعك رأسه « بالكولونيا » وتنتظر متصيرة لعله يهدأ ، ولكن الأزمة تشتد ، فيسرى فى

صدرها الخوف ، وتلتفت في الشقة الكبيرة فلا تجد معها إلا ابنتها الصغيرة .
فيزداد جزعها ، فتوظف خادمتها ، وتبعثها إلى الشقق الأخرى في استدعاء
الجددة وزكية والأولاد .

كانوا يهون من نومهم مفزوعين ، وينطلقون وفي صدورهم رهبة
وخوف ، ويسرعون إلى غرفة حسن يتطلعون إليه فيجدونه في شدته ،
فتنصهر قلوبهم ويجلسون مطرقين ، وكانت الجددة تأخذ بيد ابنتها في يديها
وترنو إليه وكأن عقدة عقدت في صدرها فضيقته ، وتهتف في لوعة :

— حسن ، حسن .. ما بك ؟

وكان نداؤها يبلغ أذنيه . فلا يستطيع أن يرد عليها مما به ، ويروح في شبه
غيبوبة ، فتأخذ في مناداته ، فيجاهد ليتغلب على كربه ، ليدخل الطمأنينة
على قلب أمه الواهة .

وما كان مصطفى يطيق أن يرى أباه في شدته ، فكان ينزوى في غرفة
مجاورة ويطرق في حزن شديد ، كان إذا طالأت أزمة أبيه لا يستطيع أن يكتب
عواطفه ، فتسيل عبراته على خديه ، ويأخذ في النشيج ، فتسرع إليه زكية
بوجه يلوح فيه الألم ، وتقول في صوت خفيض تخنقه العبرات :

— كفى يا مصطفى ، كفى . إن هذا يسىء أباك .. إنه بخير ، شدة
وتزول .

كان حسن يقاسى من كربه ، ومن نداء أمه وبكاء ابنه ، فكان إذا انقشعت
الأزمة ، واختلى بأمنيته ، يرجوها ألا تستدعى الجددة أو مصطفى إذا عاودته
نوبته .

وما كانت هذه الأزمات تتناهى إلا في البيت ، فأصبح يكرهه ويمقتة ،
وفكر أكثر من مرة أن يتركه إلى بيت آخر ، ولكنه كان يحجم ، لأنه ما كان
يطيق أن يدع أبناءه وحدهم ، وأن يمر يوم دون أن يراهم .

أخذ مصطفى يلقي « منلوجا » فكاهيا أمام الجدة ، والجدة تضحك من كل قلبها وتستعيده ، وأخذت زكية تنظر إليه فتطلق أساريرها ، ولكأنما كان يسوءها أن تبدو ضاحكة ، فما تلبث أن تعبس وتقول :
— والله أنتم مسخرة .

وسمع مصطفى وقع أقدام ، فهرع إلى مقعد قريب وجلس في وقار ، فابتسمت الجدة ، وابتسمت زكية على الرغم منها ، ودلف القادم من باب الغرفة ، فإذا به فتحية .

وتقدمت من الجدة وصافحتها في حرارة ، ثم صافحت عمتها ، ومدت يدها لمصطفى وطأطأت بصرها ، فسلم عليها وهو جالس ، وأخذ يرمقها من بين أهدابه . كانت ترتدى معظما من الحرير الأزرق ، وتروح على وجهها بنقابها الأزرق الشفاف . ورفع بصره إلى وجهها الناصع البياض ، فإذا الحر قد صبغه بحمرة لطيفة ، فبدت لعينيه فاتنة ؛ وعجب في نفسه كيف تكون هذه الفتاة الناضجة المطرقة نفس الطفلة الشريرة ذات العينين المحمرتين التي كانت تغريه بضربها دائما ؟

واستمرت في صمتها ، وخطر لمصطفى أن يترك لها الغرفة ، ولكنه ظل في جلسته ينقل بصره فيها يتفحصها من رأسها إلى كعب حذاءها ، كانت أجمل من كوثر ، وأكثر حياء ، ولكن لم يكن الجمال كل طلبته ، كان يريد فتاة واسعة الأفق ، إذا أكب على عمله تركته دون أن تقتحم عليه خلوته ، أو تثور لتركها وحيدة ، يريد لها ذكية تفهم أنه في كفاحه إنما يكافح لنفسه ولها ، يريد لها من طراز غير ذلك الطراز المستكين القانع الذي تخرجه أسرته .

وغابت الشمس ، فنهضت فتحية لتنصرف ، وما كانت الجدة تسمح لها أن تنصرف وحدها بعد غياب الشمس ، على الرغم من أن بيتهم ما كان يعد

عشرات الأمتار عن البيت الكبير ، كانت ترسل معها خادمتها ، ولكنها أرادت في ذلك اليوم أن تمهد لتحقيق رغبتها ، فقالت لمصطفى في بساطة :
— وصل بنت عمك .

فرنا مصطفى إليها رنوة خبت وابتسم ، كأنما يقول لها إني أفهم ما ترمين إليه ولكن هيهات ! ، ولم تلتفت الجدة إليه ولم تفهم نظراته ، بل مدت يدها تصافح فتحية ، وخرجت فتحية من الشقة ومصطفى في أثرها ، وهبطا في الدرج حتى إذا بلغا باب البيت الخارجي تأخر في أدب ، وتركها تمر أولا ، وعجب في نفسه من تصرفه ، فإنه يعامل طفلة الأمس الشريرة في لباقة وكياسة ، وما كان يدور بخلده أن يحدث ذلك يوما .

وسارا دون أن يتبس أحدهما بكلمة ، ونظر إليها من طرف عينيه فآلفاها مطرقة ، ورأى وجهها تحت النقاب الأزرق الخفيف قد تضرع بحمرة خفيفة ، ترى ماذا يعتمل في صدرها ؟ واقترب من البيت الذي تقطنه كوثر ، فمد بصره إلى الشرفة ، فرأى خيالا لم يقدر أن يميزه ، فابتعد عن فتحية قليلا خشية أن تلمحه كوثر معها ، فيثير ذلك مشاكل هو في غنى عنها .

وبلغا بيت عمه ، فوقف عند الباب وقال لفتحية :

— مع السلامة .

فقالت له في صوت مضطرب وقد ازداد احمرار وجهها :

— تفضل ، اطلع .

— متشكر .

وصعدت ، ووقف يرقبها حتى غابت عن عينيه ، فانصرف إلى البيت وهو يفكر فيما فعلته الجدة فيتسم في سخرية ، فلن يكون ألعوبة في يدها ، وإنه ليسوؤه أن يكون فشل الجدة لأول مرة في تزويج فلان من فلانة على يديه .

وصعد شقة أبيه ينتظر العشاء ، فاقتربت منه أمه وهى تبسم ابتسامة يفهمها ويعرف مدلولها ، كانت تعنى أن لديها حديثا تريد أن تفضى به إليه فتطلع إليها مستفسرا ، فقالت :

— تريد الجدة أن تزوجك من فتحة ، وأنا أرى أنها فتاة طيبة ، فتاة ..
— تزوجها أنت .
وتركها مشدوهة ، لا تجد ما تقوله .

* * *

اليوم يوم الأحد ، ومصطفى فى إجازته السنوية لا يجد ما يفعله ، فخطر له أن يذهب إلى السينما فى حفلة الصباح ، وتذكر كوثر ففكر أنها قد تذهب أيضا ، فدخل غرفة مكتبه وفتح شباكها فلمحها فى شرفتها فى ثياب الخروج فابتسم لها ، وأشار إليها مستفسرا هل ستخرج الآن ؟ فأشارت له برأسها أن نعم ، فأشار لها أن تنتظره حتى يرتدى بذلته ، وما انقضت دقائق حتى عاد مرتديا ثيابه ، فأشار لها لتبهط .

وذهبوا إلى السينما معا . وكانت ترتدى ثوبا أخاذا كتلك الأثواب الفاخرة التى ترتديها كواكب السينما ، وما إن بلغا الدار حتى ألفتا الردهة الخارجية قد التجت بالناس ، فتناول يدها فى يده وراح يخترق الجموع ، ولمح الشبان يتطلعون إليها فى فضول فأحس راحة ، فقد كان يعلم أنها جميلة ، وكان يسره أن يرى تقدير ذلك الجمال فى عيون الناس .

وابتدأ عرض الرواية الرئيسية ، وكانت بطلتها جانيت مكدونالد ، فראה أن الثوب الذى ترتديه كثوب كوثر ، ونظرت إليه من طرف عينها فلمحت آلى الدهشة فى وجهه فابتسمت فى رضا ، وهم بأن يهمس فى أذنها بشيء ، ولكنه كبج جراح نفسه ، إذ خشى أن يزعج همسه الجالسين بجواره .

وانتهى العرض ، وخرج إلى الطريق ، فراح يحدق في ثوبها وهو يتسم ثم قال :

— أهلا كوثر مكدونالد .

فرنت ضحكها الناعمة الحلوة ، فأشاعت السرور في نفسه ، وقالت :
— رأيت هذا الثوب في مجلة من مجلات السينما الأمريكية .
فقال في إنكار :

— ولكنك لا تعرفين الإنجليزية !

فضحكت وقالت :

— وهل لا بد أن أعرف الإنجليزية لأتفرج على الصور وأتقى الأثواب التي
تعجبني !

فقال وهو يتسم في مرارة :

— آسف ، أغفري لي غيبي .

ووصلا إلى محل للمثلجات ، فخرجا إليه ، وجلسا حول نضد صغير
ينتظران عودة النادل بما طلبا ، وتذكر حديثها له يوم قابلها وحدها في سينما
الأزبكية فقال :

— وعدتني بأن تسمعي بعض مختاراتك من الموسيقى الغربية وها قد
انتهى الامتحان ، فمتى تبرين بوعدك ؟

فقالت في بساطة :

— غدا إذا شئت .

— غدا .

— وأين ؟

فأطرق قليلا ثم قال في سخرية :

— فى القناطر الخيرية .

وانتظر أن ترفض فى شدة ، فكيف تقضى طول النهار بعيدة عن البيت .
وتأهب لأن يضحك ، ولكن أدهشه أن قالت موافقة :

— فكرة طيبة .

ونظر إليها فى دهشة . وفكر فى أن يسألها عما ستقوله لأخيها لتبرر غيابها -
عن البيت النهار بطوله ، ولكن النادل أقبل ، ووضع أكواب الماء المثلج
والمرطبات على النضد ، فأخذ مصطفى يتجرع الماء ويفكر فيما يحول
بخطره ، فرأى أن الأفضل ألا يسألها ذلك .

وفى ما كان مصطفى يتناول المرطب الذى طلبه راعه أن رأى راشيل تقف
عند باب المحل ، تنظر إليه وقد اكفهر وجهها ، فاضطرب وخفق قلبه حتى
أحس به يكاد يقفز من فيه ، وتقصد العرق من وجهه ، وبأن عليه الارتباك
الشديد ، ولو أن كوثر نظرت إليه فى تلك اللحظة ، والتفتت خلفها لحزرت
كل شئ ، ولعلمت أن وجودها لا يحول بين روحين أن تتعابا فى مرارة .

وانصرف راشيل ، وظل مصطفى فى وجوم ، ولو أنه فكر قليلا لقهقه
طويلا ، فإن الصدفة القاسية قد ساقته إلى ذلك المحل فى تلك اللحظة لتسقيها
من نفس الكأس التى جرعته إياها ، يوم جاءت بها إلى السينما وأجلستها إلى
جانبه وبرفقتها عشيق جديد !

كانت صدفة قاسية رائعة ، فلو أنه فكر فى أن يثار لنفسه ، ولو أنه دبر هذه
المقابلة المريرة لما وفق توفيق اليوم . ولكن ذلك لم يعجبه .. فبالرشيل ،
صبغت صفة ترنحت لها وما يجب أن تقاسى أو تتألم ، فهو ما يزال يهواها على
الرغم من كل ما فعلته .

ونفضا ، واستمر فى سهومه ووجومه ، ولا حظت كوثر صمته فعزت

ذلك إلى الإجهاد الذى يحس به المرء بعد مشاهدة رواية غنائية صاحبة
فالتزمت الصمت ، وبلغا أول الشارع وهما بالانفصال فقالت كوثر :
— غدا فى الساعة .

— إلى الغد .
وسار يفكر فى راشيل فينقبض صدره ، ويدق قلبه ، ويشعر بحزن خفيف
يلفه ويستولى عليه .

ونفض من نومه فى الصباح الباكر وارتدى ثيابه ودخل غرفة مكتبه ،
ووقف فى نافذتها يرقب شرفتها . وانقضى بعض الوقت قبل أن تظهر فى
الشرفة وتشير له بالنزول .

وقابلها عند نهاية الشارع ، كانت فى ثوب أبيض بسيط يحاكى الأثواب
التي تخصصها فتيات المدارس للألعاب الرياضية ، وكانت تحمل فى يدها
فنوغرافا على هيئة صندوق أسود صغير ، وتحت إبطها الآخر صندوق آخر به
بعض الأسطوانات ، فمد يده وحمل عنها الفنوغراف .

ووصلا إلى القناطر فرأى أن يعد غداءهما ، فذهب إلى محل جزار واشترى
منه لحمة ثم اشترى بطاطس وبصلا وأخذ يقشر البطاطس . وأخذت كوثر
ترقبه وهى تضحك ، ولف اللحمة والبطاطس والبصل فى ورقة ، وسأل عن
فرن قريب .

وسار وكوثر إلى جانبه تضحك وتقول :
— إنك طاه ماهر ، إنى لا أعرف كيف أقشر بصلة .

فنظر إليها وقال وهو يبتسم :

— شاطرة .

— يا بخت من يتزوجك ، ستوفر أجر الطباخ .

فقال لها في خبث :

— يا بختك !

فأطرقت وقد تطلق وجهها ، وسارا يتجاذبان أطراف حديث تافه ولكن كل منهما يحس له لذة .

وانتقيا مكانا منعزلا يشرف على النيل وجلسا ، وفتحت صندوق الفونوغراف الأسود الصغير وتناولت من الصندوق الآخر أسطوانة وضعتها على القرص الدائر ، وتمدد مصطفى وتأهب ليهيم مع الموسيقى الرائعة في أجواء الخيال .

كان ينتظر أن يسمع سيمفونية من السيمفونيات الشهيرة ، فما كان يظن أن فتاة الليسية المغرمة بالموسيقى الغربية تنتقى غير السيمفونيات ، وانتظر أن يسمع محاضرة عن السيمفونية ومؤلفها وتاريخ حياته ، والظروف التي أثرت فيه وأحاطت به وهو يؤلف قطعته الرائعة الخالدة ، ولكن ما دوت الموسيقى وقرعت أذنيه حتى امتعض ، ثم قهقه في هزء . فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها :

— ما الذى يضحك ؟

— متخيلاتك .

— ما بها ألا تعجبك ؟

— إنها ليست رائعة .

— ولماذا ؟

— إنها موسيقى منولوجات ، كارمن ميراندا تلقى بعض قطعها العابثة .

— ولكنها تشيع البهجة في نفسى ، وما نريد من الموسيقى أكثر من هذا .

— هذه موسيقى خفيفة ، كالموسيقى التى تصاحب حسين وفتحية

المليجي .

- وما للموسيقى الرائعة .
- الموسيقى المصورة المعبرة ، التى تجعل روحنا تهيم فى العوالم التى أراد المؤلف أن يرفعنا إليها .
- ما سمعت هذه القطعة إلا تمايلت سرورا .
- ليس من الضروري أن تكون الموسيقى التى تهز الأعطاف بموسيقى رائعة ، فالطبل البلدى يدفعنا إلى الرقص ومع ذلك فما هو بالموسيقى المعبرة .
- أحسب أن هذه القطعة معبرة .
- أتعرفين معنى الكلمات التى تغنيها ؟
- لا . لا أعرف الإنجليزية .
- معناها تافه .
- وماذا تقول ؟
- تقول : أحب قوامك المشوق ، وأحب عينيك ، أنتحب شفتى ؟
- أهذا كل ما فى الأغنية ؟
- لا . إنها تسأله عما إذا كان يحب بعض أجزاء أخرى فى جسمها .
- فأطرقت كوثر قليلا ثم قالت :
- آسفة ما كنت أعرف .
- لا بأس ، إنها تترجم عن روح العصر ، أصبح الحب ماديا ؛ حب الشفاه وحب النحور ، وحب الصدور .
- واصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة ، وأحس أنه قد تجاوز حده فصمت وأسبل عينيه ، ومر بعض الوقت وهما فى صمتها ، وراحت تحديق فى وجهه وجمال برأسها خاطر فابتسمت وأخرجت حافظتها من الصندوق الذى وضعت به الأسطوانات ثم فتحتها وتناولت ملقطا ، ومالت نحوه قليلا ،

وهمت بأن تنزع من حاجبه بعض شعرات ، فهب مفزوعا وقال في عتاب :

— ما هذا ؟

فضحكت وقالت وقد وضعت أصبعها على أعلى حاجبه .

— لو نزعنا هذه الشعرات القليلة لأصبحت تشبه روبرت مونتنجورى

تمام الشبه .

فانفرجت زاوية فمه اليمنى قليلا ، وزفر زفرة قوية دليل السخرية وقال :

— حقا !

— أجل .

فمد يده وتناول خصلة رفيعة من شعرها ، وثبتها بأصبعه تحت أنفها على

هيئة شارب وقال :

— لو نبت بك هذا الشارب لأصبحت شبه جون جليبرت تماما .

فأملت رأسها إلى الخلف فى قوة ، فسقطت خصلة الشعر وعادت سيرتها

الأولى ، ورأت وجهه يتطلق فابتسمت .

ورأى القوارب تتهاذى فى النيل ، فقال :

— هيا نركب مركبا .

— ليس الآن ، فالشمس فى كبد السماء ، ما أحل النيل ساعة الأصيل .

— إذن نذهب لنحضر طعامنا .

— فلنمتط حمارين فى ذهابنا .

فعبس فى حركة تمثيلية ، وقال فى شدة :

— كوثر !

— وماذا فى ذلك ؟ لقد ركبت حمارا فى السنة الفائتة .

— كنت طفلة ، أما الآن فأنت شابة مليحة .

فضحكت وقالت :

— هل كبرت في سنة ؟

— قد يكبر المرء في يوم .

— ونهض ، وتحركت لتنهض ، فقال لها :

— إلى أين ؟

— ذاهبة معك .

— ومن يحرس الملابس ، والفونوغراف والأسطوانات !!

فاعتدلت في جلستها وقالت :

— أنا .

— سأعود حالا .

وراح يهرول حتى إذا ما بلغ « الترولى » ركبه ، وغاب عن عينها ،
فأخذت ترقب المراكب ، وتفكر في حالها فتحس غبطة ، ومر الوقت بطيئا
وعاد يحمل الطعام ، فوضعه أمامها ، وأخذها يأكلان ، فقال لها :

— ما رأيك ؟

— لذيد ، أنت طباخ ممتاز .

— هذا طعام الكسالى يصنعه كل إنسان .

— ولكنى لا أعرف كيف أصنعه ، إنى لا أعرف عن الطهو شيئا فإنى

أقضى معظم وقتى فى المدرسة بينما خادمتنا تجهز طعامنا ، كانت أمى طبخة
ماهرة .

— سأعلمك الطبخ يوما .

فضحكت وقالت :



فأخذت ترقب المراكب ، وتفكر في حالها فتحس غبطة ..

(في قافلة الزمان)

— وأين ؟

فقال لها وقد رنا إليها في حنان واتمعت عيناه سرورا .

— في بيتنا .

٧٦

مصطفى يمر تحت شرفة كوثر ، وفاة تناديهما من الطريق ، فطفل . كوثر
وتصبح بالفرنسية : اصعدى ، ثم تدور محادثة بالفرنسية بين الصديقتين ،
فيحس مصطفى ضيقا ويمتنع ، ويشعر لأول مرة بيبغض لصوتها ، ويتمنى
صادقا أن تصمت ، فقد كان يرى أن صوت المرأة عورة ، وقد ورث ذلك
عن أهله ، فقد كانوا يشتمزون إذا ما ارتفع صوت نسوى ، وكان يضطرب
إذا ما ذكر غريب أمامه اسما من أسماء نساء الأسرة وفتياتها . إنه يذكر حادثة
تافهة وقعت من خمس عشرة سنة ، يوم ذهب إلى ضابط المدرسة الابتدائية
ليقدم له شهادة ميلاده ، فقرأ الرجل اسم أمه بصوت مرتفع ، فثار دمه في
عروقه غضبا ، وإنه لا يذكر ذلك إلا ويشور ويضطرب .

كان يضايقه أن يجري اسم كوثر على ألسنة بعض أصحاب المحال في الحى ،
فقد سمع مرة الكواء يقول لصبيه ، وصل هذه الملابس إلى كوثر ، فلم يرتح
إلى ذلك ، فقد كان يفكر في أن يتزوجها ، فخشى أن يدعوه الناس بعد
زواجه منها بزواج كوثر ، كما حدث لجار لهم ففيت شخصيته في زوجه لأن
اسمها كان شائعا فصار أهل الحى إذا ما تحدثوا عنه قالوا : زوج ست منيرة !
وبلغ محطة الترام ووقف مطرقا يفكر ، وتلفت خلفه فلمح كوثر
وصديقتها مقبلتين ، فارتسم الجذ في وجهه ، ومرا بجواره فابتسمت كوثر

ابتسامة خفيفة وظل وجهه جامدا لا يتطلق ، وجاء الترام فركبوا جميعا . وفي ميدان العتبة الخضراء هبطوا ، وسار مصطفى في طريقه دون أن يلتفت إليها ، فما كان من عاداته أن يحدث فتاة إذا كانت في رفقة صديقة .

وهرولت كوثر خلفه ، حتى إذا ما التصق كنفها بكتفه قالت :
— صباح الخير .

فالتفت إليها وهو سائر في طريقه ، فظهر عدم الارتياح في وجهه وقال :
— صباح النور .

— لماذا هذا الجرى ؟

— عندي ميعاد مع صديق .

— هل علمت ؟

— ماذا ؟

— سنسافر إلى الإسكندرية بعد غد .

— وأين تنزلون ؟

— في سيدى بشر .

— قد أسافر بعد أسبوع .

— أقابلك هناك .

— إلى اللقاء .

وانصرفت وعادت إلى صديقتها التي وقفت تنتظرها وانطلق وهو يفكر في كوثر الرعناء التي حادثته أمام صديقة لن تغلق قايها بعد ما رأت عينها ، واستمر يفكر ويفكر ، وما دار بخلده أن ذلك أصبح حادثا نافها لا يستحق التفكير !

وسافرت كوثر ، ومر أسبوع فسافر مصطفى ، ووصل إلى الإسكندرية

بعد أن أدير النهار ، فذهب إلى سيدى بشر ، ونزل هناك ، وبات ينتظر طلوع النهار .

وأشرقت الشمس فارتدى ثيابه وخرج إلى الشاطئ ، وراح يبحث عنها تحت المظلات وبين الجالسات يتطلعن إلى البحر وقد لفحت الشمس وجوههن فأكسبتهن سمرة محبة ، وراح ينقل بصره بين الوجوه ، ويقطع الشاطئ جيئة وذهابا ، ووفد المصطافون حتى اكتظ المكان بهم ، وظل ينقب عنها دون جدوى ، وخطر له أنها قد تكون في بيتها ، تكفى بالجلوس في شرفة من شرفات الدار تنعم بهواء البحر من بعيد ، دون أن تندس بين أكداس الأجساد العارية التى تتقزز النفس من النظر إليها والتحديق فيها .

وهم بأن يعود على أن يبحث عنها في العصر ، فقد تهبط لتشمش على الكورنيش ولكنه رأى أن يجلس على الرمل ليستريح ، وراح ينظر إلى المستحمين دون اكتراث ، ويعبث بأصبعه في الرمل الذى يغمره الموج ثم ينحسر عنه ، ولفح الهواء وجهه فأنعشه ، ورفع رأسه وأخذ يحيل عينيه في الشاطئ الطويل وقد سكنت الطمأنينة صدره ، ونسى نفسه فظل في جلسته هادئا ، واستراحت أعصابه ، وكأأنما تخدر فكره فركن إلى عدم التفكير .

وفيما هو ينظر أمامه إذ لحها تخرج من البحر عارية ، فما كان لباس البحر يخفى شيئا ، فثار دمه في عروقه ، وشعر بتقزز وضيق ، فقد بدت لعينه بغیضة تافهة ، أصبحت رؤيتها تؤذيه ، فتقلصت عضلات وجهه ، وبان عليه الحنق الشديد .

وأطرق وقد رانت عليه كآبه وحزن ، ودار على عقيقه دون أن ينظر إليها ، فقد صار منظرها وهى عارية يوحى إليه بالبغض والتفور ، وسار وما إن نقل قدميه حتى سمعها تهتف :

— مصطفى .. مصطفى .

فوقف دون أن يلتفت إليها ، وأقبلت متلهلة وراحت تصافحه في شوق .

— أهلا .. أهلا . حمدا لله على السلامة .

فقال في صوت خفيض دون أن يرفع بصره إليها :

— الله يسلمك .

وتركته ، وراحت تهزول قائلة :

— انتظرنى ، سأعود حالا .

فتبعها ببصره فرأى لحمها الأبيض المكتنز يرتج ويتأوج ، وثديها يقفزان

في رعونة ، فزاد ألم نفسه ، وأحس قلبه يتقبض ، وعادت إليه وقد ارتدت

(روبا) يخفى لحمها ، ولكن عينه ما كانت تراها إلا عارية .

وأقبلت عليه وقالت له :

— متى جئت ؟

— أمس مساء .

— وأين تنزل ؟

— فى بيت قريب من هنا .

— وهل تمكث طويلا ؟

— لا أدرى .

ولاحظت وجوه وإطراقه ، فقالت :

— ما بك ؟

— أحس تعباً .

فقالت وهى تضحك :

— لا . اذهب ونم فسنسهر الليلة طويلا .

فتركها وسار دون أن يتفوه بكلمة ، فصاحت به :
— سأنتظرك في السابعة .

وذهب إلى حيث ينزل منقبض الصدر ، يلفه الحزن ، ويستولى عليه الوجوم ، وتمدد في فراشه ، فاحتلت صورتها وهي عارية فكره ، فجعل يتململ في رقدته ويحاول أن يطرد تلك الصورة التي كانت تزداد بشاعة في مخيلته ، ولكنها كانت تلح عليه وتتجسم أمام عينيه ، فيلف ذراعيه ليخفى بهما وجهه ، وعلى الرغم من ذلك ظلت صورتها ماثلة أمامه لا تريم .

ومد يده وتناول كتابا وفتحها ، وحاول أن يقرأ ، ولكنه لم يفهم مما قرأ حرفا ، فقد كان ذهنه منصرفا عن القراءة إلى الجسد العارى البغيض . وعذبه فكره فهض واتجه إلى النافذة الوحيدة التي في الغرفة وأطل منها وأخذ يحاول أن يجتر بعض ذكرياته ليشغل ذهنه بها ، ولكن صورتها العارية كانت تطفو فوق الذكريات حتى تحتل كل تفكيره .

وراح الوقت يمر في ببطء شديد ، وضاق بأفكاره ، ترك الغرفة وانطلق إلى الطريق . سار على الكورنيش يغذ في السير لينهك جسده لعل التعب يعطل فكره . وكانت الشمس في كبد السماء ترسل أشعتها الحامية ، فتفصد العرق منه غزيرا ، وظل في سيره حتى أحس بالتعب يدب فيه ديبا ، وركن فكره إلى الهدوء ، فجلس على مقعد في الطريق يجفف عرقه ويلتقط أنفاسه .

وعاد إلى غرفته ، وما إن أغلق بابها عليه حتى عاد فكره يهاجمه ويضنيه . ورأى ألا يخرج لمقابلتها ، ولكن ما إن اقترب الميعاد حتى ارتدى ثيابه ليفر من نفسه التي كانت تعذبه وتشقيه .

وقابلها ، وكانت ترتدى ثوبا في لون السماء الصافية ، فصافحها في تراخ واغتصب ابتساما ، وسار برفقتها ، وهب نسيم البحر اللطيف فأنعش

روحه ، وصفت نفسه ، واستمر في صحتها إلى أن قاتل لها :

— إلى أين ؟

— فلنمض السهرة في ملهى من ملاهى الإسكندرية .

— كما تحبين .

ورأى تاكسيا قادما ، فأشار له ، وركبا وقالت للسائق :

— يلافستا من فضلك .

وانطلقت السيارة تقطع طريق الكورنيش ، ثم وقفت أمام يلافستا ، فدلغا من باب الملهى ، كانت هذه أول مرة يطا فيها مصطفى ذلك المكان ، فكان يتلفت يمينا ويسارا ، أما كوثر فقد كانت تسير ثابتة الخطو شأن من يعرف إلى أين يهدف ، فهى من رواد هذا المكان بلا شك .

وأجال مصطفى عينيه في المكان فرأى الفرقة الموسيقية تحتل مكانا مرتفعا ، وانتثر حول حلقة للرقص نضد ومقاعد ، وانبعث الضوء هادئا خافتا من مصابيح محجوبة ، واحتلا نضدا ، وأقبل النادل ، فطلب مصطفى « جيلاتى » فرمقه الرجل في زراية وانصرف .

وعزفت الموسيقى فقام إلى حلقة الرقص رجال ونساء ، والتفت الأذرع حول الخصور ، وتلاصقت النهود والصدور ، وظل مصطفى في حديثه ، وإن كانت كوثر تلتفت إلى حلقة الرقص بين وقت وآخر .

وصمتت الموسيقى فصفق الحاضرون ، وعاد الراقصون إلى أماكنهم ، وفتحت زجاجات ، وملئت كؤوس ، ثم عزفت الموسيقى ثانية ، فتقدم شاب أسمر من كوثر وانحنى لها وغغمغ في صوت خفيض :

— أسمعين ؟

بغت مصطفى وبهت ، ونظر إلى الشاب في غضب ، ولكن كوثر لم

تلحظ غضبه فنهضت وسارت مع الشاب ، حتى إذا هبطا إلى الحلقة ، وضع ذراعه حول خصرها ، وراحا يرقصان في غبطة وسرور .

وثارت دماء مصطفي في عروقه ، وجعل الحق الشديد ينتشر في صدره حتى أحس به يضيق أنفاسه ، وانقبض قلبه ، وراح يصرف أنيابه في غيظ ، ويكبث ثورته التي تود أن تنطلق وتحطم كل شيء .

وفكر في أن يدعها وينصرف ، فما كانت تستأهل أن ينتظرها ، ولكنه رأى أن يترث ويتحلم الليلة ثم يهجرها في هدوء ، وحاول أن يعيد إلى نفسه طمأنينتها ولكنه لم يفلح ، بل ظل في غضبه وعبوسه ، وحنقه الشديد .

وراحت الموسيقى تدوى في أذنيه دويًا بغيضا ، فتبيح أعصابه وتزيد آلامه ، فقد كان لها في نفسه أثر العويل والنجيب ، ونظر إليها فألقى وجهها متطلقا ، فأغاضه انشراحها ، وأحس كأن يدا قوية تقبض على رقبة فتكتم أنفاسه ، فجعل يلتقط الهواء في جهد ويزفره في صوت مسموع .

وصحمت الموسيقى ، وأقبلت كوثر متفتحة النفس ، تبسم في رضا ، وجلست وهي تقول :
— ما ألد الرقص .

فود لو يصفعها ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، وأخذ يعبث في كوب ماء متشاغلا عنها حتى لا تلحظ ما اعتراه من تبديل ، وأخذت تحدّثه وهو صامت ، ولاحظت شروده فقالت :

— ما بك ؟

فقال في صوت أجش يوحى بالثورة والغضب :

— لا شيء .

— ماذا جرى ؟

— لا شيء .

وساد الصمت بينهما ، وشعر يبغيض للمكان ، ورأت أن جلبتسهما أصبحت لا تطاق فنهضت ونهض ، وخرجا إلى الطريق فالتفت إليه وقالت :

— ماذا دهاك ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

— لا شيء .

وركبا سيارة ، وانطلقت بهما دون أن يتبادلا كلمة ، وظلا مطرقين وقد ارتسم في وجهيهما الأسى كأنما عادا بعد أن قبرا شخصا عزيزا . وبلغا سيدي بشر ، فهبطا من السيارة ، وانتظرت أن يصافحها قبل أن يدعها ، ولكنه أوما لها برأسه إيماء خفيفة وانصرف .

وحاول أن ينام ، ولكنه لم يغمض له جفن ، فقد كانت صورتها وهي عارية تحتل فكره ، وما كانت تبرحه إلا ليحل مكانها صورتها وهي تخاصر ذلك الشاب الأسمر . لقد عرفها من سنة ، وسار معها في الليل والنهار ولم يضع يده على خصرها ، وإذا بذلك الشاب يلف ذراعه حولها ويلصق صدره بصدرها ، بعد لحظة واحدة . إنها فتاة تافهة ، لا تستحق أن يفكر فيها أو يحزن عليها .

وفي الصباح غادر الإسكندرية ، فلم يعد هناك ما يدعوه للبقاء ، ووصل إلى البيت ، فلما رآته أمه قالت :

— لقد عدت سريعا !

فقال وهو يجفف عرقه :

— سمعت العيشة وحدي .

فابتسم حسن في رضا ، فقد سره أن ابنه لا يطيق البعد عن البيت مثله :

راح مصطفى يضرب في شوارع الحى بلا غاية ، فما كان يدري إلى أين يتوجه ، فقد سئم المكوث في البيت ، وما كان له صاحب يزجى وقت فراغه معه ، وما كان يستطيع اليوم أن يرافق أباه في الذهاب إلى الحسين أو السيدة زينب أو الإمام الشافعى كما اعتاد أن يفعل بعد أن هجر كوثر ، فسيرافقه الليلة بمدح وأسعد وسليم وصديق من أحبابه ، وما كانت السيارة تسمع أكثر من هذا ، ولو أنها اتسعت له فما كان حسن يحب أن يجمع كل أبنائه حوله .

ووفد الليل ، فأضيئت الأنوار ، وفكر في أن يعود إلى البيت ، فقفل عائدا وحيدا في الطريق الذى قطعه آلاف المرات في رفقة راشيل ومارى . كان يشعر بوحشة . فخيّل إليه أن العالم هجره ، وأن نفسه قد فرت منه فما يعود يسمع هتافاتنا التى كانت تنبعث من جوفه تدفعه إلى هذا ، وتناه عن ذاك ، وخيّل له أن الطريق قد تبدل ، فنظر إلى المصاييح الخافتة الممتدة على جانبيه فبدت لعينيه كأنما قد شاخت ، وضاق بالسكون المسيطر على الشارع وكان ذلك السكون يعجبه ، وبلغ باب البيت وهو يحس سأمًا وتبرما وهم بأن يصعد ليقع في غرفة من الغرف ينتظر موعد نومه ليندس في فراشه دون أن يطعم في أن يرى رؤيا جميلة ، ومن أين له ذلك ما دامت نفسه هاجعة ، ولكنه رأى ألا يستسلم لقنوطه ، فانطلق إلى قلب المدينة الصاخب ليفر من كآبة نفسه ، وذلك الوجوم الذى لفه واستولى عليه .

واندس بين الجموع المتدفقة المتلاطمة في شارع فؤاد الأول ، وراح يتلفت يمينا وشمالا يتفرس في الوجوه ، وينظر إلى الأنوار المتألقة ، ويمد بصره

إلى المباني الشائخة ، وكان كلما قطع خطوات وقف يتفرج على معروضات المحال ، وإن يكن قطع ذلك الشارع آلاف المرات قبل اليوم إلا أن كل شيء بدا له جديدا ، فقد كان يسير فيه أيام الصفاء وهو مشغول بنفسه لا يرى ما حوله ، ولا يفكر إلا في أمره .

ورأى نفسه يعبر الطريق دون تفكير ، ويسير في شارع عماد الدين كالماخوذ ، ولا يحس بنفسه إلا وهو واقف أمام المحل الذي تعمل فيه راشيل . اقترب من باب المحل ونظر ، فوقعت عيناه أول ما وقعت عليها ، كأنما جذبهما إليها مغناطيس ، فسرت في بدنه قشعريرة خفيفة ، ورفعت رأسها فاضطرب وتقهقر خشية أن تراه ، وخفق قلبه وتدفقت دماؤه الدفينة في عروقه ، واستيقظت نفسه الهاجعة فأحس كأنما بعث من جديد .

وابتعد عن المحل قليلا ووقف يرقب الباب ، فقد أقرب موعد خروج العاملات ، وانتشر في صدره خوف للذيد ، خوف امتزج بأمل وقلق ، وجعل يفكر فيما يفعله إذا خرجت ، فرأى أن يقترب منها وأن يصفاحها وهو يتسسم كأنما كان معها بالأمس فقط ولم يفترقا لستين ، وكاد يركن إلى ذلك الخطر ولكنه راح يفكر فيما يكون موقفه لو أنها أعرضت عنه وسارت في طريقها نافرة من المشاكس الثقيل .

وتصارعت في ذهنه الأفكار ، وتضاربت في صدره الأحاسيس . فلم يتبرم ولم يضق بنفسه بل شعر بسرور ، فقد كاد ينال منه ذلك الهدوء الذي سكن قلبه بعد أن عاد من الإسكندرية ، حتى خشى أن يكون قلبه قد مات بعد أن استنفد طاقته من الأحاسيس !

وخرجت العاملات ، وخرجت راشيل ، فشعر بتيار كهربي يسرى في جسمه فانتفض ، وجعل قلبه يدق في صدره دقا عنيقا ، وأحس كأن روحه

تسحب منه فغشيته غيوية لم تمتفرق لحظات ، ولما أفاق لنفسه كانت راشيل قد ابتعدت عنه قليلا ، فجمع أطراف شجاعته وأغذ في سيره ليلحق بها ، لم يعد يفصل بينه وبينها إلا خطوات فأرهفت منه الحواس . وأخذ قلبه يقفز حتى يكاد يخرج من فيه ، ثم يعود فيغوص حتى يحس به في قدميه ، وخشى أن يكون صوته قد حبس فتحنج ، ودنا منها وفتح فاه ليقول لها : « مساء الخير يا راشيل » ، ولكنه لمح شابا يقبل عليها وقد تطلق وجهها ، فخفف من خطوه وأخذ يرقب الشاب ، فألفاه يصافحها في سرور ، فتمسر في مكانه وقد تملكه غيظ وحرق ، وسمع صوتا كفحيح الأفعى ينبعث من جوفه يسخر منه ، فازدادت ثورة نفسه ، ولكن ما لبث أن انقشع غضبه ، وماتت فورته ، فعاد إلى البيت مطرقا يلفه هدوء حزين .

وانقضت أيام ومصطفى لا يغادر البيت إلا نادرا ، وشعر بملال ففكر في الخروج ، وتحرك في مقعده لينهض ؛ وفي هذه اللحظة أقبلت فتحية لزيارة الجدة ، فهب واقفا وقد أشرق وجهه ، ومد لها يد وصافحها في رقة ثم جلس ، فقد أقلعت عن ذهنه فكرة الخروج .

وتبخرت أئيرة الكآبة التي كانت تضيق صدره فانشرح وتبدت روحه المرحية فجعل يداعب الجدة ويضاحكها فتضحك من كل قلبها ، فتبتسم فتحية في خفر وتطاطىء رأسها لتخفي ابتسامتها وتكبت ضحكاتها التي يكاد يقلت منها زمامها .

ومر الوقت حلوا ، وغابت الشمس عن الكون ، فقام مصطفى وارتدى ثيابه ، فهو يعلم أن موعد أوبة فتحية قد آن ، وقد قرأه على أن يوصلها حتى دارها . وعاد إلى الغرفة التي كانت فيها ، وجلس قليلا ، ثم قال لسمع الجدة :

— أنا خارج .

فقالت الجدة في رجاء :

— انتظر قليلا لتوصل بنت عمك .

وكان هذا ما يرمى إليه ، فجلس مطمئنا ينتظر نهوض فتحية ، وما مرت لحظات حتى قامت ، وهبطا إلى الطريق ، وانطلقا وهو مقبل عليها بمحادثتها ، وهى تنصت إليه فى اهتمام ، ومرا تحت شرفة كوثر ، فلم يتعد عنها كما فعل فى المرة السابقة ، بل اقترب منها وودلو أنها تراه برفقتها . وبلغا الدار فلم يدعها عند الباب الخارجى بل صعد معها حتى باب الشقة ، وأراد أن ينصرف ولكنها ألحت عليه أن يدخل ليستريح من ارتقاء الدرج .

ودخل فقابلته امرأة عمه بترحاب ، وهرعت فتحية تعد شيئا مما يقدم للضيوف ، وعادت وخلفها خادم تحمل صينية صفت عليها أكواب ، ومدت يدها وتناولت كوبا قدمته إليه فى حياء ، فأخذه وهو يرمقها بنظرة فاحصة ، وبعد قليل استأذن وانصرف ، ورأى نفسه لأول مرة يفكر فى فتحية . إنها فتاة حلوة ، تمتاز بتلك الأنوثة المستكينة التى يجبها ، وما كانت من ذلك الطراز الطاغى المستبد ، بل كانت هادئة ، ينطق هدوؤها بالتماس العطف والرعاية ، وكان يحب فى الأنثى الدعة والوداعة ، فمس حياؤها وترا فى قلبه ، ومس هدوؤها وترا آخر ، فإذا بفتاة الأمس الشقية تبدل اليوم حورية تعبت بأوتار قلبه ، فتعزف لحنا شجيا .

وفى هجعة الليل دخل فراشه ؛ ولكنه لم ينم ، فقد كانت الأفكار تترادف على مخيلته ؛ كان يفكر فى فتحية ، وما كان يستمع إلى صوت قلبه ، ولكنه كان يصيخ السمع إلى منطق عقله . إنها فتاة من فتيات الأسرة لا تصلح إلا للمطبخ والبيت ، فلن تشاركه فى سينحات الخيال ، ولن تبث فيه روح

الإقدام ، ولكنها ستدعه يشق طريقه وحده ، تقاسمه الغنائم إذا ما غنم ، وتستكين لغدر الزمان إذا ما مال ، ولخير له أن يربط حياته بمنزلها على أن يربطها بمنزل فتاة الليسية التافهة التي لن تدعه يقتحم الصعاب وحده بل ستدس أنفها في كل شيء ، وستدلى برأيها فيما تعرف وفيما لا تعرف ، وستغضب إذا ما تصرف على غير هواها ، وستلقى عليه اللوم كله إذا ما باء بفشل أو خسران ، فلن تكون له عوناً ، بل ستكون قيда يحمد من سيره ، وعبئاً فوق عبء الزمان .

لخير له أن يتزوج ممن تعرف لها وظيفة على أن يتزوج ممن لا تعرف لها وظيفة إلا الزينة والخروج وارتياح الملاهي ومخاضرة الرجال . ووثبت إلى ذهنه صورة كثر وهى عارية فامتعض ، وتامل ليطرد الصورة البغيضة عن ذهنه ، فإذا بصورتها وهى تراقص ذلك الشاب في بيلافستا تطفر في مخيلته فيستاء .

وراح يسائل نفسه عما يحشاه إذا تزوج من فتحية ، فلم يجد ما يحشاه ، فقد تزوج إخوته من فتيات من الأسرة ، وكانت جميعها زيجات موفقة ، لم يكدر صفوها مكدر ، بل كان يسودها الانسجام . من الأفضل له أن يتزوج من فتحية فإنه سيضمن سيادته ، فهو على الرغم من هدوئه يعتز برأيه ولا يحب أن يخضع لرأى سواه . وهمس في جوفه هامس : « جحا أولى بلحم طوره » فابتسم لذلك الهامس التافه ، واستمر في تفكيره حتى اختلطت الأفكار في رأسه ، فأسبل عينيه ونام .

وفي صبيحة يوم من الأيام هبط حسن إلى الدكان بعد تناول الإفطار ، وترك أمينة ومصطفى في الشقة وحدهما ، كان مصطفى ممددا على أريكة وكانت أمه تغدو وتروح وكانت في غدوها ورواحها تنظر إليه تلك النظرة التي كان يفهم منها أن عندها أشياء تريد أن تفضى بها إليه ، واقتربت منه

فاعتدل ، وجلس بجواره ثم قالت :

— يجب أن تنتهى إلى رأى ، بنت عمك جاءها خطاب ، وقد رفضوهم بحجة أنها مخطوبة لك ، فحرام هذا البصمت .

ونظر إليها دون أن يعث ، وهم بأن يقول إنه قد انتهى إلى رأى فسيتزوجها ، ولكنه قال :

— من الذى خطبها لى ؟

— الجدة ، والله لو رفضت الزواج من فتحة فستغضب الجدة إلى الأبد ، وأبوك يجب أن يتم هذا الزواج .

فقال فى استسلام كأنما قد غلب على أمره :

— افعلوا ما ترون .

فبانث الدهشة فى وجه الأم ، فقد كانت تخشى أن تفتح ابنا فى هذا الأمر ، فهى على يقين من أن الرفض هو الجواب الوحيد ، فقالت :

— حقا ؟..

— الأمر لكم .

وفى العصر خرجت أمينة وسكينة لشراء الشبكة ، وفى صبيحة اليوم التالى ذهبا إلى بيت أحمد وقدماتها إلى فتحة ، وتمت الخطوبة فى يوم وليلة خشية أن يعود مصطفى إلى الرفض !

وفى يوم خرج سكان القاهرة واصطفوا على جانبى الطريق الذى سيخترقه الملك فاروق بعد أوبته من إنجلترا فى ذهابه إلى قبر والده ، وكان حسن يمتلك بيتا يطل على الطريق ، فأتى أهل البيت للانطلاق إليه ، وفكر مصطفى فى أن يبعث إلى فتحة لتصاحبهم ، فاستدعى خادما وقال لها :

— اذهبي إلى فتحة وقولى لها إننا سنتظرها لتذهب معنا .

قالت زكية وهى تبسم :

— لا تعب نفسك فلن يقبل عمك .

فقال للخادم فى لهجة آمرة :

— اذهبى .

وذهبت الخادم ، ولم يطق أهل البيت الانتظار فقالوا له :

— إننا سنذهب وانتظري أنت .

وخرجوا جميعا ولم يبق فى البيت إلا زكية والجدة ، ومر الوقت بطيئا

ومصطفى يتململ فى ضيق ، ولاحظت زكية تملله فقالت له :

— لا تنتظري واذهب أنت ، فلن يسمح لها عمك بالخروج .

ولكنه لم يذهب وبقي ينتظر ، وأخيرا أقبلت فتحية ترتدى ثوبا فاخرا

ومعظما من الحرير الأزرق ، وما إن رآها حتى قال لها :

— هيا .

فقال الجددة .

— دعها تسترح .

فقال وهو يخرج :

— ليس عندنا وقت .

فغمغمت زكية :

— والله لا أدرى ما الذى دهمى أخى .

وخرج مصطفى وفتحية وحدهما ، وبخروجهما معا أحدثا خرقا فى تقاليد

الأسرة ، فهتفت زكية وهى تهز يديها دلالة التهويل :

— تعال يا جدى شف .. تعال يا جدى شف .

كان في البيت شقة خالية ، فراح مصطفى يعدها لاستقبال الجهاز ، وفي شهر وبعض شهر جهزت الشقة ، وكانت أمينة تصعد إليها كل يوم مع الخدم لتنظيفها . ورأى حسن أن تلك الحال مستطول ، فأمام مصطفى سنة كاملة ليتخرج في الجامعة . وليس هناك ما يدعو إلى الانتظار كل هذه السنة ، فالشقة جاهزة ، والعروس قريبة ، ولن يزيد عليه إلا بعض جنيهات يدفعها لمصطفى كل شهر لينفق على بيته حتى يتخرج ويكسب معاشه ، وما كان حسن يجد في ذلك غصاضة ، فقد كان يسره التفاف أبنائه حوله ، وتوفير الراحة لهم ، وجلب السعادة إليهم ، وما كان ذلك جديدا عليه فقد أنفق على سليم وزوجه سنة وبعض سنة حتى شق طريقه وكون نفسه .

وفي يوم فاتح حسن أمينة في رغبته في إتمام زواج مصطفى ، فالأيام صافية ولا يدرى ما تحببه الأيام ، فقد يأتي ما يعطل ذلك الزواج لسنين ، فصحة الجلدة لم تكن على ما يرام ؛ كانت يوما مريضة ، ويوما متوعكة ، فقد دبت الشيخوخة في أوصالها ، فلو أنها قضت لتأخر الزفاف .

وجاءت الأم إلى ابنها وقالت له ضاحكة :

— تعبنا من تنظيف هذه الشقة كل يوم ، اذهب وأحضر فتحة لتتولى أمر شقتها .

فقال وهو يتسم :

— لقد هان الأمر ؛ لم يبق إلا سنة .

— سنة ! محال ، وما الذي يجعلنا ننتظر سنة ؟! الشقة جاهزة ، والعروس جاهزة .

- ولكنى لست جاهزا .
- وما الذى ينقصك ؟
- لن أتزوج قبل أن أتم دراستى .
- وماذا يحدث أو أنك أتممت دراستك وأنت متزوج ؟
- كيف أتزوج وأنا لا أستطيع أن أنفق على نفسى .
- غدا تصرف على نفسك وبيتك .
- لن أتزوج حتى يأتى ذلك الغد .
- أبوك سيدفع لك ما تحتاج إليه حتى تتكسب .
- أما يكفينا ما ينفقه علينا حتى نأتيه بعبء جديد .
- لا تقل هذا ، إن ذلك يسره ، وهذه سنة الحياة ، جدك أنفق علينا وأبوك ينفق عليكم ، وأنت تنفق على أبنائك .
- أنفق على أبنائى ، هذا صحيح ، أما أن أزوجهم وأنفق عليهم وعلى زوجاتهم فهذا لن يكون .
- اسمع يا مصطفى ، أبوك يريد أن يزوجه والدنيا رائقة .
- وما الذى سيعكر الدنيا ؟!
- ما من سنة تمر إلا ويموت واحد من الأسرة ، إننا اليوم فى صفاء ونريد أن نفرح ، فما ندرى ماذا تجبى الأيام .
- تجبى كل خير .
- الجدة كبرت ، ومن يدرى .
- واستمر الحوار بين مصطفى وأمه ، وما انتهى حتى كان مصطفى قد وافق على أن يتزوج قبل إتمام دراسته .
- وحدد يوم الزفاف ، فأخذ فتيات الأسرة ونساؤها يفصلن الثياب

استعدادا للفرح ، ولم يبق على اليوم الموعد إلا أسبوع ، فأرسلت أمينة إلى سكينه لتستعد للخروج معها لدعوة الأسرة والأحبة ، وعلم مصطفى بذلك فقال :

— لا أريد طيلا ولا زمرا ، سأتزوج في هدوء .

فتغير وجه الأم وقالت :

— ماذا تقول يا مصطفى ؟ لقد تأهب الأهل لذلك اليوم .

— وما ذنبي أنا ، إني لا أطيق مبادل الأفراح ، ولا أحب أن أكون أضحوكة ! ..

فقالت زكية :

— ماذا يضيرك لو جاءت عائلة لتسلية النساء .

— يستلزم ذلك أن أصعد آخر الليل لأخذ العروس ، وأن أجلس وسط النساء ؛ هذه تطلق نكتة ، وهذه تضحك ضحكة ، وأنا غارق في عرق ، ثم أسير أتبختر على دق الدفوف ، إني لا أحب هذه السفاسف ، ولا أريدها .

فقالت زكية :

— لا تقهر البنت ، فكل بنت تذكر ليلة زفافها حتى آخر يوم في حياتها .

— وما الذى تكسبه البنت من الطبل والزمر إذا تزوجت ولم تكن سعيدة في زواجها .

فقالت أمينة في حدة :

— اصعد أنت إلى شقتك وسندخل لك عروسك .

— لن تغنى في فرحى عائلة ، ولن تطلق زغرودة .

فقالت زكية :

— لا ! هذا كثير ، ليس لك هذا .

وأصر مصطفى على موقفه ، فقد كان يحس خجلا إذا تصور نفسه جالسا إلى جوار فتحية وقد التفت النساء حولهما يغمزن ويضحكن ، ويسخرن من الزوج الطالب الذى لم يتم بعد دراسته . واستاءت أمينة وغضبت ، ولكنها كظمت غيظها ، وانتظرت مجيء حسن لتشكو إليه عنت مصطفى ، فلما جاء أسرع تقص عليه ما قاله ابنه وهى تسفه قوله ، وما انتهت حتى قال حسن :
— رأى ما رأى مصطفى .

فحنقت أمينة ، فقد زوجت أسعد وسليما دون إقامة فرح ، لأن الأسرة كانت حزينة لموت شاب من شبانها ، أما الآن فليس هناك ما يحول دون إقامة فرح عظيم . إن نساء أسرتهما وفتياتها تأهبن لذلك اليوم ، ومما يغضبها أن تكدر صفو أهلها ، فلو أن الأمر يتعلق بأسرته لما اهتمت ، أما أن يحول حائل دون دعوة أسرتهما لحضور فرح ابنها فهذا أمر خطير ، ولم تستطع أن تتحلم كما هى عاداتها بل انفجرت صائحة :
— والله لن أحضر ليلة الزفاف .

ولم تكتف بذلك ، بل ارتدت ثيابها وخرجت غاضبة إلى بيت أخيها ، ولكنها كانت تريد بغضبها أن تعلن أهلها بأنها بريئة من عدم إقامة فرح كبير . وعجب مصطفى من تصرف أمه ، فقد كان يظن أن ذلك أمر يعنيه وحده ، وما كان يدور بخلدده أنها تغضب لأمر نافه كهذا ، وهى التى لم تغضب أبدا طوال الثلاثين سنة التى عاشتها مع أبيه . كان يعجب بكياستها وفطنتها ورجاحة عقلها ، وكان يحسب أن الفضل لها فى الهدوء الذى يسود البيت الكبير فإذا به يكشف أن أمه كسائر النساء يبحثن عن المتاعب ، ويهتمن بالتوافه ، وأن الفضل كله لأبيه ، فقد كان رحب الصدر ، واسع الأفق ،

كبير القلب .

وفي العصر ذهبت زكية إلى أمينة وقالت لها إن العيب كله على مصطفى فقد حاولت أن تنبيه عن عزمه ولكنها فشلت ، وقالت لها إنها اتفقت معه على أن يفتح البيت يومها ، وأن يطبخ الطباخ للوافدين ، وعادت أمينة إلى البيت واتفقوا جميعا على أن لا يدعوا أحدا فالأهل ليسوا في حاجة إلى دعوة ، ولكن أمينة خرجت تدعو لإسرتها سرا .

وفي يوم الزفاف أقبلت النسوة من الصباح ، فاحتظت بهن شقة الوالد التي أعدت لاستقبالهن ، وبانت الدهشة في وجه زكية ، ولاحظت أمينة دهشتها فقالت متظاهرة بالعجب :

— والله لا أدري ماذا كان يحدث لو أننا دعونا أحدا .

وارتفعت غوغاء الأطفال ، ودوت النسوة كخلية نحل ، فانكمش مصطفى فقد كان يرى في الجلبة جرسه وفضيحة ، ولكنه عاد وحمد الله على أنه لم تدق في البيت طبللة أو دف ، ولم يرتفع صوت بغناء وإلا كانت الجرسة مجلجلة مدوية .

وفي العصر ذهب أسعد بسيارة الأسرة إلى بيت عمه وأحضر العروس ورفاقها ، ووقفت بعض سيارات أمام الباب ، ففتحت نوافذ الجيران ، وامتلاأت الشرفات بالمتطفلين ، فشرع مصطفى بعرق الخجل يتفصد منه ، كان يفضل أن يذهب بنفسه إلى بيت عمه ويستصحب عروسه إلى سهرة من السهرات ثم يعود بها في الليل إلى شقتها دون أن يحس بهما أحد فيوفر على نفسه أحاسيس الخجل التي كانت تطويه طيا .

ودوت زغاريد النسوة ، فانتسعت حدقتها ، ووقف في وسط الغرفة مذهولا خائفا القلب ، وهرعت عمته سكية إليه وراحت تدفعه وتقول :

— انزل لاستقبالها .

ولكنه ظل جامدا لا يتحرك ، ونظر حوله فرأى النسوة يتطلعن إليه فأحس مهانة ، فقد خيل إليه أنهن يردن أن يتفرجن عليه وأن يسخرن منه في سرهن ، فقد كان يشعر شعورا عميقا بأن الطالب الذى يقدم على الزواج يستحق الهزاء والسخرية .

وصعدت فتحية وأسعد بجوارها حتى إذا ما بلغا شقة الوالد تقدم مصطفى فتأخر أسعد ، وسار العروسان والنسوة يزغردن والعرق يتفصد من جسم مصطفى فيسيل من وجهه ويحس به يجرى في ظهره . وجلسا متجاورين ، وأسرعت سكينه إلى المطبخ وعادت وفي يدها لقمة عيش وقطعة صغيرة من الجبن ودستها في فم مصطفى ثم في فم فتحية وهى تقول :

— كلا عيشا وملحا معا .

فضحك الموجودون ، وابتسم مصطفى ، ونظر إلى فتحية وهى في ثياب العرس البيضاء فأنكرها . فالمساحيق التى لطح وجهها بها ، والزواق الكثير الذى لم تكن له حاجة طمس جمالها ، ولولا أنه يعرفها لأحس كمدا . وانسل مصطفى من الغرفة ، وصعد إلى حيث كان الرجال ، وكان يرقب عمه أحمد الذى كان منشرجا ، فكان يسخر من هذا ، ويضحك على ذاك ، ومر الوقت وقام الناس للطعام ، وجلس بعض شباب الأسرة يرتبون موكب المساء ، وجلس مصطفى معهم قليلا فوجدهم يرممون في اهتمام الطريق الذى تخترقه السيارات في انطلاقها إلى الحسين ، فقام وهو يتسم في سخرية فقد بيت في نفسه أمرا .

ومرت من الليل ساعات.. وشاء أحمد أن ينصرف ليمضى سهرته كعادته

مع بعض الصباح ، فلم يعد هناك ضرورة لبقائه ، فابتته عما قليل تزف إلى عروسها ، فاشتبك مع أحد الحاضرين في النقاش ، ثم هب واقفا وقال في غضب متكلف :

— والله لأترك لكم الدار .

وخرج كالعاصفة من الغرفة فلم يعترض سبيله أحد فقد اشتهر بين الجميع أمر هذه المناورة المكشوفة .

وصعدت فتحية وبعض النسوة إلى شقتها لتبدل ثيابها وتعيد زواقيها استعدادا للزفاف ، وصعد مصطفى ليبدل ثيابه وانتظر الشباب هبوطه ليرافقوه إلى الحسين ، وليدلى إليه المتزوجون بنصائحهم الغالية ! واتجه إلى الغرفة التي كانت بها فتحية فقابله أخوها فقال لها :

— ماذا تفعلون ؟

فقالت وهي تضحك :

— نزين العروس .

فقال في سخرية :

— خسارة الأبيض والأحمر .

— لماذا ؟!

فقال وهو يبتسم :

— لأنى سأغسل لها وجهها عما قليل .

فضحككت ودفعته في رفق لتمنعه من اقتحام الغرفة ، فمال عليها وهمس :

— أريد أن أقول لها كلمة ، أرجو أن تتركن لنا الشقة دقيقة واحدة .

— حقا ؟.

فأوما برأسه أن نعم .

فغابت في الغرفة قليلا ثم خرج النسوة يضحكن ضحكات مجلجلة ، وما إن خرجن من باب الشقة حتى أغلق الباب خلفهن ، وسمع صوت المزلاج وهو يتحرك ، فطرقن الباب ، فصاح :
— مع السلامة .

وتنفس الصعداء ، فقد تخلص من غوغاء النسوة المخجلة ، ونصائح المتزوجين الغالية .

٧٩

أمسى حسن بهاب الأزمات التي كانت تتأبه كل ليلة ، ويخشى وفود الليل ، فإذا ما سقط الظلام كان يعود إلى البيت واجف القلب ، يحس للطريق زحمة ، فكان يخيل إليه أن الأشباح تراقص أمام عينيه ، وفكر طويلا في أن يدع ذلك البيت الذي كان ينقبض إذا ما دخله ، ويشعر بحمل ثقيل يجثم على صدره فيضيق أنفاسه ، ولكن ما كان يطاوعه قلبه ، فما مريوم دون أن يرى أمه ، وما كان يطيق أن يعيش بعيدا عن أبنائه .

وشعر بفراغ بعد موت أم أحمد زنوبة ، فما كانت أم حبيبة بقادرة على أن توحى إليه الثقة التي كانت تنفخها فيه أمها على الرغم من أن الست وردة تحادثه كثيرا وتبذل ما في وسعها لتنزل بقلبه الطمأنينة . كانت أم أحمد بالرغم من ضآلة جسمها ذات هيئة وجلال ، ينفذ صوتها إلى القلب ، ويبدو في وجهها المتغضن الإيمان بكل حرف تنطق به ، فكانت تحقق كل قلق ، وتنزل السكينة بالقلب الراجف المضطرب ، أما أم حبيبة فكانت هيبتها تبعث على الابتسام ، وكان في لسانها لثغة ، فكان حديثها أقرب إلى حديث الأطفال ،

وما كانت لها يوما قوة الإيحاء .

وكرت الأيام ، وترادفت النوبات فقل نوم ، وهزل بدنه ، واصفر لونه ، فضعفت قوة احتماله ، وأخيرا ضاق بحاله فلم يك بد من ترك الدار ، وهجر الأم والأبناء ، ونقب عن شقة في حي هادئ طلق الهواء ، فوجد طلبته في حي قريب من الحي الذي كان فيه ، فانتقل إلى الشقة الجديدة ، وترك البيت الذي صار يشعر نحوه بمقت شديد وقد بيت النية على ألا يمر به بعد اليوم أو ينطلق في طريقه .

ما كان حسن يحتمل أن ينقضى يوم دون أن يرى أبنائه ويطمئن عليهم فلو أنه كان يرى ممدوحا وأسعد في الدكان إلا أنه كان يرغب في رؤية سليم ومصطفى أيضا ، فكان يمر على سليم في محله كل ليلة ، وطلب من مصطفى أن يأتي إلى الدكان كل يوم عصرا . ولم يكتف بذلك بل كان يعث سيارته إلى البيت الكبير كل صباح تحمل إليه أسرتين من أهله ، فكان أفرادهما يمضون عنده النهار من الصباح إلى المساء ، يتغدون معه ويتعشون معه ثم تعيدهم سيارته إلى البيت الكبير وقد انقضى من الليل بعضه .

وكانت أمينة وزكية الصغيرة والخادم يجهزن كل يوم طعاما كثيرا للموافدين والوافدات ، وكانت أمينة تنشرح لذلك فقد كانت تشعر في قرارة نفسها أنها كبيرة هذه الأسرة فعليا أن تعمل على راحتها وإسعادها ، وما كانت تكتفم بإطعام الحاضرين ، بل كانت تبعث بعض الأصناف التي اشتهرت بطهوها إلى من في البيت الكبير في بعض الأحيان .

وأخذت عجلة الزمن في الدوران ، فاسترد حسن صحته ولم تعد تنابه النوبات التي كانت تضايقه وتقلقه ، فأحس رضا ، وما كان ينقصه ليتم هناؤه إلا أن يجمعه وأبنائه بيت واحد .

وفي أمسية من الأمسيات دخل الشرفة وجلس يستشق الهواء المنعش الجاف الذى كان يهب من الفضاء الواسع المترامى أمامه ، فانشرح نفسه ، وأقبلت أمينة وجلست بجواره وأطرقت تفكر ، والتفت ناحية الطريق فوقع بصره على بيت أمامه هجره سكانه من سنين ، فراحت تراوده نفس الفكرة التى كانت تراوده كلما جلس ونظر إلى البيت المهجور ، ونظر إلى أمينة فألقاها مطرقة غارقة فى أفكارها فقال لها :

— فيم تفكرين ؟

— فى الأولاد . مضت ثلاثة أيام لم أر فيها مصطفى .

— ما رأيك لو أصلحنا هذا البيت المهجور وجمعنا فيه الأولاد ؟

— يا ليت .

— ما أظن أن صاحبه يرفض أن نصلحه له على أن نستقطع تكاليف

الإصلاح من الإيجار .

— إنه يتمنى ، فلن يجد من يعرض عليه هذا العرض ، لو كان يملك ما

يصلحه به ما تركه مهجورا كل هذه السنين .

— سأقابه فى الغد وسأرى رأيه .

وراح حسن يصلح البيت المهجور ، ولما لم يكن لمصطفى به مكان فقد

أخذ حسن يبنى له شقة فى السطح ، وجعل من فى البيت الكبير يتأهبون للنقل

وهم فرحون ، وكانت الجدة أكثرهم غبطة ، فما كانت تريد أن تموت بعيدا

عن ابنها الحبيب ، فقد كانت أميتها أن تموت بين يديه ، وأن يقف على قبرها

يتقبل التعازى فيها . أما فتحة فقد كدرتها فكرة النقل ، فأثائها جديدا ، وهى

تخشى أن يخذش أو يصيبه بعض التلف ، أضف إلى ذلك أن سجاجيدها قد

اشترت لغرف البيت الكبير ، كما فصلت ستائرهما على نوافذه ، وإنه لما

يحزنها ألا تصلح السجاجيد للغرف الجديدة ، أو لا تجد نوافذ بعدد الستائر وأحجامها !

وانتقل الجميع إلى البيت الجديد ، فبان في الوجوه بشر وسرور ، فقد لم الله شملهم ، ولكن فتحة ظلت على كآبتها ، فقد كان السقف منخفضا ، فكان عليها أن تقطب الستائر ، والغرف ضيقة فكان من الضروري قطع « مشمع الأرضية » .

وأخذت فتحة تجوس خلال غرف الشقة الجديدة فتشعر بغيظ ، حتى لتكاد دموعها تطفر من عينها ، فقد كانت بعض الغرف متداخلة ، فكان من اللازم اختراق غرفة للوصول إلى الأخرى ، وما كانت هذه الشقة تقاس بالشقة التي تركتها ، وما كانت فتحة قادرة على أن تفصح عن حقيقة شعورها أمام من في البيت ، فكانت تكظم غيظها وتنتظر حتى تختل بمصطفى ثم تنفجر شاكية وقد تنفس عن غضبها بكلمة أو كلمتين ، فكان مصطفى يتحلم ولا يرد عليها ، يساعده على ذلك التحلم تقديره لعقوبة النساء النافهة ، وإحساسه بالرضا لوجوده بين أهله .

ومرت أيام الصيف الباقية ، وجاء الشتاء ، فتلبدت السماء بالغيوم ، وولولت الرياح ، فدخل الناس في فراشهم مبكرين ، واندس مصطفى وفتحة في سريرهما ، وراحا في سبات ، وما انقضت ساعات حتى هبا من نومهما مذعورين ، فقد كان المطر يتساقط على وجهيهما كأنما صنبور ماء قد فتح ، وانتصبا في وسط الغرفة فألفيا الماء يترجرج تحت أقدامهما ، فجعلت فتحة تبيكي وتندب الفراش الجديد ، وهرع مصطفى إلى شقة أبيه يطلب العون فصعد الجميع يعاونون في تجفيف الماء ، وأظهروا أسفهم ، وظلت فتحة في انتحابها فأقبل عليها حسن يطيب من خاطرها ، وأخذها معه ليحضرها

بقية الليل عنده ، وما أصبح الصباح حتى بعث من يصلح السقف الذى لم يثبت للمطر الغزير .

وانقضت الأيام بهيجة ، وكانت العيشة راضية ، وما كان يعكر صفوها إلا اشتداد مرض الجدة أحيانا ، ونشرت السعادة جناحها على البيت ، وملأت القلوب حتى فاضت على صفحات الوجوه . وأدبر الشتاء وجاء الصيف فأكب مصطفى على دروسه فقد عزم على أن يجتاز آخر امتحان ليخوض معمعان الحياة ليكسب عيشه ويرد لنفسه اعتبارها .

وفى ليلة من الليالى اجتمع الجميع فى شرفة واسعة ، فأحس مصطفى انشراحا فراح يداعب الجدة ويضحك ، وأغرق الموجودون فى الضحك ، وأقبل حسن وأخذ يصلى العشاء فى نشاط فرمقه مصطفى فشعر بسرور يملأ جوانحه فأبوه قد استرد صحته ، وقد ملئ نشاطا .

وانسل الموجودون واحدا فى إثر واحد ، وصعدت فتحية إلى شقتها وبقي مصطفى جالسا وخطر له أن يضرب فى شوارع الحى الهادئة ليلا ، فخرج ليطوف بها ويملا رئيته بالهواء ، ثم عاد فوجد أباه ينتظره ، فحياه تحية المساء ثم صعد إلى شقته .

دخل مصطفى فراشه ، وما كاد يسلم جنبه للرقاد حتى سمع طرقا شديدا فهب مفزوعا وفتح الباب ، فرأى فى الظلام شبعا يصرخ ويكي ويصيح :
— أبوك مات .. أبوك مات .

فملأ رعبا ، وأحس روحه تكاد تسحب منه ، وطاف به ذهول وهبت فتحية من الفراش مفزوعة وهى تصيح :

— ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟

فصاح مصطفى من قلب مطعون :

— مات .. مات ..

ثم راح يهرول في الدرج كالجنون .

دلف من باب الشقة فرأى أباه ممددا على كنية وقد علت وجهه صفرة الموت ، وسليم ييكي حتى يكاد ينصدع كبده من البكاء ، وأمينة تصوت وتصك وجهها في جنون ، وزكية تنتحب وقد بان في وجهها الذهول ، والجدة تصرخ وتولول فتمزق القلوب ، وارتمى مصطفى على جسد أبيه ، وجعل يمرغ وجهه في صدره ، ويهتف :

— أنى .. حبيبي .

وارتفع النحيب ، وراحت أمينة تذرع المكان في خبل وتصيح :

— أمكذا سرىعا ، سعلة واحدة ثم تسلم بعدها الروح ، يا مصيبتنا الكبيرة فيك .

وفتح الباب ، ودخل ممدوح وأسعد وخلفهما الطبيب ، وما أن سمعا النحيب حتى أجهشا بالبكاء ، واتجه الطبيب إلى الجسد الممدود وجعل يفحصه فارتسم في وجهه الأسى العميق ، فقد كان من أصحابه وعارفيه وترك المكان باسر الوجه ، وغمغم :

— انتهى ، قطع الوريد .

وارتفع الصياح ، وأحس مصطفى نارا تشوى جوفه ، فراح يمزق ثيابه ويضرب وجهه يديه ، وهبت زكية الصغيرة من نومها مفزوعة ، وانطلقت مرعوبة حتى وقفت في وسط المكان مذعورة ، وخبئت كل شيء فعوت وصاحت :

— أنى .. أنى ..

ونظر الجميع إلى الطفلة اليتيمة ، فاشتد البكاء والنحيب ، ودخل أحمد

وخلع شال عمامته وجعل يجذبه حول عنقه ويكيى أحر بكاء ، وجاء مختار يلتدم كما تلتدم النساء ، واتجهوا إلى جسد الحبيب وحملوه بينهم والدموع الساخنة تتساقط من العيون . وسجى فى الفراش فجلست الجدة بجواره تولول ، وتمسح بمنديلها فى حنان الدم الذى كان يسيل من فمه .

استمر الأبناء فى بكائهم المرير ، وما كانوا يحسبون أن النهار سيطلع عليهم وهم أحياء ، فقد قضى أبر الآباء ، وشعر مصطفى كأن جدارا قد انهار فى جوفه فمزق أحشائه وفلق كبده ، ونثر قلبه أشلاء . ومرت اللحظات والثوانى والدقائق والساعات فى نشيج ونحيب ، وطال الليل كأن ليس له نهار ، ونزل النبا على الأسرة نزول الصاعقة ، فأقبل الأهل فى جوف الليل مفزوعين .

وطلع النهار ، وهبت ريح حارة تشوى الوجوه ، فقد كان اليوم من الأيام الحارة التى لا يطيق حرارتها إنسان ، فاحتفى الناس فى السرايق الذى نصب أمام الباب .

وفى الساعة الثالثة ، والشمس ترسل أشعتها كألسنة من لهب ، سار المشيعون خلف النعش يتفصد منهم العرق ، ويتململون من الحر ، أما أبنائهم فما أحسوا حرا فقد كانوا فى شغل عنه بالنار المندلعة فى أجوافهم .

وسارت الجنازة فى شوارع القاهرة قاصدة الحسين ، كانت تقطع نفس الطريق الذى قطعه حسن فى أوبته بالأمس إلى بيته تداعبه الآمال ، وما دار بخلفه قط أنه سيعود من نفس الطريق فى الغد محمولا على الأعناق وخلفه قلوب مزقتها الأسى ، ولوعها فداحة المصاب .

وصلى على جسد الحبيب فى الحسين ، وأصر المشيعون على تشييعه حتى قبره ، فاستأنفت الجنازة الهائلة انطلاقها ، حتى إذا ما بلغت المدفن ، انحط

الناس على الكرامى مبهورى النفس ، وقبر حسن ، وعاد أبنائه حيارى مذهولين كركاب سفينة مات قبطانها وتركهم وسط المحيط فى جزع شديد .
وجاء الليل ومصطفى وسليم جالسين مطرقين وقد ارتسم فى وجهيهما الحزن العميق ، وشعرا بالجووع ينهش جوفهما ، فما ذاقا طعاما منذ البارحة ، وكان عليهما أن يقفا الليل الطويل لتلقى تعزية المعزين ، وقام سليم وجذب مصطفى من يده ، فسارا بعيدا عن البيت واشترىا رغيفا وقطعة جبن وحاولا أن يأكلا فلم يسيفا أكلا ، وفى ذلك الوقت كانت أفخاذ اللحم تتسرب من الباب الخلفى إلى بيوت بعض النائحات المتباكيات .

٨٠

أسدلت ستائر سود على المرايا ، وصبغ البياض بالسواد . وارتدى الأطفال ثيابا سودا ، وفكت الأسرة ، وراح الرجال ينامون على الأرض فى غرفة واحدة ، والنساء فى غرفة أخرى ، وكانت الجدة تن فى سكون الليل أنينا يفتت الأكبدة ، ويذيب القلوب ، وتصمرت أيام المأتم الثلاثة ، فخرج ممدوح وأسعد إلى الدكان ، وانقضى النهار وجاء الليل ، وحن ميعد أوبة الجميع . كانت أمينة وزكية والجدة ومصطفى جالسين ساهمين وسمع وقع أقدام فى الخارج فأرهفت الحواس ، فقد كان وقع الأقدام يحاكي وقع أقدام حسن ، ودخل القادمون مطاطلى الرعوس ، كانوا ممدوحا وأسعد وسليم ، وما تلاقت العيون حتى انهمرت الدموع .

وخيم على البيت حزن عميق ، فما كان النسوة يجتمعن حتى يأخذن فى البكاء والنحيب ، وكان مصطفى يمضى نهاره فى البيت فما كان يرى

إلا العبرات والدموع فينصهر قلبه ويظل في وجوم . وفي يوم رأى أن يخرج إلى الطريق المجاور للبيت الذى يضرب في جوف الصحراء ، وما سار فيه خطوات حتى أحس روح أبيه تشاركه السير فأخذ يناجيه ، وشعر بسكينة تنزل قلبه فاستمر في سيره ومناجاته لا يحس ما حوله ولكنه يشعر بروح أبيه تملأ عليه المكان .

سار مصطفى يتجه كل صباح إلى ذلك الطريق ، فقد أصبحت مناجاته لأبيه عزاءه الوحيد ، كان يقص على الروح كل ما يلاقونه من صعب ويستلهمها الصواب ثم يعود إلى البيت ليفعل ما يرضى أباه الحبيب .

وفي يوم خطر له أن يذهب لزيارة قبر أبيه ، وما كان اليوم من الأيام التى يزور فيها الناس القبور ، فانطلق في طرق هاجعة ، سكونها يخلع القلوب ، حتى إذا ما بلغ المدفن ألقي الباب موصدا ، والكون في صمت عميق ، فقبض على حديد الشباك بيديه وتصلبت أعصابه ، فهتف في صوت تخنقه العبرات :
— أئى .. أئى .

وهام على وجهه يبكى وحده ، ثم تلفت يبحث عن روح أبيه فلم يشعر بوجودها لتكفكف دمعته ، فاستمر يذرف الدموع حتى إذا ما بلغ الدار صرخ صراخ المفزوع وارتعى على الأرض يضربها بيديه ، وهرعت أمه إليه تبكى من قلب مقطوع .

وفي صبيحة اليوم التالى خرج إلى الطريق المعهود ليناجي روح أبيه ، ولكنه لم يحس بها تشاركه في سيره ، فعاد إلى البيت حائقا منقبضا ، وعزم في نفسه أن يخرج في العصر لزيارة الحسين كما كان يفعل مع أبيه .

اجتاز رصيد الحسين وقد امتلأ خشوعا ، وأجال عينيه في المكان كأنما يبحث عن عزيز ، ووقع بصره على المكان الذى كان يجلس فيه مع أبيه فأحس

غصة في حلقه ، والدمع يترقرق في مآقيه ، وسار إليه وجلس مطرقا يحتر ذكرياته ويمسح بظهر يده عبراته ، وما أفاق من إطراره إلا على صوت المؤذن يدعو الناس للصلاة فقام يصلى وقد ترك بجواره فرجة لأبيه .

ودخل فراشه ونام ، ورأى أباه في ثياب بيض يقول له : « لست مدفونا في مقابركم ، إننى مدفون في مسجد السيدة زينب ، إن أردت أن تزورنى فتعال إلى هناك » وهب من نومه ، وشعر بحنق لاستيقاظه فقد حرم من رؤية أبيه في الدنيا فكان يرجو أن ينعم به طويلا في الأحلام . وفي اليوم الثانى ذهب إلى مسجد السيدة زينب وجلس مطرقا يناجى روح أبيه وهو لا يدرى في يقظة هو أم في منام .

ومرت الأيام وتوهمت أمينة أن مركزها في الأسرة قد تزعزع بعد موت حسن ، فعزمت في قرارة نفسها أن تدافع عن هيتها ، فما أبدت فتحية تدمرها من البقاء في شقتها حتى ثارت أمينة وهددت وقالت إنها لن تسمح لأى كائن أن يفرق بين أبنائها أبدا ، ولكن ما انقضت أيام حتى كانت أمينة وممدوح وسليم والجددة وزكية أول من ترك البيت المشؤم فقد انتقلوا إلى شقق كانت خالية في بيت سكيته .

ووجد أسعد شقة في الحى القديم في بيت أمام البيت الكبير فانتقل إليها ، وبقي مصطفى وفتحية وحدهما . فكر مصطفى في أن يعود إلى البيت الكبير وأيدت فتحية تلك الفكرة ، فستأثرها فصلت على شبابه ، وأثأثها أسس ليفرش في غرفة ، ولكن أمينة أقسمت ألا تدخل ذلك البيت أبدا ، وهددت بعدم زيارتهما لو سقط أحدهما مريضا ، فهجرا الفكرة مضطرين .

وخلت شقة في البيت الذى سكنه أسعد ، فانتقلا إليها ، ولو أن أسعد وزوجه وأبناءه كانوا يمضون بعض الوقت عندهما إلا أن مصطفى كان يشعر

بوحدة ، إنه لم تعود أن يعلق عليه بابه ، فكان إذا ما جلس في الشرفة في الليل يحس وحشة ، وكان يرى البيت الكبير كل يوم وكل ساعة ، فيذكر الأيام السعيدة التي قضاها فيه ، فيحس نحوه حنانا ، ومرت الأيام وازداد مصطفى ضيقا فقد كان يتمنى أن تعود الأيام التي كانوا فيها جميعا مجتمعين ، فلم يعد يرى ممدوحا وسليما وأمه وأخته إلا لاما . لماذا يحكمون على أنفسهم بالفرقة . كانوا جميعا يتمنون العودة إلى البيت الكبير ، ولكن ما كان أحدهم يجرؤ على البدء بالعودة ، فقر رأى مصطفى على أن يكون البادئ ، وأن يتحمل الثورات المفتعلة .

وفي ليلة من الليالي جلس مصطفى وأسعد يتحدثان فقال مصطفى :

— سأعود إلى البيت الكبير أول الشهر .

— ستغضب أمك .

— لا أظن .

— أقسمت ألا تدخل هذا البيت أبدا .

— مجرد أقوال .

— دع هذه الفكرة فاليوت كثيرة .

— حتام سنبقى هكذا متفرقين ؟

فأطرق أسعد وذلك أنفه ، وكان هذا طبعه إذا ما فكر ، وأراد مصطفى أن يغريه فقال له :

— تعال معي ولن يحدث شيء .

— لا . اذهب أنت ، فإذا زارتكم أمنا ، جئت بعدك .

وانتقل مصطفى إلى البيت الكبير ، فثارت نائرة أمينة وأرغت وأزبدت وأقسمت ثانية بأنها لن تضع قدمها أبدا على وصيد البيت الذي خرج منه

حسن مقهورا ، فانكمش أسعد ولم يبال مصطفى ذلك التهديد كثيرا .
وكرت الأيام وفي ليلة من الليالي هرع مصطفى إلى شقة أمه وزكية
وسكينة جالسات فقال لأمه في لهفة :

— تعالى ، فتحية تضع .

فتململت الأم ، وأظهرت استياء ، والتفتت إلى زكية وسكينة وقد قطبت
جبينها ، فقالتا في رجاء :
— لابد من ذهابك .

وكانتا صادقتين في رجائهما فإن التى تضع بنت أخيهما .
ودخلت أمينة البيت ، طائعة أو كارهة ، فشجع ذلك أسعد ، فما انقضى
شهر حتى كان أسعد يحتل شقة من شقق البيت الكبير ، وبقيت الأم بعيدا ،
وكانت ترجو أن تجد عذرا مقبولا لتعود ، وقد جاءها ذلك العذر ، فقد وعك
أسعد وعكة خفيفة ، فقالت :

— لا أستطيع أن أدع الأولاد وحدهم .

وعادت أمينة إلى البيت الكبير ، والتأم جمعهم ، وتكاتفوا لتنشئة جيل
جديد .

رقم الإيداع ٢٠٠٨
الترقيم الدولي ٤ — ٣٤٧ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثن ٧ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه